

تأليف
نخبة من الباحثين العراقيين

الجزء السادس

بغداد ١٩٨٤

العصور العربية الإسلامية

(٢)

التنظيمات السياسية والادارية

الفصل الأول

الخلافة

نشأتها وتطوراتها سنة ١١ ـ ٦٥٦ هـ

د. هاشم يحيى الملاح
كلية الآداب ـ جامعة الموصل

نشأة الخلافة

لقد واجه المسلمون بوفاة الرسول (ص) ازمة قاسية على الصعيدين الديني والسياسي وذلك لان الرسول لم يكن نبيا فقط بل كان قائدا ورئيسا للدولة العربية الاسلامية الناشئة ، ونظراً لان القرآن الكريم قد قرر ان الرسول (ص) هو « خاتم النبيين » ومن ثم فلا يجوز لاحـد ان يخلفه في مركزه الديني والتشريعي فقد اتجهت الانظار الى محاولة اختيار من يخلفه في مركزه السياسي في « حراسة الدين وسياسة الدنيا » .

وقد بادر الانصار الى الاجتماع في سقيفة بني ساعدة للتشاور في امر اختيار من يخلف الرسول (ص) في قيادة الدولة وقد انضم الى هذا الاجتماع مجموعة من كبار المهاجرين ، وبعد مداولات مطولة تـم انتخاب ابي بكر الصديق ليكون خليفة ، وقد سمي بهذا الاسم لانه خلف الرسول (ص) في مجال قيادة الامـة .

وقد تمت البيعة العامة لابي بكر في المسجد في اليوم التالي حيث عاهده الناس على السمع والطاعة عن طريق المصافحة بالايدي وفقا للتقاليد العربية في مبايعة الامير ، ثم قام ابو بكر الصديق بالقاء خطبة حدد فيها النهج الذي سيلتزمه في سياسته وكان مما جاء فيها (أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان احسنت فاعينوني وان أسأت فقوموني • الصدق امانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ حقه والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه ان شاء الله ، لا يدع احد منكم الجهاد فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالذل اطيعوني ما اطعت الله ورسولـه فان عصيت الله فـلا طاعة لي عليكم) •

يستنتج من هذه الخطبة التي القاها اول خليفة ما ياتي :

١ ــ ان الخليفة هو شخص اعتيادي من المسلمين وهــو بالتالي لا يمتلك سلطات روحية متميزة عن غيره من الناس (قد وليت عليكم ولست بخيركم) •

٢ ــ ان الخليفة هو وكيل عن الامة في الدفاع عن الصالح العام وبالتالي فعلى الامة مراقبته اثناء القيام بواجباته فان احسن فعليهم (معاونته) وان اساء فعليهم (تقويمه) •

٣ ــ ان من واجبات الخليفة اقامة العدالة بين الناس والجهاد في سبيل الله •

٤ ــ ان الخليفة ليس حاكما مطلقا من الناحية التشريعية بل هو مقيد باحكام القانون المتمثلة بالقرآن والسنة في ذلك الوقت •

لقد عمل ابو بكر الصديق في فترة حكمه القصيرة على المحافظة على وحدة الدولة من خلال محاربته للمرتدين ، كما توجه الى تحريــر العــراق والشام من التسلط الساساني والبيزنطي ثم قام قبيل وفاته بالعهد الى عمر ابن الخطاب (رض) بمنصب الخلافة ، ويبدو ان الدافع الذي جعل ابا بكر

يسيل الى اختيار خلفه قبيل وفاته هو خوفه من الانقسام الذي قد يصيب الامة في وقت كانت توشك ان تخوض فيه حروبا حاسمة ضد الفرس الساسانيين والروم البيزنطيين ومع هذا فقد قام باستشارة بعض الصحابة واخذ رأيهم في العهد لعمر بمنصب الخلافة .

وكان عهده لعمر في ذلك الحين بمثابة ترشيح لهذا المنصب لان تعيينه كان يتطلب اقبال الناس على مبايعته (بالبيعة العامة) وفي ذلك يقول ابن تيمية ان (عمر لما عهد اليه ابو بكر انما صار اماما لما بايعوه واطاعوه ولو قدر انهم لم ينفذوا عهد ابي بكر ولم يبايعوه لم يصر اماما) . ويبدو ان هذه الطريقة في تداول السلطة لم تكن غريبة على التقاليد العربية في اختيار الرئيس. وفي ذلك يقول آرنولد (عندما تكون وضعية فرد على درجة من الرفعة تعينه ليكون الخلف النهائي لرئيس القبيلة الراحل فانه من الثابت ان رجلا كهذا قد يحل محل الرئيس المتوفى من غير حاجة الى مراسيم وعلى بقية القبيلة ان تعبر عن موافقتها بقسمها يمين الولاء له) .

لقد واصل عمر بن الخطاب انتهاج سياسة سلفه في حروب التحرير فاكمل تحرير العراق والشام وانشئت في عهده مدينة البصرة والكوفة في العراق كما قام بتنظيم ديوان خاص بالجيش .. وقد عرف عنه حرصه الشديد على اقامة العدالة في المجتمع وتحقيق مثل الاسلام العليا وقد تلقب عمر بن الخطاب بلقب (امير المؤمنين) لانه كان قائدا اعلى لامراء الحرب الذين كانوا يقودون الجيوش في حروب التحرير اضافة الى قيادته لمجموع المؤمنين .

لقد انتهى حكم الخليفة عمر بن الخطاب حينما اغتاله مولى فارسي اسمه ابو لؤلؤة اثناء ادائه صلاة الصبح في المسجد وقد قام قبيل وفاته بوضع صيغة لاختيار من يخلفه في منصب الخلافة تقوم على تحديد ستة من كبار الصحابة لانتخاب الخليفة من بينهم وكان هؤلاء الستة : (علي بن ابي طالب

وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن ابي وقاص والزبير بن العوام وطلحة بن عبد الله) ٠

وقد اوضح لهم عمر بن الخطاب اسباب اعتماده هذه الطريقة لاختيار الخليفة بقوله : (اني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الامر الافيكم ، وقد قبض رسول الله (ص) وهو عنكم راض اني لااخاف عليكم ان استقمتم ولكني اخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس) ٠

لقد انتخب عثمان بن عفان (رض) من بين المرشحين آنفي الذكر لتولي منصب الخلافة وقد سارت الامور في النصف الاول من عهده بصورة حسنة ولكن الصعوبات والمشاكل اخذت تبرز وتتشابك خلال النصف الثاني من حكمه وربما كان ذلك راجعا الى ظهور آثار التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي اصابت بنية المجتمع والدولة نتيجة لحروب التحرير والفتوحات الكبيرة والتي كان منها ظهور بعض التوترات والتأزمات بين اهل الحجاز وسكان الامصار ٠

لقد كان المطلوب اجراء تغيرات جريئة وحازمة على سياسة الدولة وتنظيماتها لمواجهة الموقف ولكن الخليفة عثمان لم يستطع اجراء مثل هذه التغيرات فانفجرت الفتنة في وجهه وادت الى مقتله على ايدي الخارجين عليه من اهل الامصار وقد كان ذلك حدثا خطيرا بالنسبة لنظام الخلافة وتطوره (فمنذ ذلك الحين صار للسيف القول الفصل في امر رئاسة الحكومة ٠٠ وفتح باب الفتنة ولم ينسد بعد ذلك ابدا انسداد تاما) ٠

لقد انتخب اهل المدينة ومن حضر فيها من اهل الامصار علي بن ابي طالب (رض) لتولي منصب الخلافة في ظروف عصيبة جدا وقد جاهد طوال حكمه من أجل المحافظة على وحدة الامة وتماسكها وقد اضطر من اجل ذلك الى نقل مركز حكمه من المدينة الى الكوفة ليكون قريبا من مركز الاحداث

ولكن دون جدوى ، واخيرا أغتيل على يد أحد « الموالي الفرس من الخوارج وهو عبدالرحمن بن ملجم » بينما كان في طريقه لاداء صلاة الصبح في المسجد •

لقد انتهت بوفاة علي بن ابي طالب (رض) الفترة المثالية من عهد الخلافة والتي عرفت بفترة حكم الخلفاء الراشدين •

طبيعة حكم الخلفاء الراشدين

لقد ورث الخلفاء الراشدون سلطات الرسول (ص) التنفيذية في قيادة الجيوش والقضاء بين الناس كما انتقلت اليهم سلطاته المالية في جباية الزكاة وتوزيع العطاء على المستحقين كما مارسوا بعض اعماله الدينية كامامة الصلاة في المسجد وخطبة صلاة الجمعة •

اما سلطات الرسول (ص) التشريعية فلم يدع احد ان له الحق في ممارستها لانها مرتبطة بنبوته وتلقيه الوحي من عند الله، أن اقصى ماكان يملكه الخلفاء في هذا المجال هو الحق في تفسير نصوص القرآن والسنة وهم في هذا يستوون مع غيرهم من اصحاب رسول الله (ص) واتباعه الذين يمتلكون القدرة على التفسير والاجتهاد ، أما في المجالات التي لم ترد فيها نصوص فكان للخليفة حرية اصدار القرارات والتنظيمات التي تكفل في رأيه تحقيق المصلحة العليا للمجتمع •

ولم يكن الخليفة مقيدا في ممارسة سلطاته بمجلس او هيئة معينة ولكنه كان يشاور بعض كبار الصحابة كما جرت العادة عند العرب وفي عهد النبي على وجه الخصوص ولكن لم يكن لهذه الشورى نظام محدد يحكمها من من حيث تحديد من هم اصحاب الحق في الشورى وكيف يستشارون وفي أي القضايا وهل الشورى ملزمة للخليفة او لا •• لقد كان الخليفة حرا في كيفية ممارسته للشورى الى ابعد الحدود •

لقد كان النظام القانوني للخلافه في العهد الراشدي في بدايات تكوينه بسيطا فقد اتسم بالبساطة وعدم التعقيد وكان الخليفة وهو يمارس سلطاته اقرب الى شيخ القبيلة العربية منه الى رئيس دولة كبرى حتى ان ابا بكر الصديق قد استمر بعد مبايعته بالخلافة لمدة ستة اشهر يعمل بالتجارة كما كان يعمل قبل توليه لمنصب الخلافة ثم وجد ان ذلك يتعارض مع مسؤولياته الجديدة فتفرغ لها وطلب من المسلمين ان يحددوا له مرتبا سنويا لتغطية نفقات معيشته .

ومن الملاحظ ان خلافة الراشدين قد قامت على اساس الانتخاب ولكن طريقه الانتخاب لم تكن واحدة (فقد كانت حينا انتخابا مباشرا وحينا بتسمية تسبقها معرفة رأي الناخبين ويتلوها قبولهم بالبيعة ومرة انتخابا يقوم به الزعماء وهو في جميع الحالات يقتصر بالدرجة الاولى على المدينة) مما يدل على محاولة الخلفاء العثور على صيغة تناسب ظروف الدولة المتطورة لتداول السلطة .

وقد امتزجت في خلافة الراشدين التقاليد العربية والمثل الاسلامية ففكرة الانتخاب وطرقها والبيعة وشكلها ، وبعض الصفات التي يتمتع بها الخليفة كالتجربة والسن والنفوذ قد اخذت عن التقاليد العربية بينما اخذ عن القيم الاسلامية سلطات الخليفة وواجباته وجانب من صفاته كالتفقه في الدين كما ان تسميات (خليفة ، امير المؤمنين ، امام) هي تسميات اسلامية بحتة .

الخلافة في عهد بني امية

لقد كان معاوية بن ابي سفيان اول من تولى منصب الخلافة من بني امية وقد توصل الى المنصب عن طريق السياسة والسيف ثم جاءت البيعة لتقرر الامر الواقع وبذلك لم يأخذ من اسلوب الانتخاب الا شكله ومع هذا فقد سلم الناس بخلافة معاوية تفاديا للانقسام وحفاظا على وحدة الامة .

وقد اتخذ معاوية من دمشق عاصمة لحكمه واستمرت كذلك حتى نهاية العصر الاموي ويبدو ان البيئة الجديدة والتجارب التي مرت على الخلافة في العهد الراشدي قد جعلت معاوية يتخذ لنفسه بعض الرسوم الملكية فأنشأ حرسا خاصا لحمايته وجعل لنفسه مقصورة في المسجد واصبح يصلي فيها منفردا كما اتخذ سريرا للملك يجلس عليه واقام حجابا يحجبه عن الناس وينظم دخولهم عليه • اما على مستوى الادارة فقد وضع نظاما خاصا للبريد وانشأ ديوان الخاتم لتنظيم المراسلات •

ان اخطر ما قام به معاوية هو العهد لابنه يزيد بمنصب الخلافة لانه خرج بذلك على التقاليد العربية والسوابق الاسلامية في اعتماد قاعدة الانتخاب في اختيار الخليفة وقد برر معاوية عمله بانه يستهدف تجنيب الامة اسباب الخلاف والفتنة التي تحصل عند موت كل خليفة ولكن حجته هذه لم تكن مقنعة اذ لو كان الامر كذلك لعهد لاصلح افراد الامة بالخلافة بغض النظر عن قرابته له كما فعل ابو بكر حينما عهد لعمر او كما فعل عمر حينما حصر الخلافة في ستة من زعماء الامة لاختيار احدهم لمنصب الخلافة • ان معاوية قد وضع الاساس لتحويل الخلافة الى منصب وراثي بعد ان كان منصبا انتخابيا وبذلك تحولت الخلافة الى نوع من الملكية •

لقد قوبل عمل معاوية في العهد لابنه يزيد باستنكار من قبل معظم زعماء وافراد الامة ولم يؤيده في عمله هذا الا بنو امية وانصارهم في بلاد الشام ورغم حرص الاسرة الاموية على الاحتفاظ بمنصب الخلافة لانفسهم الا ان نظام الوراثة لم يستقر طوال العهد الاموي على قاعدة ثابتة وقد استمر التنازع في هذا العهد بين ثلاثة مبادىء : هي المبدأ الاسلامي الذي يؤكد على ضرورة اختيار اصلح المسلمين وافضلهم لمنصب الخلافة والمبدأ القبلي الذي يعترف بسيادة القبيلة او الفخذ ويقبل باختيار اقدر افرادها من حيث الحنكة والخدمة

والتجربة ومبدأ الوراثة المباشر من الاب الى الابن•ويعتبر موقف معاوية الثاني من وراثة الخلافة خير دليل على الصراع بين هذه المبادىء فهو قـد تسلم الخلافة عن كره ورفض ان يعهد لأخيه خالد بالخلافـة وتوفي دون ان يعهد لاحد بهذا المنصب •

وقد تصارعت هـذه المبادىء الثلاثة بعد وفاة معاوية الثاني بقوة فقد جاهد ابن الزبير من اجل تولي الخلافة استنادا الى المبدأ الاسـلامي وعمل مروان بن الحكم على تولي الخلافة استنادا على المبدأ القبلي لانه احق بني امية بالخلافة وان كان ليس من اسرة ابي سفيان وكافح خالد بن يزيد لاحتلال منصب الخلافة استنادا الى قاعدة الوراثة وكانت النتيجة فـوز مروان بن الحكم بالخلافة لنسبه وخبرته وسنه •

وقد استمر التنازع بين المبدأ القبلي والمبدأ الوراثي في داخل البيت الاموي طوال مدة حكمهم ولم يستقروا على احدهما حتى النهاية ، أمـا حركات المعارضة فكانت ترفع المبدأ الاسلامي شعارا لها في معارضة حكم بني امية وان اختلفت في مفهومها لمن يعتبر اصلح المسلمين للخلافة •

لقد ادى استناد الامويين في حكمهم على قاعدة الوراثة الى اعتمادهم على بني امية وحلفائهم في الحكم مما ضيق القاعدة الشعبية للحكم وجعلهـا مقصورة على بعض القبائل العربية فانفسح المجال واسعا امام الصراع القبلي في الدولة كما ان حرص الخلفاء الامويين على كسب شيوخ القبائل جعلهم يتصرفون كأنهم شيوخ قبائل عربية من حيـث مراعاتهم التقاليد والاعراف القبلية في حكمهم وادارتهم للدولـة •

أن ماتقدم ادى الى نقمـة اغلبية الفقهاء علـى بني امية حيث اعتبروا خلافتهم ملكا دنيويا مما اضعف فرص التفاعل بين فكر الفقهاء وتجربة الخلفاء فاصبحت نظرة كل منهما بعيدة عن الاخرى ومع ذلك فقد حـرص الخلفاء

الامويون على القيام بالواجبات الدينية كامامة الناس في الصلاة والقاء الخطبة يوم الجمعة كما اشتهر بعض خلفائهم بالتدين الشديد كمعاوية الثاني وعمر ابن عبد العزيز بل ان هذا الاخير حاول التقرب من الفقهاء وسائر احزاب المعارضة للحكم الاموي وتبنى سياسة تخالف السياسة التي درج عليها اسلافه واعتبر جميع المواطنين متساوين في الحقوق والواجبات . لقد رأى عمر بن عبد العزيز (ان استمرار الامبراطورية يقتضي اولا انصهار جميع القبائل العربية في كيان الامبراطورية ومن ثم انصهار مختلف العناصر والجنسيات الاخرى مع العرب بمجتمع اسلامي موحد) وربما كان من سوء الحظ ان هذه السياسة لم يقدر لها ان تسود بسبب وفاة عمر بن عبد العزيز المبكرة وعدم متابعة الخلفاء الامويين اللاحقين لها .

وفي ختام الحديث عن الحكم الاموي للدولة العربية الاسلامية لابد من ملاحظة ان الخلفاء الامويين قد نجحوا في توسيع حدود الدولة عن طريق الجهاد فاصبحت تمتد من المحيط الاطلسي غربا حتى بلاد الهند شرقا ومن بلاد الاناضول وفرنسا شمالا حتى البحر العربي والصحراء الكبرى جنوبا ولم يقدر لهذه الدولة ان تتجاوز هذه الحدود من بعدهم بل انها اخذت بالتجزئة والانكماش كما ان الخلفاء الامويين شرعوا في تعريب دواوين الدولة والنقود والطراز منذ عهد عبدالملك بن مروان مما ساعد على انتشار واستقرار اللسان العربي في جميع اقاليم الدولة وأثار حفيظة المتعصبين من الاعاجم ضدهم .

الخلافة في العصر العباسي

لقد نجح العباسيون في تجميع الفئات المناوئة للحكم الاموي تحت قيادتهم لانهم استطاعوا تفهم مطالب هذه الفئات ورفع الشعارات التي تتجاوب مع تطلعاتها فقد رفعوا شعار (الدعوة الى الرضا من آل محمد) لارضاء

الفئات التي ترى ان الامويين مغتصبون للخلافة وان آل البيت هم احق الناس بها ودعوا الى العدل والمساواة كما دعوا الى الحكم بكتاب الله وسنة رسوله لارضاء بعض الفقهاء وغيرهم ممن كانوا يتهمون بني امية بعدم مراعاة احكام الدين في سلوكهم وحكمهم .

تسلم العباسيون الخلافة سنة ١٣٢ هـ/٧٤٩ م واستمروا على رأس السلطة حتى سقوط الدولة في سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م اي انهم حكموا ٥٢٤ سنة ، وقد اتخذوا من العراق قاعدة لحكمهم ومن بغداد التي بدأ ابو جعفر المنصور بتشييدها في سنة ١٤٥ هـ عاصمة اساسية لهم .

لقد اقام الخلفاء العباسيون حكمهم على الاسس الآتية :

١ - الوراثة في الحكم

لقد تجاوز العباسيون تماما فكرة انتخاب الخليفة سواء في صيغتها الاسلامية العامة التي تدعو الى اختيار اصلح المسلمين ليكون خليفة ام في صيغتها القبلية التي تدعو الى اختيار اصلح افراد القبيلة او البيت الحاكم لتولي الخلافة وقرروا اعتماد قاعدة الوراثة في الحكم وقد حاول ابو العباس اول الخلفاء العباسيين تقديم تبرير شرعي لهذه القاعدة بقوله لقد (خصنا الله برحم رسوله (ص) وانبتنا من شجرته .. وانزل بذلك كتابا فقال فيه « قل لا أسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى » قاصدا بذلك الى ان الله فرض على المسلمين ان يرث رسوله اقرباؤه) .

وقد ترتب على مسألة تبني الخلافة العباسية لمسألة الوراثة في الحكم ان اثيرت مسألة ولاية العهد حيث سار الخلفاء العباسيون على نفس الخطى التي سار عليها الامويون من قبلهم ووقعوا في نفس اخطائهم فأتبعوا اسلوب العهد لاكثر من واحد فقد عهد ابو العباس بالخلافة لاخيه ابي جعفر المنصور ثم الى ابن اخيه عيسى بن موسى فلما آلت الخلافة الى المنصور حاد عن خطة

الوراثة المباشرة فنحى ابن اخيه عيسى وعهد لابنه المهدي بالخلافة على ان يتولى عيسى من بعده ولكن المهدي قام حين تولى الخلافة بخلع عيسى وبايع ولديه الهادي ثم الرشيد وقد حاول الهادي حين تسلم الخلافة ان يخلع اخاه هارون ويبايع لابنه جعفر ولكن وفاته حالت دون ذلك وحينما جاء هارون الى الحكم عهد لاولاده الثلاثة الامين والمأمون والقاسم وقسم البلاد بينهم فخص الامين بالعراق وخص المأمون بالشرق وجعل مركزه مرو والقاسم بالغرب واعطى كلا منهم الفرصة للدفاع عن حقه مما ادى الى الفرقة وقيام الفتن والحروب الداخلية وهكذا فقد كان العصر العباسي عصر صراع مستمر في الاسرة الحاكمة بين مبدأ العهد لاكثر من واحد ورغبة كل خليفة في ان يخلفه ابنه في الحكم •

٢ ـ الاستناد الى الدين في الحكم

لقد حاول الخلفاء العباسيون ان يظهروا تمسكهم بالدين واستنادهم الى احكامه في ادارة البلاد فقد قال داود بن علي يخاطب الناس عند البيعة لابي العباس (لكم ذمة الله وذمة رسوله وذمة العباس ، ان نحكم فيكم بما انزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير فيكم بسنة رسوله) • لذا فقد اخذ الخلفاء العباسيون يحيطون انفسهم بالفقهاء ويظهرون تمسكهم بالدين وقد اوصى المنصور المهدي بقوله (واهل الدين فليكونوا اعضادك) • على ضوء ما تقدم فقد اقام الخلفاء العباسيون صلة مباشرة بينهم وبين الفقهاء والقضاة واخذوا يعينون القضاة بأنفسهم ولم يتخلوا عن هذا الحق حتى نهاية الدولة العباسية ، كما استحدثوا منصب قاضي القضاة للاشراف على اعمال القضاة وتنظيمها كما انشأوا قضاء المظالم وهو نوع من القضاء الاداري الذي يستهدف انصاف المظلومين وخصوصا اذا كان الظالم من رجال الادارة وكان الخلفاء يباشرون هذا النوع من القضاء بانفسهم او يخولون احد الوزراء النظر فيه بالنيابة عنهم •

لقد ترتب على هذه السياسة ان ارتفعت مكانة الخلفاء في نظر العامة واخذوا ينظرون اليهم باعتبارهم حماة للدين والشريعة واخذ الفقهاء والمتكلمون يتنافسون للحصول على تأييد الخلفاء لمذاهبهم ووجهات نظرهم • وقد افلح المعتزلة في اقناع المأمون بوجهة نظرهم في (مسألة خلق القرآن) فأنحاز الى جانبهم ضد مدرسة اهل الحديث مما جعل الدولة تتخذ لها (سياسة دينية) وتحاول فرضها على من خالفها وقد استمرت هذه السياسة حتى عهد المتوكل الذي غير موقفه من هذه المسألة فانحاز الى اهل الحديث ضد المعتزلة على ان سياسة التدخل في الاجتهادات الدينية من قبل الخلفاء العباسيين لم تكن سياسة عامة ولم تستمر •

وقد اتخذ الخلفاء العباسيون بعض الشارات والرسوم لتاكيد تمسكهم بالدين ومتابعتهم لسياسة الرسول (ص) فاخذ خلفاؤهم يرتدون بردة النبي في المناسبات العامة كصلاة العيدين والجمعة وحين اعلان الجهاد كما تلقب خلفاؤهم منذ عهد المأمون بلقب (امام) لتأكيد الصفة الدينية لمنصب الخلافة واخذ خلفاء بني العباس يبينون ان سلطاتهم مستمدة من الله وليس من الناس • قال ابو جعفر المنصور في خطبة له بمكة :

(ايها الناس انا سلطان الله في إرضه اسوسكم بتوفيقه وتسديده فارغبوا الي وسلوه ان يوفقني للرشاد والصواب وان يلهمني الرأفة بكم والاحسان اليكم) • لقد ادى هذا المفهوم لطبيعة منصب الخلافة الى وصف الخليفة بانه (خليفة الله) وليس مجرد خليفة رسول الله او خليفة المسلمين كما وصف الخليفة بانه (حبل ممدود بين الله وخلقه) أي الواسطة بين الله والناس ومن ثم فقد اخذ بعض الناس ينظرون الى الخليفة على انه فوق مستوى البشر لانه من الشجرة النبوية المباركة التي اصلها ثابت وفرعها في السماء وان الخلافة تبعا لذلك ستبقى في بني العباس الى الابد •

٣ ـ المساواة بين الاقوام ووحدة الامة :

لقد رفعت الثورة العباسية شعار المساواة بين المسلمين في مواجهة الحكم الاموي ولذا فقد ازداد اشراك الموالي في الادارة والجيش خلال العصر العباسي على أمل تحقيق وحدة الامة من خلال تشجيع التعاون والتفاهم بين مختلف العناصر التي تتألف منها .

لقد اشرك العباسيون ارستقراطية الفرس في الحكم والادارة فاتخذوا منهم الكتاب والوزراء ولكن هؤلاء استغلوا مناصبهم لابقاء الوضع الطبقي في ايران على ماكان عليه من اجل المحافظة على امتيازاتهم الخاصة مما سبب التذمر وابعد جماهير الناس عن تأييد الخلافة العباسية واوجد الجو الملائم لقيام الثورات والامارات المستقلة عن الخلافة العباسية .

أما على المستوى الاقتصادي العام في الدولة فقد رافق قيام الدولة العباسية في عهدها الاول ازدهار التجارة وتوسع المدن التجارية في الشرق الاسلامي مما كان يتطلب ان تقوم الخلافة العباسية باعادة تنظيم نفسها (لافساح المجال امام بناء اقتصادي يتم فيه الاستغلال التجاري الامثل لمصلحة المعنيين جميعا . كان لابد من نظم ضرائبية جديدة لتوزيع عبء الضرائب بالتعادل بين سكان المراكز التجارية المدنية المزدهرة من جهة والمجتمعات الزراعية البائسة من جهة ثانية . ان المصالح الراسخة في المدن استغلت قوتها السياسية لمعارضة مثل هذه التدابير فلم يكن امام هذه المجتمعات الريفية أي بديل اخر غير الثورة في وجه هذا الظلم المتواصل).

لقد حاولت الخلافة العباسية معالجة الوضع الاقتصادي من خلال

استحداث نظام الحسبة للاشراف على الاسواق ومراقبة الخدمات في المدن ولكن ذلك لم يكن كافيا لمعالجة الموقف مما افسح المجال للقوى المحلية والبيرقراطية الادارية آنفة الذكر المتمثلة في الوزراء وكتاب الدواوين واعوانهم للعمل لا من اجل ربط مصالحهم بمصالح الدولة العامة وتحقيق الاندماج بين مختلف الاقاليم وانما من اجل زيادة استقلالية هذه الاقاليم والمنافسة مع المركز في تحقيق المزيد من المكاسب في مجال التجارة الداخلية والخارجية مما ساعد في النهاية على انفصال هذه الاقاليم عن مركز الخلافة .

وقد ادى اعتماد الخلافة العباسية على وزراء وكتاب من اصول فارسية الى محاولتهم ادخال القيم والتقاليد الفارسية الى مؤسسات الدولة فشجعوا الخلفاء على الاستبداد والاحتجاب عن الرعية كما عملوا على احاطة شخص الخليفة بالقداسة والرهبة وجلس الى جانبه الوزير والسياف لادخال الرعب في نفوس الناس كما ظهرت الازياء الفارسية في البلاط العباسي واحتفل بالنيروز والمهرجان والرام وغيرها من الاعياد الفارسية كما اعتمدت المراسيم التي لا تتفق مع التقاليد العربية والاسلامية اثناء استقبال الخليفة للناس فكان على الداخل على الخليفة ان ينحني ويقبل الارض بين يديه واذا كان الداخل من المقربين او رجال الدولة البارزين قبل رداء الخليفة .

ان المظاهر آنفة الذكر هي التي حملت الجاحظ على القول (ان دولة بني امية عربية ودولة بني العباس اعجمية) ولكن هذه المظاهر لا ينبغي ان تبعدنا عن تلمس حقيقة ان السلطة العليا في الدولة العباسية وخصوصا في العصر العباسي الاول كانت بيد الخليفة وهو عربي وان كثيرا من المواقع الاساسية في الدولة كانت بأيد عربية لذا فان الخلفاء العباسيين لم يلبثوا ان تخلصوا من وزرائهم وكتابهم الفرس حينما اكتشفوا سوء استغلالهم لمناصبهم كما حصل لابي سلمة الخلال وابي مسلم الخراساني والبرامكة كما ان الخلفاء العباسيين لم يتوانوا عن مطاردة الزنادقة والشعوبيين وجلهم من اصل فارسي

حينما استغلوا التسامح والحرية التي منحت لهم في الانتقاص من قدر العرب والاساءة الى الاسلام والعمل على اعادة امجاد فارس القديمة وتوظيفها من اجل محاربة العروبة والاسـلام •

٤ ـ الجيش

لقد كان الجيش هـو الاداة الرئيسية التي اوصلت بني العباسـ الى الخلافة واعتمدوا عليها في الحكم وكان يتألف في البداية من الجند الخراساني الذي تكون من ابناء القبائل العربية الذين استوطنوا في مرو منـذ الفتح العربي لهذه البلاد وبعض الموالي من الفرس الذين اعتنقوا الاسلام واخذوا يتطلعون الى التسوية مع العرب في العطاء •

لقد كان تماسك الجيش وانضباطه في عهد الخلفاء الاوائل احد اسباب قوة الدولة العباسية ووحدتها ولكن حينما انقسم الجيش بسبب الصراع بين الامين والمأمون على الخلافة لم يعد بامكان الخلفاء وضع ثقتهم بالجيش حسب تكويناته القديمة لذا فقد انشأ المامون بعد انتصاره على اخيه الامين وتركه مرو للاستقرار في بغداد فرقة جديدة يستند عليها مما جعـل الخراسانيين ينفضون من حوله اما العرب فقد التفوا بعد مقتل الامين حول العباس بـن المأمون ضد المعتصم من ثم فقد كان من الطبيعي بالنسبة للمعتصم حينما تولى الخلافة ان ينكل بقادتهم ويتجه الى غيرهم في تأليف جيشه •

لقد وجد المعتصم نفسه في وضع حرج بعد ان فقد ثقة العرب والفرس واخذت الاخطار تهدد الدولة في الداخل والخارج على السواء ففي الداخل كانت ثورة بابك الخرمي على اشدها وفي الخارج كان البيزنطيون يهددون حدود الدولة لذا فقد اتجه المعتصم الى تكوين جيشه بصورة اساسية من الاتراك الذين جاءوا من بلاد خراسان وبلاد ما وراء النهر وكانوا لا يزالون على خلق البداوة ولم يستوعبوا بعد قيم الحضارة العربية الاسلامية ومن ثم فقد اتسمت طباعهم بالخشونة والشدة • لذلك نفر منهم الناس وحصلت بينهم

وبين اهل بغداد مصادمات ومعارك في الشوارع مما جعل المعتصـم يدرك ضرورة الابتعاد عن بغداد فأنتقل بهم الى سامراء سنة ٢٢١هـ /٨٣٥م حيث اتخذها عاصمة له وهكذا بدأت الخلافة تعتمد على جيش غريب في لغته وعاداته وقيمه بعد ان كان جيشها هو الامة فلاعجب ان وقعت تحت رحمته وتوجيهه .

المراحل التي مرت بها الخلافة العباسية

لقد مرت الخلافة العباسية من حيث قوة خلفائها وسيطرتهم على اجهزة الدولة واقاليمها بمرحلتين اساسيتين بدأت المرحلة الاولى سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م حينما تمكنت الثورة العباسية من استلام مقاليد السلطة والقضاء على الخلافة الاموية ، لقد امتدت هذه المرحلة حتى سنة ٢٤٧هـ/٨٦١ أي حوالي ١٥ سنة وقد اتسمت هذه المرحلة بوحدة اقاليم الدولة عدا الاندلس الذي بقى تحت الحكم الاموي ومن ثم فقد ظل منفصلا عن الدولة العباسية كما اتسمت هذه المرحلة بقوة الخلفاء وسيطرتهم على اجهزة الحكم والادارة رغم حصـول بعض التجاوزات على سلطات الخليفة أو الثورات والانتفاضات ولكن الخلفاء لم يلبثوا ان بسطوا سيطرتهم على الدولة واعادوا الامور الى نصابها السابق وقد تميزت هذه الفترة بظهور بعض التأثيرات الفارسية في الادارة والثقافة نتيجة اتباع الخلفاء العباسيين سياسة التسـوية واستخدام بعض العناصـر الفارسية في مناصب الوزارة وادارة الدواوين ولكن الخلفاء العباسيين لـم يسمحوا لهذه الثاثيرات وخصوصا في مجال الثقافة ان تسيء الى الشخصية العربية والاسلامية للدولة لذا فقد تصدوا لمكافحة دعوات الزندقة والشعوبية التي ارادت التقليل من شأن العرب والتشكيك بقيم الاسلام .

أما المرحلة الثانية من حياة الخلافة العباسية فهي مرحلة ضعف وتدهور نتيجة اختلال التوازن بين العناصر التي يتكون منها جيش الخلافة وسيطرة الاتراك عليه وتدخلهم في تعيين الخلفاء وعزلهم ومحاولة توجيه سياسة الدولة

لتحقيق مصالحهم . لقد بدأ تدخل الجنود الاتراك في سياسة الدولة منذ عهد الواثق فاستلموا المناصب الادارية وتلاعبوا بمقدرات الخلافة وقد ساعدهم ضعف الواثق في إحكام سيطرتهم على الدولة ، وزاد في الطين بلة حينما توفي الواثق من دون ان يعهد لاحد بعده بتولي الخلافة فاستغل الجند ذلك وتدخلوا في اختيار الخليفة .

لقد جاء الاتراك بالمتوكل على امل ان يكون اداة طيعة في ايديهم ولكنهم فوجئوا بالمتوكل يرفض اداء الدور المرسوم له فكانت فترة خلافته فترة صراع متصل بينه وبينهم انتهت بقتله بيد جماعة منهم سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م وهكذا بدأت فترة ضعف الخلافة وتدهورها والتي يمكن تقسيمها الى ثلاث فترات:

١ ـ الخلافة في ظل نفوذ الجند الاتراك

لقد بدأت هذه الفترة منذ مقتل المتوكل بيد الجند الاتراك سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م واستمرت حتى سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م حينما دخل البويهيون بغداد وقد تميزت هذه الفترة بقوة النفوذ الذي مارسه الجند الاتراك على الخلافة وقد تراوح هذا النفوذ بين ممارسة بعض النفوذ على الخلفاء لاختيار خلفهم وبين التدخل المباشر في خلع الخلفاء وتعذيبهم وقتلهم ثم اختيار من يتولى الخلافة من بعدهم لقد انفرد الجند الاتراك لمدة تسع سنوات بعد قتل المتوكل (٢٤٧ ـ ٢٥٦هـ/٨٦١ ـ ٨٦٩م) بتعيين من شاءوا من الخلفاء او عزله من غير اعتبار لمزايا المرشحين وصفاتهم لذلك فقد تردت هيبة الخلافة في هذه الفترة الى الحضيض مما شجع على انفصال بعض الاقاليم عن الدولة فنشأت في شرق الدولة امارة الصفاريين والسامانيين كما استقل ابن طولون بحكم مصر .

وقد اعقبت فترة السنوات التسع هذه فترة انتعشت فيها الخلافة وعادت لها بعض هيبتها خلال حكم الموفق والمعتضد والمكتفي (٢٥٦ ـ ٢٩٥ هـ / ٨٦٩ ـ ٩٠٧ م) فتقلص نفوذ الجند الاتراك على

الخلافة بسبب الانقسام الداخلي في صفوفهم وانشغالهم مع بقية الجند في مواجهة خطر ثورة الزنج في جنوبي العراق التي هددت كيان الدولة بالزوال • لقد نجح الخلفاء خلال هذه الفترة في القضاء على ثورة الزنج واعادة وحدة مصر مع دولة الخلافة كما اكدوا سلطتهم على امراء الاطراف •

لقد انتهت فترة انتعاش الخلافة هذه بموت المكتفي دون ان يعهد لاحد بعده بمنصب الخلافة فاستغل وزيره العباس بن الحسن الموقف بالتعاون مع رؤساء الكتاب لتعيين المقتدر الذي كان صغيرا في السن لذلك كان من الطبيعي ان تتسم فترة حكمه التي امتدت من ٢٩٥هـ/٩٠٧م لغاية ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م بسيطرة الوزراء والكتاب على سياسة الدولة • لقد استغل الوزراء والكتاب ضعف الخليفة ووقوعه تحت سيطرة الحريم في خدمة مصالحهم الخاصة مما اثار روح الحسد والمنافسة بينهم وافسح المجال للجيش بالتدخل مرة ثانية في ادارة الدولة بحجة المطالبة بدفع مرتباتهم المتأخرة او زيادة ارزاق الجند مما ادى الى عودة الفوضى والانقسامات في الدولة ثم انتهى الامر بوقوع صدام مسلح بين جيش الخليفة والجيش التركي بقيادة مؤنس كان من نتائجه مقتل الخليفة وعودة التسلط التركي على الخلافة من جديد وهكذ افقدت الخلافة قوتها وجيشها مما شجع عبدالرحمن الناصر في الاندلس على اتخاذ لقب خليفة وكأنه بذلك يعلن انه لم يعد للخلافة العباسية وجود في دنيا الواقع •

لقد قام مؤنس وجماعته بتعيين القاهر خليفة ولكنهم لم يلبثوا ان عزلوه حينما حاول القضاء على نفوذهم وعينوا بدلا عنه الراضي لاشغال منصب الخلافة ولكن الراضي وجد ان خزينة الدولة قد اصبحت خاوية نتيجة الفساد الاداري وانفصال معظم اقاليم الخلافة عنها بحيث لم يبق ضمن سلطة الخليفة سوى بغداد وما جاورها لذا اصبح من المستحيل عليه تنظيم ميزانية الدولة من حيث الايرادات والنفقات ومن ثم فقد لجأ الى استحداث

منصب (امرة الامراء) وعرضه على ابن رائق احد القادة الاتـراك بحيث يتولى بموجبه امرة الامراء ورياسة الجيش على ان يتعهد بتدبير كافة نفقات الادارة وان يجعل للخليفة مخصصات كافية وهكذا تم في ١٩ ذي الحجـة ٣٢٤ هـ/٩٣٥ م تعيين ابن رائق لاشغال هذا المنصب واخذ الخطباء يذكرون اسمه في خطبة الجمعة مع اسم الخليفة واخذ امير الامراء وكاتبه يقومان بكافة الوظائف التي كان يقوم بها الوزير وكتابه واصبحت كافة الصلاحيات المالية والسياسية بيده حتى لم يعد بيد الخليفة من شيء الا ما يسمح له به امـير الامراء او يعطيه اياه •

لقد انتقلت السلطة الفعلية في الدولة الى امير الامراء وفقد الخليفة كل سلطاته تقريبا ، حتى خطبة الجمعة توقف الخلفاء عن القائها وكان الراضي هو آخر من خطب يوم الجمعة •

واخذ امير الامراء يختار لولاية العهد من يشاء بعـد ملاحظة بعض المظاهر الشكلية كما حصل حينما اختير (المتقي لله) لمنصب الخلافة بعد وفاة الراضي وقد استمر امير الامراء التركي في ادارة الدولة على هذا النهج حتى سقوط حكمهم على يد متسلطين جدد من بلاد الديلم وهم البويهيون في ١١ جمادى الاخرة سنة ٣٣٤ هـ (١٧ كانون الثاني ٩٤٦ م) •

في ختام الحديث عن فترة النفوذ التركي قد لا يملك المـرء نفسه من التساؤل لماذا هذه الازدواجية في ممارسة السلطة ؟ •• ألم يكن اجدى على المتسلطين الاتراك ان يتولوا الخلافة بانفسهم طالما كانت القـوة والسلطة الفعلية بايديهم ؟ للجواب على هذا السؤال لابد من العودة الى الرأي العـام والقيم الدينية والسياسية التي كانت تعتنقها جماهير الناس ، لقد كان جمهور المسلمين يعتقدون ان الخلافة يجب ان تكون بايدي العرب من قريش استنادا الى احاديث يذكرها المحدثون والفقهاء كحديث (الائمة من قريش) كما كان العلويون والعباسيون يؤكدون ان الخلافة ينبغي ان تبقى محصورة في آل

البيت لذا فقد كان من الامور المتفق عليها عدم جواز تولي الخلافة من قبل الاعاجم لذلك فقد حرص هؤلاء المتسلطون على الخلافة وغيرهم من امراء الامصار الذين استقلوا عن الخلافة على استحصال تاييد الخليفة ودعمه لهم من اجل ايجاد سند شرعي لحكمهم وعدم اثارة سخط الجماهير وغضبهم عليهم •

ويلاحظ ان الامراء المتسلطين قد عمدوا الى استعمال بعض الحيل الشرعية لتبرير خلع الخلفاء الذين يختلفون معهم والاتيان بخليفة يمتثل لاوامرهم اذ من المعروف ان الفقهاء كانوا لايجيزون خلع الخليفة الا اذا حصل له فسق في معتقده او نقص في بدنه ••• لذا فقد لجأوا الى سمل عيون الخليفة الذي يريدون خلعه وبذلك يفقد احد شروط الخلافة وقد حصل هذا لكل من الخليفة القاهر والمتقي •

٢ ـ الخلافة في ظل التسلط البويهي (٣٣٤ ـ ٤٤٧هـ / ٩٤٦ ـ ١٠٥٥م)

كانت الاسرة البويهية قد شكلت امارة مستقلة في بلاد الديلم جنوب بحر قزوين ثم اخذت تتوسع باتجاه مركز الخلافة في العراق في الوقت الذي كانت الاوضاع فيه تتدهور باستمرار من الناحية الادارية والاقتصادية في ظل امرة الامراء لذا فقد تمكن البويهيون من احتلال العراق بسهولة ودخول بغداد وقد استقبل الخليفة المستكفي الامير البويهي احمد بن بويه وهو اصغر اخوته ولقبه بلقب (معز الدولة) وكان ذلك في سنة ٣٣٤ ـ ٩٤٦ م •

تعتبر فترة التسلط البويهي على الخلافة امتداداً لفترة امرة الامراء من حيث طبيعتها فقد تلقب الامراء الجدد بلقب (امرة الامراء) واستبدوا بالسلطة دون الخليفة استنادا الى قوتهم العسكرية وبقي الخليفة رمزا يمارس بعض الصلاحيات ذات الطابع الديني من اجل عدم اثارة غضب العامة على الحكام المتسلطين •

ويلاحظ ان مركز الخلافة قد ازداد انحطاطا في ظل الحكم البويهي بسبب ان البويهيين كانوا يمثلون قوة اجنبية محتلة تقع عاصمتها في شيراز ويتولى احد امرائها الحكم على بغداد مما جعل دولة الخلافة دولة تابعة لامارة اجنبية هي الامارة البويهية •

ولم يكن الامراء البويهيون يعتقدون بحق بني العباس في الخلافة لانهم كانوا زيدية في الاعم الاغلب يرون ضرورة حصر الامامة في آل علي بن ابي طالب (رض) بالاضافة الى كونهم اجانب ولكنهم ابقوا الخلفاء العباسيين في مناصبهم لاعتبارات سياسية فقد ذكر ان معز الدولة اراد نقل الخلافة لابي الحسن محمد بن يحيى الزيدي فحذره اعوانه من ذلك بقولهم ان (عامة الناس في الامصار قد اعتادوا الدعوة العباسية ودانوا بدولتهم واطاعوهم طاعة الله ورسوله ورأوهم اولى الامر) كما اوضحوا له ان الخليفة العباسي لا يتمتع باحترام جنده من الديلم لعدم اعتقادهم بصحة خلافته (فلو امرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه) اما لوتولى منصبه خليفة علوي فانه (لوامرهم بقتلك لفعلوه) لاعتقادهم بوجوب طاعته (فاقتنع معز الدولة وعدل عن رأيه)•

وهكذا فقد اثبت البويهيون الفرس انهم يقدمون مصلحتهم السياسية على معتقداتهم الدينية والمذهبية حينما يظهر أي تعارض بينهما ولكنهم لايتوانون عن استخدام الورقة الطائفية في شق وحدة الامة وضرب بعضها ببعض من اجل تقوية سلطاتهم وصرف جهود ابناء الامة عن التوجه لمقاومتهم لذا فقد شهدت فترة التسلط البويهي العديد من الفتن الطائفية في بغداد خلال السنوات ٣٣٨هـ/٩٤٩م ، ٣٣٩هـ/٩٥٠م ، ٣٤٠هـ/٩٥١م ، ٣٤٦هـ/٩٥٧م، ٣٤٨هـ/٩٥٩م •

لقد واصل الامراء البويهيون نهج الامراء الاتراك من قبلهم في الاستهانة بالخلفاء والاعتداء عليهم وخلعهم اذا اقتضت مصالحهم ذلك والدليل على ذلك ان معز الدولة البويهي قام بخلع الخليفة المستكفي بطريقة مهينة ولم

يمض على دخوله بغداد سوى اثني عشر يوما قام بتعين الفضل بن المقتدر خليفة بدلا عنه ولقب بلقب المطيع لله .

ولم يكتف البويهيون بممارسة صلاحيات امير الامراء السياسية بل انهم عملوا على مشاركة الخليفة ما تبقى له من الرسوم والصلاحيات وقد تمثل ذلك في الامور الاتية :

١ ـ لقد منعوا الخليفة من التصرف باموال الدولة وحددوا له راتبا خاصا وكان راتب الخليفة عرضة للزيادة والنقصان كما ان اموال الخليفة كانت عرضة للمصادرة والاعتداء اضافة الى مطالبة الخليفة بتقديم البعض من امواله الخاصة للدولة كما حصل حينما طلب الامير بختيار البويهي من الخليفة المطيع بعض المال بحجة الغزو والجهاد فاجابه الخليفة برسالة مؤثرة توضح الوضع الذي اصبحت عليه الخلافة قال المطيع لله : (الغزو يلزمني اذا كانت الدنيا في يدي والي تدبير الاموال والرجال واما الان وليس لي منها الا القوت القاصر عن كفائي وهي في ايديكم وايدي اصحاب الاطراف فما يلزمني غزو ولا حج ولا شيء مما تنظر الائمة فيه وانما لكم مني هذا الاسم الذي تخطبون به على منابركم تسكتون به رعاياكم فأن احببتم ان اعتزل اعتزلت عن هذا المقدار ايضا) .

ومع هذا فلم يقتنع الامير بجواب الخليفة والزمه بدفع مبلغ اربعمائة الف درهم وقد اضطر الخليفة من اجل تدبير هذا المبلغ الى بيع ثيابه وبعض انقاض داره وعندما قبض الامير المال صرفه في مصالحه الخاصة .

٢ ـ لم يعد للخليفة وزير في ظل التسلط البويهي بل اصبح له كاتب يدير امواله اما سلطات وزير الخليفة فقد انتقلت الى الامير البويهي ووزرائه وكتابه .

٣ ـ لقد الزم الخليفة بزيارة الامراء البويهيين في بعض المناسبات خلافا للتقاليد التي جرت على قيام الامراء بزيارة الخلفاء .

٤ ـ شارك الامراء الخلفاء في امتيازات الخلافة وشاراتها مثل ذكر اسم الامير مع اسم الخليفة في خطبة صلاة الجمعة وضرب الطبول على ابوابهم خلال اوقات الصلاة تماما كالذي كان يحصل للخلفاء كما شاركوا الخلفاء في ضرب اسمائهم على العملة .

٥ ـ لم يبق للخليفة بعد كل ما ذكر اعلاه سوى بعض النفوذ الديني فكان من حقه تعيين القضاة والوعاظ في المساجد لذا فقد تمسك الخليفة بهذا الحق ولم يتخل عنه حتى في اضعف حالاته وقد حاول الخلفاء ان يوظفوا هذا الحق من اجل توثيق صلاتهم بالفقهاء والوعاظ والوصول من خلالهم الى العامة لكسبهم في صراعهم ضد الامراء المتسلطين وكان هذا الاسلوب يؤتي ثماره وخصوصا في فترات ضعف الامراء البويهيين او انقسامهم على انفسهم كما حصل في النصف الاول من القرن الخامس الهجري حينما انتعشت الخلافة وعاد اليها بعض رونقها .

وقد تجاوب الفقهاء مع دعوات الخلفاء فحاولوا من جانبهم تقديم صياغة فقهية لنظرية الخلافة تؤكد على شرعية الخلافة ودورها في حفظ الشريعة واقامة العدالة وتحقيق وحدة الامة بعيدا عن الخلاف والفتنة على ضوء السوابق التاريخية والظروف التي يعيشون في ظلها كما فعل الماوردي (ت ٤٥٠ هـ/١٠٥٨ م) ـ الذي منح لقب (اقضى القضاة) وكان ممثل الخليفة في مفاوضاته مع البويهيين ـ في كتاب (الاحكام السلطانية) حيث اكد فيه على الامور الاتية :

أ ـ ان الخلافة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا ومن ثم فان عقدها لمن يقوم بها واجب بالاجماع من الناحية العقلية والشرعية .

ب ــ يشترط فيمن يتولى الخلافة ان يكون قريشي النسب وان يتصف بكمال الجسم والعقل وان تتوفر لديه صفات العلم والتقوى وحسن الرأي كي يتمكن من القيام بمهام منصبه على الوجه المطلوب .

جـ ــ ان الخليفة يجب ان ينتخب من قبل (اهل الاختيار) الذين يشترط ان تتوفر فيهم العدالة والرأي والحكمة .

د ــ يجب على كافة المسلمين طاعة الخليفة ونصرته ليستطيع الاضطلاع بواجباته الشرعية . ويلاحظ ان الماوردى قد حاول بهذه الصياغة النظرية ان يقدم الدعم والمساعدة للخلفاء من الناحية الشرعية في صراعهم على السلطة مع الامراء المتغلبين من بني بويه ولكنه مع ذلك لم يستطع تجاوز الواقع القائم فقرر (ان المستبد اذا كانت افعاله جارية على احكام الشرع ومقتضى العدل واذا لم يتظاهر بمعصية جاز اقراره فلا يقف من الامور الدينية بما يعود بفساد على الامة) اما اذا كان الامر عكس ذلك فمن واجب الخليفة ان يستنفر من يزيل تغلبه .

يضاف الى ماتقدم ان الماوردي تعرض الى ظاهرة استيلاء بعض الامراء على ولايات كانت تابعة للخليفة وحكمها بالقوة (امارة الاستيلاء) فقدم تسوية ترضي الطرفين وتحقق الصلة في نظره فالخليفة يقر سلطة الامير والامير يعترف بالخليفة ويعد بتطبيق الشرع وبذلك تصبح سلطته مشروعة وبذلك قدم الماوردي حلولا وسطاً من اجل حفظ وحدة الامة وضمان مراعاة احكام الشريعة وقد تابعه معظم من جاء بعده من الفقهاء في هذه التوجهات الواقعية الى الحد الذي سمحوا فيه بتحويل الخلافة الى رمز لاحقيقة له وهو ما يتناقض مع السلطات الشاملة التي منحوها لمنصب الخلافة .

٦ ـ لقد دفعت الاعتبارات السياسية الامراء البويهيين ان يطلبوا من الخليفة ان يتولى بنفسه اصدار الاوامر والتوقيع على بعض المراسلات المهمة مع الولاة كما كانوا يطلبون منه منحهم الالقاب ذات الطابع الشرفي وكان الخليفة يستغل شغف هؤلاء الامراء بمثل هذه الالقاب فيمنحهم مايراه مناسبا منها كلقب (تاج الملة) الذي منحه لعضد الدولة او (غياث الامة) الذي لقب به المقتدر بهاء الدولة وقد يرفض الخليفة منح بعض الالقاب التي يراها غير مناسبة كما حصل حينما رفض طلب الامير ابو كاليجار منحه لقب (السلطان الاعظم مالك الامم) •

بل ان الفقهاء والعامة قد ثاروا حينما منح جلال الدولة لقب (شاهان شاه الاعظم ملك الملوك) وخطب له يوم الجمعة بذلك فغضب العامة ورجموا الخطباء واستفتي الفقهاء في جوازه فاجازه اثنان وانكره الماوردي ولكن اللقب استمر قائما •

لقد كان الامراء البويهيون يحرصون على اظهار الاحترام والتبجيل الى الخلفاء امام العامة لارضائهم وكسب ودهم ويبالغون في ذلك في بعض الاحيان ففي حفلة العهد الى عضد الدولة سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م جلس الطائع على السرير وحوله مائة من الرجال بالسيوف والزينة وبين يديه مصحف عثمان وعلى كتفه البردة وبيده القضيب وهو متقلد بسيف رسول الله (ص) وضربت ستارة بعثها عضد الدولة وسأل ان تكون حجابا للطائع حتى لاتقع عليه عين احد من الجند قبله ودخل الاتراك والديلم وليس مع احد منهم حديد ووقف الاشراف واصحاب المراتب من الجانبين ثم اذن لعضد الدولة فدخل ثم رفعت الستارة وقبل عضد الدولة الارض فارتاع زياد القائد لذلك وقال لعضد الدولة ماهذا ايها الملك ؟ اهذا هو الله ؟ فالتفت اليه وقال : هذا خليفة الله في الارض ثم استمر يمشي ويقبل الارض سبع مرات فالتفت الطائع الى خالص الخادم وقال

استدعه فصعد عضد الدولة فقبل الارض مرتين فقال له : أدن الي فدنا وقبل رجله وثنى الطائع عينه عليه وامره فجلس على الكرسي بعد ان كرر عليه (اجلس) وهو يستعفي فقال له : اقسمت عليك ان تجلس ، فقبل الكرسي وجلس فقال له الطائع : (قد رأيت ان افوض اليك ما وكل الله الي من امور الرعية في شرق الارض وغربها وتدبيرها في جميع جبهاتها سوى خاصتي واسبابي فتول ذلك فقال : يعينني الله على طاعة مولانا امير المؤمنين وخدمته، ثم افاض عليه الخلع وانصرف . ان من يتأمل هذه الصورة يحس انه مشهد تمثيلي يقطر بالمفارقات والنفاق السياسي ، خليفة مستضعف يقدم للامة بصورة الحاكم المتأله وامير متسلط يمثل دور العبد الذليل ثم ينتهي المشهد بتفويضه حكم الرعية في شرق الارض وغربها .

ان ما تقدم لم يخدع الخلفاء عن حقيقة الاوضاع التي كانوا يعيشونها في ظل التسلط البويهي ومن ثم فقد كانوا يتحينون الفرص للتحرك من اجل استرجاع سلطاتهم المفقودة لذا فما كادوا يلاحظون ظهور دولة السلاجقة في ايران التي اخذت تتوسع على حساب سلطان البويهيين في الشرق حتى اخذ الخليفة القائم بمراسلة قائدهم طغرلبك على امل الاستعانة به من اجل التخلص من حكم البويهيين وقائدهم البساسيري الذي اغتصب السلطة باجمعها واخرج الخليفة من بغداد .

وقداستغل طغرلبك هذا الموقف ووثق علاقاته مع الخليفة ثم تقدم في النهاية الى العراق ودخل بغداد فاتحا وبذلك بدأت فترة جديدة من فترات التسلط الاجنبي على الخلافة .

١ ـ الخلافة في ظل التسلط السلجوقي (٤٤٧ـ٥٥١ هـ / ١٠٥٥ـ١١٥٥ م)

لقد تصرف الجيش السلجوقي حين دخوله بغداد بصفته جيش احتلال فأعتدى على الحرمات وجرت مذابح وسقط جرحى وقتلى مما اثار غضب اهل بغداد ضدهم وجعل الخليفة يكتب الى السلطان طغرلبك مستنكرا :

(آني انما اخترتك واستدعيتك اعتقادا مني ان تعظيم الاوامر الشريفة يزداد وحرمة الحريم تعظم وارى الامر بالضد) •

وقد حاول السلطان السلجوقي ان يسترضي الخليفة وان يقيم علاقة مصاهرة عن طريق تزويجه ابنة اخيه ارسلان خاتون كما دأب السلاجقة على اعلان طاعتهم للخليفة العباسي واحترامهم له انطلاقا من قناعاتهم المذهبية المخالفة للبويهيين ولكن الدارس لحقيقة موقف السلاجقة الاتراك من الخلافة يجد انه لايختلف في جوهره عن موقف البويهيين الفرس باعتبارهم قوة احتلال اجنبية تستهدف احكام سيطرتها على الدولة واغتصاب السلطة من اصحابها الشرعيين اما موقفهم من المسألة الدينية فكان يستهدف شق وحدة الامة وتمزيقها الى طوائف ومذاهب متناحرة ليسهل عليهم حكمها واستغلالها •

وقد تميزت السلطة السلجوقية في فترة تسلطها على الخلافة بالامور التاليـــة :

١ ــ وقعت الخلافة العباسية تحـت سيطرة امارة اجنبية تقع عاصـمتها (همذان) في بلاد ايران وتمارس تسلطها على البلاد من خلال وكلاء السلطان المتواجدين في بغداد كـ (العميد) و (الشـحنة) •

٢ ــ تنازل الخليفة للسلطان عن كافة سلطاته السياسية ولم يبق له سوى المظاهر وبعض الصلاحيات الدينية فقد جاء في التفويض الذي اعطاه الخليفة الى السلطان طغرلبك في سنة٤٤٩هـ/١٠٥٧م : (ان امير المؤمنين شاكر لسعيك ، حامد لفعلك مستأنس بقربك وقد ولاك ماولاه اللــه من بلاده ورد عليك مراعاة عباده فأتق الله فيما ولاك ••) ثم منحه لقب (ملك المشرق والمغرب) •

وهكذا فقد اخذ السلطان وممثلوه يمارسون كافة السلطات السياسية والادارية والمالية في الدولة وحل وزير السلطان او كاتبه محل وزير الخليفة كما كان الامر في العهد البويهي تماما •

وقد اخذ السلطان السلجوقي يشارك الخليفة في امتيازات وشارات الخلافة فاخذ اسمه يذكر في خطبة الجمعة مع اسم الخليفة وضرب اسمه على النقود مع اسم الخليفة كما امر بضرب الطبول على بابه في اوقات الصلاة اسوة بالخليفة .

٣ ــ لم يترك السلاجقة امر الاتصال بالفقهاء والوعاظ للخليفة وحده كما فعل البويهيون وانما حاولوا ان يوثقوا صلاتهم معهم فقام الوزير السلجوقي نظام الملك بانشاء المدرسة النظامية في بغداد من اجل كسب الفقهاء الى صفهم وربما قطع الطريق على الخليفة فيما لوحاول ان يرتكز على نفوذهم الشعبي في مقاومة تسلطهم ، لقد اوضح نظام الملك الدوافع التي حركته لانشاء المدرسة النظامية الى ملك شاه بقوله : انا اقمت لك جيشا يسمى جيش الليل اذا قامت جيوشك ليلا قامت جيوش الليل على اقدامها صفوفا بين يدي ربهم فارسلوا دموعهم وأطلقوا السنتهم ومدوا الى الله اكفهم بالدعاء لك ولجيوشك .

٤ ــ لقد حاول السلاجقة انتزاع اخر ماتبقى للخلفاء من نفوذ ومظاهر فقد اتخذ سلاطينهم لقب (ظل الله في الارض) الذي كان خالصا بالخليفة كما لقب ملكشاه نفسه بلقب (امير المؤمنين) واخذوا من الخليفة المسترشد (٥١٢ ــ ٥٢٩ هـ / ١١١٨ــ١١٣٤ م) بردة الرسول(ص)التي كان يلبسها الخلفاء عند توليتهم في المناسبات الدينية ولم يقف تدخل السلاطين عند هذا الحد بل تجاوز ذلك الى محاولة التدخل في تحديد ولي عهد الخليفة كما حصل حينما بايع الخليفة المقتدى (٤٦٧ ــ ٤٨٧هـ /١٠٧٤ ــ ١٠٩٤م) لابنه المستظهر بولاية العهد فأعترض السلطان على ذلك وطلب من الخليفة خلعه ومبايعة ابنه الاخر جعفر بدلا عنه وان يسلم السلطة اليه ويغادر بغداد للاقامة في البصرة فشق ذلك على الخليفة ولكن السلطان اصر على موقفه ولولا ان تدخلت الاقدار

لصالح الخليفة حيث مرض السلطان ومات لانفذ امره بما يمتلكه من قوة وصلاحيات •

لقد اقنعت هذه الامور الخلفاء على سلوك طريق الكفاح والمقاومة لاستعادة سلطانهم المفقود فاتجهوا الى الشعب وحاولوا توثيق صلاتهم به كما حاولوا استغلال المنافسات والصراعات بين السلاطين والامراء السلاجقة لتقوية مراكزهم • لقد قال الخليفة المسترشد (٥١٢ ــ ٥٢٩ هـ / ١١١٨ ــ ١١٣٤ م) لقد (فوضنا امورنا الى آل سلجوق فبغوا علينا فطال عليهم الامد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) ثم اخذ يستنهض الهمم ويعمل على تكوين جيش خاص بالخلافة لتستطيع بواسطته تاكيد استقلالها والتخلص من التسلط الاجنبي وقد نجح الخليفة في تكوين هذا الجيش نتيجة لحماس الناس واندفاعهم للتطوع في صفوفه واخذ الخليفة يقود الكفاح المسلح ضد السلطان السلجوقي حيث حقق بعض النجاح في العراق ولكنه حينما اراد ان يصفي نفوذ السلاجقة في بلاد ايران فشل في تحقيق هدفه ثم وقع في الاسر وقام السلاجقة بعد ذلك بتدبير قتله •

ولم يستسلم الخليفة الجديد للامر الواقع فقاتل السلاجقة وانتصر عليهم وقام اهل بغداد بنهب دار السلطان في بغداد وكانت ترمز الى التسلط السلجوقي ولكن الجيش السلجوقي اعاد الكرة وحاصر بغداد الى ان تمكن من دخولها أما الخليفة فقد غادر العاصمة الى الموصل ومنها الى اصفهان حيث اغتيل هناك عام ٥٣٢هـ /١١٣٧م •

وقد سار المقتفي بامر الله (٥٣٠ ــ ٥٥٥ هـ/١١٣٥ ــ ١١٦٠ م) رغم تعيينه لمنصب الخلافة من قبل السلطان السلجوقي على نهج اسلافه في مقاومة التسلط الاجنبي الى ان تم له النجاح في ازالة الكثير من مظاهر النفوذ السلجوقي

في العراق فاصبح له جيش قوي قادر على حفظ الامن والاستقرار في البلاد واصبح من حقه اختيار من يشاء من الامراء لتولي السلطة وبذلك اصبحت السلطة الحقيقية بيد الخليفة واخذ امراء الامصار والولاة ينظرون الى الخليفة بعين الاحترام .

وقد تحقق له ذلك بشكل كامل حينما فشلت حملة السلاجقة على بغداد في سنة ٥٥١ هـ وعادت تجر اذيال الهزيمة وبذلك انتهى العهد السلجوقي في حكم العراق .

ب ـ فترة انتعاش الخلافة (٥٥١ ـ ٦٤٠هـ /١١٥٥ ـ ١٢١٢م)

انتعشت الخلافة حين تمكن المقتفي بأمر الله من القضاء على التسلط السلجوقي في العراق واخذ الخلفاء من بعده يعملون على تقوية الجيش وممارسة الصلاحيات السياسية والادارية للخلافة بانفسهم كما عملوا على تحسين وتوثيق علاقاتهم مع امراء الامصار فنجح المستضيء بالله في اقامة علاقات جيدة مع صلاح الدين الايوبي الذي امر باعادة الخطبة للخليفة العباسي في مصر كما أمر ان يضرب اسمه على النقود فيها بعد ان تم له القضاء على الحكم الفاطمي سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م وحين توفي المستضيء بالله تولى الخلافة من بعده ابنه الناصر لدين الله سنة٥٧٥هـ/١١٧٩م الذي دام حكمه ٤٦سنة.

لقد نجح الناصر لدين الله ان يعيد للخلافة مجدها وهيبتها عن طريق مواصلة خطى اسلافه في تدعيم الجيش واحياء نظام الفتوة وقيادته بنفسه كما عمل على تحقيق وحدة الشعب ورعاية كافة طوائفه بعد ان عمل المتسلطون الاجانب على تمزيقه على اسس مذهبية وطائفية .

ولم ينس الناصر مافعله السلاجقة مع الخلفاء السابقين فعمل على تصفية حكمهم في ايران ووضع حد لمطالبتهم باعادة الخطبة لهم في بغداد فأعد جيشه ودفع احد الملوك الذين كانوا يحكمون باسمه في ايران الى التوجه نحو همذان لمقاتلتهم حتى تمكن من دحرهم واحتلال همذان ولكن السلاجقة

واصلوا مقاومة الخليفة في اذربيجان فالجأ الخليفة للتحالف مع الخوارزميين من اجل القضاء عليهم • وقد تم له ماأراد وقضى على دولة السلاجقة سنة ٥٩٠هـ/١١٩٣م وقد امر الخليفة بتولية علاء الدين تتش ملك الدولة الخوارزمية جميع اقاليم السلطة السلجوقية •

لقد كان من المتوقع ان تستمر العلاقات الوثيقة بين دولة الخلافة والدولة الخوارزمية ولكن الخوارزميين لم يلبثوا ان طالبوا الخليفة بالخطبة لهم في بغداد فرفض الخليفة طلبهم مما جعلهم يأمرون بقطع الخطبة له في الاقاليم الخاضعة لهم وبذلك توترت العلاقات وكادت تتحول الى حرب بين الطرفين ولكن انشغال الخوارزميين بالتصدي للخطر المغولي منعهم من ذلك ، أما الخليفة الناصر فقد بدأ يستشعر الخطر المغولي على دولته لذا فقد اخذ يعمل على تقوية الجيش وامر بتعمير سور بغداد •

وحين توفي الناصر عام ٦٢٢ هـ/١٢٢٥م تولى الخلافة ابنه الظاهر الذي لم يحكم سوى تسعة اشهر كرس معظمها لمحاولة اصلاح العلاقات مع الدولة الخوارزمية من اجل توحيد الجهود لمواجهة الخطر المغولي وقد واصل نفس العمل ابنه المستنصر بالله الذي تولى الخلافة سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م وقد نجح في تحسين علاقاته مع الدولة الخوارزمية فاعادوا الخطبة للخليفة في ديارهم وقد شجعه هذا النجاح على محاولة اقامة تعاون بين الخوارزميين والملوك الايوبيين في مصر والشام من اجل مواجهة الزحف المغولي ولكنه لم يوفق اذ كان الايوبيون منشغلين في مقاومة الغزو الصليبي لبلادهم وهكذا توفي المستنصر لدين الله دون ان يتمكن من اقامة تحالف بين الدول والامارات الاسلامية لمواجهة الخطر الجسيم الذي اخذ يهدد الخلافة وجميع الكيانات الاخرى ،وقد تولى الخلافة من بعده ابنه المستعصم بالله عام ٦٤٠هـ /١٢٤٢م •

سقوط الخلافة العباسية

لقد كان المستعصم بالله (٦٤٠ ــ ٦٥٦هـ/١٢٤٢ـ١٢٥٨م) ضعيف الرأي غير ملم بحقائق الامور في دولته منصرفا الى اللهو واللعب وقد استولى عليه اصحابه من الجهال واراذل القوم فكانوا يهونون خطر المغول في نظره فقصر عن الاستعداد لمواجهة الخطر الداهم وسرت روح التفكك في نفوس الشعب واخذت الاقاويل تنتشر عن مدى قوة المغول وقدرتهم على البطش خصوصا بعد ان قضوا على الباطنية في بلاد فارس بصورة ادخلت الخوف والفزع في نفوس الناس • ارسل هولاكو رسالة الى المستعصم بالله من مدينة همذان ينذره فيها بالحرب اذ لم يستسلم ويعلن خضوع دولته للمغول فلما لم يتلق جوابا مرضيا خلال مدة شهرين سار الى بغداد بجيش يزيد على ثلاثين الف فارس وقد خرج اليه الخليفة على أمل التوصل معه الى اتفاق ولكن هولاكو قتل الخليفة المستعصم بالله واولاده وقد استباح المغول بغداد فذبح الناس كما تذبح الشياه واضرموا النيران في المدينة فاتلفت مسجد الخليفة وضريح موسى الكاظم ومقابر الخلفاء في الرصافة وعم الخراب بيوت المدينة وطرقاتها وهكذا انتهت الخلافة العباسية وسقطت بغداد بعد ان ظلت عاصمة الدولة العباسية زهاء خمسة قرون •

لقد ارادت الامة بعد وفاة الرسول (ص) ان تختار عنها نائبا ليخلف الرسول (ص) في قيادتها وتطبيق الشريعة على اساس من الشورى والعدل فاختارت خليفة ليحقق هذه الاهداف وقد حفظ الاختيار للدولة العربية الاسلامية استمرارها وتوسعها ولكن الامة اخفقت في ايجاد وتطوير

(المؤسسات) التي تضمن اختيار الخلفاء من قبلها وممارستهم لسلطاتهم عن طريق الشورى وتطبيق الشريعة بطريقة عادلة فحصل الانحراف عن الانتخاب الى الوراثة وعن مفهوم خلافة الامة او خلافة الرسول في قيادة الامة الى ادعاء خلافة الله في الارض وعن الشورى الى التسلط والاستبداد .

ان ماتقدم من ملاحظات ينبغي ان لا ينسينا ان الخلافة قد نجحت في ان تصبح رمزا للوحدة السياسية والثقافية للامة العربية والاسلامية وانها قد جاهدت منذ نشأتها لتحقيق وحدة الامة وتحررها وعملت على نشر الثقافة العربية الاسلامية عن طريق الدعوة والجهاد فارتفعت اعلام العروبة والاسلام من قلب الجزيرة العربية لتمتد من بلاد الهند والصين شرقا الى المحيط الاطلسي غربا ولئن عجزت الخلافة في العصر العباسي عن المحافظة على وحدة هذه الاقاليم سياسيا الا ان الوحدة الثقافية والروحية بقيت قائمة وظلت العقول والقلوب ترنو الى الخلافة باعتبارها مركز الوحدة بالنسبة لمجموع الامة .

لقد رعى الخلفاء الفقهاء والادباء والعلماء وشجعوا التأليف والترجمة وخصوصا في العصر العباسي ثم لم يلبث امراء الامصار ان دخلوا حلبة المنافسة في مجال تشجيع الحركة الثقافية فأدى ذلك الى ازدهار العلم والمعرفة في كافة ارجاء ديار العروبة والاسلام ولم يحاول الحكام رغم الخلافات التي كانت قائمة بينهم وضع الحواجز في وجه تنقل العلماء وطلابهم بين مختلف انحاء دولة الخلافة واماراتها فساعد ذلك على التفاعل الفكري والثقافي بين مختلف المذاهب والتيارات وادى في النهاية الى تبلور مفهوم (الامة) كواقع على اساس ثقافي .

لقد عبر الفقهاء عن وحدة الامة في مؤلفاتهم (الفقهية ــ السياسية)

وحاولوا تقديم الخليفة باعتباره ممثلا لهذه الوحـدة ومعالجة المخاطر التي كانت تهدد وحدة الامة بتقديم بعض التسويات والحلول الوسـط ولئن وصفت النظريات التي تضمنتها هـذه المؤلفات بالمثالية ، ووصفت بعـض التسويات التي قدمتها بالواقعية او الذرائعية فانها كانت ـ بالرغم من ذلك ـ تعبر عن المجهود العظيم الذي بذله الفقهاء من اجل المحافظة على وحدة الامة واستمرارها .

المصادر والمراجع

١ ـ ابن هشام : السيرة النبوية ـ مصر ١٩٥٥

٢ ـ الطبري : تاريخ الرسول والملوك ـ بيروت ١٩٦٥

٣ ـ الماوردي : الاحكام السلطانية ـ مصر ١٩٦٠.

٤ ـ الجاحظ : البيان والتبيين ـ تحقيق عبدالسلام هارون ـ القاهرة ١٩٦٠.

٥ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ـ القاهرة ١٣٠٣ هـ

٦ ـ السيوطي : تاريخ الخلفاء ـ القاهرة ١٣٥١ هـ

٧ ـ مسكويه : تجارب الامم ـ القاهرة ١٩٢٠.

٨ ـ الدوري ، عبد العزيز : النظم الاسلامية ـ بغداد ١٩٥٠.

٩ ـ حسن ابراهيم وعلي ابراهيم : النظم الاسلامية ـ القاهرة ١٩٣٩

١٠ـ اليوزبكي ، توفيق : دراسات في النظم العربية والاسلامية ـ الموصل ١٩٧٧

١١ـ السامرائى ، حسام : المؤسسات الادارية في الدولة العباسية ـ دمشق ١٩٧١

١٢ـ شعبان محمد عبد الحي : الثورة العباسية (ترجمة عبدالحميد القيسي) دولة الامارات العربية ١٩٧٧

١٣ـ شعبان ، محمد عبد الحي : الدولة العباسية ـ بيروت ١٩٨١

١٤ـ ارنولد ، توماس : الخلافة (ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة) القاهرة ١٩٦٨

١٥ـ وات ، مونتغمري : الفكر السياسي الاسلامي (ترجمة صبحي حديدي بيروت ١٩٨١

١٦ـ فلهاوزن، يوليوس : تاريخ الدولة العربية (ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة) القاهرة ١٩٦٨

١٧ـ بروكلمان ، كارل : تاريخ الشعوب الاسلامية ترجمة نبيه امين فارس ومنير البعلبكي بيروت ١٩٦٨ .

١٨ـ مجموعة مؤلفين : العراق في التاريخ ـ بغداد ١٩٨٣

١٩ـ الدوري ، عبدالعزيز : حول التكوين التاريخي للامة العربية ـ مجلة المستقبل العربي بيروت ـ العدد الحادي عشر ١٩٨٠

٢٠ـ الدوري : الديمقراطية في فلسفة الحكم العربي ـ مجلة المستقبل العربي ـ بيروت العدد التاسع ١٩٧٩

٢١ـ الفياض ، عبدالله : الخلافة العباسية في عهد البويهيين ـ مجلة الدراسات الاسلامية عدد ١ـ٢ بغداد ـ السنة الثانية ١٩٦٧

٢٢ـ الفياض : الخلافة العباسية في عهد السلاجقة ـ الرسالة الاسلامية ـ بغداد العدد ٣ـ٤ السنة الثانية ١٩٧٦

٢٣ـ فوزي ، فاروق عمر : الترك والخلافة العباسية ـ مجلة افاق عربية ـ بغداد (٥) سنة ١٩٨٠.

٢٤ـ الملاح ، هاشم : اساليب تداول السلطة في الدولة العربية الاسلامية، مجلة اداب الرافدين ـ الموصل ـ العدد السابع ١٩٧٦

الفصل الثاني

الوزارة

د. فاروق عمر فوزي
كلية الآداب - جامعة بغداد

مقدمة

يرى المؤرخون في تاريخ الوزارة ان منصب الوزارة استحدث في العصر العباسي الاول ولكن الباحث في تاريخ الوزارة في الدولة العربية الاسلامية يواجه صعوبات جمة منها مايتعلق باصل اصطلاح (وزير) ومنها مايعود الى بداية نشأة منصب الوزير وتطوره ومنهاما يلاحظ من عدم تحديد صلاحيات الوزارة .

فمن الاسئلة التي تواجه الباحث وهو يطالع كتب المؤرخين الرواد عن الوزارة ، متى اصبحت الوزارة احدى المؤسسات الرسمية في الدولة العربية الاسلامية وماهي نظمها ؟ اليس من الدقة ان يتحدث مؤرخ الوزارة في الاسلام عن شخصيات تتمتع بصلاحيات معينة تتفاوت درجاتها بحسب قابلية الوزير وحذقه السياسي وتفاوت علاقته بالخليفة . وبمعنى اخر هل هناك منصب

اداري ــ سياسي واضح المعالم يطلق عليه (الوزارة) ام ان الخليفة اختار شخصا من صحابته او مواليه او خاصته (أي من النخبة) ليحمل عنه اعباء الحكم ومسؤولياته او ليعينه في الحكم والمشورة والتدبير •

ان الجواب على هذا السؤال يجب ان يعين اصل نشوء منصب الوزارة في الاسلام فالمعروف ان كلمة وزير ليست غريبة على لغتنا العربية اما منصب الوزير وصلاحياته فقد وجدت في دول اخرى قبل أن تقرر اسسه في الدولة العباسية • هذا مع الاقرار بأن المنصب وصلاحياته في الدولة العربية ــ الاسلامية يختلف عما هو ، في تلك الدول كما سنرى فيما بعد •

لقد اعترضت نشأة الوزارة عوامل وتأثيرات متداخلة ومعقدة منها مايتصل بالتقاليد والعادات العربية ومنها مايتعلق بتأثير مبادىء الاسلام •وهنا لابد من الاشارة بانه ربما كان لادعاء العباسيين بانهم اصحاب الحق الشرعي في حكم الجماعة الاسلامية وانهم يمثلون السنة والجماعة اثر في اختيارهم هذا الاصطلاح القرآني ليدل على مشاور الخليفة الاول ومساعده الايمن •

ثم ان التقاليد الدينية التي تبنتها الخلافة العباسية والتركيز عليها لعبت دورها في ابتداع هذا المنصب •

وهناك سؤال يتعلق بالاسلوب المنهجي الذي يجب ان يتبعه الباحث في تاريخ الوزارة : هل ان الباحث يجب ان يفترض منذ البداية وجود منصب يسمى (الوزير) يشبه منصب (الوالي) مثلا وان هذا المنصب اذا شغر من وزير قديم فيجب ان يملأ بوزير جديد ؟ ام ان فكرة الوزارة مرت بتجربة طويلة قبل ان تستقر اسسها وانه كان هناك في البداية نوع من عدم الميل الى اتخاذ وزير بصورة دائمية وانما كان الخليفة العباسي يتخذ كاتبا مرة

ووزيرا مرةاخرى.ثم ان الباحث في تاريخ الوزارة عليه أن يدرك اعتبارات سياسية وادارية وثقافية وينظر الى هذا المنصب من خلال هذه الاعتبارات . فالباحث مثلا اذا اعتبر الوزير تطورا للكاتب في العصر الاموي فعليه ان يجد جوابا للتساؤل كيف ولماذا استطاع الكاتب من بين كل اعوان الخليفة وصحابته ومواليه ان يبرز ويبسط نفوذه ويوسع سلطته . ثم ماهي الشروط التي يجب ان تتوفر في الوزراء الاوائل وهل كانت لهم صلاحيات مرسومة ؟ فاذا لم تكن كذلك ففي اي عصر تبلورت هذه الصلاحيات ؟. وكيف كانت علاقات الوزراء الاوائل بالخليفة ؟.

ان الوزارة مرت بفترات من القوة والضعف اطلق عليها الفقهاء النظريون وكتاب السياسة الشرعية والاحكام السلطانية مصطلحات منها وزارة التنفيذ. ولكن المؤرخ الباحث يتساءل هل كان هذا الضعف او تلك القوة نتيجة ضعف في نظام الوزارة ام في شخصية الوزير نفسه ؟ . ام ان قوة شخصية الخليفة منعت الوزير من ممارسة صلاحياته ؟ وهنا تدخل اعتبارات اخرى ذات علاقة بالتنافس بين التكتلات المختلفة في البلاط والادارة .

ولابد ان نأخذ بنظر الاعتبار ونحن ندرس تاريخ الوزارة الاسلامية ذلك التيار الخفي الفعال الذي كانت تمثله كتلة الكتاب والذي ظلت مجموعة لابأس بها منهم متعلقة بتراثها الفارسي وقيمها الساسانية وحاولوا جاهدين صرف نظم الدولة واصولها نحو تلك القيم والمفاهيم والاصول حيث يشير احدهم قائلا : (وكانت ملوك الفرس يرون الوزراء بمنزلة لايراهم بها احد سواهم ويقولون الوزير نظام امورنا وجمال ملكنا ولساننا الذي تنطق به وعدتنا التي نعتدها لتناول عدونا في الارض النائية) وهو في هذا يريد ان يحبب نظام الوزارة الفارسي باصوله وتقاليده الى خلفاء المسلمين لعلهم يأخذون به او ببعض مراسيمه .

اصل اصطلاح وزير

يعتبر اصطلاح (وزير) اصطلاحا عربيا واوجه اشتقاقه ثلاثة : فهـو امـا مأخوذ من الوزر (بفتح الواو) وهو الملجأ لان الملك او الخليفة يلجأ الى رأي الوزير ومشورته ، او مأخوذ من الازر وهو الظهر لان الخليفة يقوى ويستند الى وزيـر كما يسـتند البدن الـى الظهر ، او مأخوذ من الوزر (بكسر الواو) وهو الثقل لان الوزير يحمل عن الخليفة اعباءه ومسؤولياته .

ويرى الزمخشري في (اساس البلاغة) بان وظيفة الوزير هي ان يؤازر الملك اعباء الملك . وقـد قال ابو بكر الصديق للانصار اثناء المشـادة حول الخلافة (منا الامراء ومنكم الوزراء) . وقد استعملت العرب قبل الاسـلام كلمة وزير في اشعارها كما سمت به ابناءها مما يدل على شـيوع الكلمـة واستعمالها لديهـم .

يتضح من ذلك ان الاصطلاح عربي في اصله واشتقاقه رغم ان بعض المستشرقين ومن تبعهم من الباحثين قد اعادوا الاصطلاح الى اصل فارسي قديم فيرى المستشرق بابنجر مثلا في (دائرة المعارف الاسلامية) ان كلمـة وزير مشتقة من كلمة فيشير الفارسية .على ان فيشير تعني بالفارسية قاضياً ثم ان عمل القاضي يختلف عن عمل الوزير . هذا اضافة الى ان الشبه في الالفاظ لا يقوم دليلا على الاقتباس . واخيرا وليس آخراً فان لغويي العرب اهتموا بتمييز الكلمات الدخيلة على العربية وحاولوا ارجاعها الـى اصولهـا وقـد أجمعوا على ان كلمة وزير عربية استعملها العرب قبل الاسلام ووردت في القرآن وفي الروايات التاريخية عن تاريخ العرب والمسلمين . اما كريستنسن فيعتقد في كتابه (ايران في عهد الساسانيين) بان نظام الوزارة مقتبـس من الدولـة

الساسانية ويرى بان ماتذكره المصادر العربية الاسلامية عن نظرية الوزارة تشبه الى حد كبير نظام الوزارة الساساني الا اننا نرد على هذا القـول كذلك بأن الوزارة من الناحية النظرية تختلف عن واقعها العملي في الدولة العربيـة الاسلامية ذلك لان الفقهاء وكتاب السياسة الشرعية وضعوا نظرياتهم حـول الوزارة بعد مدة طويلة من ظهور منصب الوزارة • ويبدو المستشرق جوتين اكثر اعتدالا وموضوعية في آرائه فيرى بان اصل اصطلاح الوزارة وكذلك المنصب نفسه ذو جذور عربية ولوانه استفاد من نظام الوزارة الساساني بعض الشيء فيما يتعلق بصلاحيات الوزير فقط •

ويرى الدكتور عبدالعزيز الدوري في (النظم الاسلامية) بان نظام‌الوزارة قد تأثر الى درجة كبيرة بظروف البيئة العربية الاسلامية في نشوئه ثم تطوره، على ان فكرة الوزارة ربما ـ كما يرى الدوري ـ اقتبست من ايران • ويعزز الدوري موقفه قائلا بان هذا المنصب يرمز الى اشتراك الفرس في السلطان الجديد على اعتبار ان الخلفاء عرب ووزراءهم فرس •

وكأن الدوري يريد ان يقول بان هناك خطة موضوعة ومدبرة في هذا الشأن سار عليها خلفاء بني العباس اعترافا منهم ـ حسب الفرضية القديمة ـ بفضل الفرس في قيام الخلافة العباسية•ونحن نرد على ذلك قائلين بان الخلفاء العباسيين لم يكونوا مجبرين على اختيار وزرائهم من الفرس ذلك لان الثورة العباسية لم تكن فارسية وان الدولة العباسية لم تقم على اكتاف الفرس كما اثبتت ذلك المخطوطات التي ظهرت الى النور حديثا • ثم ان اكثر وزراء العصر العباسي الاول كانوا من (الموالي) المرتبطين بالخليفة ارتباطاً وثيقاً او من المغمورين الذين شرفهم الخليفة بهذا المنصب لكفاءتهم ومقدرتهم الادارية • ولذلك فان

ارتباط هؤلاء الوزراء بالخلافةالعباسية سواء كانوا فرساً او عرباً أم موالي كان ارتباط الولاء والاخلاص للدولــة وان مصلحة الخليفة والدولة العباســية كانت اقوى بصورة عامة من اية مصلحة اخرى مع وجــود حالات استثنائية بطبيعة الحال . ولابد ان نشير هنا بالمناسبة بان الجاحظ يميز كتلــة الموالي عن العجم او العرب ويجعلهم كتلة متميزة بحــد ذاتها مرتبطة بالولاء للدولة . وهذا هو سبب اختيار غالبية الوزراء منهم اضافة الى اسباب فنية وشخصية وسياسية اخرى .

اصطلاح الوزير في الادارة قبل العصر العباسي

رغم ان الوزير يعقوب بن داود وزير الخليفة العباسي المهدى كان اول من حصل على لقب وزير بصورة رسمية موثقة سنة ١٦٣هـ/ سنة٧٧٩م ولكن الملاحظ ان شخصيات عديدة اضطلعت بمسؤوليات الوزير وصلاحياته قبل يعقوب بن داود وقبل العصر العباسي كذلك . ويبدو ان اصطلاح وزير عرف قبل الاسلام ولكننا لا نعلم بالضبط المراد من الكلمة واغلب الظــن انها كانت تطلق على المجربين من ذوي الحكمة والرأي الذين يعينون بالمشورة اثنــاء الازمات ثم وردت الكلمة اكثر من مرة في القرآن الكريم . يقــول تعالى : (واجعل لي وزيرا من اهلي هارون اخي أشدد به ازري واشركه في امري) وهي هنا تدل على معنى الوزير في تلك الفترة التاريخية فهي مشتقة من الازر وبمعنى اخر تدل على المشاركة في المسؤولية والمؤازرة في العمل .

وقد استعمل اصطلاح الوزير في عصر الرسول (ص) ففي رواية تاريخية للطبري ان زيد ابن ثابت قال :« نحن انصار الله ووزراء رسوله » . ويــدل هذا المفهوم كذلك على ان الصحابة رضوان الله عليهم كانوا بمثابة المستشارين للرسول (ص) واعوانه ايضا . وفي العصر الراشدي استعمل ابو بكر الصديق اصــطلاح الوزيــر في مناقشـــاته مـــع الانصـــار في اجتمـــاع الســـقيفة وفـــي روايـــة عنــد ابن ابــي الحديــد ان عثمــان بــن

عفان استقدم عـدداً من الامراء والعمـال معظمهم من بنـي امية وشاورهم قائلاً : « لكل امير وزراء ونصحاء وانكم وزرائي ونصحائي واهل ثقتي » • وفي رواية تاريخية في نفس الكتاب يستعمل على بن ابي طالب كرم الله وجهه الاصطلاح بنفس المفهوم حيث قال بعد ان رشحه بعض الصحابة للخلافـة عقب مقتل عثمان بن عفان : «التمسوا غيري فأنا لكم وزيراً خير مني لكم اميرا» •

ولعل هذه الروايات تشير بان المقصود بالاصطلاح في تلك الفترة من تاريخ الاسلام معاني لا تتعدى المشاورة والمؤازرة بالرأى والعمل قد تصـل في بعض الاحيان الى المشاركة الفعلية في الحكم كما ورد في القرآن الكريم وفي حديث زيد بن ثابت ومناقشة ابي بكر الصديق او قد لاتصل الى المشاركة الفعلية كما في قول الامام علي •

فأذا جاء العصر الاموي نلاحظ بعض الروايات التاريخية تطلق اصطلاح الوزير على شخصيات تشارك عمليا في رسم سياسة الدولة والمشاركة في الحرب والادارة • ولهذا نلاحظ ابن خلدون يرى بان مرتبة الوزارة كانت موجودة بالفعل في عصر الخلافة الاموية رغم عدم تقريرها كمنصب سياسي واداري يحمل صاحبه لقب الوزير • يقول ابن خلدون :

« فكانت الوزارة ارفع رتبهم (الامويون)، هذا في سائر دولة بنـي امية فكان النظر للوزير عاما في احوال التدبير والمفاوضات وسائر امـور الجبايات والمطالبات ومايتبعها من النظر في ديوان الجند وفرض العطاء لاهلـه وغير ذلك • فلما جاءت دولة بني العباس، واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت عظم شأن الوزير وصارت اليه النيابة في انفاذ الحل والعقد وتعينت مرتبته في الدولة •• فصار اسم الوزير جامعا لخطتي السيف والقلم وسائر معاني الوزارة والمعاونة » •

على اننا نخالف ابن خلدون في رايه هذا ونرى بان الوزارة كمنصب رسمي او مرتبة سياسية ادارية لم تكن بعد مقررة القواعد مثبتة الاصول بصورة رسمية • ففي رواية للطبري مثلا يطلق اصطلاح الوزراء على مشاوري الخليفة الاموي هشام بن عبدالملك وصحابته • فلقد جاء وفد من اهل مصر لمقابلة هشام : « فلما طال عليهم ونفدت نفقاتهم كتبوا اسماءهم في رقاع ورفعوها الى الوزراء وقالوا هذه اسماؤنا وانسابنا فان سألكم امير المؤمنين عنا فاخبروه •• » •

وبمثل هذا المعنى تورد مصادرنا التاريخية روايات عديدة • فقد كان المختار بن ابي عبيد الثقفي يقول انه : « وزير محمد بن الحنفية وظهيره » وعلى لسان محمد بن الحنفية نفسه يقول المختار الثقفي عن نفسه : « اما بعد فاني قد بعثت اليكم بوزيري واميني ونجيي لنفسي وقد امرته بقتال عدوي» •

وفي رواية ان رجاء بن حيوة كان « وزيرا ومستشارا وقيما على اعمالهم واولادهم وكانت له من الخاصة عند سليمان ماليس لاحد يثق به ويستريح اليه •

ومنذ بدايات العصر الاموي اتهم الضحاك الهلالي ابن الحضرمي الذي قدم البصرة يحث الناس على الانضمام الى معاوية اتهمه بالعمل لمصلحته قائلاً « أتأمرنا ان نخلع سيوفنا من اغمادها ثم يضرب بعضنا بعضاً ليكون معاوية اميرا وتكون له وزيرا »

ويبدو ان استعمال لفظ الوزير من المرونة بحيث اطلق على أعوان الولاة وامراء الاقاليم فقد كان موسى بن نصير وزيرا لعبدالعزيز بن مروان امير مصر بل ان بعض المؤرخين سمى اعضاء الاسرة الاموية الحاكمة وزراء للخليفة بمعنى المشاورين والمساعدين • وجوز الجهشياري اطلاق لقب الوزير على عبد الحميد كاتب مروان بن محمد اخر خلفاء بني امية • واذا كنا

نتفق مع ابن طباطبا في ان (الوزارة لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها الافي دولة بني العباس) ومعمقولة ابنالمقفع فيان السلطان «لا يستطاع الا بالوزراء والاعوان » فاننا لابد ان نشير بان هذه الافكار حول الوزارة لم تتبلور مع مجيء العباسيين الى السلطة بل اخذت بعض الوقت حتى اختمرت وتوضحت •

وعلى ذلك فالصحيح والواقع هو ان المفهوم الاموي للوزير بقي ساريا ردحاً من الزمن خلال العصر العباسي الاول • وهذا يؤكد عروبة الوزارة في نشأتها وتطورها التدريجي عن العصر الاموي وعن مفاهيم العرب للوزير قبل العصر الاموي • فلم يكن ابو سلمة الخلال في البداية وزيرا لدولة بل كان وزيرا لدعوة هي الدعوة العباسية وكان لقبه (وزير آل محمد) كما كان المختار الثقفي وزيرا لدعوة ابن الحنفية •

وحين تأسست الدولة العباسية لم يعط لقب وزير بصورة رسمية للخلال وكانت صلاحياته خلال فترة تواجده القصيرة قبل مقتله محدودة وتتضارب مع صلاحيات الخليفة ابي العباس ومع صلاحيات ابي مسلم الخراساني وربما اخرين غيره •

ورغم ان ابا مسلم الخراساني منح لقب (امين آل محمد) وشارك في عمليات عسكرية في المشرق وبلاد الشام وكان واليا للعباسيين على خراسان• الا ان ابا مسلم الخراساني حين اختلف مع الخليفة ابي جعفر المنصور وعزم على القطيعة والرحيل كتب الى الخليفة الرسالة التالية :

> (انه لم يبق لامير المؤمنين اكرمه الله عدوا الا امكنه الله منه وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان ان اخوف ما يكون الوزراء اذا سكنت الدهماء • فنحن نافرون عن قربك حريصون على الوفاء بعهدك ماوفيت حريون بالسمع والطاعة غير انها من بعيد تقارنها السلامة • فان ارضاك ذلك فانا

كاحسن عبيدك وان ابيت الا ان تعطي النفس ارادتها نقضت
ما ابرمت من عهدك ضنا بنفسي) .

فاجابه الخليفة المنصور : (قد فهمت كتابك وليست صفتك صفةاولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم) .

وواضح من هذين النصين استمرار ورود اصطلاح وزير في بدايات العصر العباسي بمعنى المساعد والمستشار وانها كانت تطلق على بعض الولاة والأمراء ممن لعبوا دورا في الدعوة العباسية وفي نشوء الدولة العباسية .

وفي عهد المهدي العباسي اطلق الاصطلاح على مساعديه في رسم سياسة الدولة وعلى صحابته حيث ترد رواية عن مشاورة المهدي لوزرائه :

(فقال المهدي لوزرائه ما تقولون في حاجة ابن هرمة وما عندكم فيها من التلطف ؟) .

وواضح من هذا النص ان المهدي يقصد مستشاريه وذلك لأن المهدي كان لديه وزير مسؤول وله صلاحيات معينة بل ان المهدي كان اول خليفة عباسي يصدر مرسوما رسميا بتقليد الوزارة ليعقوب بن داود كما سيرد ذلك فيما بعد .

وفي رواية تاريخية اخرى جمع الخليفة المهدي (وزراءه) لبحث تمرد خراسان حيث كسرت الخراج وسألت ما ليس لها بحق : (فلما انتهى ذلك الى المهدي خرج الى مجلس خلائه وبعث الى نفر من لحمته ووزرائه فاعلمهم الحال واستنصحهم الرعية) .

وتستطرد الرواية نفسها فتشير الى الحاضرين باسمائهم او كنتلهم . فقد امر المهدي مواليه بالابتداء بالكلام ثم قال لعمه العباس بن محمد ان

يعطى الرأي الاخير بترجيح احد الآراء ، وامر محمد بن البعيث باثبات مقالتهم في كتاب • وكان بين الحضور سلام صاحب المظالم والربيع بن يونس الحاجب وابو عبيدالله معاوية وزير الخليفة • والفضل بن العباس وصالح العباسي وهارون وعلي وموسى اولاد الخليفة •

والملاحظ في هذه الرواية انها فرقت بين الاقوياء (اللحمة) وبين الوزراء رغم انهم جميعا من الاعوان والمستشارين ، كما سمت الرواية كل مستشاري الخليفة بالوزراء رغم ان للخليفة وزيرا واحدا معينا هو أبو عبد الله معاوية•

واخيرا وليس آخرا فلابد من القول بان اصطلاح الوزراء بهذا المعنى المطلق الذي استعمله مؤرخونا الرواد في رواياتهم التاريخية يعني في اعتقادنا اول مايعنيه وجود تلك النخبة او الصفوة التي يستشيرها الخليفة او يستعين بها في تدبير امور السياسة والادارة وقد كانت هذه النخبة تشاركه في صنع القرار •

الوزارة من الناحية النظرية

اشرنا سابقا الى ان الوزارة في نظريتها كالخلافة نشأت من افكار بسيطة ثم تطورت وتعقدت حتى استكملت معالمها في فترة متأخرة من العصر العباسي • ولذلك فان الباحث في الوزارة كالباحث في الخلافة يستشعر بوجود فجوة كبيرة بين الواقع العملي والنظري • ومع ذلك فان التعريف بنظرية الوزارة مهم لفهم التفكير السياسي والاداري الاسلامي •

ان الوزارة الاسلامية تصنف من قبل كتاب السياسة الشرعية كالماوردي الى صنفين :

اولهما — وزارة التفويض وفيها يفوض الخليفة الى وزيره تدبير الامور برأيه واجتهاده وبهذا يصبح للوزير سلطة مطلقة في الحكم والتصرف والتولية والعزل وصرف الاموال ، ويجوز لوزير التفويض ان يحكم بنفسه او يقلد الحكام في المظالم بدل الخليفة ويتولى الجهاد احيانا •

ولذلك يسميه السيوطي (نائب الملك) ومن اشهر وزراء التفويض البرامكة ويعقوب بـن داود في اول وزارته والفضل بن سهل (ذو الرئاستين) •

ثانيهما ــ وزارة التنفيذ والوزير فيها وسيط بين الخليفة والولاة والامـراء والرعية وهو منفذ لاوامر الخليفة ليس الا ويعرض عليه ما يرد من الامور ليعمل فيها بما يأمره به الخليفة فهو معين على التنفيذ وليس متقلداً للامور وكان وزراء المنصور وزراء تنفيذ •

وقد ذكر كتاب الاحكام والسياسة الشرعية الفرق بين وزارة التنفيذ ووزارة التفويض ويمكن تلخيصها بما يلي :

١ ــ ان وزير التفويض يباشر الحكم بنفسه وله حق النظر في المظالم •

٢ ــ ان وزير التفويض يحق له تقليد الولاة وعمال الخراج •

٣ ــ لوزير التفويض الحق في تسيير الجيوش وتدبير امر الحرب •

٤ ــ لوزير التفويض الحق في التصرف بالاموال وتعيين وجهات صرفها مـن بيـت المـال •

٥ ــ يشترط في وزير التفويض شروطا لابد من اعتبارها عند اختيار وزيـر التفويض وهي : الحرية والاسلام والعلم بالشرع والمعرفة بأمور الحرب والخراج • وكل هذه الامور غير معتبرة في وزارة التنفيذ • فلو اقام السلطان وزير التنفيذ من اهل الذمة كان ذلك جائزا رغم اختلاف اراء الفقهاء في ذلك وحددوا تولية الذميين الى اضيق الحدود فقال صاحب كتاب (تحرير الاحكام في تدبير اهل الاسلام) انه لا يجوز توليـة الذمي شـيئاً مـن ولايات المسـلمين الا في جبايـة الجزيـة مـن اهل الذمة او جباية مايؤخذ من تجارات المشركين • الا ان هذه الشروط وغيرها بقيت وليس لها واقع عملي في احيان كثيرة ، سـواء كانت في

الفروق بين الوزارتين او في الشروط الواجب توفرها في الوزراء •

لقد عالج موضوع الوزارة بالاضافة الى كتاب السياسة الشرعية العديد من الفلاسفة والعلماء ولعل اقدمهم في هذا الباب ابن المقفع الذي قال :

(لا يستطاع السلطان الا بالوزراء والاعوان ولا ينفع الـوزراء الا بالمودة والنصيحة) • ويقول ابن المقفع :

(حلية الملوك وزراؤهم وابصر الوزراء من بصر صاحبه عيبه بالامثال)

ويشير ابن ابي الربيع في كتابه (سلوك المالك في تدبير الممالك) الى الوزارة فيقول : (اعلم انه لابد لمن تقلد الخلافة والملك من وزيـر على نظم الامور ومعين على حوادث الدهور يكشف له صواب التدبير) •

وقد الف ابو الحسن الماوردي كتابا في ادب الوزير ومما قاله عن الوزير :

(انت ايهاالوزير في منصب مختلف الاطراف تدبر غيرك مـن الرعايا وتتدبر بغيرك من الملوك فانت سائس ومسوس تقوم بسياسة رعيتك وتنقاد لطاعة سلطانك فتجمع بين سطوة مطاع وانقياد مطيع)

ويستطرد الماوردي ناصحا الوزير فيقول :

(واعلم ايها الوزير انك مباشر لتدبير ملك له اس هو الدين المشروع ونظام هو الحق المبتدع • واعلم انك لـن تستغزر موادك الا بالعدل والاحسان ولن تستدرها بمثل الجـور والاساءة لان العـدل استثمار دائم والجور استئصال منقطع) •

وقد عالج ابن الطقطقى في كتابه موضوع الوزارة والوزير فقال :

(الوزير وسيط بين الملك ورعيته فيجب ان يكون في طبعه شطر يناسب طباع الملوك وشطر يناسب طباع العوام ليعامل كلا من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة . الامانة والصدق رأس ماله) .

اما ابن خلدون فقال عن الوزارة : (هي ام الخطط السلطانية والرتب الملوكية لان اسمها يدل على مطلق الاعانة) . ويرى ابن خلدون بان الوزارة من ارفع الرتب في الدولة الاسلامية وان الوزير جمع في احيان كثيرة خطتي السيف والقلم وسائر معاني الوزارة والمعاونة .

الوزارة في العصر العباسي الاول

لما انتقلت الخلافة الى العباسيين لم يكن منصب الوزير موجوداً مع معرفة العرب المسلمين به . ويرى المسعودي ان بني العباس (استخارت تسمية الكاتب وزيراً) يؤيده ابن الطقطقى فيقول (لما ملك بنو العباس سمي الوزير وزيرا وكان قبل ذلك يسمى كاتبا او مشيرا) .

ومن الناحية التأريخية الواقعية تذكر رواياتنا التأريخية بان جيش العباسيين الذي دخل الكوفة في ١١ محرم الحرام سنة ١٣٢ هـ / سنة ٧٤٩ م سلم على الداعية ابي سلمة الخلال في الكوفة وسماه (وزير آل محمد) وهكذا ظهر المنصب ولكن قبل اعلان الخلافة العباسية وقبل اعلان الخليفة العباسي والكشف عن اسمه ، ولهذا يبقى منصب الخلال غير واضح وصلاحياته غير معروفة .

وبمرور الزمن في عهد الخليفة ابي العباس وقوة الاتجاه نحو المركزية في الدولة العباسية تطلب وجود شخص يعاون الخليفة وهكذا بدأت صلاحيات

الوزير تنمو من البساطة الى التعقيد • ومع ان مسؤوليات الوزير لم تكن في البداية تبعد كثيرا عن مسؤوليات الكاتب في العصر الاموي ولـم يكن ابو سلمة الخلال سوى مشاور للخليفة ولم تكن الدواوين كلها بيده • مع ذلك كله فان ابن الطقطقى يقول :

(ان اول وزير لاول خليفة عباسي ابو سلمة الخلال • وكان من مياسير اهل الكوفة وكان ينفق ماله على رجال الدعوة) •

كما يسميه الطبري في رواية تاريخية (وزير الامام) اي وزير ابراهيم الامام مفجر الثورة العباسية ، وخاطبه ابو مسلم الخراساني بلقب الامـارة والوزارة وكان ابراهيم الامام يكتب له قبل سنة ١٢٧هـ /٧٤٤م ويسميه(داعية الهاشميين ووزيرهم) •

ولكن ما هي صلاحيات الخلال كوزير بعد تأسيس الدولة العباسية ؟ ان مصادرنا التاريخية لاتحدد بالضبط مسؤولياته وصلاحياته ولكنها تذكـر تأسيسه لدواوين جديدة في الكوفة وتعيينه الولاة والعمال علـى الاقاليـم وارساله الجيوش ضد الامويين واتباعهم وقيادته لبعض العمليات العسـكرية ضد الجيوب المقاومة للثورة العباسية •

ولكن من جهة اخرى لم تكن الدواوين كلها بيده فقد كان ديوان الجند وهو اهم الدواوين وديوان الخراج بيد خالد البرمكي •

وكان للخلال العديد مـن صفات الوزيـر النظرية فكان فقيها عالمـا بأخبار العرب واشعارها وبالسـير والتفسير وكان قبل إستيزاره مـن فئـة الكتاب • لقد انتهت سلطة الخلال بسرعة بعد اقل من اربعة اشهر حيث قتل بسبب

محاولته نقل الخلافة الى العلويين واتصاله سرا بشخصيات علوية • ان المتمعن في سبب سقوطه يلاحظ اتساع نفوذه السياسي الذي اصبح واسعا بحيث بات يهدد نفوذ الخليفة العباسي، ثم يلاحظ المنافسة بينه وبين ابي مسلم الخراساني منافسه القوى حيث تعتبرهما الروايات التاريخية الرجلين القويين الوحيدين في هذه الفترة المبكرة من الخلافة العباسية • وهذا ربما يفسر دور ابي مسلم الخراساني في مقتله من اجل التخلص من نفوذه •

ان نهاية الخلال تعتبر مظهرا من مظاهر الغموض في وضع الوزارة من جهة والتصادم بينه وبين الخليفة او رجالات الدولة الآخرين من جهة اخرى ولهذا فيمكننا القول بان اطلاق لقب الوزير على الداعية الخلال لا يدل على ان الوزارة كمؤسسة رسمية قد بدأت اعمالها وصلاحياتها مع بداية الدولة العباسية الجديدة • فهذا التفسير يعتبر نظريا فقط وقد اشاعه بعض المؤرخين وعلى رأسهم الدينوري (في الاخبار الطوال) الذين راوا ان من الطبيعي ان تبدأ الوزارة مع بداية الدولة الجديدة • وهذا ينسجم مع تفسيرات الدينوري ونزعته الفارسية حيث أراد أن يجعل من الخلال اول وزير (فارسي) للدولة العباسية التي كما يزعم في رواياته (قامت على اكتاف الفرس) • وهذه فرضية خاطئة دون شك اسقطها البحث التاريخي الحديث • ان عدم تحديد صلاحيات الوزير وعدم وضوح منصب الوزارة خلال هذه الفترة المبكرة من العصر العباسي جعل التصادم محتوما بين الوزير الذي يريد ان يسيطر على كل شيء والخليفة الذي يحاول ان يجعله معيناً له فقط • ولهذا لم تكن العلاقة جيدة بين الطرفين ولقي بعض الوزراء مصيرا سيئا وانتهى العصر العباسي الاول بالتأكيد على سلطة الخليفة • وللسبب نفسه تجنب الوزراء الذين خلفوا الخلال ان

يسموا انفسهم بالوزير ففي رواية تاريخية : (ان كل من استوزر بعد ابي سلمة كان يتجنب ان يسمى وزيرا تطيرا لما جرى لابي سلمة) • وقال الشاعر :

ان الوزير وزير آل محمد   اودى فمن يشناك كان وزيرا

على ان العديد من المؤرخين الرواد يعطون لقب وزير الى ابي الجهم بن عطية الباهلي وهو احد الدعاة الاوائل الذين شاركوا في الثورة العباسية • ولكن مؤرخين اخرين يشيرون الى خالد بن برمك باعتباره الوزير الذي اعقب الخلال • ان ذلك يوضح مدى تناقض اقوال المؤرخين حول وضع الوزارة العباسية • واغلب الظن ان بعض مؤرخينا الرواد حين لاحظوا غياب الوزير بعد الخلال لم يتورعوا عن اعطاء اللقب لهذا او ذلك من الشخصيات المقربة جدا للخليفة ابي العباس • الا ان واقع الامر يدل على ان هذه الشخصيات لم تمنح لقبا معينا من قبل الخليفة •

وحين جاء المنصور الى الخلافة بعد اخيه ابي العباس كان خليفة قويا حازما ينظر في كل صغيرة وكبيرة بنفسه ولذلك فان الوزير على عهده لايتعدى عمله التنفيذ وابداء النصح • ولم يكن له وزير دائم وانما كان يتخذ كاتبا مرة ووزيرا مرة اخرى • يقول كتاب الفخري :

(لم تكن للوزارة في ايام المنصور طائلة لاستبداده واستغنائه برأيه وكفاءته وانما كانت هيبته تصغر لها هيبة الوزراء وكانوا لا يزالون منه على وجل وخوف) •

ومن اشهر وزراء المنصور ابو ايوب المورياني الخوزي نسبة الى خوزستان (الاحواز) وكان صرافا في بداية حياته ثم غدا كاتبا لامير الاحواز في اواخر العصر الاموي • وقد نجح المورياني في اقناع الوالي الاموي على الاحواز باطلاق سراح أبي جعفر المنصور بعد ان سجنه لنشاطات سياسية

ضد الامويين قبل اندلاع الثورة العباسية ، ولم ينس ابو جعفر ذلك للمورياني تقول رواية :

(كانت له بأبي جعفر حرمة رعاها له فخف على قلبه فلم يزل امر ابي ايوب يعلو ومحله من رأى ابـي جعفر يزيـد حتى قلده وزارته وفوض اليه امره كله)

وقد تقلد المورياني الدواوين مع الوزارة مما يشير الى اتساع سـلطته على ان المصادر لا تتفق على اعطائه لقب الوزير ٠ فالطبري لا يمنحه هذا اللقب ويتردد البلاذري في اعطائه له فهو مرة يسميه كاتبا ومـرة وزيـرا ولكـن الجهشياري لا يتردد في تلقيبه بالوزير ٠ ولذلك فنحن نتساءل هل ان اضفاء لقب الوزيرعلىالمورياني كان تفسيرا متأخرا من الجهشياري ومن جاء بعده معتمدا على الصلاحيات الواسعة التي تمتع بها المورياني ؟؟ ولكن دون شك كان المورياني اكبر من كاتب للمنصور وانه كان المعين الاول للخليفة دون ان يحمل لقب وزير بصورة رسمية٠لقد سقط المورياني بعد خدمة طويلة في الادارة العباسية ويبدو ان سبب سقوطه يعود الى تبذيره مبلغ ثلثمائة الف درهم حيث امره المنصور باستثمارها في ضيعة فلم يفعل ٠ وقد صودرت امواله واموال اعوانه والمقربين اليه ومات فيالسجن سنة ١٥٤هـ/٧٧٠م ٠وقال الشاعر بعد موت المورياني :

اسوأ العالمين حالا لديهم من تسمى بكاتب او وزير

لقد كان غضب المنصور على المورياني بمقدار الثقة التي اعطاها له ٠ ولقد كانت هذه الثقة كبيرة لان نفوذ المورياني وسلطاته كانت واسعة بحيث ان المهمات التي اضطلع بها المورياني وزعت على اكثر من شخصية فقد قلد المنصور ديوان الخاتم للفضل الطوسي وقلد النفقات والعرض للربيع بن يونس

وقلد الرسائل والسر لابان بن صدقة ووزع امور الضياع والخراج على العديد من الكتاب •

ومع ذلك فان مصادرنا التاريخية تحاول ان تبرز الربيع بن يونس على انه الشخصية التي تتمتع بالمقام الاول عند المنصور بعد سقوط المورياني وبقي كذلك حتى وفاة المنصور • وتصف بعض الروايات التاريخية الربيع :

« كان جليلا نبيلا منفذا للامور مهيبا فصيحاً كاتبا حازما عاقلا فطنا خبيرا بالحساب والاعمال حازما بامور الملك بصيرا بما يبقى ويذر محبا لفعل الخير » •

وقد اشتهر الربيع بلباقته وذكائه وحسن سياسته ولعب دورا كبيرا في البيعة بولاية العهد للمهدي حيث استوثق البيعة من الهاشميين كافة • وكان يظهر في العديد من المناسبات مع الخليفة وبجانبه يشير اليه ويجيبه على تساؤلاته • وكان مشرفا على بناء قصر الخلد كما كان مسؤولا عن رقيق الخليفة ولديه كذلك مفاتيح الخزائن •

ويشير الجهشياري الى المراسم الرسمية التي اتبعت في تقليد الربيع ابن يونس الوزارة والعرض على الخليفة فيقول :

« ولما عزم على تقليد الربيع العرض عليه قال اجلس في بيتك حتى يأتيك رسولي •• فصار اليه الرسول بدراعة وطيلسان وشاشية•فقال له ألبس هذا واركب بهذا الزي فركب • فامر الفراش ان يطرح له مرفقة تحت البساط تقصيرا به عن منزلة المهدي وعيسى بن علي••فلما وصل اليه قال له : قد وليتك الوزارة والعرض »

وعلى هذا فان نفوذ الربيع بن يونس في عهد المنصور لم يكن اقل من نفوذ سلفه المورياني ولقد كان الاثنان مساعدين رئيسيين للخليفة دون ان

يحق لهما اتخاذ اجراءات مهمة الابعد الاستئناس برأي المنصور حيث ان طبيعة المنصور لم تكن تسمح لهما بذلك .

لقد شهد عهد المنصور بداية نظام جديد فمن اجل ان يكون ولي العهد قادرا على تحمل مسؤولياته حيث يأتي اليوم الذي يكون فيه خليفة المسلمين، قرر المنصور ان يلحق بولي عهده المهدي مربيا وكاتبا يدربه ويعده لليوم الموعود . وفي رواية ان المنصور كان « قد عزم ان يستوزر ابا عبيدالله معاوية بن يسار لكنه اثر به ابنه المهدي » . ولم يمض وقت طويل حتى غدا ابو عبيد الله معاوية يدير بكفاءة شؤون محمد المهدي قبل خلافته وان يصبح الرجل الاول الى جانب المهدي بعد أن اصبح خليفة للمسلمين سنة ١٥٨هـ/٧٧٤م لقد كان عهد الخليفة المهدي عهد استقرار نسبي ولكن المهدي لم يكن بقوة شخصية والده المنصور بل يميل الى الترف والبذخ وقد طغت شخصية بعض وزرائه عليه . ولهذا يقول كتاب الفخري : « ظهرت ابهة الوزارة في عهد المهدي» اي ان نفوذ الوزراء وسلطاتهم الواسعة برزت في ذلك العهد.وقد بقي ابو عبيدالله معاوية بن يسار في منصبه اربع سنوات وفوض اليه المهدي تدبير المملكة وادارة الدواوين . وكان ابو عبيدالله مشهورا باستقامته وعفته وحكمته . واليه يعود الفضل في ابتداع نظام المقاسمة اي تنظيم الخراج في ارض السواد على الطريقة العينية . كما انه صنف كتابا في الخراج مما يدل على خبرته الكبيرة وتقديره لمسؤولياته .

يؤكد الجهشياري ان ابا عبيدالله معاوية استلم الوزارة والدواوين وفي رواية تاريخية ان ابا عبيدالله :

> « كان غالبا على امور المهدي لا يعصي له قولا وكان المنصور لا يزال يوصيه فيه ويأمره بامتثال ما يشير به فلما مات المنصور وتولى المهدي الخلافة فوض اليه تدبير المملكة وسلم اليه الدواوين » .

ويبدو من هذه الرواية ان ابا عبيد الله لم يمنح لقب وزير بعد خلافة المهدي وهذا مايؤكده الطبري ، كما وان الجهشياري لايشير الى مراسيم توزيره او منحه اللقب رغم انه يقول باستلامه الوزارة والدواوين وهذا يدل على ان اصطلاح وزير كان ولازال مرنا غير متبلور وان المفهوم منه في تلك الفترة هو الكاتب الاول للخليفة ومدبر امور الدولة او الشخصية المرتبطة ارتباطا وثيقا بالخليفة وينسحب كذلك على الشخصية الاولى المرتبطة بولي العهد .

على ان سلطة ابي عبيد الله معاوية لم تدم طويلا فقد نقل المهدي ثقته الى يعقوب بن داود واتخذه وزيرا له سنة١٦٣هـ/٧٧٩م . وقد اشتهر يعقوب بن داود بثقافته الواسعة ولباقته وكياسته وحسن تصرفه وهذه الصفات هي التي جذبت نظر الخليفة المهدي اليه اضافة الى ميول يعقوب بن داود الى العلويين . ولما كان المهدي يرغب في ايجاد نوع من الوفاق الودي والمسالمة بين فرعي بني هاشم العباسيين والعلويين فقد اختار يعقوب بن داود لمنصب الوزارة ليقوم بمهمة الوسيط وقد قربه وسماه (اخي في الله) حتى انه انفرد بتدبير الامور كلها ولهذا يقول الشاعر : ٠

بني امية هبوا طال نومكم ان الخليفة يعقوب بن داود

ولعل اول شخصية سياسية في العصر العباسي تتفق الروايات التاريخية على انها تلقبت رسميا بلقب (وزير) هي شخصية يعقوب بن داود السلمي بالولاء . وتتباين الروايات التاريخية في الوقت الذي حصل فيه يعقوب على لقب (الاخاء) وعلى (الوزارة) ومنصبها ولكننا نتفق مع رواية الطبري التي تؤكد حصوله على اللقب الاول قبل اللقب الثاني بسنوات وانه كان له مغزاه السياسي حيث اصدر المهدي توقيعات اثبتت ذلك في الدواوين . فلقد كان

من الطبيعي ان يسبق تعيين معارض قديم للنظام العباسي في منصب رفيع كالوزارة اصدار عفو كامل عنه لذلك اعلن الخليفة انه (اخوه في الله) مشيرا الى قلب صفحة جديدة • اي ان الاخاء خطوة ضرورية تسبق منحه لقب الوزير وتزيل ترسبات الماضي المريرة • وقد قلد يعقوب بن داود سلطات واسعة في الدولة وكان تأثيره كبيرا فقد (غلب على امر المهدي ووزارته) (وتفرد بتدبير الامور كلها) (وفوض اليه المهدي امر الخلافة) • وقد استغل يعقوب الموقف فعين اقرباءه وانصاره من الزيدية في مناصب الدولة المهمة • وكان له في كل اقليم امين فكان الوالي لا ينفذ امرا دون ان يستشيره •

ولكن سلطة يعقوب بن داود لم تدم طويلا حيث حظي بالوزارة اربع سنوات ثم عزله الخليفه وسجنه وكان سبب ذلك يعود الى فشله في سياسة التوفيق بين العلويين والعباسيين • وقد بقي يعقوب في سجن المطبق ببغداد اعواما عديده حتى اخرجه الرشيد فقضى بقية حياته في مكة المكرمة •

استند المهدي بعد يعقوب بن داود على الفيض بن صالح وكان من طبقة الكتاب تربى في الدولة وتأدب وبرع في الكتابة •

ويلاحظ ان الوزارة رسخت في عهد المهدي وزاد نفوذ الوزراء وغدت تسمية الوزراء بمراسيم رسمية كما حدث ليعقوب بن داود • ولكن الخليفة كان ولا يزال يتمتع بسلطة كبيرة حيث يعزل وزراءه ويعينهم كما يشاء • كما يلاحظ ان الخلفاء يسندون كتابتهم ووزارتهم الى شخص واحد فقد قلد المهدي ابان بن صدقة كتابتهووزارته واستمر هذا العرف بعد عهد المهدي كذلك • وعند وفاة المهدي سنة ١٦٩هـ /٧٨٥م كان ولي عهده الاول موسى الهادي واليا علي جرجان وارتبط به عبيدالله بن زياد ابن ابي ليلى الذي كان مسؤولا عن الرسائل كما اعتبر وزيرا لولي العهد ، وتحت تأثير زوجته الخيزران قرر المهدي اختيار هارون لولاية العهد الاولى ولكن موسى رفض التنازل عن حقه

عدة مرات مما اضطر المهدي الى السير اليه سنة ١٦٨هـ /٧٨٤م ومعه هارون لاجباره على التنازل . وقد ترك المهدي في بغداد الربيع يونس حاجبه نائبا عنه في بغداد . وهنا تجدر الاشارة انه لاول مرة في تاريخ العباسيين يعين الخليفة (نائبا عنه) في بغداد شخصية غير عباسية بل احد مواليه المقربين له .

وفي الطريق توفي المهدي وعاد هارون الى بغداد واخذ البيعة لاخيه موسى الهادي . وفي انتظار عودة الهادي من جرجان التي استغرقت حوالي ثلاثة اسابيع اصبح الامير هارون نائبا للخليفة في بغداد يساعده الربيع بن يونس . وخلال هذه الفترة اوعز الربيع بن يونس للخيزران وكتلتها من البرامكة وغيرهم لتأكيد ولاية العهد لهارون بعد الهادي وكتب بذلك الى الاقاليم . وقد انزعج الهادي لهذا الاجراء المتعجل وهدد الربيع بن يونس ولكن الربيع الذي غدا من اقدم خاصة الخلفاء في البلاد استطاع ان يسترضيه ويعتذر اليه :

(فاعتذر اليه واعلمه السبب الذي دعاه الى ذلك فقبله وولاه الوزارة مكان ابي عبيدالله بن زياد وضم اليه ماكان عمر بن بزيع يتولاه من الزمام)

وهكذا اصبح الربيع بن يونس وزيرا للمرة الثانية ومع هذا فقد ابقى الهادي الى جانبه العديد من المسؤولين فكان محمد بن جميل على ديوان خراج العراقين وعبيد الله بن زياد على خراج الشام ومايليه وعلي بن عيسى بن ماهان على الحرس وديوان الجند وعبدالله بن مالك على الشرطة وعلى بن يقطين على الخاتم . على ان اصطلاح الوزير يبقى في هذه الفترة اصطلاحا مرنا وغير واضح المعالم والصلاحيات ولايزال يستعمل احيانا ليعني المستشار والمساعد الاول او الكاتب الاول . فبعد عودة هارون الى بغداد تشير رواية تاريخية « وكان هارون خليفة الهادي (في بغداد) ومعه الربيع بن

يونس وزيرا » وقد لاحظنا ان للهادي وزيرا حين كان وليا للعهد هو عبيدالله ابن زياد وينعت المسعودي ابراهيم بن ذكوان الحراني على انه وزير للهادي ويؤيده في ذلك الجهشياري •

وهكذا تبقى الوزارة اصطلاحا مرنا ومنصبا غير محدود الصلاحيات وان العديد من الشخصيات لقبوا بهذا اللقب ولم يكن عملا محددا سوى المشورة وتنفيذ تعليمات الخليفة العباسي • بل ان بعض المؤرخين يطلقون على صاحب ديوان الرسائل وصاحب ديوان بيت المال لقب الوزير بسبب زيادة نفوذهم منذ عهد المهدي •

ان الشخصيات التي تلقبت بلقب وزير بصورة رسمية قليلة جدا ، فالخلال منح اللقب باحتفال خاص في عهد ابي العباس ويعقوب بن داود الذي يعتبر اول وزير منح اللقب بمرسوم رسمي صدر عن الخليفة المهدي ، اما ماعدا ذلك فان الرواة والمؤرخين هم الذين منحوا لقب الوزير لأكثر الموظفين حظوة لدى الخليفة دون ان نجد مايثبت ذلك في الوثائق او المراسيم الخلافية للدولة العباسية •

ولعلنا نستنتج من ذلك بانه لم يكن هناك منصب وزاري لحد الان بل كان هناك شخصيات تلقبت بالوزير وتمتعت بنفوذ معين اختلف من « وزير » الى آخر ، ولقد اتضح خلال فترة العقود الاربعة او الخمسة من تاريخ العباسيين الاوائل اتجاهان رئيسيان :

الاول ـ النمو المتزايد لنفوذ الاداريين من الكتاب (اصحاب القلم) الذين استطاعوا بقابلياتهم ان يضطلعوا بالاشراف على الادارة مثل المورياني وخالد البرمكي وابي عبيد الله معاوية •

الثاني ـ ظهور شخصية معينة من بين خاصة الخليفة ربما كان حاجباً او مدبرا لامور القصر او مساعدا ولكنه غير محترف لامور الادارة ثم تزايد

نفوذه ليصبح بمرتبة مستشار مثل الربيع بن يونس والى حدما يعقوب بن داود ٠

انهذين العاملين وهما القابليات الادارية والضرورات السياسية سيندمجان ليكونا مايسمى بالوزير بعد فترة قصيرة ٠ فالوزير يوصف في روايات التاريخ العباسي بكونه كاتباً حاذقاً في الادارة وسياسيا ماهرا ٠ وهذا ماأثبته يحيى البرمكي حين تولى الوزارة لهارون الرشيد ٠

وهناك ملاحظة اخرى جديرة بالاشارة خلال نفس الفترة المنصرمة من تاريخ العباسيين الاوائل وهي أن اغلب وزراء هذه الفترة كانوا من الموالي فكان الخلال مولى لبني الحارث او لقبيلة سبيع والموريابي عبداً او مولى فارسياً والربيع بن يونس مولى مغمور النسب وابو عبيدالله معاوية مولى من طبرية بفلسطين ويعقوب بن داود مولى لبني سليم والفيض بن صالح مولى من نيسابور امه مسيحية اسلم وانتقل الى خدمة العباسيين وتربى وتأدب تحت رعايتهم والبرامكة موالي لقبيلة الازد ٠ ولعل هذه الحقيقة هي التي دفعت بعض المؤرخين المحدثين الى القول بان اسناد الوزارة الى هؤلاء الموالي او على حد تعبيرهم (العجم) يدل على تقدير العباسيين لمساعدة الفرس او العجم في نجاح الثورة العباسية ولذلك اشركوهم في الحكم على اعتبار ان السلطة قسمة بين العباسيين العرب وهم خلفاء الدولة والفرس العجم وهم وزراء الدولة ونكرر القول هنا بان هذه الفرضية لااساس لها من الصحة في رواياتنا التاريخية فلا الثورة العباسية قامت على اكتاف الفرس ولم يدر في خلد خلفاء بني العباس ان يرسموا خطة مدبرة لجعل وزرائهم من العجم او الفرس دون غيرهم ٠

ان هؤلاء الوزراء كغيرهم من رؤساء الكتاب واصحاب الدواوين كانوا من كتلة الموالي الذين اصطنعهم الخلفاء فاصبحوا موالي للخليفة وللدولة ولهذا فان ولاءهم واخلاصهم كان للخليفة وللدولة لا لعنصرهم او

اقليمهم هذا مع وجود حالات استثنائية لا يمكن ان تتخذ قاعدة عامة ، ومن هذا المنطلق يميز الجاحظ بذكاء وحذق بين كتلة الموالي وكتلة العجم وكتلة العرب فالموالي ليسوا العجم كما وانهم غير العرب وتشير روايات تاريخية عديدة الى مدى التحامهم واخلاصهم للدولة العباسية ، وهو امر ادركه الخلفاء واستفادوا منه فائدة كبيرة ثم انه كان باستطاعة الخليفة ان يتخلص من وزيره اذا ماتعدى هذا الوزير حدود سلطته وبكل سهولة كما لاحظنا ، لقد عين الخلفاء العباسيون وزراءهم لا لكونهم موالي او عرباً انما لقابلياتهم او صفاتهم و اخلاصهم للدولة .

لقد ظهرت ابهة الوزارة بصورة جلية وتبلورت سلطات الوزير بصورة ادق من السابق في عهد الخليفة هارون الرشيد ، وربما كان ذلك يعود الى اعتماد الخليفة على البرامكة وثقته الكبيرة بهم . والمعروف ان المهدي عين يحيى بن خالد البرمكي مربياً للامير هارون ومشرفا على شؤونه ومرافقا له في حملاته ومدبرا للمهام التي تناط به . وكان يحيى البرمكي ذا طموح كبير وآمال عريضة اراد ان يحققها من خلال الامير هارون . فوقف وراءه ليشد من عزمه ويشجعه على التمسك بحقه الشرعي في الخلافة باعتباره وليا ثانيا للعهد تجاه ضغوط اخيه الهادي .

وحين فوجيء البلاط والناس بموت الهادي المفاجيء استدعت الخيزران يحيى البرمكي بعد الافراج عنه من السجن وطلبت منه ابلاغ الخليفة الجديد هارون الرشيد بالامر . وقد ابتدأ الرشيد خلافته بتعيين يحيى البرمكي وزيرا وتفويض امر الدولة له . فقد خاطبه (فاحكم بما ترى واستعمل من شئت واسقط من رأيت فاني غير ناظر معك في شيء) .

وقد دخل مع يحيى البرمكي عدد من افراد عائلته وخاصة ولديه الفضل وجعفر ، ومع ذلك فان واقع الاحداث يثبت ان البرامكة لم يكونوا وحدهم في السلطة . فقد ترك الرشيد في السنوات الاولى الكثير من النفوذ لامه

الخيزران حيث استعادت سلطتها التي فقدتها في عهد الهادي . ثـــم ان يحيى البرمكي كان من الحكمة والذكاء بحيث اشرك الخيزران في الكثـير من القرارات التي اتخذها فكان يعرض عليها الامور حتى اعتبرتها بعــض الروايات (الناظرة في الامور) الى ان توفيت سنة /٧٨٩ .

ومع ان البرامكة والخيزران تمتعوا بصلاحيات واسعة الا ان شخصيات اخرى غالبيتها عربية كانت تنافسهم وتتسقط هفواتهم منذ البداية نذكر منها الفضل بن سليمان الازدي الطوسي ومحمد بن فروخ الازدي ويزيد بن مزيد الشيباني والعديد من امراء بني العباس وكذلك الفضل بن الربيع وعلى بن عيسى بن ماهان وغيرهم، وقد لعبت هذه الكتلةدورا متزايداً فيسياسة الرشيد بتقدم الزمن .

ومهما يكن من امر فان الدواوين كانت تحت اشراف يحيى البرمكي بعد سنة ١٧١هـ/ ٧٨٧محيث تمتع بمنصب الوزير . ولكن ماهي صلاحياتهكوزير؟ ان مصادرنا لا تعرفنا صلاحياته بالضبط على اننا نعلم انه كان يرأس الديوان، وان ديوان الخاتم ضم اليه سنة ١٧١هـ/ بعد وفاة الفضل بن سليمان الطوسي الازدي وتداول يحيى وولداه الفضل وجعفر رئاسة الخاتم واعطى المؤرخــون اهمية كبيرة الى منح الرشيد ديوان الخاتم للبرامكة لان الخاتم يعتبر رمز السلطة والنفوذ اللذين تمتع بهما البرامكة وكان الرشيد يسمي يحيى (ابى) ويسمى جعفر (اخي) .

وقد اشرك الرشيد جعفرا في النظر في المظالم وهذه من اختصاص الخليفة وحده كما قلده لاشراف على دور الضرب وكان الاشراف على عيار الذهب في السكة من اختصاص الخليفة ايضا . كما عهد الرشيد الى جعفر بالتوقيعات . وكان الفضل البرمكي جنديا بطبعه ولذلك فقد كان المساعد الايمن لابيه في الامور الادارية والسياسية المهمة وكان ينوب عن والده في احيان عديدة كما عين لبعض الولايات وانتدب لمهمات خطيرة .

وقد اشترك البرامكة في تثقيف وتربية اولاد الرشيد حيث عهد الى جعفر تثقيف المأمون وكان له اثره في توليته العهد ، كما عهد الى الفضل البرمكي بتثقيف الامين •

وسقط البرامكة بعد سبعة عشر عاما من النفوذ في سنة ١٧٨هـ وحار المؤرخون في تفسير اسباب ذلك على ان اهم هذه الاسباب تعاظم نفوذهم وتبذيرهم للاموال واستئثارهم بالوظائف واقتناؤهم الضياع كل ذلك اثار شكوك الرشيد الذي ادرك بان نفوذه اصبح لاشيء بالنسبة الى نفوذهم فاسقطهم من الحكم والوزارة •

ولابد ان نشير هنا بان الروايات الشعوبية الفارسية حاولت تصوير سقوط البرامكة بكونه حدثا مفاجئا دون سبب مبرر له بل أنه نزوة من نزوات الرشيد المنبعثة من عاطفة جامحة متهورة •• ولكن منطق الاحداث المستند على روايات التاريخ يؤكد خطأ هذه النظرة وان عوامل عديدة ساهمت في نقمة الرشيد عليهم ، ان سقوط البرامكة بالسهولة التي سقطوا بعد حوالي عقدين من النفوذ يدل على مدى قوة الخلافة العباسية في تلك الفترة وان الوزير كشخص والوزارة كمنصب كانا ومايزالان اضعف من ان يضاهيا مؤسسة الخلافة او يطغيا عليها مهما بلغت قوة شخصية الوزير او الصلاحيات التي منحت له •

فلما أسقط الرشيد البرامكة استوزر الفضل بن الربيع بعدهم ومازال الفضل على وزارته حتى مات الرشيد سنة ١٩٣هـ/٨٠٨م• والفضل بن الربيع من الشخصيات ذات النفس العربي والولاء العراقي والاخلاص للدولة العباسية • وكان يعد من كتلة يزيد بن مزيد الشيباني ومحمد بن فروخ

الازدي وعبدالله بن خازم التميمي وجماعتهم • ولم يكن الفضل بن الربيع على صلة مع الخيزران والبرامكة وقد قال له الرشيد بعد وفاة الخيزران :

(يافضل ، وحق المهدي ، اني لاهم لك يوم توليت الخلافة
بالشيء من التولية وغيرها فتمنعني امي رحمها الله
فاطيع امرها •• فخذ الخاتم من جعفر بن يحيى)

وكان الرشيد يناديه (ياعباسي) مما يدل على منزلته المقربة الى الخليفة ولكن يلاحظ بان الرشيد لم يجعل من الفضل بن الربيع خلفا للبرامكة في مسؤولياتهم الواسعة فقد كان يشاركه العديد من الشخصيات في الاشراف على الادارة والدواوين ومما يلاحظ المسعودي ان اسماعيل بن صبيح الحرالي كان في مرتبة الفضل بن الربيع في النفوذ الاداري والسياسي في أواخر عهد الرشيد• وهذا يدل بصورة عامة بان اختصاصات الوزير عادت الي سابق عهدها الذي كانت عليه وزارة البرامكة وهي بصورة رئيسية العرض والنفقات وربما امور اخرى يخصه بها الخليفة •

وقد استمر الفضل بن الربيع على مرتبته من الخليفة الامين • وتلقبه روايات عديدة بلقب (الوزير) ، ويبدو انه حصل رسميا على هذا اللقب • كما وانه كان مسؤولا عن ديوان الطراز وتشرف بوضع اسمه على الطرز • على ان اسماعيل بن صبيح ظل ناهضا بالمسؤوليات الملقاة على عاتقه منذ عهد الرشيد ولذلك فان مركزه بقي قويا في عهد الامين ، ويمكننا القول بان ادارة الدولة ظلت موزعة بين عدد من المسؤولين في عهد الامين•وفي عهد المأمون اصبح الفضل بن سهل ذا نفوذ واسع بحيث سمي (ذا الرئاستين) اي الحرب والتدبير وكانت وزارته وزارة تفويض ذلك لان الخليفة اصدر توقيعا بقوله فيه : « قد جعلت لك مرتبة من يقول في كل شيء فيسمع منه ولاتتقدمك

مرتبة احد مالزمت ما امرتك به من العمل لله ولنبيه والقيام باصلاح دولة انت ولي قيامها » .

والفضل بن سهل فارسي مجوسي قبل اسلامه ، وكان ابوه زرادشتيا اسلم ايام الرشيد واتصل بالبرامكة وعمل وكيلا ليحيى البرمكي وقد عرف الفضل بذكائه وطموحه وكان يتقن الفارسية والعربية وقد دخل الاسلام على يد المأمون سنة ١٩٠ هـ / سنة ٨٠٦ م . ومعنى ذلك انه كان حديث العهد جدا بالاسلام . وقد ورث آل سهل آراء البرامكة وتقاليدهم واقتفى الفضل في اصول الوزارة ومظاهرها الاصول الساسانية وسار على ذلك سيرة البرامكة ولعب الفضل بن سهل دورا كبيرا اثناء النزاع بين المأمون والامين . وكان يشد من عزيمة المأمون ويقول له : « اصبر وانا اضمن لك الخلافة ».

ومنذ سنة ١٩٦ هـ / سنة ٨١٢ م اعلن المأمون نفسه الخليفة في المشرق بتحريض من الفضل بن سهل الذي تولى الادارة المدنية والعسكرية لكل الاقاليم من همذان الى التبت ومن الخليج العربي الى بحر الخزر ومنحه المأمون اللقب آنف الذكر كما واصبح رسميا وزيرا للمأمون وكذلك لقب بالأمير . ورغم ان (العجم ليسوا باصحاب مطاولة ولاصبر) في الحروب الا ان نتيجة الحرب بين المأمون والامين انتهت بانتصار الاول بسبب سوء اختيار الثاني لقادة جيشه واهماله التعبئة الى اللحظة الاخيرة . ونستطيع ان نتبين من السكة المضروبة على نقود الاقاليم الشرقية مدى نفوذ الفضل بن سهل حيث ظهر اسمه والقابه على نقود خراسان ثم امتد ليشمل الاقاليم الاخرى حيث ظهر اسمه على النقود المضروبة هناك ايضا . وهذا يدل على ان الفضل ابن سهل كان وزيراً ذا صلاحيات واسعة تقارن بصلاحيات البرامكة . كما كان للفضل مسؤوليات اخرى مثل رئيس حرس الخليفة وصاحب دواته . ونظم الفضل كذلك حملات عسكرية الى الاقاليم الشرقية انتصرت على ملوك

الترك وارسلت هدايا للدلالة على خضوعها للدولة العباسية وقد عرضت هذه الهدايا في الكعبة شاهدة على انجازات الفضل بين سهل وجهوده في نشر الاسلام .

على ان العراق واهله والبيت العباسي وانصاره لم يصبروا طويلا على بقاء المأمون في خراسان وعلى سيطرة الفضل على الادارة والسياسة . وقد واجه هرثمة بن اعين المأمون بصراحته المعهودة قائلا : (قدمت هذا المجوسي « يعني الفضل بن سهل » على اوليائك وانصارك) . وحين شاهد هرثمة الفضل بن سهل وزير المأمون يحمل على كرسي مجنح على عادة الوزراء الفرس الساسانيين تعجب مندداً بالمنظر : « الحمد لله الذي لم يمتني حتى رأيت هذا المجوسي في هذا المجلس على كرسي » .

وثار اهل بغداد على واليهم اخي الفضل (الحسن بن سهل) ورفعوا شعار « لا نرضى بالمجوسي بن المجوسي الحسن بن سهل كما اتهموا الفضل بن سهل بانه : (يحتال ليصير الملك كسرويا) .

وقامت ثورة في العراق (الجزيرة الفراتية) بقيادة نصر بن شبث العقيلي ضد المأمون ورفعت شعار : « محاماة للعرب لانهم اي المأمون ونظامه يقدمون عليهم العجم » .

ويتفق غالبية المؤرخين حول رغبة الفضل بن سهل الجامحة للانفراد بالسلطة مشفوعة باحياء الشعائر والمراسم الفارسية الساسانية التي طواها الزمان وقضى عليها الفتح العربي الاسلامي واكثر من ذلك فقد حجب الفضل بن سهل الحقائق عن الخليفة المأمون وشوه الأخبار وحرفها وقد ادرك اهل بغداد ذلك وابدوا تخوفهم قائلين : « وقد خشينا ان تذهب هذه الدولة (العباسية) بما حدث من تدبير المجوس » .

وربما كان نعيم بن خازم التميمي من اكثر الشخصيات العربية وضوحا مع المأمون حين قال له : « الله الله يأمير المؤمنين لا يخدعنك عن دينك وملكك » .

ولقد قرر المأمون العودة الى بغداد عاصمة الخلافة العباسية بعد ان استوثق من حقيقة الوضع المتدهور ، ويعتبر هذا القرار منعطفا مهما في سياسة المأمون حيث اراد ان يواجه التحدي السياسي بنفسه ويفضح اكاذيب الفضل بن سهل التي اراد بواسطتها ان يبني مجد فارس لا مجد العراق والعروبة . ولم يكن صعبا على الخليفة التخلص من الفضل بن سهل سنة ٢٠٢هـ/ سنة ٨١٨م حين اعتقد ان ذلك ضروريا .

وقد استوزر المأمون بعد قدومه بغداد سنة ٢٠٤هـ /٨١٩م الحسن بن سهل ولكن وزارته لم تدم طويلا حيث صرفه واستوزر بعده احمدبن ابي خالد.

ويسمى كتاب الفخري فترة آل سهل في الوزارة : (الدولة) على نمط دولة البرامكة . اما احمد بن ابي خالد الوزير الجديد فقد كان كاتباً فصيحا بصيرا بالامور الا انه تنصل من التسمية وقال: «ياأمير المؤمنين اعفني من التسمي بالوزارة وطالبني بالواجب فيها واجعل بيني وبين العامة منزلة يرجوني لها الصديق ويخافني لها العدو » .

والواقع ان غالبية الذين وزروا للمأمون من الكتاب الموالي الحاذقين بصنعتهم ، وان المأمون لم يسلم اليهم مقاليد السلطة كلها كما فعل مع الفضل ابن سهل ، كما وان هؤلاء (الوزراء) انفسهم استوعبوا دروس التاريخ وعبره في ال برمك وال سهل فلم يحاولوا ان يتخطوا حدودهم مع الخليفة . رغم ان المأمون نصح المعتصم بالايستوزر احداً الا ان المعتصم مضى قدما في الاستعانة بالوزير ممايدل على تبلور المؤسسة وثبات كيانها في الادارة العباسية وقد اختار المعتصم الفضل بن مروان وزيرا له . ورغم عدم كفاءة

هذا الوزير فانه استقل برأيه وتخبط في الامور وكان يعترض على الخليفه . وقد وصفه ابن طباطبا : « وكان عاميا لا علـم عنده ولا معرفة وكان رديء السيرة جهولا بالامور » .

ولعل استئثاره بالامور ومنعه الخليفة من التصرف بما يحتاجه مـن مصاريف ادى الى سقوطه حيث عزله المعتصم وصادر امواله الطائلة ، ولكن المعتصم وهو رجل عسكري ولا علم له بالادارة اختار شخصية وزارية اردأ من الفضل وهي احمد بن عمار الذي وصفه الخليفة بانه كاتب عامـي كمـا اشارت المصادر الى عدم درايته بالحكم وعدم كفاءته الادارية . وقد دعا هذا الامر الخليفة الى صرف وزيره احمد بن عمار عن عرض الكتب وحدد عمله بينما كلف محمد بن عبدالملك الزيات بعرض الكتب . فكأن الزيات ناب عن الوزير في بعض مهامه .

ثم استوزر المعتصم محمد بن عبدالملك الزيات الذي تصفه رواياتنـا التاريخية بانه : « ذكي فبرع في كل شيء حتى صار نادرة وقته عقلا وفهمـا وخبرة بآداب الرئاسة وقواعد الملوك » .

وقد امتدحه الدوري معتبرا اياه خاتمة تلك السلسلة الذهبية من وزراء العصر العباسي الأول الذين يندر ان نجد مثلهم العصور العباسية التالية .

ومما يدل على هيبة الوزارة في ايام محمد عبدالملك الزيات اشتراكه مع القادة العسكريين الاتراك وقاضي القضاة في اختيار الخليفة الجديد بعد موت الواثق ، حيث شارك الزيات في الجلسة التي عقدت لاختيار الخليفـة لان الواثق لم يوص لأحد ، وتم اختيار المتوكل .

كان محمد بن عبدالملك الزيات شديد القسوة متكبرا ولهذا كان يكرهه كل من الواثق والمتوكل ولكن الواثق استفاد منه خلال عهده القصير لانـه ادرك حاجة الدولة الى الاكفاء من امثاله وكان يقول : (والله ما ابقيتـك

وزيـرا الاخوفا من خلو الدولة من مثلك) كما نقل عن الواثق قولـــه : (ان السلطان الى محمد بن عبدالملك احوج من محمد بن عبدالملك الـى السلطان) .

اما المتوكل فلم ينس حقده عليه بسبب سوء معاملة الزيات له حين كان اميرا في عهد الواثق فأبقاه وزيرا لمدة من الزمن في بدء خلافته ثم عزله وصادر املاكه وعذبه حتى مات .

واستكتب المتوكل الكتاب بعد الزيات ولم يتلقب بعضـهم بالوزراء وتعاقب على المنصب عدد منهم حتى استوزر عبيدالله بن يحيى بن خاقان الذي كان يعرض الاعمال على الخليفة الا اننا نلاحظ من الروايات التاريخية بـان القادة الاتراك بدأوا يسيطرون على الادارة ويحاولون التدخل في امورها ولهذا فان المتوكل كان مجبرا على جعل الكتب باسم وصيف التركي القائد الذي كان بمثابة وزير كما يقول التنوخي رغم انه لم يتسـم بالوزارة . بل الذي يدبـر الامور هو عبيد الله بن خاقان . وقد كانت نهاية العصر العباسي الاول بمقتل المتوكل سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م على يد زمرة من القادة العسكريين الاتراك.

الوزارة في العصر العباسي الثاني

من الطبيعي ان تتناسب سلطة الوزير تناسبا عكسيا مع نفوذ القـادة العسكريين فكلما ازدادت سيطرة القادة العسكريين واتسع نفوذهم في الادارة والسياسة كلما نقصت سلطة الوزراء وتقلص نفوذهم ، ولعل ابرز مظهر للوزراء في العصر العباسي الثاني ان قوة الوزيـر واتساع صلاحياته كانت مرتبطـة بقوة الخليفة وسيطرته على قادة الجيش ، فكلما كان الخليفة قويا كان وزيره صاحب نفوذ .

وقد انحصرت الوزارة في اسـر معينة منها آل خاقـان وآل الفرات وآل وهب وآل الجراح وآل مخلد ولذلك قال الشاعر في احد الوزراء مـن آل وهب :

يا وزير ابن وزير ابن وزير ابن وزير

نسقا كالدر اذ نظم في عقـد النحـــور

على ان الوزراء مثلهم مثل الخلفاء قاسوا من اضطهاد القادة العسكريين كمـا ان وزراء هذه الفترة عانوا مما يسمى سياســة التضمينات وسـياسة المصادرات •

اما التضمينات فهي تعني ان يعين الوزير شخصا ما في منصب او اقليم على ان يضمن للخزينة المركزية مبلغاً متفقا عليه من المال • فحين رأى وزير المعتضد عبيدالله بن سليمان عجز الخزينة عن سد نفقات البـلاط ومطالب الدولة قال « قد وردنا على دنيا خـراب مستغلقة ، وبيوت مـال فارغة ، وابتداء عقد الخليفة جديد ولابد لي في كـل يــوم من سبعة الاف دينار لنفقات الحضرة) ولم يكن هناك من سبيل الا الاتفاق مع احد الضامنين الذي وافق على ان يتضمن بعض اراضي الفرات ودجلة واقليم واسط وغيرها على ان يحمل مبلغا معينا من المال للوزير يوميا على ان التضمينات بمرور الزمن اصبحت تستغل للحصول على المناصب بين العمال وللتقرب مـن الوزراء بل ان الطامعين في الوزارة كانوا يبدون استعدادهم لسـد عـجز الخزينة • وبذلك يحصلون على الوزارة وبهذه الطريقة حصل الحسين بن القاسم على الوزارة بعد ان ضمن ان يقوم بالنفقات فعينه المقتدر وزيرا •

اما سياسة المصادرة فهي الاستيلاء على اموال الوزراء وكتابهم بعد اقصاء الوزير عن منصبه ويعود سببها الى فراغ بيت المال كذلك من الاموال بسبب عدم تدفق الواردات من الولايات واسراف الطغمة العسكرية والبلاط والحاجة الى المال لاخماد الاضطرابات كما ان سياسة المصادرات استخدمت بهـدف الانتقام من بعض الشخصيات الوزارية لاسباب شخصية عدائية، او لاستغلالهم مناصبهم في اكتناز الثروات والاستيلاء على الضياع والاملاك •

واذا كانت سياسة التضمينات قد أثرت على الزراعة والمزارعين ،بما سببته من احتكار للاسواق والمنتجات ، فان سياسة المصادرة زادت من الاضطراب الاداري والمالي في الدولة اضافة الى القلق السياسي . ذلك لانها اصبحت سياسة ثابتة يلجأ اليها الخلفاء فكان الوزير يعلم مسبقا انه سيتعرض الى المصادرة بعد عزله فيعمل مافي وسعه لجمع المال اثناء تقلده المنصب . وحين عزل الوزير سليمان بن وهب سجن ولم يطلق سراحه الا بعد ان دفع ٩٠٠ الف دينار الى الموفق ليستعين بها في حروبه .

اغتال القادة الاتراك بالتواطؤ مع الامير المنتصر الخليفة المتوكل واتهموا نديمه الفتح بن خاقان بقتله وقد لعب وزير المتوكل عبيد الله بن خاقان دورا كبيراً في القرارات التي اتخذها المتوكل تجاه القادة الاتراك وتجاه ابنه المنتصر.

ومنذ ذلك الحين بدأ القادة يتدخلون في اختيار وزير الخليفة وقد اختاروا للمنتصر وزيرا ضعيفا هو ابن الخصيب واهم ميزة فيه انه كان من بين المتآمرين على الخليفة المتوكل . اما في اختصاصه فلم يكن يعرف شيئا بل انه كان فيه حدة وطيش حتى انه قتل برجله احد المتظلمين الذين جاولوا تسليمه رقعة فقال في ذلك الشاعر :

قل للخليفة يا ابن عم محمد   اشكل وزيرك انه ركال

على ان هذا الالتماس لم يلق اذنا صاغية لان القادة الاتراك كانوا راضين عنه ولعب إحمد بن الخصيب دورا في تعيين المستعين في منصب الخلافة .

ثم سيطر اوتامش علىالوزارة واراد هذا القائد التركي ان يجرب المنصب الا انه لم يكن له من الامر شيء بسبب قلة خبرته بالادارة بل كانت الامور بيد كاتبه ، حتى قتل بيد الجند بعد اتهامه بالتبذير والاستبداد وقد وزر للمستعين بعده عبدالله بن محمد يزداد وقد اتبع سياسة تقشفية كان من جملة مظاهرها انقاص الزيادات في رواتب افراد الجيش الا ان هذا الاجراء أنهى وزارته حيث هدده الجند بالقتل فهرب الى بغداد من سامراء .

اما في عهد المعتز فكانت شخصية صالح بن وصيف هي الشخصية المسيطرة على الامور ولم يكن لوزراء الخليفة اي نفوذ بل ان الوزير جعفر الاسكافي لم تكن له دراية بامور الوزارة وبعد انغضب عليه صالح بن وصيف واستبدله بأحمد بن اسرائيل لم ترتفع هيبة الوزارة رغم ان هذا الاخير كان كفؤا حريصا على الاموال وقدهاج عليه الجند وضربوه وصادروا امواله ثم طافوا به على بغلة فمات •

ولم تتعرض الوزارة للتقلبات في عهد المهتدى ، حيث يشير المسعودي الى ان الوزراء (سلموا منه من قتل وغيره) ولعل ذلك يعود الى سيطرة الخليفة على زمام الامور كما وان الوزراء من جانبهم كسليمان بن وهب كانوا من افاضل الكتاب وذوي الرأي منهم فأرادوا ان يتجنبوا مصير زملائهم من عزل ومصادرة من هذا نلاحظ بان وزراء فترة التسع سنوات التي اعقبت مقتل المتوكل كانوا ضعفاء مسلوبي السلطة ، ما ان حاولوا اصلاح الوضع المالي الا واصطدموا بالجيش وجشع قواده مما ادى الى رفض البعض قبول منصب الوزارة •

وزارة الحسن بن مخلد الجراح

وفي عهد المعتمد أزداد تعيين الوزراء وعزلهم على ان اهم شخصية تقلدت هذا المنصب هو الحسن بن مخلد الجراح ، وقد وصف بانه (من رجالات الدنيا جزما وضبطا وكفاية) وقدسماه الموفق (ذا لوزارتين) لخدماته الكبيرة •

وقد اصطدم هذا الوزير بجشع موسى بن بغا . كما انه لم يستطع ان يسد حاجة الدولة الى المال بسبب كثرة الاضطرابات والفتوق على الحكومة فحاول تقليل نفقات الادارة وعرض عليه الموفق فرض ضرائب جديدة على التجارة ،فرفض وصودرت املاكه وسجن حتى مات في السجن سنة ٢٩٥هـ/٩٠٨م

وزارة آل وهب

كان عهد المعتضد عهد استقرار ولذلك استقرت فيه قواعد الوزارة وسلطة الوزير ، وقد استوزر الخليفة عبيد الله بن سليمان بن وهب الذي تمكن من اقناع الخليفة بعدم جدوى لعن معاوية بن ابي سفيان ، وكان الخليفة يحترمه ويبجله ومع ذلك فقد عزم المعتضد على مصادرة امواله بعد وفاته فحضر القاسم بن عبيد الله ال وهب وكان من دهاة عصره وكتب خطا بالفي الف دينار اعطاها للخليفة فاستوزره ، وقد لعب الوزير القاسم دورا في اخذ البيعة للمكتفي الذي كان بالرقة ، والمحافظة على اموال الدولة ، لذلك ابقاه الخليفة الجديد في منصب الوزارة ويظهر دهاء القاسم ومكره في نجاحه في التخلص من اعدائه : بدر المعتضدي وعمرو بن الليث في البلاط . كما وانه اقنع المكتفي بصرف النظر عن فكرة الانتقال الى سامراء وقد اصبح القاسم من الحظوة لدى الخليفة بحيث وافق على تزويج ابنه من ابنة القاسم ، واحتفظ القاسم بالوزارة حتى توفي .

دور الوزارة في اختيار الخليفة الجديد

توفي المكتفي ولم يعهد لاحد عهدا واضحا . فاخذ العباس بن الحسن دور المبادرة فاستشار رؤساء الدواوين الذين لم يتفقوا بدورهم على مرشح معين ، فقد رشح محمد بن داود الجراح وابن عبدون الامير عبدالله بن المعتز ، وخالفهم في الرأي علي بن الفرات ورشح جعفر بن المعتضد ، ولما اشار عليه الوزير بانه صغير اجابه ابن الفرات : ولم لا تسلم هذا الامر الى من يدعك تديره انت ؟ وبذلك نصب الوزير الامير جعفر (المقتدر) .

ولكن المقتدر وقع تحت تأثير امه (السيدة) وقهرماتها امموسى، ولذلك فقد قرر كبار القادة باتفاق مع الوزير العباس بن الحسن خلعه ، ولكنهم لم يجدوا الامير المناسب ، وحين طالت المدة عدل الوزير عن قراره بالخلع وانحاز

الى جانب الخليفة المقتدر • غير ان مؤامرة الخلع بقيت تحاك في الخفاء بين آل الجراح وبعض القادة . ومن بينهم الحسين بن حمدان واستطاع المتآمرون خلع المقتدر وبيعة ابن المعتز وقتل الوزير العباس بن الحسن ، ولكن القائد مؤنسا استطاع القضاء على الفتنة واعادة المقتدر الى الخلافة وقتل ابن المعتز •

وزارة علي بن الحسن بن الفرات

يعتبر ابن الفرات من الشخصيات المعتدلة الرزينة حيث يقول عنه صاحب كتاب الفخري « وكان ابو الحسن علي من اجل الناس وأعظمهم كرما وجودا ؛ دبر الدولة وقرر القواعد ، ولم يبت تلك الليلة الا والامور مستقيمة للمقتدر واحوال دولته قد تمهدت » وقال عنه الصولي : « فقد نهض في تسكين فتنة ابن المعتز ودبر الدولة وقرر القواعد واستمال الناس » وهنا يشير الصولي الى الدور المهديء الذي لعبه ابن الفرات بعد فتنة ابن المعتز حيث انه لم يشترك في الفتنة واصدر عفوا عاما عمن اشترك فيها ؛ وبرر ذلك بانه «متى عاقب جميع من دخل في امر ابن المعتز فسدت النيات ، وكثر الخوارج ممن يخشى على نفسه ، فيطلبون الحيل للخلاص بافساد المملكة » وكان ابن الفرات اداريا حازما كسب بعدله الرعية وازال الضرائب الباهضة عنهم وكانت علاقته طيبة بام المقتدر التي عرفت فضله وعونه لابنها • وقد بقي ابن الفرات في الوزارة من ٢٩٦هـ/٩٠٨م الى سنة ٢٩٩هـ/٩١١م ؛ حين اتهم بابتزاز الاموال ، فعزل وصودرت امواله ونهب الجند والعوام داره ودور ابنائه ، وكان مؤنس والخاقاني وراء عزل ابن الفرات حيث لم تكن علاقته طيبة بالاول ، اما الثاني فكان يسعى لنيل الوزارة وقد نجح في ايهام الخليفة بان ابن الفرات يبيت له شرا •

على ان الخاقاني لم ينجح في ادارة الدولة بعد ان تقلد منصب الوزارة بل ترك امرها الى ابنه الذي كان مغرما بالشراب ، ولم يطلع على الكتب الواردة

والصادرة ، واستغل منصبه لاكتناز الاموال حيث كان يبيع مناصب الدولة ووظائفها لمن يدفع اعلى . وقد قال احد الشعراء في ذلك :

وزير لا يمل من الرقاعة ... يولي ثم يعزل بعد ساعة

وزارة علي بن عيسى

حاول المقتدر اعادة ابن الفرات للوزارة ، الا ان معارضة مؤنس حالت دون ذلك فاستوزر الخليفة على بن عيسى بناء على اشارة من القائد مؤنس ويصفه الصابيء بقوله : « كان رجلا عالما متديناً عارفا بالاعمال حافظا للاموال كثير الوقار والجد ، بعيدا عن التبذل والهزل » وفي عهده زادت العمارة وازدهرت الزراعة .

ولكن علي بن عيسى اصطدم بالحاشية والحرم بسبب اصلاح الخزينة وقد تعرض الخليفة لضغط شديد لأحالة علي بن عيسى عن الوزارة حتى اذعن اخيرا لطلب الحرم وعزله دون ان يصادر امواله كما هي العادة المتبعة بل اكتفى بسجنه .

وقد خلفه في الوزارة ابن الفرات الذي بذر الاموال في شتى الاتجاهات حتى اصبحت الوزارة وبالاعليه ، وهنا تصح وصية الوزير الفضل بن مروان التي يشير اليها التنوخي : «مافي الارض اجهل من وزير يطلب الخليفة منه مالا وهو في ولايته فيعطيه اياه فانه يطمعه في نعمته ، وانما يدفع النكبة مدة ثم تحدث وقد ذهب المال » .

وهكذا تبدلت الدنيا على ابن الفرات في وزارته الثانية وامر الخليفة بالقبض عليه وايداعه السجن واستوزر المقتدر بعده حامد بن العباس الذي كان ضامنا لواسط ، واشتغل قبل ذلك سقاءا وبائع تمر ، ولم يكن يعرف اعمال الوزارة ، وانما وصل اليها لان الخليفة اعتقد انه يستطيع ان يضمن له الاموال التي تحتاج اليها الخزينة . وقد فشل ابن العباس في تسيير امور

الدولة ، لذلك عين الخليفة على بن عيسى نائبا للوزير فأخذ يدير الدولة وبقي لحامـد بن العباس الاسم فقط •

ويشير الفخري الى ان حامدا كان يلبس السواد لكونه الوزير الرسمي، اما ابن عيسى فكان لا يلبس السواد رغم انه صاحب الامر والنهي والتدبير ولذلك قيل :

اعجب مـن كـل ما رأينا   ان وزيريـن في بـلاد
هـذا سـواد بـلا وزير   وذا وزيـر بـلا سـواد

عزل حامد بن العباس بعد مظاهرات العامة وهياجها لارتفاع الاسعار وقلة البضاعة حيث حرقت الجسور وقتل عدد من الشرطة ولم يصادر حامـد بن العباس بعد عزله اول الامر •

ابن الفرات يستوزر للمرة الثانية

استطاع ابن الفرات ان يتقرب مرة اخرى الى الخليفة عن طريق السيدة الوالدة وامير الشرطة ، واغرى الخليفة بان ضمن له اموالا طائلة • وبعد ان حصل على الوزارة اتبع ابـن الفرات بمعاونة ابنه الحسن سياسة شديدة تجاه خصومه ومنافسيه ، فقد صادر اموال على بن عيسى وحامد بن العباس ونفى الاول الى اليمن ، وحدد اقامة الثاني في واسط ، وابعد مؤنسا الى الرقة وقد استغل الناقمون على ابن الفرات هجوم القرامطة على قافلة الحجيج فبثوا الاشاعات حول سوء تدبيره وعدم حفظه الامن بل وحتى تواطئه مع القرامطة واتهم ابن الفرات بابعاد المخلصين عن مركز الدولة وأثنـاء مناظرته (استجوابه) اضطر الى البوح بالاسرار حيث اظهر ان المقتدر طلب منه ابعاد مؤنس عن العاصمة •

ولم يكن الخليفة راغبا في التشديد مع ابن الفرات ، ولكن القائد مؤنسا والحاجب نصيرا والوزير الخاقاني وبعض القادة العسكريين هددوا الخليفة بخلع الطاعة اذا لم يقتل ابن الفرات وابنـه وقد تم فعلا ذلك وبهذا (ابتدأت الوزارة تتضع ويتقلدها من ليس بأهل ولا علم لهم بها) وعاد الجيش الـى التدخل في السياسة وفرض على الخليفة وزيرا جديدا هو عبيدالله الخاقاني.

وقد فشل الخاقاني في دفع رواتب الجيش فانتهز الخليفة الفرصة ودفع الرواتب من خزينته الخاصة ، ثم عزل الخاقاني وصادر املاكه . ولم ينجح الوزير الذي خلفه احمد بن عبدالله الخصيبي في تدبير الامور فعزل ايضا ، ذلك لانه كان يشرب النبيذ ليلا وينام نهارا واذا انتبه يكون مخمورا لافضل فيه لعمل .

علي بن عيسى يتقلد ثانية

استوزر علي بن عيسى للمرة الثانية باشارة من مؤنس سنة ٣١٥هـ/٩٢٧م. وضجت بغداد وخرجت لاستقبال الوزير الجديد بمظاهر الحفاوة بعد ان كان منفيا ومغضوبا عليه ، فقال :

مالناس الا مع الدنيا وصاحبها فكيف ما انقلبت يوما به انقلبوا

يعظمون اخا الدنيا فـان وثبت يوما عليه بما لا يشتهي وثبوا

بدأ علي بن عيسى بمعالجة الوضع المالي والاداري فعين موظفين قديرين امثال الكلوذاني لديوان السواد ، وابن مقلة لديوان الضياع ، وسليمان بن الحسن بن مخلد على ديوان بيت المال وعبدالرحمن بن عيسى على ديوان الحرم ، وابي زنبور على ديوان الضياع والمصادرة من ابن الفرات ، والفضل بن جعفر على ديوان المشرق . وقد قدر لخمسة مـن هؤلاء الكتاب ان يتولوا الوزارة فيما بعد .

واستطاع الوزير ان يصلح الوضع المالي بالاقتصاد في النفقات ولكن تدابيره ذهبت هدرا حين منح الخليفة ارزاقا اضافية للجند بلغت حوالي ٢٤٠ الف دينار وتجاه هذا الفتق المالي الجديد ضغط الحاشية والبلاط على الخليفة لعزله ، واستقال علي بن عيسى فأمره الخليفة بالبقاء حتى يعين وزير جديـدا •

وزارة ابن مقلة الاولى

استطاع ابن مقلة الوصول الى البلاط عن طريق ابي الحسن بن الفرات حيث علا شأنه في الوزارة الفراتية الثانية ثم تباعد الطرفان وحين جاء ابن الفرات للوزارة للمرة الاخيرة صادر ابن مقلة مائة الف دينار على ان ابن مقلة بعد استيزاره وقع تحت تأثير مؤنس مما جعل الخليفة يشك في تصرفاته كما انه فشل في تجهيز الخزينة بالاموال اللازمة للنفقات والارزاق فاقصاه الخليفة واراد قتله لولا تدخل علي بن عيسى •

والواقع ان تأثير علي بن عيسى هذا بقي مستمرا رغم انه خـــارج الوزارة وهذا ما حدث في وزارة سليمان بن الحسن بن مخلد والكلوذاني حيث كان لعلي بن عيسى الاشراف على الاعمال والدواوين وهذا يعكس الخلاف بين رغبة الخليفة ورغبة مؤنس فالاول يرغب في تعيين شخص يثق به للوزارة بينما يطالب مؤنس بتعيين صنيع من صنائعه ، فتكون الـــوزارة لمرشح مؤنس بالاسم بينما يلي مرشح الخليفة تدبير الامور •

لم تستطع وزارة الكلوذاني ان تصمد امام الازمة المالية طويلا ، خاصة بعد ان امتنع بعض ولاة الاقاليم عن ارسال الضرائب المستحقة وهاجـم القرامطـة الكوفة فاستقال معترفا بعدم صلاحيته للوزارة •

وزارة الحسن بن القاسم

لقد رغب المقتدر باستيزار ابن القاسم عدة مرات الا ان هذه الرغبة جوبهت بمعارضة مؤنس ولم ينل ابن القاسم الوزارة الا بعد ان حسن علاقته بمؤنس وقد اشترط ابن القاسم ان تكون له كافة صلاحيات الوزير والا ينظر علي بن عيسى في شيء منها او يشاركه فيها ولم تمض فترة طويلة حتى تعاون الخليفة ووزيره ضد مؤنس وحين خرج مؤنس من بغداد اتسع نفوذ الوزير فصادر املاك مؤنس وضمن ابن مقلة ٢٠ الف دينار وقد قربه المقتدر ولقبه (عميد الدولة) ولكن المقتدر الذي كان همه استصفاء الاموال، عزل ابن القاسم سنة ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م واستبدله بالفضل بن جعفر آل الفرات الذي حاول انيقرب بين الخليفة ومؤنس دون جدوى مما دعاه الى مراسلة مؤنس سرا والطلب منه المجيء الى بغداد ولكن الخليفة لم يكن راغبا في الصلح ، فأمر جنده بحرب مؤنس وجيشه ، وحين فشلت جهود الوزير اختفى عن الانظار وترك المسرح السياسي .

استيزار ابن مقله وتآمره على الخليفة

تقلد ابن مقلة الوزارة للمرة الثانية على عهد الخليفة القاهر الـذي حاول ان يسيطر على زمام الامور بيد قوية الا ان وزيره ابن مقلة لم يتعاون معه بل رمى نفسه في صف مؤنس ويلبق وبقية القادة العسـكريين الذين اخذوا يشددون في التفتيش حيث كان يفتش كل من يدخل الى الخليفة وكل ما يدخل الى دار الخلافة، وقد اتفق الوزير مع العسكريين على خلع القاهر ، ولكن القاهر تغدى بهم قبل ان يتعشوا به ، حيث قبض على مؤنس ويلبـق وابنه وامر بقتلهم والطواف برؤوسهم في بغداد ، اما ابن مقلة فقد استطـاع الهرب ، ولكـن داره نهبت ثم احرقت .

ولم يستوزر القاهر وزيرا قويا ولذلك عاد علي بن عيسى الى الظهور من جديد ليدبر الامور دون ان ينال لقب الوزارة وتجاه هذا الحال وخوفا من التعذيب والسجن والمصادرة لم يرغب الفضل بن جعفر بالوزارة واستتر حين ارسل اليه القاهر ليعينه وزيرا ، ولم يتوقف ابن مقلة عن دسائسه تجاه الخليفة ، ويعزو ابن الاثير الخلاف بين القاهر من جهة ، ومؤنس وابن مقلة من جهة اخرى الى انانية ابن مقلة ومطامعه الشخصية فحين لاحظ ان الخليفة يقرب محمد بن ياقوت خشي ان يستوزره وبدأ يحرض قادة الجيش ضد القاهر حتى نجح في دسائسه وخلع القاهر وقد استطاع وزيره احمد الخصيبي الذي كان يتقلد منصب الوزارة للمرة الثانية ان يهرب من دار الخلافة بعد ان استتر بملابس النساء .

وزارة ابن مقلة الثالثة

طلب الخليفة الراضي من علي بن عيسى ان يتقلد الوزارة فاعتذر ورشح ابن مقلة فاستوزره وكان علي بن عيسى يساعده في التدبير ولكن نفوذ محمد بن ياقوت كان يطغى دائما على سلطة ابن مقلة حتى سلبه في النهاية كل سلطاته ولم ينته نفوذ ابن ياقوت حتى قرر الخليفة بالاتفاق مع ابن مقلة القبض عليه وسلبه كافة صلاحياته وعندئذ احتكر ابن مقلة وابنه الوزارة بعد ان تعهد لسيما الشرابي بدفع ٥٠٠ الف دينار مقابل منصب الوزارة وقد شارك علي والده ابن مقلة في الوزارة وكانت الكتب تصدر بعبارة « من ابي علي وعلى ابن ابي علي » وكان عمر علي لايتعدى ١٨ سنة ولم يل الوزارة اصغر منه سنا .

ولم يقف الخليفة الى جانب وزيره اثناء ازمته حين حاصره الجند وقبضوا عليه ، بل ان الخليفة ايدهم وعزل وزيره محملا اياه مسؤولية الازمة المالية وسوء الادارة وقد صودرت امواله وعذب . لم يقبل علي بن عيسى الوزارة

التي عرضت عليه بترشيح من الجيش واقترح استيزار اخيه عبدالرحمن بن عيسى آل الجراح ولكن هذا الاخير لم ينجح فصودرت امواله واموال اخيه علي بن عيسى كذلك لم يستطع الوزراء الذين اعقبوه توفير الاموال اللازمة مما دعا الراضي الى استدعاء ابن رائق من واسط سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٦م واعطائه صلاحيات ادارية وعسكرية ومالية كبيرة ولقبه امير الامراء وهكذا اصبح امير الامراء المدبر الاول لشؤون الحكم وبكل امر الوزارة ولم يبق للوزير غير الاسم بل ان الوزير كان يرشح من قبل امير الامراء ولذلك فليس هناك من حاجة لتعقب الوزراء الذين تناوبوا على المنصب في ما تبقى من عهد الراضي والمتقي واول ايام المستكفي لان بقاء الوزارة كان بقاء معنويا وشكليا ليس الا •

من هذا الاستعراض نلاحظ ان منصب الوزارة شأنه شأن الخلافة تأثر بالاوضاع السياسية والتقلبات المالية والاقتصادية التي مرت بها الدولة العباسية فمثلما اصبح الخليفة في محنة كان الوزير يعيش في محنة حيث يتوقع في اية لحظة انقلابا يدبره قائد الجيش او قتلا على يد الجند او عزلا من الخليفة او سجنا وعلى اقل تقدير مصادرة لامواله واموال مساعديه وكتابه وحتى اولاده واقربائه •

ان اهم ما كان ينتظر من الوزير ان يوفره للدولة هو المال فكان يركز على الحصول عليه بشتى الاساليب لسد متطلبات الجيش والادارة وكان عليه ان يحسب حساب (المصادرة) التي اصبحت تقليدا تعرض له اغلب وزراء هذه الفترة •

وقد شهدت هذه الفترة شخصيات وزارية تتفاوت في قوتها وضعفها ولا شك فقد كان هناك عدة عوامل تؤثر على سلطة الوزير ومنها :

١ ـ مدى ارتباط الوزير بالمحاور والتكتلات في الدولة

٢ ـ قوة الخليفة او ضعفه

٣ ـ موقف قادة الجيش من الوزير

٤ ـ نوعية العلاقة بينه وبين الحاشية والحريم في البلاط

٥ ـ المحن المالية والادارية التي كان عليه ان يواجهها في فترة استيزاره

٦ ـ الاضطرابات والفتن السياسية التي شهدها عهده وطبيعة معالجته لها ٠

وقد بقي منصب الوزير منصبا حساسا خلال هذه الفترة حتى ظهور منصب « امير الامراء » ولذلك لم يستطع القائد اوتامش التركي ان ينجح حين تولى الوزارة للمستعين حيث ظهر ضعفه وقلة خبرته بالامور الادارية والمالية مما ادى الى قتله ولم يجرأ القادة العسكريون على تولي المنصب بعد اوتامش ، بل كانوا يرشحون لها صنائعهم الذين يتوسمون فيهم الخضوع لمطاليبهم ، ولذلك كثر التغيير في الوزراء فقد شهد عهد المقتدر مثلا اكثر من اربعة عشر تغييرا وزاريا ، كان نتيجته تدهور سمعة المنصب وسلطته ، ولا ننكر هنا محاولات بعض الخلفاء اعادة هيبة المؤسسة الادارية ، والتصدي لتدخل القادة العسكريين في امور السياسة والادارة والخزانة خاصة حين يسند هؤلاء وزراء اقوياء الا ان الظروف السياسية وقوة المؤسسة العسكرية كانت اقوى منهم ففشلت محاولاتهم وكانت نتيجتها وبالا عليهم حيث قتل خلفاء وعزل آخرون بعد ان سملت عيونهم كما قتل العديد من الوزراء على اننا يجب ان نشير الى ان لهؤلاء الوزراء دورا في تصديع (الماكنة) الادارية وتدهور منصب الوزارة نتيجة انقساماتهم وحسدهم وتخاصمهم وطمعهم ودسائسهم ضد بعضهم البعض وضد الخليفة رئيس الدولة ٠

ولعلنا نستطيع ان نجمل المظاهر التالية للوزارة العباسية في عصرها الثاني :

اولا ـ مرت الوزارة بتجارب قاسية خلال هذا العصر وكافحت جنبا الى جنب مع الخلافة ضد القوة العسكرية المتصاعدة للقادة الاتراك وكادت

تزول بعد مقتل المتوكل ، كما وانها عدت شكلية في فترة امرة الامراء فلقد ادى تعاظم نفوذ القادة العسكريين الى ضعف الوزارة .

ثانيا ــ غلبت الخصائص المدنية للوزارة في هذا العصر فالقليل من وزراء هذا العصر من كان من القادة العسكريين ونلاحظ بان اوتامش وزير المستعين والحسن بن مخلد وزير المعتضد كانا من قادة الجيش اما عدا ذلك فالوزراء كانوا من المدنيين ذوى الخبرة في الادارة والسياسة .

ثالثا ــ انحسرت صلاحيات الوزير خلال هذه الفترة تدريجيا حتى غدت مسؤوليتهم الرئيسية الاشراف على موارد بيت المال وتأمين الحصول عليها وهذا مما جعل القادة العسكريين الترك يتركون الوزارة وهم لم يتركوها تعففاً وزهدا بل انهم ادركوا بان هذا المنصب لا يناسب العسكر خاصة وان نطاق عمل الوزير الرئيسي بات في الامور المالية والحسابات ولكن من جهة اخرى بات تعيين الوزير او اقالته يتم على ايدي هؤلاء القادة . فقد تم عزل عدد كبير من الوزراء بناء على تدخل القادة العسكريين لان هؤلاء الوزراء حاولوا الحد من استغلال القادة وضبط الاشراف على المصروفات من بيت المال .

رابعا ــ ان تدخل الحريم في الادارة اضافة الى تدخل بعض القادة العسكريين الترك اضعف الوزارة واربك سلطان الوزير ولعل المثل البارز هو عهد المقتدر حيث تكرر تعيين الوزراء وعزلهم بسبب هذه المؤثرات والضغوط وهذا ادى بطبيعة الحال الى ظهور وزراء ضعاف والى التصادم بين الوزراء وقادة الجيش مما جعل الراضي يستنجد بمحمد بن رائق ويبتدع منصب امرة الامراء .

خامسا ــ على ان الوزارة خلال هذا العصر ظلت مرتبطة بالخلافة ففي حالة ظهور خليفة قوي نلاحظ قوة الوزارة وابرز مثل على ذلك عهد المعتضد

الذي اكد على حرمة الوزارة وهيبتها وزاد من صلاحياتها فغدا الوزير مشرفا على الدواوين والادارة واحيانا النظر في المظالم وقيادة الجيش وصار الوزير مقدما على القادة العسكريين الترك كما وانه لم يحدث وان صودرت اموال الوزير في عهد المعتضد ٠

سادسا ــ انابتداع الخليفة الراضي لنظام امرة الامراء خلال هذا العصر والذي دام من ٣٢٤هـ ــ ٣٣٤ / ٩٣٥ــ٩٤٥م لم يؤد ما كان يرجوه الخليفة منه من نتائج ايجابية في الادارة او الوزارة بل على العكس زاد من الفوضى الادارية وعمق الصراع بين اصحاب القلم واصحاب السيف وجرد الوزارة مما تبقى لديها من صلاحيات فلم يعد للوزير نفوذ بل اقتصر ظهوره في المواكب الرسمية والاحتفالات وصار امير الامراء وكاتبه ينظران في امر الدواوين والولايات واستمر الامر كذلك بل ان امير الامراء تدخل في تعيين الوزراء وعزلهم وكان الخليفة العباسي يذعن الى رأيه ٠

سابعا ــ استمرار ظاهرة الانابة عن الوزارة حيث تشير بعض الروايات التاريخية الى وجود منصب نائب الوزير او احيانا نواب الوزير ٠ فقد صرف المعتصم وزيره ابن عمار عن عرض الكتب وحدد عمله في الدواوين وكلف الزيات بعرض الكتب فكأن الزيات ناب عن الوزير في بعض مهامه كما وان المقتدر جعل على بن عيسى الجراح كالنائب لحامد بن العباس بسبب قلة خبرة هذا الاخير وقد تبلورت هذه الظاهرة اكثر بمرور الزمن فحين استوزر الفضل بن الفرات بقي في مكانه بالشام٠ وجعل له خليفة في بغداد هو عبدالله النفري وقد تكررت هذه الظاهرة مع عدد من الوزراء في هذا العصر الذين عينوا وزراء للخليفة ولكن مهماتهم خارج العاصمة جعلتهم يعينون نوابا لهم في بغداد ٠

ولقد تبلور (نائب الوزير) كمنصب اداري بصورة تدريجية خلال العصور العباسية المتأخرة حتى غدا احد المناصب الدائمة الى جانب الوزير بل ان الخليفة ربما عين اكثر من نائب واحد للوزير كما حدث للناصر الذي كان عنده في وقت من الاوقات ثمانية نواب للوزارة .

ثامنا ــ ولابد من الاشارة الى ان العلاقة بين الخليفة والوزير لم تكن ودية وثيقة على الدوام رغم وقوفهما في خندق واحد تجاه مخططات القادة الترك ففي رواية تاريخية ان المكتفي « طلب من وزيره كتبا يلهو بها ويقطع بمطالعتها زمانه » فتقدم الوزير الى النواب بتحصيل ذلك وعرضه عليه قبل حمله الى الخليفة فحصلوا شيئا من كتب التاريخ وفيها شيء مما جرى في الايام السابقة من وقائع الملوك واخبار الوزراء ومعرفة التحيل في استخراج الاموال . فلما رآه الوزير قال لنوابه :

« والله انكم اشد الناس عداوة لي ، انا قلت حصلوا له كتبا يلهو بها.. فقد حصلتم له ما يعرفه مصارع الوزراء ويوجد الطريق الى استخراج المال رووها وحصلوا له كتبا فيها حكايات تلهية واشعار .. »

ويعلق صاحب الفخري بقوله ان الوزراء كانوا يكرهون ان يكون في الخلفاء والملوك مكانة ومعرفة بالامور . وكان ابو القاسم عبيدالله آل وهب غير مطمئن الى المعتضد ومن رأيه ان الخليفة يركن الى وزيره حين تكثر المشاكل فوجود الوزير مرتبط بالمشاكل والصعوبات فاذا ما انتظمت الدولة واستقرت يتفرغ الخليفة لوزرائه ويوقع بهم..

« اذا خلص لهم الملك انتظم الفكر في اقرب الناس منهم في الاقدام على الايقاع بهم وهم الوزراء .. »

وكلام هذا الوزير يذكرنا بكلام ابي مسلم الخراساني للمنصور حين اختلفا وعزم الخراساني على الذهاب الى خراسان دون لقاء الخليفة .

تاسعا ــ غدت الوزارة وراثية حيث انحصرت غالبا في اسر معينة مثل اسرة آل خاقان وآل الفرات وآل وهب وآل الجراح • وقسم من هذه الاسر تدرجت في خدمة الدولة العباسية في الدواوين حتى وصل بعض افرادها الى الوزارة خلال هذه الفترة •

الوزارة في عصر التسلط البويهي

المعروف ان الخليفة العباسي المستكفي بعد ان عزل وزيره السامري سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م لم يعين وزيرا جديدا بل كاتبا يعينه على تدبير الامور،وقد انتهز البويهيون هذه البادرة حين احتلوا بغداد سنة ٣٣٤ هـ/٩٤٥ م فلم يسمحوا للخليفة بتعيين وزير له بل جعلوا بدلها (كتابة) للخليفة ولهذا لم يكن هناك (وزارة عباسية) في عصر التسلط البويهي •

والواقع ان الوزارة في العصر البويهي تختلف عن الوزارة في صدردولة العباسيين او في عصر السلاجقة • فقد لاحظنا بان دور الوزير بدأ يتضاءل خلال العصر العباسي الثاني ثم جاء منصب امير الامراء ضربة قوية للوزارة العباسية في آخر عصر امرة الامراء حيث كان الوزير محمد بن علي السامري اخر من خوطب بالوزارة خلال العصر العباسي الثاني فلما عزله المستكفي سنة ٣٣٣هـ /٩٤٤م لم يستوزر بعده ودام الحال كذلك مدة طويلة شملت كل فترة عصر التسلط البويهي وتشير الروايات التاريخية الى ان معزالدولة البويهي حين سيطر على بغداد سنة ٣٣٤/٩٤٥م لم يسمح للخليفة بتعيين وزير له بل كان له كاتب خاص يدير شؤونه كما اختص معز الدولة بكاتب يساعده على ادارة الدولة باعتباره اميرا للامراء ومعنى ذلك انه خلال الفترة من ٣٣٣هـــ ٣٤٥هـ /٩٤٤ ــ ٩٥٦م اي حوالي اثنتي عشرة سنة لم يكن هناك وزارة في الادارة العباسية •

الا انه في سنة٣٤٥هـ/٩٥٦م سمى معز الدولة البويهي كاتبه المهلبـــي وزيرا ومنحه امتيازات واسعة واقطاعات جديدة ، وهنا يجب ان نفرق بـــين

الوزارة العباسية ووزارة البويهيين • فقد بقيت الخلافة العباسية بدون وزارة في الوقت الذي صار لامير الامراء البويهي وزير وبهذه الطريقة الاعتباطية يكون معز الدولة البويهي قد سلب الخليفة العباسي حقه في تعيين وزير لـه حيث اصبح للخليفة كاتب وللامير البويهي وزير ولم يحرك الخليفة المطيع ساكنا تجاه هذا الموقف واستمر الحال كذلك في عهود الطائع والقادر على التوالـــي •

ولم يكن من المستغرب والحالة هذه ان ينحط منصب الوزارة فلم يبق لها رونقها ونفوذها السابق حيث يقول ابن الطقطقى : « اضطربت احـوال الخلافة ولم يبق لها رونق وتملك البويهيون وصارت الوزارة وجهتهم والاعمال اليهم » • ويرى الصابىء : « لم يبق للوزارة طلاوة يشار اليها ولا حـلاوة يحافظ عليها حتى لقد بلغني ان الخليفة القائم بامر الله قال : لم تبق مرتبة لمستحق » والمعروف ان القائم شهد اواخر عصر البويهيين واوائل عصـر السلاجقة •

ومن هنا فان الوزارة خلال هذا العصر كانت وزارة الامراء البويهيين وان شاغلها كان يأتمر بأوامر الامير البويهي وليس له ان يتخذ مبادرات ادارية وسياسية وخاصة على عهد معز الدولة وعضد الدولة ، وكان الوزير معرضا في اية لحظة للاقالة أو الطرد وان ذلك غالبا ماكان يعني السجن له ولاعوانه والمصادرة لاموالهم ، بل ان معز الدولة البويهي امر بضرب وزيره المهلبي ١٥٠ سوطا ادت الى وفاته في السجن ، وقد امر عضد الدولة بسمل عيني وقطع انف وزير ابيه ابي الفتح بن العميد وقد فضل الوزير المطهر الانتحار حين فشل في القضاء على التمرد في البطيحة خوفا من العقوبة التي ستلحق به من عضد الدولة •

وقد تأثر منصب الوزير فضلا عن ذلك بارادة عدد من المقربين للامير البويهي وخاصة بعد عهد عضد الدولة • حيث كان هؤلاء المقربون ويسمون

(المدبرون للدولة) يحيطون بالامير ويؤثرون عليه في عزل وتنصيب الوزراء كما حدث في عصر بختيار وعصر بهاء الدولة البويهي ٠

ولعل اهم واجبات الوزير في العصر البويهي هي محاولة ايجاد الوسائل لجمع المال والموارد للخزينة وذلك لمجابهة نفقات الدولة ورواتب الجند ، ولما كانت موارد الخزينة قليلة وغير كافية فكان غالبا ما يعمد الى المصادرة والابتزاز ، وقد شهد العصر البويهي تمردات عديدة من الجند بسبب عدم صرف رواتبهم في اوقاتها المعينة هذا اذا استثنينا عهد عضد الدولة البويهي ٠

ومن واجبات الوزير التقليدية هي تعيين رؤساء الدواوين ولكن يبدو ان الامير البويهي قد سلبه هذه الصلاحية خلال هذه الفترة واعطاها لنفسه على ان الوزير بقي محتفظا بصلاحية تعيين عمال الخراج لجمع الضريبة من المدن والمقاطعات التي كانت تابعة لبغداد ٠

واضافة الى ذلك كان الوزير يمنح مسؤوليات عسكرية ويقود الجيوش للقضاء على الاضطرابات والثورات ولقد اظهر العديد من وزراء البويهيين قابلية جيدة في المجال العسكري ونالوا شهرة عالية ولعلنا نشير هنا الى الوزير المهلبي والوزير ابن فسانجس والوزير المطهر بن عبدالله واخيرا لا آخراً الوزير الامير بهاء الدولة المعروف بالموفق ٠

وحين انتقل امراء البويهيين من بغداد الى فارس احتفظوا بنواب لهم في بغداد لادارتها بدلا عنهم وكان هؤلاء يسمون بالوزراء كذلك ومن هؤلاء عميد الجيوش الذي حكم بغداد من (٣٩٢ ــ ٤٠١هـ /١٠٠١ ــ ١٠١٠م) وفخر الملك (٤٠١ ــ ٤٠٧هـ/١٠١٠ــ١٠١٦م) ٠

وكان الوزراء يتلقون اما رواتب نقدية او اقطاعات تدر عليهم موردا جيدا بدل الراتب ٠ ويبدو ان غالبية الوزراء كانت لديهم ثروة كبيرة كما يلاحظ ذلك من مصادرة اموالهم وممتلكاتهم بعد عزلهم ٠ وسياسة المصادرات هذه غدت تقليدا ثابتا في العصر البويهي ٠

ويبدو ان الالقاب تتناسب عكسيا مع قوة الدولة فكلما زاد الانحطاط السياسي والتردي الاداري كلما غدت الالقاب اكثر رونقا وبهاء وطولا ، وقد شمل ذلك القاب الوزير ، مما يدل على الفوضى والاضطراب في المعايير السياسية والاجتماعية ، واذا كان وزراء الامراء البويهيين الاوائل قد حملوا لقبا واحدا ودون لقب احيانا الا ان الامراء البويهيين بعد بهاء الدولة منحوا وزراءهم القابا فضفاضة وطويلة بدرجة مزرية خاصة وانها لا تعكس ايهدلالات فعلية • فوزير سلطان الدولة وكان يحمل لقب (فلك الملك عميد الدولة زعيم الامة شمس الدين) وتلقب وزير اخر في هذا العصر بلقب (ذي السعادتين وزير الوزراء نجاح الملك)وتلقب وزير اخر بلقب (علم الدين سعد الدولة امين الملة شرف الملك) وحصل وزير آخر على لقب (معز الدين فلك الامة وزير الوزراء عماد الملك) وقد وصل الغرور بوزير الامير البويهي الى درجة ان يرفض استلام رسالة الخليفة العباسي القادر لانها لم تبدأ بلقب (مولانا) ولم يرض باي لقب اخر مثل (الحضرة العالية الوزيرية) بديلا عن لقب مولانا ، كما اشار بذلك هلال الصابىء في كتابه الوزراء •

يمكننا اخيرا ان نستخلص المظاهر التالية :

١ ـ ان الامراء البويهيين حرموا الخليفة من تعيين وزير له وعينوا كاتبا بدله لادارة شؤونه واقطاعاته المحدودة •

٢ ـ انهم اتخذوا وزراء لانفسهم ، اي اصبح للامير البويهي وزير وللخليفة كاتب فقط •

٣ ـ على ان امراء بني بويه ادخلوا تعديلا مهما في نظام الوزارة لم يكن معروفا قبل الا وهو اتخاذ وزيرين فقد اتخذ عضد الدولة وزيرا له بفارس واخر جعل مقره بغداد وهذا ادى بطبيعة الحال الى التصادم بين نفوذ الوزيرين بسبب خلافهما على السلطة •

٤ ـ امتدت صلاحيات الوزير البويهي لتشمل الامور الحربية وقيادة الجيوش اضافة الى صلاحياته السياسية والاداريـة السابقة وكان من القاب الحسن بن ابي جعفر وزير بهاء الدولة (عميد الجيوش) •

ومن وزراء بني بويـه المشهورين : ابو محمد الحسن المهلبي من آل المهلب بن ابي صفرة حيث ولاه معز الدولة الوزارة سنة ٣٣٩هـ/٩٥٠م وبقي في الوزارة ثلاث عشرة سنة وكان مشهورا بمقدرته الادارية وقاد عدة حملات عسكرية الا انه لم يسلم من قسوة معز الدولة حيث صادر امواله بعد تلك الخدمة الطويلة وقبض على اهله المهلبيين وسجنهم جميعا فاستعظم الناس ذلك واستقبحوه خاصة وان هذه المعاملة تدل على طغيان السلطان وضعف هيبةالوزارة، ومن وزرائهم المشهورين ايضا ابو الفضل محمد بن العميد الذي اتخذه ركن الدولة الحســن بن بويـه وزيرا له وكان ركن الدولة صاحب الري وهمذان واصفهان وسائر بلاد العراق (السواد) وقد قام ابو الفضل ابن العميد بضبط امور الدولة فهابه الجندوالرعية ويشير الى ذلك مسكويه في كتابه (تجارب الامم) فيقول : (اذا انكر ابن العميد شـيئا ارتعدت الفرائص بين اعوانه وصحابته وانه شهد ذلك في مواقف كثيرة) ولعل من الاعمال التي قام بها ابن العميد هو تربيته عضد الدولة بن ركن الدولة الذي كان يشيد بفضله ويدعوه (الاستاذ الرئيس) وكـان ابن العميد يسمى الجاحظ الثاني لبراعته في النثر الادبي حتى قيل فيه (بدأت الكتابة بعبد الحميد واختتمت بابن العميد) وقد تقلد الوزارة بعده ابنه ابو الفتح الذي ورث اباه في المواهب الادارية والقابليات الادبية واستوزره مؤيد الدولة بن ركـن الدولة ولقبه ذا الكفايتين لمهارته وكفايته السياسية •

على ان التنافس كان قائما بين المتنفذين من رجال البلد وخاصة بين ابي الفتح والصاحب بن عباد الذي استطاع ان يسجن ابا الفتح ويصادر املاكه حتى مات في السجن سنة ٣٦٨هـ /٩٧٨م وقد اتخذ مؤيد الدولة بعد ابي الفتح

الصاحب بن عباد وزيرا له ووزر من بعده لاخيه فخر الدولة صاحب الري وهمذان واصفهان كما يذكر ذلك مسكويه في (تجارب الامم) وابن خلكان في وفياته . ويعتبر هذا الوزير اول وزير اتخذ لقب (صاحب) وكـان اسمه في الاصل اسماعيل بن عباد وسبب ذلك يعود الى انه كان يصحب مؤيد الدولة بن ركن الدولة وكان شديد الميل اليه فسماه بالصاحب وظل هـذا اللقب ملازما له حتى بعد تقلده الوزارة كما يقول المقريزي في خططه وكذلك ابن تغرى بردى في كتابه النجوم الزاهرة .

ولعل الاشتهار بالادب كان من صفات الوزراء في هذه الفترة فقد كان الصاحب بن عباد من اشهر ادباء عصره حتى وصفه الثعالبي في يتيمة الدهر (انه كان صدر المشرق وتاريخ المجد وغرة الامال وينبوع العدل والاحسان). وقد صنف كثيرا من الكتب وكانت مكتبته حافلة بانواع المخطوطات حتـى ضربت الامثال فيها وقد اعتذر عن قبول مناصب سياسية واداريـة لاسباب تتعلق بتعذر نقل مكتبته ولانه مشغول باعمال علمية لاتترك له مجالا للاشتغال في السياسة وغيرها على ان اول وزارة تقلدها كانت في اقليم فارس ثـم اصبح وزيرا على العراق ولم تظهر كفاءته الحربية الا حين قاد جيشا لغزو طبرسـتان واستولى على بعض قلاعها الحصينة في ذلك الاقليم الوعـر المسالك ولعـل الصاحب بن عباد قد استطاع ان يعيد للوزارة هيبتها حتى قيل انـه كا يحظى بمنزلة كبيرة بين امراء بني بويه الذين كانوا يقفون ببابه حتى يؤذن لهـم بالدخـول .

٥ ـ ان منصب الوزارة اصبح موضع مساومات في نهاية القرن الرابع الهجري فبعد وفاة الصاحب بن عباد سنة ٣٨٥هـ/٩٩٥م كتب قائد الجيش في جرجان الى الامير البويهي فخر الدولة يطلب الوزارة مقابل مبلغ من المال قدره (٨) ملايين درهم فلما سمع ذلك الوزير احمد بن ابراهيم دفـع (٩) ملايين درهم على ان يحتفظ بمنصبه فقرر الامير البويهي فخر الدولـة

ان يشركهما في الوزارة ونزل لكل منهما عن مليونين من جملـة الدراهم التي ارادا دفعها في الاصل على ان الخلاف كثيرا ماكان يظهر بينهمـا وخاصة حول منصب قيادة الجيش •

٦ ـ وقد عظم شأن الالقاب في هذه الفترة وكان من مميزات الوزراء التلقب بالالقاب الطويلة الرنانة •

٧ ـ شـيوع مصـادرة الوزراء بعد عزلهـم •

٨ ـ على ان مايميز وزراء هذه الفترة هو دورهم البارز في تدبير امور الدولة وادارة الدواوين اذ لولاهم لماسارت الامور الادارية والمالية علـى ما يرام وذلك بسبب جهل امراء البويهيين الديلم المحاربين باصـول السياسة ونواميس الادارة وقواعد المال ، يقول الكتبي عن الوزير المهلبي انه عرف بحسن تدبيره وقضائه على الكثير من المظالم التـي لحقـت بالناس اما الثعالبي فيقول عن ابي الفضل بن العميد بانه (عين المشرق ولسان الجيل وعماد ملك بني بويـه ••) •

الوزارة في عهد السيطرة السلجوقية وحتى نهاية العصر العباسي

حين دخل السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م عـاد نظام الوزارة العباسية سيرته الاولى حيث اخذ الخليفة القائم بامر الله يعين وزيرا له بعـد ان حرم هذا الحق من قبل البويهيين الا ان السلطان السلجوقي تمتـع بامتياز تعيين وزير له مثله في ذلك مثل الخليفة وهكذا برز لدينا وزيران وزير الخليفة ووزيـر السـلطان •

ولكن كان وزير السلطان السلجوقي اكثر نفوذا وسطوة في احيان كثيرة وخاصة في عهد السلاطين السلاجقة العظام (طغرل بك والب ارسلان وملكشاه وسنجر) من وزير الخليفة العباسي الا في بغداد وضواحيها حيث تظهر سلطة

الحكومة العباسية المركزية بل ان وزير السلطان السلجوقي كان كثيرا ما يتدخل في امور واختصاصات وزير الخليفة واكثر من ذلك يطالب بعزل وزير الخليفة اذا اختلف معه او رغب في استيزار غيره • فقد طلب نظام الملك وزير السلطان السلجوقي ملكشاه الكتابة الى الخليفة المقتدي بعزل وزيره ابي شجاع فعزل ثانية وطلب استيزار ابن جهير فاستوزر •

ومع ذلك فان الخليفة العباسي كان يعتبر الوزارة العباسية متممة للخلافة العباسية ، كما وان الوزير وقف الى جانب الخليفة في محاولة استرداد هيبة الخلافة والحد من نفوذ السلاجقة فحين هدد السلطان سنجر الخليفة باحتلال بغداد كتب له الوزير ابن صدقة : « والله لئن تحركت لاقطعن جميع ماوراءك عنك واقطعك عنه ولئن سرت فرسخا لاسيرن اليك فرسخين» •

وكانت اختصاصات الوزير العباسي في هذه الفترة النظر في الامور المالية وحسابات الدواوين واعمالها واستعراض امر الجند وقيادة الحملات العسكرية احيانا وتلقب وزراء الخلفاء بالقاب جديدة فخمة على نمط فخر الدولة ، وجلال الدين وسيد الوزراء ، وصدر المشرق والمغرب ومؤتمن الدولة وعون الدين •

ومن اشهر وزراء هذه الفترة : الوزير ابن جهير الذي تزوج ابنة نظام الملك وزير السلاجقة وقد خلفه في الوزارة ابو شجاع الذي كان سياسيا قديرا يجلس للمظالم بنفسه كما كان اضافة الى ذلك مثقفا لامعا ومؤرخا الف كتاب (ذيل تجارب الامم) ويقال ان سبب عزله يعود الى تدبير حساده حتى قال الشاعر :

تولاهـا وليس له عـدو   وفارقهـا وليس له صديق

ومن الوزراء المشهورين علي بن صدقة الذي كان على معرفة كبيـرة بقوانين الملك ، ثم الوزير ابو القاسم علي بن طره من الاسرة العباسية وزيـر

الخليفة المسترشد والذي قال عنه الخليفة : (كل من رددت اليه الوزارة شرفه بها الا انت فان الوزارة شرفت بك) ٠

اما الوزير ابن هبيرة فقد لعب دورا كبيرا في قيادة الجيش والقضاء على النفوذ السلجوقي في العراق كما اشتهر الوزير ابن القصاب ببراعته في قيادة الجيوش وبسط نفوذ الخلافة على الاحواز وقد اكثر الخلفاء من استخدام (نواب الوزراء) وقد يصلح حال بعضهم فيرقون الى منصب الوزارة وقد يوجد النائب مع وجود الوزير فقد جعل ابن هبيرة ولده نائبا عنه طوال مدة وزارته وكذلك حين قاد ابن القصاب الجيش لحرب خوارزمشاه سنة ٥٩٢هـ غدا ابنه احمد نائبا في الوزارة عنه ٠ ويبدو ان اصطلاح الوزير ظل مرنا حيث استعمل رغم تبلور منصب الوزارة في هذه الفترة ، للدلالة على وظائف او شخصيات معينة فقد سمي ناظر الاحواز (خوزستان) وناظر اربل بالوزير خلال العصر العباسي الاخير على انها كانت تسمية وقتية كما يبدو ٠

ويفصل العديد من مؤرخينا الرواد الكلام عن رسوم الوزارة وتقاليدها ومراسيم التولية والعزل كما ينقل بعضهم صورا من التفويض الذي كتبه الخليفة الى الوزير واجابة الوزير عليه ثم تعليق الخليفة العباسي على هذه الاجابة ، واخبارا عن رعاية وزراء هذه الفترة للنشاط الفكري من اداب وعلوم شرعية خاصة وان هذه الفترة شهدت ظهور حركات متطرفة باطنية مثل حركة الحشيشية مما دفع المسؤولين في الدولة الى تشجيع حركة الرد الفكري والثقافي والديني على تلك الحركات وتأسيس المدارس لنشر المعرفة الدينية والعلمية الصحيحة وتخريج طبقة مسلحة بالعلم والشريعة لتقف امام هذه البدع الجديدة ٠

اما وزراء السلاطين السلاجقة فلابد من الاشارة هنا الى انه بالقدر الذي اعتمد فيه سلاطين السلاجقة على انفسهم في الحروب اعتمدوا على غيرهم

في الادارة والمؤسسات والنظم • فالسلاجقة مثل البويهيين ليس لهم باع طويل في الحضارة والنظم •

وحين تذكر المؤسسات في العصر العباسي المتأخر لابد ان تذكر الوزارة السلجوقية التي برزت بشكل ملحوظ بين المؤسسات الاخرى ولعبت دورا سياسيا واداريا مهما خلال الفترة • وحين تذكر الوزارة السلجوقية لابد أن يذكر اسم نظام الملك ابرز وزير سلجوقي وصاحب كتاب (سياسة نامة) الذي يبحث في نظام الحكم وسياسة الدولة • لقد لعب ابو علي الحسن بن علي الطوسي (نظام الملك) دورا مهما في السياسة السلجوقية في عصر السلاجقة العظام ولذلك فان بعض المؤرخين يطلقون على هذه الفترة عصر نظام الملك على غرار دولة البرامكة ودولة آل سهل ، ان منجزات الوزير نظام الملك اعطت قوة وتماسكا للحكم السلجوقي وجعلته يحظى بالاحترام • وقد ظل نظام الملك وزيرا للسلطانين آلب ارسلان وملكشاه لمدة ٣٠ سنة تقريبا حتى مقتله سنة ٣٨٥/٩٩٥م ومات بعده ملكشاه ولهذا علق ابن الاثير (وانحلت الدولة ووقع السيف) ••

ويعزى سبب مقتله الى عدة عوامل لعلها تجتمع في عامل سطوته ونفوذه الكبيرين الامر الذي اثار مناوئيه وحساده الذين اتفقت غاياتهم مع غايات الباطنية الحشيشية في التخلص من الوزير القدير فقتلته زمرة من الفداوية الحشيشية • ويبدو ان نظام الملك كان قد تنبأ بتدهور السلطة السلجوقية بعد موته فقد اجاب على رسالة شديدة اللهجة بعث بها اليه السلطان ملكشاه يشكو فيها من تصرفات بعض ابنائه واحفاده فاجاب نظام الملك : « ان ثبات تلك القلنسوة منوط بهذه الدواة وان اتفاقهما رباط كل رغيبة وسبب كل غنيمة ومتى قطعت هذه زالت تلك فان عزم على تغييري فليتزود للاحتياط قبل وقوعه » •

ولم يكن نظام الملك مبالغا في جوابه انف الذكر فالواقع ان تأثيره كان

واضحا في الاتجاهات السياسية والثقافية للسلطة السلجوقية ويعـزى اليـه الفضل في توجيه الجهد السلجوقي نحو الثغر البيزنطي • وفي هذا يكون قد اعطى السلاجقة منزلة كبيرة لدى الرأي العام الاسلامي باعتبارهم قادة الجهاد ضد الروم ومن ثم شغل الجند بما يجنبهم الفتن والتمردات وابعد الجيش عن السياسة الامر الذي لم يستطع البويهيون عمله • وشن نظام الملك حملـة شديدة على الباطنية الحشيشية وفروعها على المستويين الحربي والفكري • وانشأ المدارس في مدن عديدة عرفت باسم (النظاميات) وشجع علماء هذه المدارس على نشر المعارف الدينية والتاريخية للرد على دعاوى اهل البـدع والمشككين وافكارهم المنحرفة •

والى نظام الملك كذلك يعود انتشار نظام الاقطاع العسكري السلجوقي وتعميم نظام الاتابكيات فقد كان الامراء والقادة يتسلمون اراضي معينة في الاقاليم بديلا للراتب • ومن خلال ربح هذه الاقطاعيات يتزود القائد او الامير بالدخل الذي يصرفه على جنده واتباعه وعلى تطوير الاقليم التابع له وفي عهد قوة الدولة حقق السلاجقة من هذا النظام الاهداف الايجابية المطلوبة وهي وجود جيش ثابت ومنظم مستعد على الدوام لخدمة الدولة • ثم اعمار الاراضي واصلاحها وزراعتها ثم تخفيف المركزية الادارية واخيرا العمل علـى استقرار البدو الغز السلاجقة في اماكن جديدة عن طريق ربطهم بالارض ولكن كان لهذا النظام نتائجه السلبية حيث برزت الاتابكيات القوية واستقلت عن الحكومة المركزية وبدأ التنافس والتناحر واهملت الارض الزراعية • لقد كان مقـر الوزير السلجوقي اما في نيسابور او الري او اصفهان حسب تغير مقـر السلطان السلجوقي- فالمعروف ان السلطان السلجوقي لم يستقر في بغـداد بصورة مستديمة وقد تركت ادارة بغداد الى ممثلين للسلطان السلجوقي هما العميد (نائب السلطان) ثم الشحنة وهو بمثابة محافظ المدينة والمسؤول الامني فيها ، هذا اضافة الى السلطة المركزية العباسية في بغداد ولما كان وزير السلطان

السلجوقي هو الشخص الاول المعتمد في الادارة فكان يختار من الشخصيات ذات الثقافة الواسعة والاتزان والعلم بقوانين الشريعة والسياسة كما تلقب وزراء السلاطين على غرار وزراء الخلفاء بالقاب رنانة مثل عميد الملك ونظام الملك ومؤيد الملك وشهاب الدين وغيرها .

تم القضاء على النفوذ السلجوقي في العراق على عهد الخليفة الناصرلدين الله سنة ٥٩٠هـ/١١٩٣م وقد هدم هذا الخليفة دار السلطنة رمز الهيمنة السلجوقية على بغداد وقد زادت مكانة الوزارة العباسية مع زيادة نفوذ الخليفة على عهود الناصر والخلفاء الذين جاءوا من بعده كما زادت القابه الطنانة وتوسعت صلاحياته وينقل المؤرخ ابن الطقطقى تفويضا كتبه الناصر لوزيره ابن القمي يشير فيه ان الوزير نائب الخليفة على البلاد والعباد (فمن اطاعه فقد اطاعنا ومن اطاعنا فقد اطاع الله » وقد اشرنا فيما سبق الى كفاءة الوزيرين ابن هبيرة وابن القصاب خلال العصر العباسي الاخير على ان العصر العباسي الاخير انتج وزراء من نوع آخر ايضا استغلوا ثقة الخليفة العباسي بهم فانحرفوا عن الدولة ومن هؤلاء الوزير ناصر بن مهدي وزير المقتفي لامر الله الذي اطلق يده في الصرف بالاموال فخان الامانة واتصل بمتآمرين من العجم : « فكان ينفذ الاموال الى العجم وانه كان يطمع بالخلافة » .

ويشير عدد من المؤرخين الى اتصال ابن العلقمي بالمغول سرا دون علم المستعصم العباسي وارتضى ابن العلقمي ان يعمل تحت سلطة المغول بعد سقوط بغداد . على ان مؤرخين آخرين ينفون هذا الاتصال اصلا ، وسواء كان اتصال ابن العلقمي بالمغول الوثنيين مؤكد بسبب كثرة عدد المؤرخين الذين ايدوا التهمة ، ام غير مؤكد فان الخيانة تثبت على ابن العلقمي بسبب تعاونه مع هولاكو المغولي وارتضائه العمل تحت سلطته بعد كل الدمار الذي حل بالبلاد والعباد ويسري هذا الحكم على كل من تعاون مع البرابرة المغول من كبار الموظفين ويمكننا اجمال صلاحيات الوزير في العصر العباسي الاخير :

١ ـ يتولى الوزير اخذ البيعة للخليفة عند التولية والاشراف على المراسيم الخاصة بذلك ٠

٢ ـ استقباله رسل الامراء الاجانب او الامراء الاجانب انفسهم قبل تشريفهم بمقابلة الخليفة ٠

٣ ـ تبليغ نقباء العباسيين والعلويين بتعيينهم من قبل الخليفة وقراءة عهدهم والخلع عليهم ٠

٤ ـ تبليغ القضاة باوامر تعيينهم او خلعهم واجراء المراسيم الخاصة بذلك في دار الوزارة ٠

٥ ـ النظر في أمر الدواوين كلها وتولية وعزل صدور هذه الدواوين ٠

٦ ـ النظر في امر الجيش واستعراض الجيش في المناسبات وقيادة العساكر احيانا لقمع الفتن ٠

ومن الروايات القليلة المتوفرة لدينا لم تكن موارد الوزارة او راتب الوزير ثابتا محدودا بل يختلف من وزير الى آخر ومن عهد خليفة الى اخر فكان المقتدر يجري على وزيره علي بن عيسى خمسة الاف الى سبعة الاف دينار شهريا ٠ وقد زادت النسبة في العصور التالية فكان الوزير في العصور العباسية المتأخرة يتسلم راتبا سنويا يتراوح بين ٩٠الف و١٠٠الف دينار وربما اخذ الوزراء الاقطاعات بدل الرواتب كما حدث في العصر البويهي والسلجوقي او تخصص الدولة لهم نسبة معينة من موارد الاراضي الحكومية التابعة للحكومة المركزية ٠

اما المراسيم التي يتم بموجبها تقليد منصب الوزارة لشخص ما والطريقة التي يتم بها عزله ، فلدينا بعض الروايات التاريخية عن ذلك خاصة تلك التي يذكرها الجهشياري وابن الجوزي في المنتظم وسبطه في مرآة الزمان ٠ واغلبها كما هو واضح يتعلق بالعصور العباسية المتأخرة حين تبلور منصب الوزارة

وعرفت اصوله ، ولعلنا نستطيع القول دون تردد ان زيادة المظاهر والمراسيم في تعيين الوزراء او في عزلهم يتناسب عكسياً مع قوة منصب الوزارة . فكلما كان الوزير قوياً ومتنفذاً وكان العصر عصر قوة وازدهار كلما قلت المظاهر الفضفاضة والمراسيم والالقاب الفخمة والعكس صحيح .

بعض المصادر والمراجع

الجهشياري : الوزراء والكتاب ـ مصر ١٩٣٨ .

هلال الصابيء : تحفة الامراء في تاريخ الوزراء ـ مطبعة البابي الحلبي .

ابن خلكان : وفيات الاعيان ، القاهرة ١٣١٠ هـ .

ابو خلدون : المقدمة ، بيروت .

ابن الطقطقي : الفخري في الاداب السلطانية ـ القاهرة ١٣٤٠ هـ .

ابن طيفور : تاريخ بغداد ـ القاهرة ١٩٤٩

الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ـ القاهرة ١٩٣١

الطبري : تاريخ الامم والملوك ـ ليدن ١٩٠١ م .

ابن الاثير : الكامل في التاريخ ـ القاهرة ١٣٠١ هـ .

الثعالبي : الوزارة ، بغداد ١٩٧٧ .

الماوردى : الاحكام السلطانية ـ مصر ١٩٦٠ .

ادب الوزير ـ القاهرة ١٩٢٩ .

مسكويه : تجارب الامم ـ مطبعة التحدث ـ مصر ١٩١٤ .

عبدالعزيز الدوري : النظم الاسلامية ـ بغداد .

العصور العباسية المتاخرة ـ بغداد ١٩٤٥ .

سورديل : الوزارة العباسية (بالفرنسية) ، دمشق ١٩٦٠ .

متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري (مترجم) ـ القاهرة ١٩٥٧ .

اليوزبكي : الوزارة العباسية ـ بغداد ١٩٧٠ .

فاروق عمر : النظم الاسلامية ، ـ الشارقة ، ١٩٨٣ .
العباسيون الاوائل ، ثلاثة اجزاء ج ١ ـ بيروت ١٩٧١
ج ٢ دمشق ١٩٧٣ ج ٣ عمان ١٩٨٢ .
الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية ،
بغداد ـ بيروت ١٩٧٧
الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة ، الشارقة ،
الامارات العربية ١٩٨٣ .

تقي الدوري : عصر امرة الامراء ـ رسالة ما جستير ١٩٧٣ بغداد .

تحسين حميد : المعتضد بالله ـ رسالة ماجستير ١٩٧٣ بغداد .

حمدان الكبيسي : عصر المقتدر بالله مطبعة النعمان ١٩٧٤ .

محمد حسين الزبيدي : العراق في العصر البويهي ، القاهرة ١٩٦٩ م .

ظافر القاسمي : نظام الحكم ، جزءان ـ بيروت ١٩٧٤ .

حسين امين : العراق في العصر السلجوقي ـ بغداد ١٩٦٥ .

فاضل الخالدي : الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق ـ بغداد ١٩٦٩ .

محمد صالح القزاز : الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير ـ
النجف ١٩٧١ .

بدري محمد فهد : تاريخ العراق في العصر العباسي الاخير ـ بغداد ١٩٧٣ .

الفصل الثالث

الادارة

د . عبد القادر سلمان المعاضيدي
كلية التربية - جامعة بغداد

المبحث الاول

امراء وولاة العراق وسلطاتهم

امراء العراق في العصر الراشدي

مع مجيء الاسلام بدأ وعي قومي جديد على الارض العربية ، وقد ارتبط هذا الوعي بتأسيس اول دولة عربية موحدة في جزيرة العرب ، وعندما انشأ العرب دولتهم الموحدة هذه كانت هناك اجزاء كبيرة من وطنهم الكبير تحت السيطرة الاجنبية ، فالعراق واليمن تحت الاحتلال الفارسي وبلاد الشام وشمال افريقية تحت الاحتلال البيزنطي فأصبح بذلك تحرير الارض العربية المحتلة هدفا مركزيا في سياسة الدولة العربية . وقد أراد الرسول (ص) ان يدخل هؤلاء في الدين الجديد سلما ، فبعث برسائل الى

رؤساء الدول التي كانت تمارس الاحتلال في الوطن العربي يدعوهم فيها للايمان بالمباديء الانسانية التي جاء بها الاسلام ، الا ان دعوة الرسول العربي محمد (ص) لم تلق استجابة وقبولا من قبل هؤلاء الحكام لانهم وجدوا فيها خطرا يهدد مصالحهم ، وكان رد كسرى ملك الفرس اعنف ردا واسوأ مما فعله هرقل ملك الروم ، فقد مزق كتاب الرسول (ص) وأرسل الى (باذان) ، نائبه في اليمن يأمره بأن يلقي القبض على الرسول (ص) وارساله اليه مكبلا ، فأصبحت حالة الحرب هي الوسيلة الوحيدة لتحرير الارض العربية من ايدي المحتلين الاجانب وقد خاض الجيش العربي معارك ضارية مع المحتلين الفرس ، اظهر فيها المقاتلون العرب مقدرة قتالية عالية أدت الى انتصارهم في هذه المعارك ، وبالتالي تحرير العراق من السيطرة الفارسية .

ومنذ ان تم تحرير العراق قسمه الخليفة عمر بن الخطاب الى منطقتين اداريتين هما ولاية البصرة وولاية الكوفة وجعل كل ولاية مستقلة عن الاخرى في النواحي الادارية والمالية والقضائية ، ليسهل الاشراف على ادارتها وجمع مواردها ، فكان يعين للعراق واليين ، أحدهما على البصرة والاخر على الكوفة وقد عهد الى أمير البصرة بالاضافة الى ادارة المناطق التي تدخل ضمن حدود ولايته في جنوب العراق الاشراف الاداري على الاقاليم التي تم تحريرها من قبل الجيش العربي في البصرة في جهة الشرق وهي الاحواز وفارس وكرمان ومكران وسجستان وخراسان فقد كان امير البصرة يعين عمالا على هذه الاقاليم يكونون مسؤولين امامه . كما عهد الى امير الكوفة الاشراف الاداري على اواسط العراق وشماله وعلى الاقاليم التي تم تحريرها من قبل الجيش العربي في الكوفة وهي همذان والري وقزوين واصفهان واذربيجان .

كان العراق مقسما الى اثنتي عشرة وحدة ادارية تسمى كل منها (كورة) وكل كورة تقسم الى عدد من الطساسيج ويشمل كل طسوج عددا من الرساتيق والقرى وكان يقيم في الكورة عامل يكون مسؤولا عن ادارتها وجباية الاموال فيها .

وكان الامير اضافة الى ادارة المصر الذي يقيم فيه ، قائدا للجيش العربي ومسؤولا عن حماية وحفظ الامن في ارجاء ولايته ، ويكون اماما في الصلاة نيابة عن الخليفة . اما الناحية المالية فقد تولاها موظف خاص يسمى (عامل الخراج) يكون مسؤولا امام الخليفة مباشرة وكان القاضي يعينه الخليفة ويكون مسؤولا امامه .

وهكذا نجد ان الخليفة عمر بن الخطاب الذي نظم الاسس الاولى لادارة الدولة العربية كان قد اكد على الجانب الديمقراطي في ادارة الدولة ففصل السلطات الثلاث الادارية والمالية والقضائية ، فجعل كل سلطة تعمل مستقلة عن الاخرى ليحول دون انفراد شخص واحد في كل الامور فحدد اختصاصات كل واحد منهم وجعلهم مسؤولين امامه .

اختار الخلفاء الراشدون امراء العراق من العرب وكان الخلفاء يأخذون برأي اهل العراق في تعيين الامراء وعزلهم ، ومع ان هؤلاء الامراء كانوا قد تمتعوا باستقلال شبه ذاتي في الادارة باعتبارهم كانوا ممثلين للخليفة الا ان المصادر اشارت الى ان الخليفة هو الذي كان يرسم السياسة التي يسير عليها الامير في العراق ، وان الخليفة كان يسأل اهل العراق عندما يفدون الى المدينة في مواسم الحج وغيرها عن حال امرائهم وسيرتهم فيهم ، « واذا شكي اليه عامل له جمع بينه وبين من شكاه ، فأن صح عليه أمر أخذه به » وان الامراء كانوا يستشيرون الخليفة في كثير من الاعمال التي كانوا يقومون بها .

امراء العراق في العصر الاموي

وفي العصر الاموي اتبع الخلفاء الامويون في البداية النظام الاداري الذي كان قائما في العراق في العصر الراشدي وذلك بتعيين أمير على البصرة وآخر على الكوفة وقد ظل هذا النظام الاداري قائما الى ان توفي أمير الكوفة المغيرة بن شعبة سنة ٥٠هـ / ٦٧٠م فولى الخليفة الاموي معاوية بن ابي سفيان في هذه السنة امير البصرة زياد بن ابيه اميرا على الكوفة والبصرة ، والراجح ان قابلية زياد الادارية وكفاءته ومقدرته واخلاصه للدولة هي التي شجعت معاوية على توحيد ادارة العراق تحت حكم أمير واحد ، وكان زياد وامراء العراق من بعده يتخذون الكوفة مرة والبصرة مرة اخرى مقرا لهم ويعينون نائبا عنهم لادارة المصر الآخر •

وعندما تولى الحجاج ولاية العراق سنة ٧٥ هـ / ٦٩٤ م أخذ يتنقل في اقامته بين البصرة والكوفة فرأى من الافضل ان يتخذ مكانا وسطا بين هاتين المدينتين يكون مقرا لحكمه ويشرف على اعمال نائبيه فيهما فاختار موضع مدينة واسط وبنى فيه مدينة سنة ٨١ هـ / ٧٠٠ م اتخذها مركزاً لادارة العراق ، وقد ظلت هذه المدينة مقرا لامراء العراق ومركزا لادارة العراق والمشرق منذ تأسيسها حتى نهاية الدولة العربية في العصر الاموي ، وكان امراء واسط يعينون عمالا في كل من الكوفة والبصرة يقومون مقامهم في ادارة هذين المصرين ويكونون مسؤولين امامهم ، وهكذا اصبحت مدينة واسط مركزا للاشراف على ادارة المنطقة المحيطة بها ، كما اصبحت مركزا للاشراف على ادارة الكوفة والبصرة والمشرق •

لقد بلغت الدولة العربية اقصى اتساعها في العصر الاموي فأراد الخلفاء الامويون ان يخففوا من اعباء اشرافهم على الاقاليم البعيدة منها فاتبعوا نظام اللامركزية في ادارة الدولة ، فمنح امراء العراق صلاحيات واسعة

في الادارة المدنية والعسكرية • فقد كان هؤلاء الامراء يشرفون غالبا على ادارة العراق والمشرق الاسلامي ويتولون قيادة الجيش ولهم امامة الصلاة والخطبة ، كما عهد الى هؤلاء الامراء تعيين العمال على الاقاليم في المشرق والاشراف على حركات التحرير هناك •

كان الامراء في العراق تتبعهم عدة دوائر ادارية تساعدهم في الادارة وتطبيق النظام وتنفيذ القوانين وكان على رأس كل دائرة ادارية موظف يعينه الامير ويكون مسؤولا امامه فكان الى جانب الامير موظف ذو اهمية كبيرة في الادارة هو صاحب الشرطة الذي كان على رأس جهاز الشرطة ، وكان الى جانبه ايضا القاضي ، وكتاب الدواوين وصاحب بيت المال ، والمحتسب (العامل على السوق) وصاحب البريد • وهكذا نجد ان النظام الاداري في العراق كان قد تطور في العصر الاموي نظرا لتطور الدولة العربية في هذا العصر •

والظاهر ان اشراف امراء العراق على ادارة جزء كبير من الدولة العربية في العصر الاموي ، واستمرار حركات التحرير العربية في المشرق ، ادى الى ان الخلفاء الامويين عند تعيينهم لهؤلاء الامراء كانوا يختارون الاشخاص الذين يتمتعون بكفاءة ومقدرة ادارية وعسكرية فبعد ان ازدادت الاضطرابات في ولاية البصرة وبعض المناطق التابعة لها اداريا من جراء نشاط حركة الخوارج وفقد الامن والاستقرار في الولاية عزل معاوية بن ابي سفيان في سنة ٤٥ هـ / ٦٦٥ م امير البصرة عبدالله بن عامر بعد ان تأكد من ضعفه وعجزه عن اصلاح الاوضاع في ولاية البصرة وولى الحارث بن عبدالله الازدي في نفس هذه السنة وعندما رأى معاوية ان الحارث لم يستطيع ان يغير الاوضاع في البصرة عزله وولى زياد بن ابيه في هذه السنة ايضا •

كانت الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البصرة عند مجيء زياد متدهورة ويبدو ذلك واضحا من مضمون الخطبة التي ألقاها زياد على اهل البصرة عندما وصل اليها ، وقد أكد زياد على اصلاح الاوضاع في خطبته هذه .

تصدى زياد للخوارج وقمع حركتهم بشدة لانه رأى أن هؤلاء هم المسؤولون عن قيام الاضطرابات وعدم الاستقرار في الولاية ، وقام بضبط الامن (حتى أمن الناس بعضهم بعضا ، وكان الشيء يسقط من الرجل والمرأة فلا يعرض له احد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها ، وساس الناس سياسة لم ير مثلها وهابه الناس هيبة لم يهبها احد قبله ...) كما يقول الطبري .

واراد زياد ان يقضي على العصبية القبلية التي ادت الى تمزيق وحدة الامة العربية فأعاد تنظيم مدينة البصرة فقسمها الى خمس قبائل كبيرة يسمى كل منها خمسا ويضم عددا من العشائر .

وقام زياد بتنظيم العطاء وهو المال الذي كانت تعطيه الدولة العربية الى المقاتلة وأكد على دفع العطاء في وقته وكانت الارزاق تدفع في عهده بصورة منتظمة في كل شهر ، وقد انشأ دارا للرزق في البصرة لحفظ الارزاق .

وكان زياد يجلس كل يوم عدا يوم الجمعة يسأل الرسل الذين يبعث بهم عماله عن الاحوال المعاشية وعن بلادهم ثم يأتي عماله على السوق ودار الرزق فيسألهم عما ورد اليها وعن الاسعار وما يحتاجون اليه .

فعم الرخاء في عهده وكانت الاسواق عامرة بالسلع . وعندما اصبح زياد اميرا على الكوفة ايضا قام بأعمال عمرانية واقتصادية فيها .

وبعد ان انتصر عبدالملك بن مروان على مصعب بن الزبير سنة ٧٢هـ / ٦٩١م ولى اخاه بشرا على الكوفة وولى خالد بن عبدالله بن أسيد على البصرة

في نفس هذه السنة ولكن عندما اشتد خطر الخوارج جمع عبدالملك العراق لبشر بن مروان سنة ٧٣ هـ / ٦٩٢ م ولكن بشرا لم يعمر طويلا بل مات بعد ستة اشهر من توليه ، وقد اعقبه خالد بن عبدالله بن اسيد ولكن خالدا هذا لم يستطع ان يقوم بعمل حاسم ضد الخوارج فرأى عبدالملك ان الحجاج بن يوسف الثقفي خير من يوكل اليه امر العراق لما عرف عنه من كفاءة ومقدرة واخلاص للدولة فولاه سنة ٧٥هـ / ٦٩٤م وبعد ان قمع الحجاج حركات الخوارج وهدأت الحالة في العراق قام بعدة اعمال ادارية واقتصادية وثقافية وعسكرية فقد تم في عهده :

١ ـ تعريب الدواوين في العراق مما ادى الى اصلاح الادارة المالية .

٢ ـ امر بضرب الدراهم في العراق واتخذ دارا للضرب في مدينة واسط ضربت فيها الدراهم على الطراز العربي الاسلامي .

٣ ـ قام بتحديد الاوزان والمكاييل والمقاييس وعمل على توحيدها فسهلت بذلك الاعمال التجارية .

٤ ـ اصلح نظام الضرائب .

٥ ـ ادخل اصلاحات على السفن التجارية الكبيرة التي تتخذ واسطة للنقل في البحار فأمر بجعلها مقيرة ومسمرة وذات جآجيء

٦ ـ اهتم بشؤون البريد فاتخذ المناظر للمخابرة بين واسط في العراق وقزوين في المشرق ترى نارها ليلا ودخانها نهارا .

٧ ـ انشأ اسطولا حربيا استخدمه في حركات التحرير في بلاد السند

٨ ـ اهتم بشؤون الكتابة فأمر بتنقيط الحروف وأمر بالكتابة في القراطيس .

٩ ـ اهتم بالثورة الزراعية فجفف المستنقعات في منطقة البطائح وحفر الانهار وشق الترع والقنوات واقام السدود وارجع سكان القرى الذين هجروا قراهم وسكنوا المدن الى قراهم وذلك للعمل في الزراعة .

لم تقتصر اعمال الحجاج على الامور الداخلية وانما اهتم بأمر حروب التحرير العربية في المشرق. فوجه الجيوش العربية في العراق بصورة مستمرة الى الساحات الشرقية ، وقد ذكر المؤرخون ان الحجاج كان قد هيأ كل اسباب النصر لهذه الجيوش في معاركها العادلة هناك ، فقد اهتم بعدد هذه الجيوش وعدتها وتجهيزاتها وولاها قادة كانوا يتمتعون بكفاءة عسكرية عالية كيزيد بن المهلب بن ابي صفرة قائد الجيش العربي في جبهة خراسان وقتيبة بن مسلم الباهلي قائد الجيش العربي في جبهة خراسان من بعده ومحمد بن القاسم الثقفي قائد الجيش العربي في جبهة السند ، وكان الحجاج يشرف بصورة مباشرة على تحركات هذه الجيوش ويمد قادتها بآرائه ونصحه . وقد تم في عهده تحرير مناطق واسعة في المشرق .

لقد اختلف المؤرخون في رواياتهم عن الامير الذي حكم العراق بعد وفاة الحجاج سنة ٩٥هـ / ٧١٣م فقيل ان الوليد بن عبدالملك ولى يزيد بن ابي مسلم الثقفي اميرا على العراق وقيل ان الوليد ولى يزيد بن ابي كبشة اميرا على العراق وولى يزيد بن ابي مسلم عاملا على الخراج وقيل ان الوليد أقر يزيد بن ابي مسلم ثم استعمل مكانه يزيد بن ابي كبشه . وفي رأينا ان يزيد بن ابي مسلم اصبح اميرا على العراق بعد وفاة الحجاج ، يدل على ذلك ان المصادر التي اشارت الى تولية يزيد بن ابي كبشة اميرا عى العراق اجمعت على انه كان واليا على الكوفة والبصرة كما ان الحجاج كان يعتمد اعتمادا كبيرا على يزيد بن ابي مسلم وذكرت المصادر ان يزيد كان قد تقلد عدة مناصب ادارية مهمة زمن الحجاج .

حكم يزيد تسعة اشهر ويبدو انه كان ذا كفاءة ومقدرة اداريـة يقول صاحب العقد الفريد « مات الحجاج في اخر ايام الوليد بن عبدالملك فتفجع عليه الوليد وولى مكانه يزيد بن ابي مسلم كاتب الحجاج فكفى وجاوز فقال الوليد : مات الحجاج ووليت مكانه يزيد بن ابي مسلم فكنت كمن سقط منه درهم واصاب دينارا » .

عندما جاء سليمان بن عبدالملك سنة ٩٦هـ / ٧١٤م الى الخلافة عزل يزيد وولى مكانه يزيد بن المهلب بن ابي صفرة الازدي ولم يكن يزيد جديدا على الولاية ومسؤولياتها فقد سبق ان كان واليا على خراسان من سنة ٨٣ - ٨٦هـ / ٧٠٢ - ٧٠٤م .

طلب يزيد من الخليفة ان يكون صالح بن عبدالرحمن مسؤولا عن ديوان الخراج في العراق فوافق الخليفة على ذلك الا ان صالحا ، « ضيق على يزيد فلم يملكه شيئا » ورفض النفقات الباهضة التي اراد يزيد ان ينفقها ، ويبدو ان موقف صاحب ديوان الخراج دفع بزيد الى ان يبحث عن ولاية اخرى غير العراق فاراد ان يكون واليا على خراسان فقد ذكر الطبري انه عندما عرض الخليفة سليمان ولاية خراسان على عبدالملك بن المهلب بن ابي صفرة « ثم اعرض سليمان عن ذلك » بلغ الخبر يزيد فأرسل عبدالله بن الاهتم - وكان له علم بخراسان - الى الخليفة وطلب منه أن يذكر اسمه امامه عندما يشاوره في امرها لتوليته عليها ، فكتب الخليفة عهد يزيد على خراسان اضافة الى العراق وذلك في سنة ٩٧هـ / ٧١٥م فلما سار الى خراسان استخلف على العراق الجراح بن عبدالله الحكمي .

والجدير بالذكر ان يزيد كان قد ساهم في حروب التحرير العربية في المشرق فقد اشارت المصادر انه سار في سنة ٩٨هـ / ٧١٦م على رأس جيشه وحرر (دهستان) ثم سار في هذه السنة وحرر (جرجان) و (طبرستان) و (الرويان) و (هنباوند) .

ولما تولى عمر بن عبدالعزيز الخلافة عزل يزيد بن المهلب عن ولايـة العراق وخراسان في سنة ٩٩هـ / ٧١٧م وولى عبدالحميد بن عبدالرحمن ابن يزيد بن الخطاب اميرا على الكوفة ، وولى عدي بن أرطاة الفزاري اميرا على البصرة وولى محمد بن المنتشر بن الاجدع الهمداني اميرا على واسط .

بعد ان قضى مسلمة بن عبدالملك بن مروان على حركة يزيد بن المهلب بن ابي صفرة في العراق ولاه الخليفة يزيد بن عبدالملك اميرا على العراق والمشرق وذلك في سنة ١٠٢هـ / ٧٢٠م وقد مكث مسلمة في العراق ستة اشهر وفي رواية ثمانية اشهر ثم عزله يزيد وولى عمر بن هبيرة الفزاري مكانه . امـا عزل مسلمة عن ولاية العراق فيرى الطبرى ان مسلمة « لم يدفع من الخراج شيئا فعزله يزيد » ان ماذكره الطبري هو احد الاسباب التي ادت الى عزل مسلمة وفي رأينا ان السبب الرئيس في عزله وتولية ابن هبيرة مكانه هو ان الحالة في العراق والمشرق كانت مضطربة من جراء حركـة يزيد بن المهلب التي ادت الى انقسام القبائل العربية على نفسها ، ففي هذه الحالة كان الوضع في العراق والمشرق يتطلب ان يكون الامير ذا دراية وكفاءة ومقدرة وبما ان عمر بن هبيرة سبق ان كان اميرا على الجزيرة والموصل وقام بفتوحـات عظيمة في منطقة ارمينيا خاصة وبلاد الروم عامة وخاض هناك معارك برية وبحرية اثبت فيها كفاءة ومقدرة عالية اضافة الى انه كان من رجال الشـام المشهورين .. كل اولئك دفع الخليفة الى توليته امرة العراق والمشرق ليعيد الهدوء والاستقرار في هذا القسم المهم من الدولة العربية .

تولى عمر بن هبيرة امرة العراق والمشرق سنة ١٠٣ هـ / ٧٢١ م وعلى الرغم من قصر المدة التي حكم فيها العراق فانه قام باعمال ادارية مهمة فقد امر بمسح السواد سنة ١٠٥هـ / ٧٢٣م وقد ذكرت المصادر ان هذه هـي المرة الثانية منذ مسحه في خلافة عمر بن الخطاب ويبدو ان مسحه كان دقيقا يدل على ذلك ان الدولة العربية استمرت بالاخذ بمساحة ابن هبيرة حتى

زمن اليعقوبي المتوفى في نهاية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي .
واقام القناطر في اراضي السواد لدرء الفيضانات كما اهتم باصلاح العملة « فخلص الفضة ابلغ من تخليص من قبله وجوّد الدراهم واشتد في العيار » وكان الدرهم في عهده يزن ستة دوانيق وقد سميت النقود بأسمه .. اهتم عمر بن هبيرة بأمر حركات التحرير العربية في المشرق وقد تم على يد عماله هناك تحرير عدد من المناطق .

في سنة ١٠٦هـ / ٧٢٤م عزل هشام بن عبد الملك عمر بن هبيرة عن ولاية العراق وولى خالد بن عبدالله القسري مكانه فعندما وصل خالد القسري الى واسط سجن عمر بن هبيرة الا ان عمر استطاع ان يهرب من السجن ، ثم ذهب الى الشام والتجأ الى مسلمة بن عبدالملك فشفع له عنداخيه الخليفة هشام فأمنه هشام « على ان يؤدي ماطولب به (من المال) فأداه » ثم أقام بدمشق .

اما الاعمال التي قام بها خالد فانه اهتم بالزراعة فأمر بتجفيف المستنقعات في منطقة البطائح في جنوب العراق وحفر عددا من الانهار وجداول الري كما اقام سدا على نهر دجلة لرفع منسوب المياه فيه فأدى ذلك الى ازدهار الحياة الاقتصادية في العراق في عهده . كما اهتم بضرب النقود فقام بزيادة وزن الدرهم وجوده ، والجدير بالذكر ان مدينة واسط اصبحت منذ سنة ١٠٦هـ / ٧٢٤م المركز الوحيد لضرب النقود في العراق والمشرق وقد اشار المقريزي الى هذه الحقيقة فقال : أمر هشام « خالد بن عبدالله القسري في سنة ست ومائة من الهجرة ، ان يعيد العيار الى وزن سبعة وان يبطل السك في كل بلدة الا واسطا فضرب الدراهم بواسط فقط ، وكبر السكة ، فضربت الدراهم على السكة (الخالدية) حتى عزل خالد في سنة عشرين ومائة وتولى من بعده يوسف بن عمر الثقفي ، فصغر السكة واجراها على وزن ستة ، وضربها بواسط وحدها » ويؤكد الباحث (Jungfleisch)

ان مدينة واسط في عهد خالد القسري اصبحت المركز الوحيد لضرب الدراهم في جميع الاقاليم التابعة للدولة العربية في العصر الاموي باعتبار انه وجد بواسط عدد كبير من الدراهم الاموية الخاصة بافريقية والاندلس كانت قد ضربت في هذه المدينة وكانت معدة لتصديرها الى هذين الاقليمين ويوافقه في ذلك كل من الاستاذ (Walker) و (عبدالرحمن فهمي) ولكن الاخير يرى ان الدراهم بعد سنة ١٠٦هـ / ٧٢٤م تركز ضربها بواسط ودمشق .

كما اهتم خالد بأمر حركات التحرير العربية في المشرق فقد ذكر ابن اعثم الكوفي انه عندما تولى امرة العراق كتب الى أخيه وعامله على خراسان اسد بن عبدالله القسري ان يواصل حركات التحرير وقد تم في عهده تحرير عدد من المناطق في المشرق .

في سنة ١٢٠هـ / ٧٣٧م عزل الخليفة هشام بن عبدالملك خالدا عن ولاية العراق وولى يوسف بن عمر الثقفي مكانه . كان يوسف بن عمر من الامراء الذين تمتعوا بنفوذ واسع في الدولة العربية في العصر الاموي ، يقول اليعقوبي : « عزل الوليد عمال هشام ... خلا يوسف بن عمر الثقفي عامل العراق ، وذلك انه وجد في ديوان هشام كتبا من العمال يقومون عزمه على خلع الوليد الا يوسف فانه اشار عليه الا يفعل فأقره (الوليد) على عمله » يتبين من هذا النص مدى سعة نفوذ يوسف وقوة مركزه في الخلافة انذاك علما ان الخليفة هشاما كان متحمسا لخلع الوليد والبيعة لابنه مسلمة وانه كان يدرك تمام الادراك ان سبب رفضه هو قرابة الوليد اليه . الا انه يبدو ان هشاما لم يستطع ان يعزله عن منصبه آنذاك .

اما الاعمال التي قام بها يوسف في العراق فأنه تشدد في ضرب النقود فكانت النقود اليوسفية من احسن النقود التي ضربت في عهد بني امية ،

ويبدو انه كان قد اولى عنايته واهتمامه بشؤون البريد فقد ذكر الماوردى ان نفقة البريد كانت في عهده اربعة ملايين درهم • كما اهتم بأمر حركات التحرير العربية في المشرق فقد ذكر الطبري انه كان يمد قادته هناك بآرائه ونصحه وقد تم في عهده تحرير عدد من المناطق في المشرق •

وعندما تولى يزيد بن الوليد بن عبدالملك الخلافة عزل يوسف بن عمر عن ولاية العراق سنة ١٢٦هـ / ٧٤٣م وولى منصور بن جمهور الكلبي مكانه ، أما سبب عزله فقد اشار ابن كثير الى ذلك فقال (في سنة ١٢٦هـ عزل يزيد بن الوليد يوسف بن عمر من امرة العراق لما ظهر منه من الحنق على اليمانية) •

اقام منصور في ولايته على العراق ثلاثة اشهر ثم عزله يزيد وولى عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز مكانه • أما سبب توليته فيذكر الطبرى ان يزيد قال له : « ان اهل العراق يميلون الى ابيك فسر اليها فقد وليتكها » غير انه اذا كان في هذا القول نصيب من الصحة الا انه ليس السبب الوحيد في توليته وفي رأينا ان السبب الرئيسي في توليته هو ان الخليفة اراد ان يعيد الهدوء والاستقرار في انحاء الدولة العربية بعد ان سادها نوع من الفوضى وعدم الاستقرار من جراء الاضطرابات التي قامت في اقاليمها على اثر قتل الخليفة الوليد بن يزيد بن عبدالملك ، وما رافق هذه الحادثة من انقسام القبائل العربية على نفسها وتناحر هذه القبائل فيما بينها وبصورة خاصة القبائل اليمانية والقبائل القيسية فقد رأى الخليفة انه من الاوفق ان يوليه على العراق والمشرق لاعادة الهدوء والاستقرار الى ربوعهما ، علما ان نصر بن سيار الكناني والي خراسان الذي كان يتعصب للقيسية على اليمانية ، لم يعترف بأمير العراق منصور بن جمهور ورفض ان يتلقى الاوامر منه •

عندما جاء مروان الثاني الى الخلافة عزل في سنة ١٢٧هـ / ٧٤٤م عبدالله بن عمر عن ولاية العراق وولى النضر بن سعيد الحرشي مكانه ،

فانقسم الجند في العراق على نفسه فأصبحت اليمانية مع عبدالله ، والقيسية مع النضر واقتتل الفريقان عدة مرات وقد استمر القتال بينهما اربعة أشهر •

وعندما اقترب الخوارج بقيادة الضحاك بن قيس الشيباني من الكوفة ارسل عبد الله الى النضر يطلب منه ايقاف القتال بينهما فاتفقا على العمل معا لمواجهة خطر الخوارج وبعد ان دارت بين الفريقين عدة معارك ادرك عبدالله ضعف موقفه ، فأرسل الى الخوارج يطلب الصلح فتم الصلح بينهما وتسلم الضحاك بموجب هذا الصلح الكوفة وسوادها • عندما بلغت أنباء العراق مروان الثاني ولى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري اميرا على العراق سنة ١٢٨هـ / ٧٤٥م وامره ان يتوجه على رأس قوة عسكرية قدرها البلاذري بستين الف مقاتل قاصدا الكوفة فدارت بين الفريقين عدة معارك هزم فيها الخوارج وتفرقوا في الامصار •

عهد مروان الثاني الى ابن هبيرة معالجة الاوضاع في المشرق فقد تكونت هناك عدة قوى مناوئة للحكم الاموي وقد بذل ابن هبيرة جهودا كبيرة للقضاء على هذه القوى الا ان جهوده باءت بالفشل وذلك لان اخطر هذه القوى وهم دعاة العباسيين كانوا قد ركزوا جهودهم في هذه الرقعة من الدولة العربية وتعاونوا مع بقية القوى المناوئة للحكم الاموي هناك فأعلنوا ثورتهم واستولوا على المشرق ثم توجهوا غربا للاستيلاء على بقية اقاليم الدولة العربية وقد لعب ابن هبيرة دورا كبيرا في مقاومة القوات العباسية سواء في ارساله الجيوش الى المشرق او في مقاومته لهم في العراق •

ولاة العراق فى العصر العباسى

منذ ان تم تأسيس بغداد سنة ١٤٩هـ / ٧٦٦م اصبحت هذه المدينة مقرا للخلافة العباسية ومركزا لادارة الدولة العربية في العصر العباسي وكان الخليفة العباسي هو الرئيس الاعلى للدولة العربية والمسؤول الاول عن توجيه سياستها والاشراف على ادارتها وكان الى جانب الخليفة ببغداد موظفون كانت مهمتهم تنفيذ اوامر الخليفة ومساعدته في ادارة الدولة ، وهم الوزير الذي عهد اليه الاشراف على الشؤون المالية والدواوين والجيش ، كما كان الى جانبه ايضا صاحب الشرطة وصاحب الحرس والقاضي ورؤساء الدواوين وصاحب البريد .

وفي خلافة المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ / ٨١٣ - ٨٣٣م) تم تعيين موظف يكون مسؤولا عن ادارة بغداد وبعض الاقاليم الاخرى كان يطلق عليه اسم الوالي وهذا الموظف كان يقيم ببغداد أو يقيم في اماكن اخرى ويعين نائبا له يمارس السلطة في بغداد ، وما حولها ، والراجح ان غياب الخليفة المأمون عن بغداد هو الذي ادى الى ظهور هذا المنصب الاداري .

كان العراق في بداية تأسيس الدولة العربية في العصر العباسي مقسما الى ثلاث مناطق ادارية هي بغداد ، والكوفة ، والبصرة ، وكان ولاة الكوفة والبصرة يتم اختيارهم وتعيينهم من قبل الخليفة وكان هؤلاء الولاة تتبعهم عدة دوائر ادارية تساعدهم في الادارة وتطبيق النظام وتنفيذ القوانين وكان على رأس كل دائرة ادارية موظف يعينه الخليفة فكان الى جانب الوالي صاحب الشرطة وصاحب ديوان الخراج والقاضي والمحتسب .

يظهر مما جاء في المصادر ان العباسيين كانوا قد ادخلوا تعديلات على الادارة في العراق وانهم اتبعوا في ادارتهم له تقسيمات ادارية متعددة وان هذه التقسيمات ظلت متبعة في العراق حتى نهاية القرن الثالث الهجري /

التاسع الميلادي الا ان هذه التقسيمات كانت قد الغيت وحل محلها تقسيمات ادارية جديدة في زمن لانستطيع تحديده بدقة غير انها كانت مطبقة في زمن المقدسي (ت ٣٧٥هـ / ٩٨٥م) الذي يقول بهذا الصدد عن العراق « وقد جعلناه ست كور وناحية وكانت الكور في القديم غير هذه الا حلوان ولكننا ابدا نجري الامر على ماعليه الناس وادخلنا الكور القديمة والقصبات في الاجناد واسم هذه الكور والقصبات واحد : فأولها من قبل ديار العرب الكوفة ثم البصرة ثم بغداد ثم حلوان ثم سامراء » وهكذا نجد ان التقسيمات الجديدة قد اخذت بنظر الاعتبار المراكز الحضارية العربية الجديدة التي اخذت تلعب ذورا مهما في الحياة آنذاك ، وكان لكل من هذه المراكز الادارية عدد من المدن والقرى تكون تابعة لها اداريا .

وسوف نرى من خلال البحث ان تسلط الاتراك (٢٤٧ - ٣٣٤هـ / ٨٦١ - ٩٤٦م) والبويهيين (٣٣٤ - ٤٤٧هـ / ٩٤٥ - ١٠٥٥م) والسلاجقة (٤٤٧ - ٥٥٢هـ / ١٠٥٥ - ١١٥٧م) على الخلافة في العراق أدى الى ضعف السلطة المركزية ببغداد فتقلص نفوذ الخلافة في العراق وحدثت تطورات في التقسيم الاداري للعراق من جراء عدم استقرار الاوضاع السياسية في فترة تسلطهم وان خارطة العراق بدأت في التغير بعد ان تخلصت الخلافة من هذا التسلط .

كان ولاة اقاليم الدولة العربية في العصر العباسي يتم اختيارهم وتعيينهم من قبل الخليفة العباسي ويكونون مسؤولين امامه ولما ازداد نفوذ الاتراك في بداية القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي عين الخلفاء العباسيون ولاة منهم على بعض اقاليم الدولة العربية فكان هؤلاء الولاة يفضلون البقاء في عاصمة الخلافة ويرسلون نوابا عنهم يديرون شئون الولايات باسمهم وكان يذكر اسمهم في الخطبة بعد الخليفة . وقد ادت هذه السياسة الى استقلال بعض النواب والولاة عن الخلافة العباسية فاستقل

احمد بن طولون نائب الامير التركي بايكباك في مصر سنة ٢٥٤ ـ ٨٦٨م فظهرت الامارة الطولونية هناك (٢٥٤ ـ ٢٩٢هـ / ٨٦٨ ـ ٩٠٥م) وعندما قلد الخليفة القاهر ولاية مصر الى محمد بن طغج سنة ٣٢١هـ / ٩٣٣م استقل هو الاخر وظهرت هناك الامارة الاخشـيدية (٣٢٤ ـ ٣٥٨هـ / ٩٣٦ ـ ٩٦٩م) •

كما ادى ضعف السلطة المركزية في بغداد من جراء تسلط الاتراك الى استقلال ولاة الاقاليم في المشرق فقامت الامارة الطاهرية (٢٠٥ ـ ٢٥٩هـ / ٨٢٠ ـ ٨٧٢م) والدولة الصـفارية (٢٥٤ ـ ٢٩٨هـ / ٨٦٧ ـ ٩٠٣م) والامارة السامانية (٢٦١ ـ ٣٨٩هـ/٨٧٤ ـ ٩٩٩ م) • وفي بداية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) فقدت الخلافة الكثير من اقاليمها بسبب استقلال الولاة في بعضها ، واستيلاء البعض على الاقاليم بالقوة وقد وصف ابن الاثير حالة الخلافة العباسية بقوله « وتغلب اصحاب الاطراف وزالت عنهم الطاعة ولم يبق للخليفة غير بغداد واعمالها والحكم في جميعهـا لابن رائق ليس للخليفة حكم واما باقي الاطراف فكانت البصرة في يد ابن رائق وخوزستان بيد البريدي وفارس في يد عماد الدولة بن بويه وكرمان في يد ابي علي محمد بن الياس والري واصبهان والجبل في يد ركن الدولة بن بويه ويد وشمكير اخي مرداويج يتنازعان عليها ، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد بني حمدان ، ومصر والشام في يد محمد بن طغج ••• وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن احمد السـاماني وطبرسـتان وجرجان في يد الديلم والبحرين واليمامة في يد ابي طاهر القرمطي » •

وكان على رأس كل ولاية الوالي الذي عهد اليه رئاسة الجيش والادارة، والعامل ويسمى صـاحب الخراج ، وكان يختص بحمل خراج الولايـة الى الخزانة والانفاق على الولاية مما يحصله من الاموال • لم تكن علاقـة هؤلاء الولاة بالخلافة العباسية على درجة واحدة فبعضهم استقل استقلالا

تاما عن الخلافة كالبويهيين في فارس واصبهان والري ، والسامانيين فيما وراء النهر ، اما البعض الآخر فانهم لم يستقلوا بولاياتهم استقلالا كليا ، وانما كانوا يمتنعون احيانا عن دفع الاموال المتفق عليها الى الخلافة او قسم منها وهذا ما حدث في ولاية الحمدانيين للموصل وولاية ابن رائق للبصرة وولاية البريديين للاحواز ، وقد حرص البعض الاخر منهم على اخذ موافقة الخليفة العباسي في توليتهم ليضفوا على حكمهم الصفة الشرعية امام شعوبهم كالاخشيديين في مصر والشام والسامانيين والطاهريين في المشرق .

لم يكتف البويهيون الفرس بالسيطرة على اقاليم الدولة العربية في المشرق فساروا الى العراق وتمكنوا من دخول بغداد سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٦م واستولوا على السلطة ، واقاموا امارة وراثية لهم في بغداد ، فانتقلت السلطة السياسية من يد الخلفاء العباسيين الى امراء بني بويه الذين استأثروا بالسلطة دون الخلفاء فقد شاركوا الخلفاء في صلاحياتهم بحيث اصبحت وظيفة الخليفة لا تتعدى الامور الدينية واتخذوا لانفسهم الوزراء ولم يبق للخليفة سوى كاتب يدير له امواله واقطاعاته التي خصصها له البويهيون ، واصبح امراء بني بويه هم الذين يعينون ولاة العراق وولاة الاقاليم التي خضعت لسيطرتهم .

لقد كان الوالي في ولايات العراق في هذا العصر يتولى قيادة الجيش والاشراف على جباية الاموال في الولاية وكان الى جانبه قوة من الجيش وذلك لحماية الولاية وحفظ النظام فيها يتولى امرها عدد من القادة ، وكان الى جانب الوالي موظفون يتم تعيينهم من قبل الامير البويهي وهم صاحب الشرطة والناظر ، الذي كان مسؤولا عن تنظيم واردات الولاية ونفقاتها وكان للناظر نواب ومعه موظفون يسمون العمال وكتاب يساعدونه في اعماله وكان الى جانب الوالي ايضا القاضي الذي كان يتم تعيينه من قبل قاضي القضاة ببغداد وكذلك المحتسب .

والجدير بالذكر ان ولايات العراق التي كانت تحت السيطرة البويهية كان قد تقلص عددها في هذا العصر والعصر السلجوقي فيما بعد وذلك من جراء نشوء الامارات العربيـة في العراق واسـتقلالها عن ادارة الاجانب ، وكان نشوء هذه الامارات يمثل رد الفعل العربي على التسلط الاجنبي في العراق ، كالامارة الحمدانية في الموصل (٢٩٣ ـ ٣٨٠هـ / ٩٠٥ ـ ٩٩٠م) وامارة عمران بن شاهين العربية في منطقة البطائح (٣٣٨ ـ ٦١٦هـ / ٩٤٩ ـ ١٢١٩م) والامارة العقيلية في الموصل (٣٨٠ ـ ٤٨٩هـ / ٩٩٠ ـ ١٠٩٥م) والامارة المزيدية في الحلة (٣٨٧ ـ ٥٥٨هـ / ٩٩٧ ـ ١١٦٢م) وقد كانت سياسة الامراء العرب في هذه الامارات قائمة على توسيع نفوذ اماراتهم على حساب نفوذ البويهيين والسلاجقة في العراق وذلك ليحولوا دون ذهاب الاموال الى خزانـة هؤلاء الاجانب فعلى سـبيل المثال امتد نفـوذ الامارة العقيلية في زمن الامير شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي ـ الذي قتل سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م في اثناء معركة خاضها ضد السلاجقة من اجل اسـتقلال امارته ـ من « السندية على نهر عيسى الى منبج في الشام وما والاها من البلاد وكان في يده ديار ربيعة ومضر من ارض الجزيرة والموصل وحلب » على حد قول ابن الاثير . كما شملت هذه الامارة الكوفة والمدائن وسقي الفرات وتكريت والانبار وحديثة وعانـــة .

ولما دخل السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م جعلوا العراق اقليما تابعا للادارة السلجوقية المباشرة واستحدثوا بعد ان استبدوا بالسلطة في العراق وظيفة عميد العراق الذي كان متوليها نائب السلطان السلجوقي في بغداد ، وكانت مهمته قائمة على الاشراف على العراق من الناحيتين الادارية والمالية ومراقبة الخليفة وموظفيه وكان يتم تعيينه من قبل السلطان السلجوقي. وعينوا حاكما عسكريا يعرف بالشحنة ، كانت مهمته الاشراف على العراق

من الناحية العسكرية وحفظ الامن والنظام فيه بمعاونة الجند السلجوقي الذين كانوا بامرته •

شارك السلاطين السلاجقة الخلفاء العباسيين في مظاهر سيادتهم الدينية والسياسية كما فعل الامراء البويهيون من قبل • وعلى الرغم من ان السلاجقة سمحوا للخليفة العباسي بتعيين وزير له ، الا انهم كانوا يتدخلون في امر توليته وعزلـــه •

اتخذ السلاجقة في ادارتهم للعراق نظام الاقطاع العسكري الذي انتشر في عصرهم كاسلوب من اساليب التنظيم الاداري والمالي ، فكان السلاطين السلاجقة او نوابهم يقطعون ولايات العراق لامراء الجند ويكون « المقطع » مسؤولا عن الادارة وحفظ النظام في الولاية ، وان يدفع الى خزانة السلطان مبلغا من المال سنويا ويقدم المساعدات العسكرية الى السلطان السلجوقي ، وقت الحاجة • وكان في كل ولايــة في العراق الى جانب الوالي عدد مــن الموظفين كانوا مسؤولين عن ادارة الولاية فكان منهم الشحنة وقد حلت هذه الوظيفة محل صاحب الشرطة ولاهمية هذه الوظيفة فقد كان الســلطان السلجوقي او شحنة بغداد يختار شحنة الولاية من الامراء السلاجقة الذين كانوا يتصفون بالشجاعة والمقدرة العسكرية والادارية • ومن الموظفين الذين يرد ذكرهم ضمن الجهاز الاداري في الولاية (الناظر) وهو المسؤول عن تنظيم واردات الولاية ونفقاتها ، ونظرا لاهمية هذه الوظيفة من الناحية الماليــة فقــد تقلدهــا اشــخاص كانوا مــن اهــل الخبرة في الشــؤون الماليـــة •

وكان الى جانب وظيفة الناظر في الولاية وظيفة مالية اخرى هي وظيفـة المشرف الذي كان يراقب اعمال الناظر ويشرف عليها ، والراجح ان تعميم الاقطاع في هذا العصر هو الذي ادى الى استحداث هذه الوظيفة المالية •

وكان الى جانب الوالي ايضا القاضي والمحتسب .

اما في عصر تحرير العراق من التسلط الاجنبي وانتعاش الخلافة (٥٥٢ - ٦٥٦هـ / ١١٥٧ - ١٢٥٨م) فقد توسع نفوذ الخلافة في العراق من جراء استرجاعها لعدد من المدن والولايات ، ففي سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م استرجعت الخلافة مدينة تكريت ، وفي سنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠م ضمت مدينة حديثة ، وفي سنة ٥٩١هـ / ١١٩٤م استرجعت ولاية الاحواز وفي سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م ضمت اربيل وشهرزور ، وفي سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م اصبحت مدينة عانة من ضمن ممتلكات الخلافة ، فأصبح بذلك نفوذ الخلافة العباسية في العراق يمتد من الموصل شمالا الى عبادان جنوبا ومن القادسية غربا حتى حلوان شرقا ، وكان العراق في هذا العصر يتألف من الولايات التالية : بغداد ، الانبار ، حديثة ، الحلة ، الكوفة ، واسط ، قوسان ، البصرة ، الاحواز ، داقوقا ، أربيل ، شهرزور .

كان الخليفة العباسي في هذا العصر هو رأس السلطة السياسية في العراق وعنه تصدر الاوامر الا انه كان يمارس سلطاته احيانا بواسطة الوزير ، وكان الخليفة هو الذي يختار الولاة في العراق ويعينهم كما كان ينظر في نقلهم او محاسبتهم وعزلهم وكانت الخلافة تختار هؤلاء الولاة من بين مماليكها الذين تربوا في قصور الخلافة ونشأوا في خدمتها . وكان هدف الخلفاء في ذلك - على ما يبدو - هو المحافظة على وحدة الدولة وتجنب ما قد ينشأ من نزوع بعض الولاة الى الاستقلال عن الخلافة ، وكان الخلفاء يعملون على اعداد هؤلاء الولاة لتولي شؤون الادارة والحرب في ولاياتهم .

قسم الخلفاء العباسيون العراق الى وحدات ادارية اطلق على كل واحدة منها أسم (ولاية) ثم قسمت هذه الوحدات الادارية الى وحدات اصغر يقال لها (أعمال) كانت كل منها تضم مجموعة من المدن والقرى ، وفي اواخر هذا العصر اطلق على الوحدة الادارية في العراق اسم (صدرية) كان يتولاها

موظف اداري يلقب بـ (صدر) الذي يبدو انه كان مسـؤولا عن الناحية الادارية والمالية فقد ذكر ابن الفوطي انه في سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩ رتب كمال الدين ابو عبدالله محمد بن حسين بن احمد الفخري صدرا بواسـط ، وعين مشرفا على شمس الدين علي بن الشاطر الذي كان ناظرا هناك .

ويظهر انه كانت هناك تقاليد ومراسيم تتبع عند تعيين الصدر فقد ذكر ابن الفوطي انه عندما رتب كمال الدين ابو عبدالله الفخري صدرا بواسط قلد سيفا محلى بالذهب .

وقد اتخذت الخلافة في هذا العصر اسلوبا اخر في ادارة الولايات هو الاقطاع والاقطاع اما ان يكون على هيئة ضمان يقبله « المقطع » على ان يحتفظ لنفسه بالباقي من المال ، فالخليفة الناصر لدين الله عقد ضمان البصرة سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م على الامير عماد الدين طغرل بمبلغ (١١٥٠٠٠) دينار ، او أن يكون الاقطاع شكلا من اشكال التولية الادارية يختلف عن الضمان ، ويكون « المقطع » في هذه الحالة مسـؤولا عن ارسـال موارد اقطاعـه الى الخلافة بعد أخذ المبلغ الذي اتفق عليه ، ففي سـنة ٦٠٨هـ / ١٢١١م ولى الخليفة الناصر لدين الله الامير مظفر الدين سنقر ولاية الكوفة اقطاعا واقطع مملوكه الامير علاء الدين تنامش « الدجيل » و « داقوقا » وكان الخليفـة احيانا يقطع شخصًا واحد عدة ولايات في وقت واحـد .

وقـد اقام بعض هؤلاء المقطعين ببغداد ، وكانوا يبعثون مـن قبلهم شخصا ينوب عنهم في الولاية فالامير آل تنبه الشطرنجي مقطع واسـط كان يقيم ببغداد في اثناء ولايته وينوب عنه بواسط جمال الدين بن الحصين ، اما ادارة بغـداد فقد دون لنا ابن الفوطي أهم موظفي الخلافـة عند وفاة الخليفة المستنصر بالله سـنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م منهم « نائب الوزارة ابـو الازهر بن الناقد واقضى القضاة كمال الدين ابو الفضل عبدالرحمن اللمغاني

وصدر ديوان الزمام فخرالدين ابو سعيد المبارك بن يحيى بن المحزمي ، وصدر المخزن فخرالدين محمد بن ابي عيسى الشهرباني وكان الامر في عساكره واجناده وقواده الى شرفالدين اقبال الشرابي وكان يتولى ديوان عرض الجيش العارضان تاجالذين الحسن بن المختار وفخرالدين احمد بن الدامغاني وديوان الانشاء كان الوزير يتولاه بنفسه بعد ان رتب بين يديه كاتبا هو العدل ابو المعالي القاسم بن ابي الحديد المدائني » .

وكان الى جانب هؤلاء المحتسب وصاحب الشرطة ورؤساء بقية الدواوين .

المصـــادر

ابن اعثم : احمد بن عثمان الكوفي (ت ٣١٤هـ / ٩٢٦م).
(كتاب الفتوح) ط١ (مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيــة ـ حيدر آباد ، الدكن = الهند ١٣٩٠ ـ ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٠ ـ ١٩٧٥ م .

ابن الاثير : عزلدين علي بن محمد الشيباني (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م)
الكامل في التاريخ) بيروت ١٩٦٥ ـ ١٩٦٧

الايوبي : محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه (ت ٦١٧هـ / ١٢٢٠م)
(مضمار الحقائق وسر الخلائق) تحقيق الدكتور حسن حبشي ، القاهرة ١٩٦٨م

البلاذري : احمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م)
(انساب الاشراف) حـ ٤ ، مطبعة الجامعة ، القدس ١٩٣٨م ، حـ ٥ ، مطبعة الجامعة ، القدس ١٩٣٦
« فتوح البلدان » نشر صلاح‌الدين المنجد (القاهرة ١٩٥٧ م)

البنداري : الفتح بن علي بن محمد البنداري (ت ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م)
(تاريخ دولة آل سلجوق) مصر ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م

الجاحظ : ابو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ ـ ٨٦٩ م)
(البيان والتبيين) تحقيق عبدالسلام محمد هارون ، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٣٦٧ ـ ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ م

الجهشياري : ابو عبدالله محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ / ٩٤٢م).
(الوزراء والكتاب) تحقيق مصـطفى السـقا وآخرين ، ط١ ، القاهرة ١٩٣٨ م

ابن الجوزي : ابو الفرج عبدالرحمن بن علي (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م) .
(المنتظم في تاريخ الملوك والامم) اجزاء ٥ ـ ١٠ (حيدر آباد ـ الدكن ١٣٥٧ ـ ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩ .

الحسـيني : علي بن الحسين (القرن ٧ الهجري / ١٣ الميلادى)
أخبار الدولة السلجوقية ، نشر محمد اقبال ، لاهور ١٩٣٣ .

الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م) .
تاريخ بغداد مدينة السلام ، ١٤ جزءا . القاهرة ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م .

ابن خلكان : شمس‌الدين احمد بن محمد (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢ م).

(وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمـــان) ط١ ، ٨ أجزاء ، تحقيق الدكتور احسـان عباس ، دار صادر بيروت ١٩٧٨ .
ابن خياط : ابو عمر خليفة بن خياط العصفري (ت ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م)
(تأريخ خليفة بن خياط) تحقيق الدكتور اكرم ضياء العمري ، مطبعة الاداب ، النجف ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م
الدينوري : ابو حنيفه احمد بن داود (ت ٢٨٢ هـ /٨٩٥ م)
(الاخبار الطوال) تحقيق عبدالمنعم عامر (القاهرة ١٩٦٠ م)
الذهبي : شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م)
(دول الاسلام) ط٢ (حيدر آباد ، الدكن ١٣٦٤ هـ)
(العبر في خبر من غبر) حـ٢ ، حـ٤ ، حـ٥ تحقيق صلاح‌الدين المنجد
(الكويت ١٩٦٠) حـ٢ ، حـ٣ تحقيق الســيد فؤاد الســيد (الكويت ١٩٦١) .
ابن الساعي / ابو طالب علي بن انجب تاج الدين (ت ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م)
(الجامع المختصر) ج٩ ، تحقيق الدكتور مصطفى جواد ، بغداد ١٩٣٤ م
الصابي : ابو الحسن الهلال بن المحسن بن ابراهيم (ت ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م)
(الوزراء او تحفة الامراء في تاريخ الوزراء) تحقيق عبدالستار احمد فراج (القاهرة ١٩٥٨ م) .
الصولي : ابو بكر محمد بن يحيى (ت ٣٣٥ هـ / ٩٤٦ م)
(اخبار الراضي بالله او تاريخ الدولة العباسية من ٣٢٢ / ٣٣٣ هـ من كتاب الاوراق) نشرة ج . هيورث دن (القاهرة ١٩٣٥) .
الطبري : ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م)
(تاريخ الرسل والملوك) تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، (القاهرة ١٩٦٠ — ١٩٦٩ م)
ابن قتيبة : ابو محمد عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م)
(الامامة والسياسة) تحقيق الدكتور طه محمد الزيني ، الناشر مؤسسة الحلبي وشركاءه ، القاهرة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م
(المعارف) تحقيق ثروت عكاشة (القاهرة ١٩٦٠)
مجهول : (كان الكتاب منسوبا لابن الفوطي خطا)
(الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة) تحقيق الدكتور مصطفى جواد (بغداد ١٣٥١ هـ) .

مجهول :
(العيون والحدائق) تحقيق نبيلة عبدالمنعم داود ، الجزء الرابع القسم الاول مطبعة النعمان ، النجف (١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م) والقسم الثاني مطبعة الارشاد بغداد ١٩٧٣ م .
المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٦ م)
(التنبيه والاشراف) بريل ، ليدن ١٨٩٣ م
مروج الذهب ومعادن الجوهر) ٤ اجزاء تحقيق محيي الدين عبد الحميد ، ط ٥ دار الفكر ، بيروت (١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م)
مسكويه : ابو علي احمد بن محمد بن يعقوب (ت ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م)
(تجارب الامم) جزءان (مصر ١٣٣٢ ـ ١٣٣٣ هـ / ١٩١٤ ـ ١٩١٥ م
اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب بن واضح الكاتب (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م)
(تاريخ اليعقوبي) جزءان (بيروت ١٩٦٠)
المقدسي : شمس الدين ابو عبدالله محمد بن احمد المعروف بالبشاري (ت ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م)
(احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) باعتناء دي غويه ، ط ٢ ، بريل ليدن ١٩١٦
ياقوت : شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٦٦ م)
(معجم البلدان) ٥ ج ، دار صادر (بيروت ١٩٥٧)

المراجع الحديثة:

الخالدي : الدكتور فاضل عبداللطيف
(الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق خلال القرن الخامس الهجري) مطبعة الايمان بغداد ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م
العلي : الدكتور صالح احمد
(التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول الهجري ط٢ بيروت ١٩٦٩ م
المعاضيدي : الدكتور عبدالقادر سلمان
(واسط في العصر الاموي) بغداد ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦ م
(واسط في العصر العباسي ـ دراسة في تنظيماتها الادارية وحياتها الاجتماعية والفكرية ٣٢٤ ـ ٦٥٦هـ / ٩٥٣ ـ ١٢٥٨م) . نشر وزارة الثقافة والاعلام / بغداد ١٩٨٣
(المقاومة العربية لحكم البويهيين الفرس في العراق) مجلة دراسات للاجيال عدد ٤ ، ٥ السنة ١٩٨٣ م

المبحث الثاني

دواوين العراق

كانت الدواوين في الدولة العربية اهم مظهر من مظاهر التنظيم الاداري فيها فكانت عاصمة الخلافة مركزا لدواوين عديدة تشرف على ادارة الدولة بوجه عام وقد اتخذت الاقاليم التابعة للدولة العربية العاصمة قدوة لها في هذا الشأن فأوجدت الدواوين المحلية التي تحتاج اليها لكي تشرف على ادارتها فأصبح المركز الاداري في العراق مركزا لدواوين عديدة كانت تشرف على ادارة العراق والمشرق في العصر الراشدي والعصر الاموي ، والعراق وكل اقاليم الدولة العربية في العصر العباسي وسوف نتكلم فيما يأتي على هذه الدواوين موضحين دور كل واحد منها في ادارة العراق .

١ ـ ديوان الجند :

انشأ هذا الديوان الخليفة عمر بن الخطاب (١٣ ـ ٢٣هـ / ٦٣٤ ـ ٦٤٣م) وكان الغرض منه هو حفظ اسماء المقاتلة واوصافهم وانسابهم ومقدار عطاء كل منهم وموعد استحقاقه . لقد كانت الاموال التي تحصل عليها الدولة العربية في زمن الرسول (ص) والخليفة ابي بكر قليلة نسبيا فكان اذا ورد مال الى المدينة يفرق بين مستحقيه اما في زمن الخليفة عمر بن الخطاب فقد كثرت اموال الدولة العربية من جراء حروب التحرير التي تمت آنذاك حيث صارت بأيدي العرب مقاطعات واسعة

وغنية فرض عليها الخراج فأصبحت تعطي دخلا سنويا كبيرا وثابتا كان مصدرا مهما لبيت المال آنذاك ، كما كثر عدد المقاتلة في زمن انشاء الديوان وذلك في محرم سنة ٢٠هـ / ٦٤٠م ومن ثم فرض العطاء •

لقد اتفق الفقهاء والمؤرخون على ان السبب المباشر في وضع الديوان هو ان أبا هريرة قدم بأموال من البحرين قدرها البلاذري بخمسمئة الف درهم ، فخطب الخليفة عمر بالعرب المسلمين قائلا « ايها الناس انه قد جاء مال كثير فأن شئتم ان نعد لكم عددنا وان شئتم ان نزن لكم وزنا لكم » • ويذكر البلاذري ان الخليفة استشار كبار الصحابة في تدوين الديوان فقال له علي بن ابي طالب « تقسم كل سنة ما اجتمع اليك من مال ولا تمسك منه شيئا » وقال له عثمان بن عفان « ارى مالا كثيرا يسع الناس • ان لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشية ان يشتبه الامر » •

وعندما قرر الخليفة وضع الديوان عين لجنة مؤلفة من ثلاثة كانوا من كتّاب قريش ولهم معرفة بأنساب العرب وهم عقيل بن ابي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وقال لهم : « اكتبوا الناس على منازلهم » فوضع الخليفة نظاما لتوزيع العطاء في المدينة بأن جعل عطاء الناس يختلف حسب اسبقيتهم في الاسلام • وهكذا يبدو واضحا ان الحاجة الى التنظيم العسكري والاداري والمالي والظروف الجديدة التي واجهت الدولة العربية هي التي املت نشوء الديوان وليس بتأثيرات اجنبية كما يرى معظم المستشرقين والكتاب الشعوبيون الذين يحاولون دائما ارجاع كل ما هو عربي من نظم ومؤسسات الى اصول غير عربية اما ساسانية او بيزنطية وهدفهم من ذلك هو التشكيك في قدرة العرب على الابتكار والابداع ليسلخوهم من ماضيهم المجيد •

فالخليفة عمر كقائد فذ رأى ان الامة العربية في حالة مواجهة مع اعدائها من فرس وبيزنطيين محتلين فأراد أن يجعل من العرب امة عسكرية وذلك

لتحرير الارض العربية من سيطرتهم ، ونشر رسالة الاسلام الخالد فخصص للمقاتلة رواتب من بيت المال لينصرفوا كليا الى القتال •

لقد استمر هذا الديوان في العراق خلال العصر الاموي وتطور خلال العصر العباسي فكان له مجلسان : الاول ، مجلس التقدير : وكان مختصا بتحديد رواتب الجند ، واوقات اعطائهم وتقدير ارزاقهم ، وكان يراعي في تقديرها كفاءتهم ورتبهم العسكرية والاماكن التي يتواجدون فيها •

أما المجلس الثاني فهو مجلس المقابلة : وكان يختص بالنظر في السجلات التي تدون فيها اسماء الجند ، اذ كانت ترتب تبعا لاجناسهم وانتسابهم للقبائل ، كما يقوم بمراقبة كفاءة الجند بعد اثباتهم ، ويعنى عناية خاصة برفع مستوى التدريب واستمراره • وكان كل مجلس ينقسم الى اقسام خاصة بصنوف الجند ، مثل الجند المنسوب الى الخاصة ، والجند المنسوب الى الخدمة وما في النواحي من البعوث • والجدير بالذكر هو ان الوزير ورئيس ديوان الجيش كانا يتتبعان شؤون هذا الديوان بدقة ويوليانه عنايتهما الخاصة • وترد اشارة الى (ديوان زمام الجيش) الذي كان يختص بتدقيق حسابات ديوان الجيش والاشراف على نفقاته •

وفي العصور العباسية المتأخرة اطلق على ديوان الجيش « ديوان العرض » أو « ديوان عرض الجيش » واطلق على متوليه اسم (العارض) ويسمى ايضا « متولي ديوان العرض » او « ناظر ديوان العرض » •

٢ ـ ديوان الخراج :

كان عمل هذا الديوان هو تقدير وجباية ضريبة الارض (الخراج) والنظر في مشكلاته ، لقد اهتمت الدولة العربية بأمر الخراج في العراق ونظمته بشكل دقيق وذلك لانه كان من اهم موارد الدولة الرئيسية ، ويرجع الفضل في ذلك الى الخليفة عمر بن الخطاب الذي ارسل في حدود سنة ٢٠هـ

/٦٤٠م عثمان بن حنيف الانصاري ، وحذيفة بن اليمان الى العراق لمسحه وفرض الخراج عليه ، وامرهما ان لا يمسحا مستنقعا ولا مالا يبلغه الماء ، وان لا يحملا احدا فوق طاقته . ومسحت ارض العراق بدقة متناهية . وقد بلغت مساحة الاراضي القابلة للزراعة فيه ستة وثلاثين الف الف جريب .

وقد بدأ العمل بهذا الديوان في العراق سنة ٢١هـ / ٦٤١م وهي السنة التي نظم فيها العرب ضريبة الخراج في العراق ، وقد حمل من خراج العراق في هذه السنة ثمانون الف الف درهم ، وقيل مائة الف الف درهم . كان يرأس هذا الديوان في العراق موظف يسمى (كاتب الخراج) ويساعده في ادارة هذا الديوان عدد من الكتاب .

ويظهر ان النظام الاداري في الدولة العربية في العصر الاموي كان قد منح الاقاليم سلطات واسعة تسهيلا لادارتها ، وكان هناك اتجاه لا مركزي ساد مؤسسات الدولة الادارية فقد كان أمير العراق يدفع من أموال الخراج التي بعهدته اعطيات الجند ، والنفقات الاخرى ثم يرسل الباقي الى بيت المال المركزي في دمشق . والجدير بالذكر أن عامل الخراج في العراق كان مسؤولا عن ادارة بيت المال ، وانه كان مستقلا في عمله عن الامير ، ومسؤولا بصورة مباشرة أمام الخليفة وكانت حساباته ترفع الى العاصمة دمشق لتدقيقها هناك .

ولابد من الاشارة هنا الى تعريب هذا الديوان في العراق في العصر الاموي ، فبعد ان استطاع الخليفة عبدالملك بن مروان (٦٥ – ٨٦هـ / ٦٨٥ – ٧٠٥م) من اعادة وحدة الدولة العربية ، وبعد ان استقرت الاوضاع فيها اراد هذا الخليفة القدير ان تستقل الادارة العربية عن أي نفوذ اجنبي فأقدم في سنة ٧٤هـ / ٦٩٣م على تعريب النقود ، فصارت العملة موحدة

في جميع اقاليم الدولة العربية ، ثم اقدم في سنة ٨١هـ / ٧٠٠م على تعريب ديوان الخراج في الشام بعد أن هيأ كادرا عربيا قادرا على القيام بهذه المهمة فأصبحت اللغة العربية لغة الادارة الى جانب كونها لغـة الدين والسياسـة والعلم ، ثم أمر ولاة الاقاليم بتنفيذ هذه المهمة فأقدم امير العراق الحجاج ابن يوسف الثقفي على تعريب ديوان الخراج في العراق •

عندما تولى الحجاج ولاية العراق سنة ٧٥هـ / ٦٩٤م قلد زادان فروخ ديوان الخراج وقد ظل في منصبه هذا الى ان قتل في البصرة سـنة ٨٢هـ / ٧٠١م في اثناء حركة عبدالرحمن بن محمد بن الاشعث • ويذكر البلاذري روايتين مختلفتين عن الشخص الذي خلف زادان فروخ على ادارة ديوان الخراج ، فهو يذكر في مؤلفه « انساب الاشراف » انه « بعد ان قتل زادان فروخ في البصرة استكتب الحجاج مكانه ا بنه مردانشاه » أما مؤلفه الآخر (فتوح البلدان) فيذكر انه بعد ان قتل زادان فروخ « استكتب الحجاج صالحا مكانه » ويؤيد الجهشياري احدى الروايتين اللتين جاء بهما البلاذري فيذكر ان صالح بن عبدالرحمنّ تقلد ديوان الخراج بعد زادان فروخ • لقد اشارت المصادر الى ان الحجاج عندما قلد صالح بن عبدالرحمن ديوان الخراج امـره ان ينقل دواوين العراق وبتعبير ادق ديـوان الخراج الى اللغـة العربية •

أما السنة الي بدأت بها عملية تعريب ديوان الخراج في العراق فيذكر الجهشياري انها سنة ٧٨هـ / ٦٩٧م • غير اننا نرى ان التأريخ الذي حدده الجهشياري للتعريب هو تأريخ مبكر فقد رأينا ان الحجاج قلد مردانشاه

ديوان الخراج بعد ان قتل ابوه في البصرة في اثناء حركة ابن الاشعث اي في سنة ٨٢هـ / ٧٠١م ويذكر البلاذري ان الحجاج عندما قلد صالح بن عبد الرحمن ديوان الخراج امره ان ينقل هذا الديوان الى اللغة العربية ثم « أجل الحجاج صالح بن عبدالرحمن اجلا حتى قلب الديوان » فقد كانت عملية تعريب ديوان العراق تتطلب وقتا كافيا حتى يستطيع صالح تدريب الاشخاص القادرين والراغبين في القيام بهذه المهمة ، يضاف الى ما تقدم ان الخليفة عبدالملك بن مروان أمر في سنة ٨١هـ / ٧٠٠م سليمان بن سعيد الخشني بنقل ديوان الشام الى اللغة العربية فلابد ان الحجاج اتخذ خطوته هذه فعرب الديوان بعد أن رأى ما اقدم عليه الخليفة او ربما ان الخليفة بعد أن عرب ديوان الشام أمر الحجاج بتعريب ديوان العراق ، غير ان المصادر لا تشير الى ذلك .

نستنتج مما تقدم ان عملية تعريب ديوان العراق تمت بعد القضاء علي حركة ابن الاشعث سنة ٨٣هـ / ٧٠٢م ، ويمكن القول بأن عملية التعريب هذه لابد انها تمت بعد ان انشئت مدينة واسط سنة ٨١هـ / ٧٠٠م ، وذلك لان الحجاج كان مقيما بها في هذه الفترة ، ولابد ان عملية التعريب جرت تحت اشرافه المباشر .

ويبدو ان الكتاب الفرس شعروا بخطورة عملية التعريب على مراكزهم في الدولة فأراد مردانشاه بن زادان فروخ ان يعجّز صالح بأن يقنعه باستحالة تعريب بعض المصطلحات الفارسية فعندما رأى كفاءة صالح قال له « قطع الله اصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية » . كما حاول الفرس ان

يرشوا صالحا بمئة الف درهم « على ان يظهر العجز عن نقل الديوان ويمسك عن ذلك فأبى » •

كان عمل هذا الديوان في العصر العباسي هو ان يحتفظ فيه بسجلات يدون فيها تقديرات الخراج على أقاليم الدولة العربية المختلفة وانواع الاراضي في كل اقليم ، ويقوم بالاشراف على الاموال التي ترد اليه من دواوين الخراج في الاقاليم ، فقد كانت الا راضي مسجلة في ديوان الخراج المركزي في عاصمة الخلافة بغداد ، كما كانت مسجلة في دواوين الخراج المحلية كل في اقليمها • اذ كان في كل اقليم من اقاليم الدولة العربية ديوان خراج خاص به يقوم مقام خزينة الدولة ضمن الاقليم • وكان متولي الخراج في كل اقليم يستوفي من اموال الخراج التي بعهدته نفقات الاقليم ثم يرسل الباقي الى ديوان الخراج المركزي ببغداد •

ونظرا لتنوع اعمال هذا الديوان في هذا العصر فقد كان يتألف من عدد من المجالس ، كان كل واحد منها مختصا بادارة جزء من اعماله وهي :

مجلس الانشاء والتحرير : وكانت مهمة هذا المجلس هي انشاء وتحرير الكتب التي كانت تصدر عن ديوان الخراج •

مجلس النسخ : كان عمله قائما على نسخ كتب الديوان الى عدة نسخ مطابقة للاصل والاحتفاظ باحداها ثم ارسال بقية النسخ الى الجهات ذات العلاقة •

مجلس الاسكدار : ومهمة هذا المجلس هي تسجيل كافة الكتب

الواردة الى ديوان الخراج والصادرة منه في سجل خاص أي انه كان يقوم مقام قسم الصادرة والواردة في دوائرنا في الوقت الحاضر .

مجلس الحساب : يقوم هذا المجلس بتنظيم قوائم بالاموال الواردة الى الديوان والمصروفات ، أي ضبط الناحية المالية في الديوان .

مجلس الجهبذة : وكان عمله قائما على الاشراف على مجلس الحساب ، وتدقيق حساباتـــه .

مجلس الجيش : يقوم هذا المجلس بالاشراف على رواتب الجند وكان على اتصال وثيق بديوان الجيش للتنسيق معه لضمان توفير الاموال اللازمة للجيش .

مجلس التفصيل : كانت مهمته « النظر في الجرائد والحمول ، وتصفح اسماء ومنازل الارزاق ، وما يحتاج اليه عمال الخراج ، وتدقيق ما يرد وما يصدر اليهم » .

٣ - ديوان الرسائل :

اتخـــذ الرســـول (ص) لـــه كتابـــا ، كمـــا اتخـــذ الخلفـــاء الراشـــدون لهم كتابا ايضا يدونون لهم الكتب والرسائل ، ويرى القلقشندي ان هذا الديوان هو أول ديوان وضع في الاسلام . وفي العصر الاموي انشيء ديوان منظم للرسائل مهمته تحرير رسائل الخليفة الى ولاته في اقاليم الدولة العربية ، ويتولى الاشراف على مكاتبات الخليفة مع الدول الاخرى .

اما في العراق فقد وردت اول اشارة الى هذا الديوان منذ عهد الامير

زياد بن أبيه (٤٥ ـــ ٥٣ هـ / ٦٦٥ ـــ ٦٧٢ م) فقد ذكر الجهشياري ان عبد الله بن ابي بكرة ، وجبير بن حيية كانا يكتبان له على الرسائل وكان زياد يؤكد على أن يكون الكتاب ممن يجيدون اللغة العربية لكي لا يفسدوا الدواوين •

ولابد ان هذا الديوان كان قائما في العراق قبل هذا التأريخ نظرا لاهميته وضرورته بالنسبة للولاة ، الا ان المصادر امسكت عن ذكره •

وكان يرأس هذا الديوان موظف يسمى (كاتب الرسائل) مهمته تحرير الرسائل التي يبعث بها الامير الى الخليفة ، او الى عمال الامصار التي كان يشرف على ادارتها ، وتلقي الرسائل التي كانت ترد الى الامير • وكان متولي ديوان الرسائل على مايبدو يحظى بثقة الامير ويطلع على اسرار سياسته ، فقد ذكر الطبري ان عامل خالد بن عبدالله القسري على الكوفة ، عندما قدم الى مدينة واسط دخل على الامير فوجده جالسا مع متولي ديوان الرسائل فقال له « اردت أن اذكر للامير امرا اسره ، قال (يعني الامير) ما دون داود سر » •

اما في العصر العباسي فقد كان متولي هذا الديوان في العراق يعرف باسم (صاحب ديوان الرسائل) وكان عمله قائما على كتابة العهود والتولية والرسائل الرسمية والسياسية وكان يفترض فيمن يتولى هذا الديوان ان « يكون متصرفا في جميع فنون المكاتبات ، واضعا لمن ينشئه في موضعه » كما يقول قدامة • وقد وصلتنا نسخ من العهود كتبها قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي في كتابه (الخراج وصناعة الكتابة) وهي نماذج يحتذي بها كتاب

الرسائل وطريق الى الخبرة بها ، منها نسخة عهد لقاض بولاية الحكم في احدى النواحي ، ونسخة عهد لرجل من بني هاشم بتقليده الصلاة ، ونسخة عهد بولاية المعونة والحرب ونسخة عهد بولاية ثغر البحر ، ونسخة عهد بولاية البريد في احدى ولايات الدولة العربية •

ونظرا لاهمية هذا الديوان فقد ظل قائما في العراق طيلة العصر العباسي الا ان اسمه كان قد تحول الى (ديوان الانشاء) ابتداءا من عهد التسلط البويهي حتى نهاية الدولة العربية في العصر العباسي •

٤ ـ ديوان الخاتم :

استحدث هذا الديوان في خلافة معاوية بن ابي سفيان (٤٠ ـ ٦٠هـ / ٦٦٠ ـ ٦٧٩م) • لقد كان عمل هذا الديوان هو ان الكتاب الذي يصدر عن الخليفة او الامير كان يختم بخاتم صاحب الديوان قبل ان يرسل الى الجهة ذات العلاقة • ويذكر الجهشياري ان سبب انشاء هذا الديوان هو ان معاوية كان قد ارسل كتابا الى زياد بن ابيه امير العراق يأمره فيه ان يعطي حامله مائة الف درهم ففض الرجل الكتاب وجعلها مائتي الف درهم فلما رفع زياد حسابه الى معاوية انكر هذا العدد ، ثم استعاد المائة الف درهم من الرجل ووضع ديوان الخاتم •

بينما يذكر البلاذري ان زياد بن ابيه هو الذي احدث هذا الديوان الا ان الراجح ان زيادا انشأ هذا الديوان بعد ان تم تزوير الكتاب الذي أرسله معاوية له •

وفي العصر العباسي كان الغرض منه هو ان الكتب التي كانت تصدر عن الخليفة تنسخ في هذا الديوان ، وتثبت فيه وتختم ، ثم تحفظ نسخة

منها في هذا الديوان ، وترسل النسخة الاصلية الى الجهة ذات العلاقة .

٥ - ديوان البريد :

كانت مهمة صاحب ديوان البريد هي نقل الاخبار والرسائل بين العراق ودمشق ، وبين العراق والمشرق . لقد كانت طرق البريد تقسم الى مسافات يطلق على نهاية كل مسافة اسم السكة ، وكان في نهاية كل مسافة دواب معدة لحمل كتب الامير ، فتسلم هذه الرسائل الى موظف البريد ويسير بها مسرعا حتى اذا وصل الى نهاية هذه المسافة سلمها الى موظف بريد هناك « وكذلك يفعل في المكان الاخر والاخر حتى يصل بسرعة » وكان لصاحب ديوان البريد النظر في احوال موظفي البريد ودوابه وامكنته وينبغي ان يكون عارفا بالطرق والمسالك الى جميع نواحي الولاية بحيث يجد الامير عنده كل المعلومات المطلوبة .

لقد اولى الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق (٧٥ - ٩٥هـ / ٦٩٤ - ٧١٣م) عنايته واهتمامه بشؤون البريد ، اذ رأى على ما يظهر ان هنالك ضرورة لاتصاله الدائم والمامه السريع باخبار الجيش العربي في الساحات الشرقية فقام بتحسين طرق المواصلات التي كان يسير عليها صاحب البريد ، ويدل على ذلك سرعة وصول الاخبار منه واليه فقد ذكر البلاذري ان كتب الحجاج كانت ترد على القائد العربي محمد بن القاسم الثقفي في بلاد السند ، وكتب محمد ترد اليه كل ثلاثة ايام . كما اتخذ الحجاج المناظر لنقل الاخبار بسرعة بين واسط ومدينة قزوين في المشرق وذلك باشعال النار عليها ليلا « واذا دخن اهل قزوين دخنت المناظر ان كانت نهارا » وكانت هذه المناظر متصلة بين العراق والمشرق فيصل الخبر بوقت قصير .

ان هذه الطريقة من المخابرة كانت تستخدم في حالات الحروب وقيام حركات التمرد فيذكر ياقوت انه بعد أن تأتي المخابرة كانت « تجرد الخيل اليهم » .

ويبدو ان الامراء الذين جاءوا بعد الحجاج قد اهتموا بالبريد ايضا واولوه عنايتهم فقد جاء في الاحكام السلطانية ان نفقة البريد كانت في زمن امير العراق يوسف بن عمر الثقفي (١٢٠ ـ ١٢٦هـ / ٧٣٧ ـ ٧٤٣م) أربعة ملايين درهم سنويا •

لم تقتصر واجبات صاحب ديوان البريد على نقل الرسائل والاخبار ، وانما كلف بالقيام بواجبات اخرى ، فقد كان عينا للامراء على عمالهم يرفعون عنهم التقارير الى الامراء ، كما استعمل البريد لنقل كبار الموظفين والاشخاص الذين يطلبهم الامير للمثول امامه كما استخدم البريد لنقل الجند •

ولابد من الاشارة الى انه جاءتنا كتابات متأخرة عن الطرق والسكك التي كانت تربط العراق بالاقاليم الاخرى ، الا انه لا يمكن الاعتماد على هذه الكتابات لمعرفة طرق البريد في العراق في العصر الاموي بصورة دقيقة وذلك لان كلامهم ـ بلاشك ـ كان ينطبق على احوال الطرق في زمنهم •

اما في العصر العباسي فقد كان صاحب ديوان البريد يتولى مسؤولية ايصال ما يصدر عن الخليفة او الوزير الى الولاة في الاقاليم ويتلقى ما يرد منهم الى عاصمة الخلافة بغداد ، فيعرضها على الخليفة ، كما يشرف على المؤسسات البريدية في الدولة العربية ، وكان الخليفة هو الذي يقوم بتعيين صاحب ديوان البريد في عاصمة الخلافة كما كان يعين عمال البريد في اقاليم الدولة العربية وقد ذكر قدامة بن جعفر الشروط التي يجب أن تتوفر في صاحب ديوان البريد فقال « ان يكون ثقة اما في نفسه ، او عند الخليفة القائم بالامر في وقته لان هذا الديوان ليس فيه من العمل ما يحتاج معه الى الكافي المتصفح وانما يحتاج الى الثقة المتحفظ » •

لقد اهتم الخلفاء العباسيون بالبريد ووسعوا من اختصاص متوليه فقد روى الطبري « ان ولاة البريد في الآفاق كلها كانوا يكتبون الى المنصور

ايام خلافته في كل يوم بسعر القمح والحبوب والأدم ، وبسعر كل مأكول وبكل ما يقضي بـه القاضي في نواحيهم ، وبما يعمل بـه الوالي ، وبما يرد بيت المال من المال وكل حدث ... فأذا وردت كتبهم نظر فيها فاذا رأى الاسعار على حالها امسك وان تغير شيء منها عن حاله كتب الى الوالي والعامل هناك ، وسأل عن العلة التي نقلت ذاك عن سعره فاذا ورد الجواب بالعلـة تلطف لذلك برفقه حتى يعود سعره ذلك الى حاله ، وان شك في شيء مما قضى به القاضي كتب اليه بذلك ، وسأل من بحضرته عن عملـه ، فأن انكر شيئا عمل به كتب اليه يوبخه ويلومه » ويظهر لنا اهتمام الخلفاء العباسيين بالبريد ايضا بأنهم كانوا يكتبون عهدا لصاحب ديوان البريد عند توليتـه يوضحون فيه واجباته وهي « ان يختار من يستعين به في عمله ويشركه في امانتـه ممن يثق بصناعتـه ونزاهتـه ، وان يكون من يسـتعملـه من اهل الكفايـة وان يعرف حال عمال الخراج والضـياع فيما يجري عليـه أمرهم ويتتبع ذلك تتبعا شافيا ... وان يتعرف حال عمارة البلاد وما هي عليه من الكمال والاختلال وما يجري في امور للرعية فيما يعاملون به من الانصاف والجور والرفق والعسف فيكتب به مشروحا ملخصا مبّينا وان يعرف ما عليه الحكام في حكمهم وسيرهم وسائر مذاهبهم ، وان يعرف حال دار الضرب فيهـا ، وان يعرض المرتبين بحمـل الخرائط في عملـه ، ويكتب بعددهم واسمائهم ومبالغ ارزاقهم وعدد السكك في جميع عمله واميالها ومواضعها ويوعز الى هؤلاء المرتبين بتعجيل الخرائط المنفذة على ايديهم والى الموقعين باثبات المواقيت وضبطها حتى لا يتأخر احد منهم عن الاوقات التي سـبيله أن يرد السكة فيها وان يفرد لكل ما يكتب فيه من اصناف الاخبار كتبا بأعيانها فيفرد بأخبار القضاة وعمال المعاون والاحداث وما يجري مجرى ذلك كتابا وبأخبار الخراج والضياع وارزاق الاولياء وما يجري في دار الضرب والاسعار وما يقع فيـه من الحل والعقد والاعطاء والاخذ كتابا ليجري كل كتاب في موضعه ، ويكتب في بابه ، فيتحصل العمل ويملك نظامه » .

والى جانب صاحب ديوان البريد الذي كان مقره في بغداد ، كان هناك موظفون يساعدونه في ادارة شؤون البريد في الدولة العربية ، فقد كان في كل ولاية عامل بريد يتبعه عمال موزعون في تلك الولاية ، ومن موظفي البريد ايضا (المرتبون) وهم السعاة الذين كانوا مسؤولين عن حمل الرسائل في حقائب خاصة من سكة الى اخرى •

اما « الموقعون » فهم المسؤولون عن تثبيت اوقات انطلاق السعاة ووصولهم • وكان « الفرانقيون » يتولون مسؤولية مراقبة سكك البريد ، والسعاة ويقدمون تقاريرهم عن كل ذلك الى صاحب ديوان البريد ببغداد •

وكان في كل ولاية موظفون يطلق عليهم اسم (الوكلاء والمخبرون) يقومون بجمع المعلومات والاخبار في الولاية وتقديمها الى عامل البريد هناك •

قسمت طرق البريد في الدولة العربية الى محطات تسمى السكك وكان في كل محطة خيول أو بغال أو ابل ، ويذكر المقدسي ان طول كل سكة من سكك البريد في العراق اثنا عشر ميلا وقد استخدم الحمام الزاجل في نقل الرسائل في العراق ايضا •

دواوين العراق التي استحدثت في العصر العباسي

ورثت الدولة العربية في العصر العباسي هذا النظام الاداري عن الدولة العربية في العصر الاموي الا ان العباسيين احدثوا دواوين جديدة بسبب الظروف الجديدة التي واجهت الدولة والغي بعضها بسبب التسلط الاجنبي ، اما البعض الاخر فأنها كانت مؤقتة تزول بزوال الاسباب التي دعت الى نشوئها • واستمر العمل بقسم من الدواوين طيلة العصر العباسي واصبح الوزير هو الذي يشرف على جميع الدواوين ، وفي خلافة أبي العباس (١٣٢ ـ ١٣٦هـ / ٧٥٠ ـ ٧٥٤م) حدث تنظيم في سجلات الدواوين في

دفاتر بدل من ان تكون في اوراق متفرقة وذلك لحفظها من الضياع .

وفي خلافة المهدي (١٥٨ - ١٦٩هـ / ٧٧٥ - ٧٨٥م) احدثت « دواوين الازمة » كانت مهمتها الاشراف على اعمال الدواوين الكبيرة ، وضبط الناحية المالية فيها بصورة خاصة . وفي سنة ١٦٨هـ / ٧٨٤م احدث الخليفة المهدي ديوان يشرف على دواوين الازمة هو « ديوان زمام الازمة » وكان هذا الديوان في بغداد وفي ولايات الدولة .

وكان للدواوين المركزية في عاصمة الخلافة بغداد دواوين صغيرة مماثلة في الولايات الا انه على اثر سيطرة الاتراك ، وارتباك الاحوال في الدولة العربية اصبح لكل ولاية من ولايات الدولة ديوان في بغداد يشرف على شؤونها ، واستمر هذا النظام قائما الى ان ولي المعتضد الخلافة سنة ٢٧٩هـ / ٨٩٢م فضم دواوين الولايات كلها وكون ديوانا واحدا سماه (ديوان الدار) ويعرف ايضا بـ (ديوان الدار الكبير) وقسم هذا الديوان الى ثلاثة أقسام هي : ديوان المشرق وديوان المغرب ، وديوان السواد (أي العراق) ووضع الخليفة المعتضد ازمة هذه الدواوين في يد رئيس واحد .

ونظرا لسوء الاوضاع الاقتصادية والسياسية في العراق في ظل التسلط البويهي (٣٣٤ - ٤٤٧هـ / ٩٤٥ - ١٠٥٥م) فقد الغيت معظم الدواوين وجمعت البقية في ديوان واحد عهدوا برئاسته الى كاتب الامير البويهي . ولما استبدلوا الكاتب بالوزير اصبح وزير الامير البويهي يتقلد رئاسة الديوان .

وعندما دخل السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م اصبح وزير الخليفة العباسي هو الذي يشرف على ديوان الخليفة الذي كان في هذا العصر يضم عددا من الدواوين .

اما في فترة تحرير العراق من التسلط الاجنبي (٥٥٢ - ٦٥٦هـ /

١١٥٧ - ١٢٥٨م) فاننا نجد اشارات الى دواوين كان معظمها استمرارا لدواوين العصور السابقة الملغى منها والمستمر في عمله الا انه يبدو ان مسمياتها كانت قد اختلفت في هذا العصر .

والجدير بالذكر هنا انه وردتنا اشارات عن دواوين لم ابحثها في هذا الفصل لاني لم اجد لها اثر بارزا في ادارة العراق آنذاك ، أما اهم الدواوين التي استحدثت في العراق في زمن الدولة العربية في العصر العباسي ، والتي كان لها اثر بارز في ادارة العراق في ذلك العصر فهي :

١ - ديوان بيت المال :

استحدث هذا الديوان في زمن الخليفة المنصور (١٣٦ - ١٥٨هـ / ٧٥٣ - ٧٧٤م) ويختص هذا الديوان بالاشراف على ما كان يرد الى بيت المال في عاصمة الخلافة بغداد من الاموال ، وما يخرج منه في وجوه النفقات والاطلاقات ، أي انه كان بمثابة خزينة الدولة آنذاك . وقد نظم هذا الديوان بدقة بحيث كانت جميع الكتب الصادرة الى الدواوين والمتعلقة بالشؤون المالية تعرض عليه قبل ان تصل الى تلك الدواوين حيث يجري تثبيتها فيه وكذلك الامر مع الكتب التي توجهها الدواوين المختلفة الى صاحب ديوان بيت المال .

وكان لصاحب ديوان بيت المال علامة خاصة يضعها على الكتب والصكاك والاطلاقات يتفقدها الوزير او من ينوب عنه ، ويراعونها ويطالبون بها اذا لم يجدوها كشرط لقبولهم تلك الكتب لئلا يحصل تلاعب في الناحية المالية ، ويقوم صاحب هذا الديوان بتقديم خلاصة بالحساب في كل اسبوع للوزير لكي يتمكن من معرفة ما كان يحل في بيت المال ، وما كان يخرج منه ، وما كان يتبقى فيه من الاموال .

وفي القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ظهر « ديوان بيت مال الخاصة » وكان مختصا باستلام واردات ضياع الخليفة واملاكه وما كان يأمر بايداعه فيه من واردات اخرى وكان الخليفـة ينفق من بيت المال هذا لاغراضه الخاصة او ما يأمر به كنفقات موسم الحج ، وتجهيز الجيوش التي كـانت توجـه لمحاربـة الدولـة البيزنطيـة وفداء الاسرى ، ونفقات البناء وغيرهـا •

ان سبب نشوء هذا الديوان يرجع بالدرجة الاولى الى سيطرة الاتراك في هذا القرن وسوء تصرفهم بالاموال فأراد الخلفاء ان يحفظوا اموالهم من عبث الاتراك لانفاقها على اغراضهم الخاصة ، وفي العصر العباسي الاخير اطلق على (ديوان بيت المال) اسـم (المخزن) وكان يعرف متوليـه بـ (صـدر المخزن) •

٢ ـ ديوان النفقات

يختص هذا الديوان بنفقات دار الخلافة ونفقات الدواوين المركزيـة وكذلك المصالح العامة ببغداد وقد استحدث هذا الديوان في زمن الخليفة المنصور ، ونظرا لتنوع الاعمال التي كانت تجري تحت اشراف رئيس هذا الديوان فقد ذكرت المصادر انه يجب ان يكون متولي هـذا الديوان جيدا بالحساب والمكاييل والاوزان ، والاسعار ، والضرائب عارفا بجميع الاصناف والملابس والمطاعم والالات والحيوان وقيمتها ثم عارفا بالرسوم السلطانية •

وكان هذا الديوان يتألف من المجالس التالية :

أ ـ مجلس الجاري : ويختص بنفقات الحشم بدار الخلافة وذلك بتصنيفهم حسب الاعمال الموكلة اليهم ، وتثبيت استحقاق رواتبهم •

ب ـ مجلس الأنزال : وكان يشرف على محاسبة المتعهدين من التجار الذين يقدمون الى دار الخلافة صنوف الاطعمة •

ج ـ مجلس الكراع : عهد لهذا المجلس أمر علوفة الحيوانات المختلفه في دار الخلافة وعلاجها ، ورواتب المشرفين عليها •

د ـ مجلس البناء والمرمّة : وكان يختص بالاشراف على المباني التي تعود ملكيتها الى الخلفاء وترميم التي هي بحاجة الى ترميم منها كما عهد الى هذا المجلس الاشراف على المهندسين ، والبنائين ومتعهدي نقل مواد البناء واصحاب الحرف المتصلة بالبناء والترميم والتدقيق في كلفة مواد البناء •

هـ ـ مجلس الحوادث : كان عمل هذا المجلس هو الاشراف على النفقات الطارئة التي لا تدخل ضمن اختصاص مجالس ديوان النفقات الاخرى من هبات او صلات او جوائز وغيرها •

واضافة الى ما تقدم فقد كانت في هذا الديوان مجالس اخرى اختصت بتحرير الكتب التي كانت تصدر عن الديوان ، والاحتفاظ بقسم منها بعد ارسال صور منها الى الجهات ذات العلاقة •

وكان الى جانب هذا الديوان (ديوان زمام النفقات) كان يختص بالاشراف على حسابات ديوان النفقات وتدقيقها •

٣ ـ ديوان الصدقات

استحدث هذا الديوان في زمن الخليفة المنصور وكان يختص في النظر في موارد الزكاة وتوزيعها على مستحقيها ، ويسمى رئيس هذا الديوان (صاحب ديوان الصدقات) ويشترط في صاحب هذا الديوان ان يكون عالما باحكام الزكاة وانصبتها المفروضة على اموال المسلمين وممتلكاتهم ولا يجوز له ان يأخذ الرشوة من ارباب الاموال ولا يقبل هداياهم ، ونجد اخر اشارة الى هذا الديوان في سنة ٣٧٢هـ / ٩٨٢م مما يدل على استمراره حتى هذه السنة •

٤ ـ ديوان المصادرات

استحدث هذا الديوان زمن الخليفة المنصور وكان يختص بالاشراف على استيفاء اموال المصادرات التي كانت تقرر بعد ان يتعهد الاشخاص المصادرين بدفعها وكان يسمى متولي هذا الديوان (صاحب ديوان المصادرات) فقد كانت خطوط المصادرين ترد الى هذا الديوان ويكتب منها نسختان ثم يحتفظ باحداهما وترسل الاخرى الى الوزير •

أما في عصر التسلط البويهي فقد كان الامير البويهي هو الذي يشرف على ادارة هذا الديوان ، وقد تم في عهدهم مصادرة اموال عدد من الوزراء ، والكتاب والتجار ، وذلك نتيجة لسوء الاوضاع الاقتصادية في العراق في ظل سيطرتهم •

٥ ـ ديوان التوقيع

كان هذا الديوان قائما في العراق منذ ايام الخليفة المنصور وتقدم الى هذا الديوان رقاع اصحاب الحاجات التي كانت تقدم الى الخليفة وبعد ان يقدم صاحب هذا الديوان هذه الرقاع الى الخليفة لينظر فيها وينصف المشتكين ، يقوم بتدوين رأي الخليفة على الرقاع في ابلغ ما يستطيع من الكلام واجزله ثم يرسلها الى صاحب ديوان الدار ، ومن هذا الديوان ترسل الى صاحب الديوان المختص بالمسائل التي ترد في الرقاع •

٦ ـ ديوان الفض

لم ترد اشارة الى زمن نشوء هذا الديوان في العراق ولكن المرجح ان هذا الديوان استحدث في العصر العباسي الاول • كانت ترد الى هذا الديوان الكتب التي كان يبعث بها الولاة والعمال الى الخلفاء حيث كان كتابه يقومون بفضها وعمل خلاصات لكل منها ورفعها الى الخليفة ، وبعد ان

يقرأها الخليفة ويوقع عليها ترسل الى الدواوين حسب اختصاصها ، ويرى قدامة بن جعفر ان « هذا رسم كان الامر جاريا عليه في الاوقات التي كانت الخلفاء فيها تتولى النظر في الكتب بأنفسها » •

ولما انتقل عمل هذا الديوان الى الوزير ، اصبح الوزير هو الذي يتولى فض الكتب والتوقيع عليها واحالتها الى الدواوين المختصة وكان يساعده في ذلك كاتب •

٧ ـ ديوان النظر في المظالم

نشأ هذا الديوان على الاغلب في خلافة المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩هـ / ٧٧٥ ـ ٧٨٥م) وكان عمل هذا الديوان هو النظر في شكاوي ابناء الشعب من رجال الحكم وقد كان الخلفاء العباسيون الاوائل يباشرون بأنفسهم النظر في امور هذا الديوان اما في العصر العباسي الثاني فقد كانوا يعهدون بذلك احيانا الى الوزراء أو غيرهم ويسمى رئيس هذا الديوان « صاحب ديوان النظر في المظالم » ومن صفات من يتولى هذا الديوان ان « يكون له دين وامانة وفي خليقته عدل ورأفة ليكون ذلك منه نافعا للمتظلمين » وان « يجمع الى ديانته فقها ومع ورعه فهما » وان « يكون جليل القدر نافذ الامر ، عظيم الهيبة ، ظاهر العفة ، قليل الطمع ، كثير الورع » •

وقد تحدث قدامة عن واجبات صاحب هذا الديوان فقال : « ان يعمل بجميع القصص (الشكاوي) جامعا (خلاصة) يعرض على الخليفة في كل جمعة فاذا قعد للناس وكان ممن له صبر على تأمل القصة والتوقيع عليها فعل ذلك والا علق صاحب الديوان عليها رقعة فيها مجموعها (خلاصتها) لينظر في المجموع ويوقع على القصة بما يوجبه الحكم ، حتى اذا انفض المجلس الذي يجلسه الخليفة ، او من يقوم مقامه اخذ جميع القصص واثبت المجموعات في الديوان وذكر اسماء الرافعين واثبت التوقيعات على قصصهم

ثم دفعت القصص بعد ذلك اليهم لئلا يجري في الرقائع حيلة او تزوير » وكان صاحب هذا الديوان يقلد بعهد من الخليفة العباسي ، ولكن بعد ان استأثر البويهيون بالسلطة دون الخلفاء اصبح الوزير البويهي هو الذي يختار صاحب هذا الديوان ويعينه ، أما في العصر السلجوقي وعصر تحرر الخلافة من السيطرة الاجنبية ، فقد كان الخلفاء العباسيون يباشرون بأنفسهم النظر في المظالم وقد يعهدون بذلك الى وزرائهم .

٨ - ديوان البر

انشىء هذا الديوان في سنة ٣٠١هـ / ٩١٣م في وزارة علي بن عيسى للخليفة المقتدر بالله العباسي ، وكان عمل هذا الديوان هو النظر فيما يرد اليه من أموال الاملاك الموقوفة واستثمارها ، والصرف على الاراضي المقدسة في مكة والمدينة وعلى الثغور العربية المواجهة لحدود الدولة البيزنطية .

ويبدو ان هذا الديوان كان قد استمر في عمله فيما بعد فقد جاءت اشارات الى متولي النظر في هذا الديوان في فترات لاحقة ، واطلق على هذا الديوان في العصر العباسي الاخير اسم (ديوان الوقوف) ورد الى صاحب هذا الديوان النظر في وقوف المدارس والربط ، اضافة الى الوقوف العامة .

المصــــادر

ابن الاثير : عزالدين علي بن محمد الشيباني (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م) ـ (الكامل في التاريخ) بيروت ١٩٦٥ ـ ١٩٦٧

ابن آدم : يحيى بن ادم القرشي (ت ٢٠٣هـ / ٨١٨م) (كتاب الخراج) مطبعة بريل ، ليدن ١٨٩٥م

البلاذري : احمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) (انســـاب الاشـــراف) جـ٤ ، مطبعةالجامعة ، القدس ١٩٣٨م جـ٥ : مطبعة الجامعـــة ، القدس ١٩٣٦ . جـ١١ : طبع باسـراف (W. Ahlward) . (غريفزولد ١٨٨٣م)

« فتوح البلدان » نشر صلاح‌الدين المنجد (القاهرة ١٩٥٧)

الجهشياري : ابو عبدالله محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ / ٩٤٢م)

(الوزراء والكتاب) تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، ط١ (القاهرة ١٩٣٨)

ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت ٨٠٧هـ / ١٤٥٠م) (ت ٨٠هـ / ١٤٠٥م)

(المقدمة) مطبعة الكشاف (بيروت بدون تاريخ)

ابن خلكان : شمس‌الدين أحمد بن محمد بن ابراهيم (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) (وفيات الاعيان وانباء أبناء الزمان) ط١ ، ٨ أجزاء ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، دار صادر بيروت ١٩٧٨

ابن خياط : ابو عمر خليفة بن خياط العصفرى (ت ٢٤٠هـ / ٨٥٤م)
« تاريخ خليفة بن خياط » تحقيق الدكتور اكرم ضياء العمري ، مطبعة الاداب النجف ١٣٨٦هـ / ١٩٦٧ .

الروذراوي : ابو شجاع محمد بن الحسين بن عبدالله (ت ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م) (ذيل كتاب تجارب الامم) تحقيق هـ ـ ف آمدووز ، مطبعة شركة التمدن الصناعية ، مصر ١٣٣٤هـ / ١٩١٦م .

ابن سعد : محمد بن منيع البصري (ت ٢٣٠هـ / ٨٤٤م)

كتاب الطبقات الكبير ، ٨ أجزاء ، نشر ادورد سخاو (مطبعة بريل ، ليدن ١٣٢٢هـ فما بعد)

الصابي : ابو الحسن الهلال بن ابراهيم (ت ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م) .
(تحفة الامراء في تاريخ الوزراء) تحقيق عبدالستار احمد فراج (القاهرة

١٩٥٨ ، ٠ (رسائل الصابي) تحقيق محمد يوسف نجم ، الكويت ١٩٦١ ٠
الصولي : ابو بكر محمد بن يحيى البغدادي (ت ٣٣٥هـ / ٩٤٦م ٠ ١٩٤٦م) ٠
أدب الكتاب : باعتناء محمد بهجة الاثري ، المطبعة السلفية (القاهرة ١٣٤٢م)
ابن الصيرفي : امين الدين علي بن منجب بن سليمان (ت ٥٤٢هـ / ١١٤٧م)
« قانون ديوان الرسائل » نشره علي بهجت (مصر ١٩٠٥)
الطبري : ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م)
(تاريخ الرسل والملوك) تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم (القاهرة ١٩٦٠ – ١٩٦٩) ٠
ابن الطقطقي : محمد بن علي بن طباطبا (ت ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م).
(الفخري في الاداب السلطانية والدول الاسلامية) دار صادر ، (بيروت ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م)
ابو عبيد : القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ / ٨٣٨م).
(الاموال) تحقيق محمد حامد الفقي ، القاهرة ١٣٥٣هـ ٠
ابن قتيبة : ابو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م) ٠
(المعارف) تحقيق ثروت عكاشة (القاهرة ١٩٦٠)
قدامة : ابو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي (ت ٣٣٧هـ / ٩٤٨م). ٠
(الخراج وصناعة الكتابة) تحقيق الدكتور محمد حسين الزبيدي ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ١٩٨١
مسكويه : ابو علي احمد بن محمد بن يعقوب (ت ٤٢١هـ / ١٠٣٠م)
(تجارب الامم) جزآن (مطبعة شركة التمدن الصناعية ، مصر ١٣٣٢ – ١٣٣٣هـ / ١٩١٤ – ١٩١٥م).
المقدسي : شمس الدين ابو عبدالله محمد بن احمد بن ابي بكر البناء المقدسي الحنفي المعروف بالبشاري (ت ٣٧٥هـ / ٩٨٥م)
(احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) باعتناء دي غويه ، ط٢ بريل – ليدن ١٩٠٦م
المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)
المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار) المعهد الفرنسي للاثار الشرقية (القاهرة ١٩١٣م)

اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب بن واضح الكاتب (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م
« تاريخ اليعقوبي » جزآن بيروت ١٩٦٠)
ابو يعلى : محمد بن الحسين الحنبلي (ت ٤٥٨هـ / ١٠٦٥م)
(الاحكام السلطانية) القاهرة ١٣٥٦هـ / ١٩٣٨م
ابو يوسف : القاضي يعقوب بن ابراهيم الانصاري (ت ١٨٢هـ / ٧٩٨م)
« الخراج » ط٣ ، القاهرة ١٣٨٢هـ

المراجع

الخالدي : الدكتور فاضل عبداللطيف
الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق خلال القرن الخامس الهجري)
مطبعة الايمان ، بغداد ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩ م
الدوري : الدكتور عبدالعزيز
(النظم الاسلامية) ط١ مطبعة نجيب ، بغداد ١٩٥٠
الزبيدي : الدكتور محمد حسين
(العراق في العصر البويهي) دارالنضهة العربية ، القاهرة ١٩٦٩ م
السامرائي : الدكتور حسام قوام
(المؤسسات الادارية في الدولة العباسية) دمشق ١٣٩١هـ / ١٩٧١
سرور : الدكتور محمد جمال‌الدين
(تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق) ط٣ ، القاهرة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م
العلي : الدكتور صالح احمد
(التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول الهجري)
ط٢ ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٩م
فهد : الدكتور بدري محمد
(تاريخ العراق في العصر العباسي‌الاخير) بغداد ، ١٩٧٣م
متز : آدم
(الحضارة الاسلامية في القرن‌الرابع الهجري) جزان ، ترجمة محمد
عبدالهادي ابو ريدة ، ط٤ بيروت ١٩٦٧ ٠
المعاضيدي : الدكتور عبدالقادر سلمان
واسط في العصر الاموي) ط١ ، بغداد ١٩٧٦م

الفصل الرابع

النظام القضائي

د . عبد الرزاق علي الأنباري
كلية التربية ـ جامعة بغداد

قواعد النظام القضائي في العراق

لاجل تنظيم الدائرة القضائية في الدولة العربية وضع الفقهاء شروطا ، اعتبرت قواعد اساسية لهذه الوظيفة فلا يمكن ان نسمي هـذه المؤسسة بـ (النظام) دون ان تتوفر لها هذه الشروط ، فهي قواعد اساسية حصرها الماوردي في خمسة :

القاعدة الاولى ـ المولي

وهو مصدر الولاية ، اي رئيس الدولة (الخليفة) فتقليد القضاة من قبله من الواجبات الاساسية لمنصبه ، لان القضاء كما عده ابن خلدون من وظائف الخلافة ومندرجا في عمومها .

في العراق تنحصر سلطة تعيين القضاة في الخليفة وحده ، واذا كانت ثمة جهات رسمية تمارس هذه السلطة فنيابة عنه وتخويلاً منه .

نعم اوردت المصادر مايشير الى ان ولاة الامصار في البصرة والكوفة مارسوا صلاحية تعيين القضاة وعزلهم ، كما مارسها في العصر العباسي قاضي القضاة وبعض الوزراء • الا ان هذه الممارسات كانت بتخويل من الخليفة ورضاه ، والمصادر لا تذكر الاحادثة واحدة تساهل فيها الخليفة في ممارسة هذا الحق ، فتم تعيين احد القضاة دون رضاه (وهذا القاضي هو ابو العباس ابن ابي الشوارب ، ضمن المنصب من معزالدولة بـ ٢٠٠ر٠٠٠ درهم ، دون ان يستطيع الخليفة المطيع أن يفعل شيئا لكنه امر بعد سنين بنقض جميع احكامه واعتبار جميع سجلاته العدلية لاغية ، لان تعيين القضاة لا يصح الا من جهته) •

القاعدة الثانية ـ المولى

وهو القاضي المعين من قبل السلطة الشرعية ، لاجل فصل وحسم الدعاوى الواقعة بين الناس وفق احكام الشريعة السمحاء • ويشترط في تعيين القاضي ان يكون رجلاً ذا قدرة عقلية تمتاز بحدة الذهن والفطنة ، كما اشترطوا فيه الحرية والاسلام ، والعلم بالاحكام ، اضافة الى سلامة الحواس •

القاعدة الثالثة ـ العمل

المقصود بالعمل هنا تحديد النطاق والمكان الذي يمارس فيه القاضي صلاحياته ، فرئيس الدولة (الخليفة) عندما يبعث قاضيا الى الكرخ مثلا يقول له : قلدتك قضاء الكرخ ليكون مجال عمله معلوما •

القاعدة الرابعة ـ النظر

ويقصد به ممارسة القاضي لسلطته في الحكم ، فلابد له ان ينظر في دعاوى الناس لكي تكتمل مقوماته ، ونظره هذا ، اما ان يكون عاما يشمل جميع الاحكام وهي النظر في حقوق الاملاك وفي اموال الاوقاف والوصايا ، وفي شؤون موظفي مجلسه ، واقامة الحدود ، والحكم بالقصاص • واما ان يكون نظره خاصا ، كأن يقلد النظر في دعاوى الديون دون غيرها

او الحكم في نصاب مقدر من المال لا يتجاوزه ، مثلا على هذا ماذكره ابـو عبدالله الزبيري (ت٣١٧هـ/٩٢٩م) قال : لم يزل الامراء عندنا بالبصرة ، يستقضون على المسجد قاضيا يسمونه قاضي المسجد يحكم فيما بين ٢٠٠درهم فما دونها ويفرض النفقات ولايتعدى بها موضعه ولا ماقدر لـه .

القاعدة الخامسة ــ العقـد

ولابد لصـحة وسلامة النظام القضائي من توفـر العقـد بين المولـي (رئيس الدولة) والمولى (القاضي) . ليمارس الثاني مسؤولياته وفق شروط عقده . والذي يتضمن اربع فقرات :

أ ــ مقدمة العقد ويشترط فيها ان يكون المولي عارفا بتكامل شروط القضاء في المرشح لهذا المنصب ليصح العقـد .

ب ــ صفة العقد : ويتحقق هذا بذكر لفظ التقليد وصيغته وليتك ، قلدتك ، عهدت لك . مع حضور المرشح شخصيا امـام رئيس الدولـة او من ينـوب عنـه .

جـ ــ لفظ العقد : ويشترط ان يكون لفظ العقد صريحاً مثل (قلدتك القضاء) او (استخلفتك على القضاء) . مثلا على ذلك نذكر ان الخليفة هارون الرشيد كان اذا اراد تقليد احدهم ، راسله طالبا قدومه . فاذا حضـر ولاه القضاء ، فلما ولى عبدالله بن ادريس الاودى قضاء الكوفة قـال له : ان اهل بلدك طلبوا مني قاضيا ، وسموك لي فيمن سموا ، وقـد رايت ان اشركك في اماتتي وصالح ما ادخل فيه من امر الامة ، فخـذ عهدك وامض .

ويشترط في (اللفظ) ذكر البلد الذي يتولاه ، وصفة الحكم من عموم وخصوص ، واخيرا قبول المرشح لترشيحه ، كقوله : قبلـت ، او قد تقلدت فيتم العقـد .

د ـ لزوم العقد : اذا تم العقد صار ملزما للقاضي ، وللناس الذين يحكم بينهم فعليهم قبول ولايته ، والالتزام بتنفيذ احكامه لان لزوم طاعة اهل البلد شرطا في صحة التقليد .

وهذه المسألة ، رضى الناس وطاعتهم في الاحتكام الى قاضي الدولة الرسمي ، في العراق ، لم اجد في مصادري خروجا عنها الا مرة واحدة ، فقد رفض اهل بغداد المعتزلة وقالوا : لا يلي علينا الا من نرضى به ، فكتب الخليفة المتوكل العهد مطلقا ليس عليه اسم احد وانفذه من سامراء مع احد رجالات الدولة ، وقال له : احضر الناس واقرأ العهد فان رضوا به قاضيا ، فوقع في الكتاب اسمه . فلما قدم بغداد صاح الناس : مانريد غير الواصبي فوقع في الكتاب اسمه وحكم من وقته في الرصافة . (والمقصود هنا بالواصبي هو القاضي عبدالسلام بن عبد الرحمن (ت٢٤٩هـ/٨٦٣م) وكان على قضاء الرقة ، ثم اراده اهل بغداد على قضاء الرصافة فاستجاب الخليفة للطلب).

هذه هي القواعد التي يشترط توفرها في الدائرة القضائية لكي تكتسب صفة النظام ، ويستحسن ان يضاف لها اعطاء القاضي (كتاب عهد) يكون له دليل عمل ، وبرهانا على ولايته يدخل فيه القاضي المدينة ، فيقرأه على الناس ، في المسجد الجامع ، لتشتهر ولايته ، ويعلم الناس حدود صلاحياته ويفضل ان يحكم بعد هذا ولو بين خصمين لتستقر قواعد وظيفته ويعلم الناس مقدار علمه .

نشوء النظام القضائي في العراق في صدر الاسلام

أ ـ ظهور الوظيفة القضائية فى العراق

سكن العرب في العراق قبل الاسلام ، سكنوا المدن ، منهم عرب الانبار وتكريت ، والحيرة ، وهيت ، وعين التمر ، كما سكن بعضهم في البوادي

كبادية البصرة . والطبري يروي لنا كثيرا من اخبار هجرة عرب البحرين الى ريف العراق ، واستقرارهم الى جنب عرب الانبار والحيرة ، وقد تحالفوا جميعا على الا يدينوا للاعاجم .

هؤلاء العرب كانوا يلجأون في خصوماتهم الى التحكيم ، يحتكمون الى الحكام عرب ، وقد اشتهر بعضهم في هذا الميدان حتى صاروا مضرب الامثال في القدرة على استنباط الاحكام ، ولم تذكر المصادر ، ولو مرة واحدة لجوء عرب العراق الى القضاة الاجانب ، سواء كانوا موابذة او هرابذة فهؤلاء قضاة السلطة الاجنبية الغريبة الممقوتة من الجميع .

ان ظاهرة وجود الحكام كسلطة تحكيم بين الناس ، سادت الحياة العربية قرونا الى ان جاء الاسلام ، فصار الرجوع الى الرسول امرا الزاميا بموجب الوثيقة (الكتاب) التي نظمت شؤون المدينة (يثرب) ففي المادة (٢٨) منها مانصه : وانكم مهما اختلفتم في شيء فان مرده الى الله والى محمد .

وتنص المادة (٥٧) من الوثيقة : وانه ماكان بين اهل هذه الصحيفة من حدث او اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله والى محمد رسول الله (ص) .
ولكن كيف تعرض الحوادث والمشاكل على الرسول العظيم ، وكيف تحسم قضاياها ؟ بالتحكيم ام القضاء ؟ في القرآن الكريم وردت لفظة الحكم والتحكيم ما يقارب مائة مرة مما يدل على شيوع استعمالها يومذاك ولدينا معلومات تفيد ان الرسول حكم بين العرب لكن الآية (٦٥) من سورة النساء تشير للانتقال التدريجي من التحكيم الى القضاء الملزم (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، حتى لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) .

لقد اضفى الرسول على المبادىء الدينية الصفة القانونية فساعد ذلك على ظهور الكيان الرسمي للقضاء ، بعد ان تفتح مصطلح (القاضي) في

القرآن تفتحا طبيعيا ، وصار لزاما على العرب المسلمين الرجوع الى الرسول لفض منازعاتهم . لان هذا من مقدمات الايمان .

مع هذا لم يظهر منصب القاضي الرسمي الا في خلافة عمر بن الخطاب (١٣ - ٢٣هـ / ٦٣٤-٦٤٣م) ففي عصر عمر وثبت الامة ، فتحررت الامصار ، ودونت الديوان . واستقضت القضاة . والمصادر التاريخية تجمع ، وهي تروي منجزات عمر في بناء الامة وهندسة الدولة انه اول من استقضى القضاة ، واول من خصص لهم الارزاق . وكان العراق اول قطر في الدولة العربية ظهر فيه منصب القاضي ، حيث عين الخليفة عمر بن الخطاب سلمان بن ربيعة الباهلي (على قضاء الناس) وفي معركة القادسية بالذات ، فسلمان بن ربيعة الباهلي اول قاض في العراق ، استقضاه الخليفة .

وبعد ان استقر العرب في العراق ، في البصرة والكوفة ، ظهرت الحاجة الى قاض يحكم بين الناس ، فيحسم دعاويهم وفق اصول الشرع الذي ارتضوه والتزموا احكامه .

في هذه المدن اختط الناس دور سكناهم ، ومارسوا حياة اقتصادية واجتماعية متنامية اوجدت حاجة الى سلطة قضائية . يرجع اليها السكان في منازعاتهم . وسنحاول في الصفحات التالية اعطاء صورة واضحة ، وقد تكون متكاملة عن طبيعة هذه السلطة ، والاطار الاداري لها ، ضمن مؤسسات الدولة العربية ونظمها في صدر الاسلام (العهد الراشدي والاموي ١١-١٣٢هـ/٦٣٢ - ٧٤٩م) .

ب - طبيعة السلطة القضائية في العراق

توضح المصادر في هذا العهد ، ان للخليفة سلطات واسعة في تطبيق تشريعات الدولة وبخاصة القانون الاداري ، كما انه يستطيع ان يصدر هذه القرارات بنفسه ، كما يقر احيانا قرارات الامراء وتطبيقاتها في الامصار .

وسلطات الامراء في الامصار ـ البصرة والكوفة مثلا ـ سلطات واسعة، لايشاركهم فيها احد سوى القاضي ، فللقاضي سلطة القضاء والحكم بين الناس ، كما يشارك الخليفة والامير معا في سلطة الحكم في الخلافات التي تظهر حول القوانين ، لكن الخلفاء والامراء كانوا ينظرون غالبا فيما يتعلق بالقانون العام : اما القضاة فكانوا ينظرون في القضايا المتعلقة بالاحوال الشخصية ، من مواريث ، وزواج ، او طلاق ، او ما يتعلق بشؤون اليتامى والارامل ، او المعاملات في الاسواق .

فالسلطة القضائية في الاسلام يمارسها من يتولى الخلافة ، لان القضاء من وظائف الخلافة ومندرج في عمومها ، وقد مارس الخلفاء هذه السلطة بانفسهم في حاضرة الدولة (العاصمة) كما كتبوا الى قضاة الامصار احكاما قضائية معينة كان على القضاة تنفيذها والالتزام بها .

كانت السلطة القضائية في العراق بين قطبين ، الامير والقاضي ولا ننسى ان سلطة الامير في المصر تفوق سلطة القاضي ، فهو ممثل الخليفة ومنفذ القوانين التي تصدرها الدولة ، والمسؤول المباشر عن حفظ الامن والنظام في المصر ، فسيادة الدولة في المصر انما تتمثل به . ومما زاد في صلاحياته ونفوذه ان تعيين القاضي وعزله كانا من اختصاصاته . فالامير لم يكن مجرد حكم بين الناس ، بل كانت له سلطة عليا لا يتمتع بها القاضي ولا غيره ، وقد عبر شريح « قاضي الكوفة » عن هذه السلطة عندما ذكر : ان الامير في الكوفة يأمر فيطاع . والروايات التاريخية في هذه الفترة تشير وتؤكد ارتباط القاضي بالامير . (كانت ولاة البلدان اليهم القضاء يولون من ارادوا وكان لا يركب القاضي مركبا ولا يذهب في حاجة الا استأذن امير البلد ، لانه يطيب له الرزق) .

ان تداخل سلطة الامير مع القاضي في اختصاصاته ربما اربك المؤسسة الادارية في المصر مما دعا القائمين بالامو. على تلافي هذا الامر في الادارة

العربية فكانوا ان عهدوا للامير بالقضاء او للقاضي بالامارة فتوحدت المؤسسة القضائية في المصر ، واكتسبت قوة ومقدرة على التنفيذ في كثير من الاوقات . كما انيطت احيانا بشخص واحد مسؤولية القضاء والامرة ، والشرطة مما اكسبه مركزا قويا في الادارة وتصريف الامور . ففي سنة ١١٠ هـ ولي خالد ابن عبدالله على العراق . فجمع الصلاة بالبصرة ، مع الشرطة والقضاء الى بلال بن ابي بردة . لا ريب ان الصورة الحقيقية والصادقة لسلطة القاضي والامير معا انما تتجلى اكثر واقعية في الامصار نفسها ، وليس في كتب الفقهاء ، وقد اخترت البصرة والكوفة ، لتوضيح تلك الصورة وتبيان ابعادها بدقة .

عين اياس بن صبيح المعروف بابي مريم الحنفي قاضيا للبصرة منذ خلافة عمر بن الخطاب وكان الامير انذاك عتبة بن غزوان وهو الذي ولى ابا مريم الحنفي ، فلم يزل قاضيا حتى توفى عتبة بن غزوان ، وولي المغيرة بن شعبة فاقر ابا مريم على القضاء غير ان عمر امر بعزله لانه صالح بين متخاصمين في دينار غرمه هو من ماله .

ولفترة قصيرة مارس امير البصرة المغيرة بن شعبة القضاء في البصرة الى ان اختار عمر كعب بن سور الازدي فكان اول قاض على البصرة استقضاه خليفة .

وفي ولاية كعب بن سور على البصرة تورد المصادر معلومات عن لجوء العرب المسلمين ، وغير المسلمين اليه لفصل الحكم بينهم فكانوا يترافعون في قضاياهم اليه فاذا اراد ان يستحلف المسيحي فأن (كعب بن سور كان يأتي به المذبح ، ويضع على راسه الأنجيل ويستحلفه بالله) اما اذا أراد ان يستحلف يهوديا قال لاعوانه (ادخلوه الكنيسة وضعوا التوراة على راسه واستحلفوه بالله الذي انزل التوراة على موسى) .

ان هذه المعلومات ذات قيمة تاريخية كبيرة ، فهي تؤكد ان القاضي العربي كان ينظر في دعاوى الجميع وفي عهد مبكر سواء كان ذلك في البصرة او الكوفة ، وهي تؤكد عدالته في الاحكام والا لما اختاروه جميعا يحتكمون لعدالته .

والظاهرة البارزة في قضاة البصرة مشاورتهم لقاضي الكوفة فيما يحيط ببعض القضايا والخصومات من غموض ، كما كانوا احياناً يرتضون للخصوم في التحكيم خارج مجلس القضاء ، فاذا ابى احد الخصمين الانصياع لقرار التحكيم كتب القاضي الى صاحب الشرطة لينفذ قرار التحكيم .

واشتهر من قضاة البصرة اياس بن معاوية بن قرة المزني ، تولى قضاءها في خلافة عمر بن عبدالعزيز ، وقد شغلت احكامه وفراسته في القضاء جانبا كبيراً من كتاب (اخبار القضاة) لوكيع وصارت احكامه دلائل لتثبيت كثير من اراء الفقهاء واحكامهم الشرعية حتى يمكن ان نعده هو وشريح قاضي الكوفة من ابرز من ساهموا في اغناء التشريع الاسلامي بالاحكام القضائية والتي امتازت على غيرها من احكام الفقهاء بالتطبيق العلمي في ميدان القضاء الفعلي .

لقد حكم اياس في قضايا تتعلق بالحدود ، والقصاص وكان مجلس قضائه في المسجد الجامع في البصرة كما قضى في السوق . اما طريقته للنظر في الدعاوى ، فقد رتبها حسب حضور الخصوم من سبق الى مكان فهو احق به ، ماجلس عليه ، فاذا قام فجلس عليه اخر فهو احق به . وكان راتبه ١٠٠ درهم في الشهر .

لقد شهدت البصرة في اواخر العهد الاموي اضطرابا في الادارة القضائية ، كان نتيجة طبيعية لاضطراب الامور ، وعزل القضاة المستمر من قبل الولاة ، وكان اخر القضاة عباد بن منصور الذي جمعت له الصلاة

والاحداث مع القضاء ، واستمر على ذلك الى سنة ٢٢٧ هـ / ٧٤٤ م (وجدير بالذكر ان « الاحداث » قوة امنية ، شبه عسكرية ينظم فيها الشباب) ٠

كان العهد بداية تطور جديد في المؤسسة القضائية فقد صار تعيين القضاة يصدر من الخليفة مباشرة ، فعين المنصور سنة ١٤٠هـ/٧٥٧م سوار بن عبدالله العنبري قاضياً على البصرة وكان سوار اول من تشدد في القضاء وعظم امره ، واتخذ الامناء واجرى عليهم الارزاق ، وقبض الوقوف ، وادخل على الاوصياء والامناء ، وطول السجلات ، وضم الاموال المجهولة اربابها وسماها الحشرية (ومعروف ان الامناء كانوا من بين موظفي القاضي يأتمنهم في الحفاظ على اموال اليتامى) ٠

اما الكوفة فكان ابو قرة الكندي اول من عين على قضائها بامر من الخليفة عمر بن الخطاب ، الذي بعث بعدئذ عبدالله بن مسعود ، فكان على بيت المال والقضاء ، واعقب ابن مسعود شريح بن الحارث الكندي والمشهور بشريح العراقي ٠

ولشريح مكانة خاصة بين قضاة العراق ، فبالاضافة الى طول فترة استقضائه (٥٧ سنة) فان احكامه واقضيته اسهمت في تكوين وبلورة مدرسة اهل العراق في الرأي ، والتي كان ابن مسعود اول من وضع اسسها ٠

اتخذ شريح مجلس قضائه في مسجد الكوفة ، فاذا كان يوم مطير جلس يقضي في داره ، يجلس على حصيرة ، وعليه برنس خز ٠ وقد احاط مجلس حكمه بهيبة الحكم وسطوته ، فكان اذا جلس للقضاء يقف على راسه سيافان والى جانبهما شرطي بيده سوط ٠ ولم ينفرد شريح في مجلس قضائه ، فقد عرف عنه مشاورته لمشايخ الكوفة الذين كانوا يجالسونه على القضاء ، كما كان له جلواز (صاحب المجلس) يقف على رأسه فاذا تقدم اليه الخصمان قال الجلواز لهم : ايكم المدعي فليتكلم وكان اذا غضب أو جاع اثناء انعقاد المجلس قام ولم يقض ٠

مكث شريح على قضاء الكوفة الى ولاية الحجاج ، امير العراق ، وقد أسن ، فطلب من الامير اعفاءه مشيراً بتولية ابي بردة ابن الصحابي ابي موسى الاشعري ، فاعفاه الحجاج وولى ابا بردة ، وجلس معه في الحكم سعيد بن جبير • مع ان العرف والاتجاه العام في تعيين القضاة انهم (لا يولون الا عربيا) فلما ولي ابن جبير ، وهو من الموالي (ضج عرب الكوفة وقالوا : لا يصلح القضاء الا لعربي) •

وفي ولاية يوسف بن عمر على العراق (١٢٠ ــ ١٢٦هـ /٧٣٧ ــ٧٤٣م) استقضى عبدالله بن شبرمة ، ثم بعث ابن شبرمة الى سجستان فولى ابن ابي ليلى ، وهما مع الامام ابي حنيفة من ابرز فقهاء الكوفة وعلمائها الذين اغنوا الفقه الاسلامي بمناظراتهم في كثير من القضايا والاحكام فكانوا من جلة من ارسوا قواعد مدرسة الرأي في الفقه العربي •

امتازت ولاية ابن شبرمة لقضاء الكوفة بأمور ذات قيمة كبيرة نذكر منها :

انه كان يختصم اليه العرب على اختلافهم مسلمين ومسيحيين وانه اول من عين موظفاً خاصا يسأل عن الشهود سرا وهو (صاحب المسائل) • وكان من صلاحياته ان يعين قضاة على بعض الكور • وانه اول من عمل على (اثبات الحجج) الخاصة بالدعاوي ، وأول قاض سمي بـ (قاضي العراق) •

جـ ــ السمات الاساسية للنظام القضائي في العراق في صدر الاسلام

١ ــ اصول الحكم

يعتمد القاضي في العراق لاصدار حكمه على اصول اربعة فهو يحكم بما في كتاب الله • قال تعالى : (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله) فاذا ورد عليه شيء لم يعرفه في كتاب الله يقضى بما جاء في السنة النبوية المشرفة ،

قال تعالى (وما اتاكم الرسول فخذوه • وما نهاكم عنه فأنتهوا) فان لم يجد نصا يقض بالاجماع وأن لم يجد شيئا من ذلك اجتهد رأيه وتحرى الصواب•

٢ ـ مجلس الحكم

يتخذ القاضي مجلسه ، اكثر الاحيان ، في المسجد الجامع ، ومجلسه يتم بالبساطة ، يفترش بساطا يختص به بمقعد ووسادة لا يشاركه غيره فيهما الا ان بعض القضاة جلسوا في بيوتهم للحكم • ولكن هذه حالات نادرة • كما ان بعضهم حكم وقضى في السوق • ويفتتح القاضي جلسة الحكم بركعتين يدعو بعدهما بالتوفيق والتسديد ثم يطمئن في جلوسه متربعا •

واذا كان القاضي يمثل (نائب الشرع) فعليه ان يعالج نفسه على آداب الشرع • واذهو يجلس لتطبيق العدالة بين الناس فعليه ان يتوقى مايشينه في دينه ومروءته وعقله ليكبر في نفوس الخصوم •

اضف الى ذلك ان على القاضي ان يكون فهماً عند الخصومة ، يجعل فهمه وسمعه الى كلام الخصمين ، ولا يكون قلقاً ، ولا ضجراً ، ولا جائعاً ولا عطشان ، لان هذه العوارض مما يشغله عن التأمل والانتباه لما يجري بين الخصمين وربما يبعد قراره في الحكم عن روح العدالة •

٣ ـ اجراءات الدعوى

الدعوى : هي طلب احد الناس حقه من آخر ، قولاً او كتابة في حضور القاضي حال المنازعة ، بلفظ يدل على الجزم باضافة الحق الى نفسه • وللدعوى طرفان : المدعي والمدعى عليه، اما المدعي : فهو من اذا ترك الدعوى يترك فتنقطع الخصومة بتركه ، او هو الذي يقصد بدعواه اثبات حق على الغير في يده او في ذمته • اما المدعى عليه : فهو الشخص الذي يطلب منه حق في حضور القاضي ، واذا ترك الخصومة يجبر عليها •

وتبدأ الدعوى بتحرير المدعي لدعواه ، يكتبها بعريضة (رقعة) ثم ترفع لى القاضي لينظر فيها : حسب تسلسل حضور الخصوم لمجلس القضاء ، وللقاضي الحق ان يستثني من هذا الترتيب الغرباء والنساء فيقدم رقاعهم في اول كل مجلس . واذا حضر الخصمان بين يديه ، نظر القاضي بينهما نظرا حسنا تاما مساويا بينهم في نظره ولحظه واصغائه ولفظه .

وهو يسأل المدعي عن دعواه ، فاذا فرغ من الادلاء بما عنده سأل المدعى عليه الجواب وجوابه لا يخرج عن اقرار ، او انكار ، فاذا اقر ، فقد ثبت عليه الحق باقراره وللمدعي الحق ان يطلب من القاضي محضرا بثبوت حقه فاذا سجل القاضي اقراره تم الحكم .

واذا انكر المدعى عليه ما اتهم فيه ، فان القاضي يسأل المدعي ألك بينة؟ وحديث الرسول (ص) (البينة على من ادعى واليمين على من انكر) قاعدة فقهية من ركائز القضاء عند الاصوليين في الشريعة العربية الاسلامية . والبينة هي الحجة القوية ، وهي تشمل الشهادة ، فاذا شهد شاهدان عدلان ، بصحة ماادعاه المدعي حكم القاضي له بشهادتيهما .

واذا لم يكن للمدعي بينة ، كان اليه ان يطلب من القاضي اليمين . فليس له غير ذلك . فان طلبها استحلف القاضي المدعى عليه ، وبرأه .

كان التقاضي مجانا فالدولة لا تتقاضى اية رسوم عنه ، وجلسات القاضي علنية ، يحضرها الناس ، والدعاوى تحسم ، في غالب الاحيان ، دونما تأجيل . وهي غير قابلة للطعن-او الاستئناف او اعادة النظر فيها باية صيغة من الصيغ وفيمايلي بعض نماذج هذه الدعاوى :

دعوى ارض معينة

اشترى رجل من آخر ارضا فوجدها صخرية لا تصلح للزراعة ، فأختصما الى كعب بن سوار قاضي البصرة ، فقال القاضي للمشتري — وهو

المدعي ــ ارأيت نووجدتها دهبا اكنت تردها ؟ فال : لا .

فرد القاضي : فهي لك اذن ، لا يمكن ردها .

دعوى نفقــة اب

دخل شيخ كبير ، على كعب . فقال : اصلح الله القاضي . ان هذا ابني . وليس ينفــق علي .

ففال القاضي للولد : ماصنعتك ؟

فال : حائــك . فحكم عليه بخمسة دراهم .

دعــوى ديــن

اشتكى رجل ، للقاضي ابن الحسن البصري ، في دين وقد اقر المدين بذلك . فقال المدعي : احبسه لي . فقال القاضي : هل تعلم له مالا،ناخــذه فنعطيك . او شيئاً له يبيعــه فندفع لــك ثمنــه ؟ قال المدعــي : لا فقال القاضي : اني لا احبسه لك ، حتى يكد على نفسه وعياله .

دعوى زوجــة ، الزوج لا يستطيع الدخول بها .

اشتكت فتاة الى ابن الحسن البصري . وادعت ان زوجها لا يستطيع ان يدخل بها . وادعى الزوج : بلى قد دخلت بها . فأجلت القضية سنة حتى يتداوى الــزوج .

دعــوى ايجــار

اشتكى رجل الى قاضي البصرة ، انه اجر داره ورحل الى الكوفة فلما عاد الى البصرة ، طالب المؤجر بافراغ الدار . فرفض طلبه ، وادعى المستأجر : الدار داري ، وجاء بقوم يشهدون له بشراء الــدار . فقضى القاضي علــى المستأجر ، واخرجه من الدار .

ولا بد نذكر ان قضاة العراق ـ في صدر الاسلام ـ أتخذوا كتاب عمر بن الخطاب الى قاضيه ابي موسى الاشعري دستورا يسيرون عليه، وينهجون نهجه، ويطبقون قواعده ذكر فيه (آس بين الناس في وجهك وعدلك، البينة على من ادعى واليمين على من انكر . والصلح جائز بين المسلمين ، ولا يمنعك قضاء قضيته امس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك ان ترجع الى الحق فان الحق قديم . الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب الله ولا سنة نبيه ، المسلمون عدول بعضهم على بعض . واياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم ، فان الحق في مواطن الحق يعظم الله به الاجر .

تطور النظام القضائي في العصر العباسي

تطور النظام القضائي في العراق تطوراً واضحاً ، وفي مختلف مؤسساته ، خلال العصر العباسي فقد جاء هؤلاء الى الحكم . وهم يعلنون ويتعهدون انهم سيحكمون بما انزل الله ويعملون بما في كتابه وان تكون سيرتهم في العامة والخاصة سيرة رسول الله (ص) .

وقد تأثرت المؤسسات القضائية اكثر من غيرها بالسياسة الجديدة للعباسيين ، وهذا امر طبيعي فاذا كان العباسيون ورثة بيت النبوة ، الراغبين في احياء السنة واقامة العدل فالقضاء هو الميدان العملي لتطبيق هذه السياسة، وقد ظهر اهتمامهم وعنايتهم به منذ وقت مبكر فقد عظم شأن القضاء وقوى مركزهم منذ عهد الخلفاء العباسيين الاول ، الذين ما ان ظفروا بالملك حتى اشتدوا في شأن القضاة وتخيروا للوظائف الشرعية صدور العلماء .

وقد اعتبر المنصور القاضى احد اربعة لا يصلح الملك الابهم (اما احدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم . والاخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ، والثالث صاحب خراج ... وصاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على

الصحة) كما اشار مرة اخرى : الذي علي للرعية ان اختار قضاتهم واعزلهم بالحق كي لا يصل ظلم بعضهم الى بعض وان ارفع اقدار فقهائهم وعلمائهم •

سأحاول فيما يلي ايضاح مظاهر التطور في النظام القضائي العراقي في العصر العباسي في الامور التالية :

آ ــ سلطة تعيين القضاة •

ب ــ محاولة تقنين التشريع •

جـ ــ منصب قاضي القضاة •

د ــ ظهور طبقة الشهود العدول •

هـ ــ ظهور مهنة المحاماة •

سلطة تعيين القضاة

اشرت الى ان العباسيين احاطوا منصب القاضي بأحترام كبير فهو عندهم (عمود السلطان وقوام الاديان) وكتطبيق عملي لهذا الاتجاه جعلوا سلطة تعيينه وعزله منوطة بالخليفة مباشرة • وكان المنصور رائد هذه السياسة فهو اول من عزل دائرة القاضي عن سلطة الامير ، اما قبل هذا العهد فقد كان (ولاة الامصار يستقضون القضاة ويولونهم دون الخلفاء) •

وقد ظل تقليد القضاة وعزلهم طيلة العصر العباسي من صلاحيات الخليفة • فلا يجوز للقاضي الحكم الا بتفويض منه ، والا فسلطته واحكامه تغدو غير مشروعة (لان التقليد لا يصح الامن جهته) •

محاولة تقنين التشريع

ان حصر سلطة تعيين القضاة بالخلفاء عزز مكانة القاضي واوجد الحاجة الملحة لاخضاع الدائرة القضائية الى الرقابة المستمرة ، فالقضاة يصدرون احكامهم باسم الخليفة فكان لابد ان يخضعهم لرقابته المستمرة ، وقد ادرك

المنصور هذه الحاجة ، فاستعان باصحاب الاخبار والبريد ليكتبوا له عن قضاته في الاقطار وسيرتهم في الاحكام .

شهد العصر العباسي الاول ظهور المذاهب الفقهية ، وكان ظهورها مرافقاً لظاهرة تدوين المدونات الفقهية التي سهلت للقضاة مهمة اصدار الاحكام وفق مقتضيات الشريعة ، فكان القاضي يتبع الفقيه فيما يدونه .

لقد وضع الفقهاء العرب في هذا العصر اسس الفقه الاسلامي وقد انقسم هذا الفقه مدرستين ، مدرسة اهل الحديث ، وقد تركز مذهبهم في الامام مالك ، في مدينة الرسول والحجاز ، ومدرسة اهل الرأى وقد تركز مذهبهم في الامام ابي حنيفة في الكوفة والعراق . ولان الحياة لا تسير في نمط موحد ، اختلفت اراء المدرستين ، وقد انعكس هذا الخلاف على احكام القضاة فصاروا يحكمون في القضية الواحدة باحكام متباينة شديدة التناقض .

هذه الظاهرة لفتت انتباه الخليفة المنصور ، فاراد تنظيم حركة الفقه والقضاء واستخلاص ما استقر عليه الرأى من احكام تأخذ بها الدولة وتقرها قانونا موحدا لجميع القضاة في العراق .

وكانت محاولة المنصور مع الامام المالك بن انس في ان يضع كتاباً جامعا في الفقه حيث قال له : يا ابا عبدالله اجعل العلم علما واحدا ، واحمل الناس على علمك واعهد الى اهل الامصار يوفدون اليك وفودهم ويرسلون اليك رسلهم ، انما العلم علم اهل المدينة فانت اعلمهم . ولم يقنع مالك بالفكرة ، لكن الخليفة المهدي عاود المحاولة في سنة ١٦٣ هـ / ٧٧٩ م فاجتمع بمالك ورسم له خطة جديدة وسليمة لتدوين (الكتاب الجامع) يتوخى فيه مالك الشدائد والرخص والشواذ ، ويركن الى اواسط الامور ، وما اجمع عليه الصحابة ،

قال له : ضع هذا العلم ودونه ، ودون منه كتباً ، لنحمل الناس على علمك وكتبك ونبثها في الامصار ، ونعهد اليهم ان لا يخالفوها ولا يقضوا بسواها .

ولم تفلح خطة المنصور ، لان الامام مالك لم يكن مقتنعا بالفكرة ، فقد استقرت المذاهب في الامصار ، وتمسك اهل العراق بمذهبهم (الرأى)، كما تمسك اهل الحجاز بمذهب (اهل الحديث) . ولذلك طلب من الخليفة ان يعفيه من هذه المهمة مبرراً موقفه : ان اصحاب رسول الله تفرقوا في البلاد ، فافتى كل في مصره بما رأى فلأهل المدينة قول ولأهل العراق قول .

ان محاولة المنصور لم تفلح لان المذاهب الفقهية تتاج بيئاتها المختلفة وظروفها المتباينة ، وحاجات المجتمع ، والوسط الذي تنامت فيه . لكن هذا لا يعني ان اولي الامر في الدولة العباسية كفوا عن محاولة تنظيم الدائرة القضائية ، ففي عصر الرشيد استحدثوا منصب قاضي القضاة ، ليتولى نيابة عن الخليفة الاشراف على قضاة الدولة وسيرتهم الوظيفية .

ظهور منصب (قاضي القضاة) في عصر الرشيد

من ابرز مظاهر تطور النظام القضائي في العراق ، ظهور منصب قضائي جديد ، يتولى صاحبه الاشراف على جميع قضاة الدولة ، نيابة عن الخليفة ، وهو منصب قاضي القضاة ومقره حاضرة (عاصمة) الدولة الغربية بغداد .

ظهر المنصب في عصرالرشيد (١٧٠هـ ــ١٩٣هـ/٧٨٦ــ٨٠٨م) وتولاه القاضي ابو يوسف الانصاري (ت١٨٢هـ/٧٩٨م) تلميذ الامام ابي حنيفة . وقد منحه الرشيد كامل ثقته،فكان تعيين جميع قضاة الدولة راجعا اليه،والظاهر ان ابا يوسف لم يقتصر نفوذه كقاض للقضاة ، على الادارة القضائية حسب،فقد عهد اليه الرشيد بتنظيم مالية الدولة على اسس الخلافة الراشدة ، فوضع كتاب الخراج . ووقف بحزم يقاوم تزايد وتنامي النفوذ الساساني في الدولة العربية ، لقد ادرك تلميذ ابي حنيفة ، ان البرامكة يستهدفون نسف اسس

الدولة من الداخل ، فحذر الرشيد منهم ، ولفت نظره الى تعاونهم مع القوى المعادية للدولـــة العربية .

ظهر منصب قاضي القضاة كنتيجة طبيعية لتطور المؤسسات القضائيــة في الدولة العربيـــة . فهو خير مثال على مقدرة العقلية العربية في معالجــة مشاكل وحاجات المجتمع والدولة . واستمر المنصب ، في تطور مستمر طيلة العهد العباسي ، وكان خير مثال على وحدة ومركزية الادارة القضائية العربية ، فجميع قضاة الدولة العربية في المشرق والمغرب يرتبطون بشكل وآخر بقاضي القضاة في بغداد .

ولهذا السبب بقي قاضي القضاة في بغداد وحده يمثل وحدة المؤسسة القضائية للأمة ، من هنا تجنب الامويون في الاندلس ، ان يوجدوا لأنفسهم (قاضي قضاة) خاصاً بهم واكتفوا بقاضي الجماعة ، اي جماعة المسلمين لكن الفاطميين فيمصر اول من اشر خلخلة الوحدة القضائية للدولة والامة، بأيجادهم منصب قاض للقضاة خاص بهم ، لايرتبط بقاضي قضاة بغداد .

ظهـور طبقـة الشـــهود العـــدول

كان القاضي في العراق يقبل شهادة الشهود اذا كانوا عدولاً بعضهم على بعض ، وربما سأل القاضي الخصم عما يقوله في الشهود عليه قبل ان يحكم عليه بشهادتهم ، وهذا ماكان يفعله شريح في اول الامر . فاذا قبل الخصـــم شهادتهم وقال انهم (عدول مرضيون) حكم بشهادتهم ، رافضـــاً الطعـــن بعدالتهم بعد صدور الحكم .

ولا يفترض ان يكون الخصم على علم بعدالة من يشهد عليه ، وربمــا عجز من اثبات فقدانه لشروط الشهادة ، لهذا الغرض كان بعض القضاة يطلب من الشاهد ان يأتي بمن يزكيه ، وهذا مافعله القاضـــي الشعبي ، ثم خطـــا

القضاة خطوة اخرى فكانوا يسألون عن الشهود بأنفسهم سراً ، وذلك في خلافة المنصور •

وطبيعي ان ترهق عملية التحري هذه ، القاضي وربما اربكت عمله ، واخرت انجاز مهمات وظيفته ، فكيف يتهيأ لقاض ان يسأل بنفسه عن الشهود في احياء الكوفة او البصرة مثلا ؟ ان طبيعية الامور اقتضت ان يعهد القاضي لموظف خاص يرتبط به ، يتحرى بنفسه عن عدالة الشهود ، ويرفع بذلك تقريرا عنهم ، سمي هذا الموظف بـ (صاحب المسائل)كما سمي عمله المتعلق برفع التقارير عن الشهود بـ (التزكية) وهي التي ثبتت عدالة شهود معينين دون سواهم سموا بالشهود العدول •

وهكذا اضيفت مهمة شاقة الى واجبات القاضي فعليه الان الا يحكم على خصم الا بعد ان يطمئن بأن من شهد عليه كان صادقا في شهادته ، يحقق طمأنينته بنفسه ، يسأل عن الشهود سرا ، فان زكوا قبل شهادتهم •

ان التزكية السرية من قبل القاضي نفسه — عن طريق صاحب المسائل — تعتبر تطورا جديدا دخل على نظام الشهادة ، وكان شريح اول من ادخله ، فهو اول من سأل في السر ، فقيل له : يا ابا امية احدثت ؟ فقال : ان الناس احدثوا فأحدثت • واذا كانت العدالة صفة مجمعاً عليها لقبول شهادة الشاهد فنحن نشير هنا الى العدالة لا لأنها صفة من صفات الشاهد ، بل وظيفة قضائية تولاها طائفة من الشهود ، خصوا بالعدالة دون سواهم ، سمتهم المصادر بـ (الشهود المعدلين) او (العدول) •

لقد ظهر في العراق ، ومنذ خلافة المنصور ، نظام قضائي فريد ، وهو قيام هيئة من الشهود العدول لم يكن لغيرهم حق الشهادة في المحاكم ، ينتقون بعد عملية تحر دقيق ، تثبت اسماؤهم في نهايتها في قائمة لدى القاضي ، حتى صارت كلمة (الشاهد العدل) يقصد بها هذا الشخص المسجل في القائمة • ومع اننا نجهل عددهم بالضبط ، الا ان كثرة من نال منهم لقب (الشاهد

العدل) تدل على ان العدد ليس بالقليل كما ان بعضهم صار من (شـيوخ العدلية) او من (كبار اهل العدلية) ويمكن اعتبار ولاية اسماعيل بن اسحاق لقضاء بغداد في الفترة (٢٤٦ـ٢٨٢هـ/٨٦٠ـ٨٩٥م) حدا فاصلا ومهما في تاريخ عدول العراق فقد استحدث هذا القاضي هيئة محدودة من العـدول المتميزين يسـمع شهادتهم دون غيرهم من الناس • وكأن العدالة خصت بهم وحدهم • ولايعني هذا النص ان العدول في بغداد ، وفي العراق ، لم يكونوا معروفين قبل ولاية اسماعيل بن اسحاق ، فقد اشارت المصادر الى وجودهـم قبل هذا التاريخ ، ولكن الذي حدث ان اسماعيل القاضي عين عدولا محدودي العدد خصهم بالشهادة في مجلسه دون غيرهم • مارس هؤلاء مهمات اساسية في الماكنة العدلية للدولة سنتطرق لها في موضع آخر من هذه الدراسة •

ظهـور مهنـة المحامـاة

ان التطور الاخر ، والاخير ، في النظام القضائي في العراق ، هو ظهور وظيفة جديدة في المحاكم العراقية ، لم يكن لها وجود ، قبل العصر العباسي ، الا وهي وظيفة المحاماة • فمنذ العصر العباسي الاول ، اخذت المصادر تورد اسماء عدد كبير من الوكلاء (المحامين) تولوا مهمة الدفاع عن موكليهم في المحاكم العراقية ، لقاء اجر متفق عليه بين الموكل والوكيل •

منذ عهد الرشيد كان العرف السائد في المحاكم العراقية اذا اقيمت دعوى على شخص ان يحضر المحكمة (او يوكل وكيلا يناظر خصمه) ولدينا قوائم باسماء الوكلاء الذين ترافعوا امام المحاكم العراقية منـذ ذلـك التاريـخ وماتقاضوه من اجور •

ان الذي نريد ان نخلص اليه ان النظام القضائي في العراق ، نشأ وتطور في صدر الاسلام بشكل بسيط ، ولكنه متين ومتكامل • ومالبث هذا النظام

وبين القاضي المرشح وجب ، لكي تتم ، ان يذكر العمل الذي تشمله ولاية القاضي كأن يذكر في كتاب التقليد : (قلدتك قضاء بغداد) لكي يكون العمل معلوماً .

ان المصادر تشير بوضوح الى ان قضاة العراق كان تقليدهم تقليدا عاماً (أي : أن يقلد القاضي في قضاء جميع البلد ، يحكم بين جميع أهله ، وفي جميع الايام ، وبكامل سلطاته) . في العهد الاموي كان التعبير السائد في تقليد القضاة لفظ (وليتك) وفي الخلافة العباسية استخدم مصطلح (قلدتك) فلما ولى المنصور سوار العنبري قضاء البصرة اوصاه في كتاب التقليد (إني قد قلدتك ، طوقا مهما قلدني الله طوقا ، فاغلقت في عنقك طرفه ، وابقيت في عنقي طرفه ... انك حجاب بين الله وبيني وامانة مني على رعيتي) .

وقد استقر العمل في العراق على ان لا يقلد في المدينة الواحدة ــ عدا بغداد ــ غير قاض واحد ، ولا يفترض في الخليفة ان يكون على معرفة بجميع الفقهاء والعلماء المؤهلين لوظيفة القضاء ، ومن هنا كانت اهمية منصب قاضي القضاة في ترشيح المرشحين، واخذ موافقة الخليفة على تقلدهم ، وهناك من أسندت له وظيفة (اختيار القضاة) مثل محمد بن عمران الضبي، الذي كان على اختيار القضاة للخليفة المعتز (٢٤٧ ــ ٢٤٨هـ/٨٦١ــ٨٦٢م) يرفع اسماء المرشحين الى الخليفة ، فاذا استقر رأيه على احدهم خوطب في تقليد القضاء واستدعي الى دار الخلافة ،وقد يزاد في تكريم بعضهم ، فيكون الرسول الوزير نفسه ، كما حدث لعلي بن محمد بن عبدالملك ،ارسل اليه الخليفة المعتمد وزيره ، فأمتنع من قبول المنصب ، فلم يبرح الوزير عبيدالله بن عيسى من عنده حتى قبل .

حتى اكتملت مؤسساته واجهزته في العصر العباسي بحيث حقق اروع المنجزات في ميدان تحقيق العدالة بين الناس . ان التطورات السالفة في الماكنة القضائية يظهر اثرها بوضوح في المؤسسات القضائية التي سنتناول دراستها في الفقرة التالية ، لكننا نلاحظ ان هذه المؤسسات وان اكتملت في العصر العباسي لكن جذورها في الواقع انما ترجع الى صدر الاسلام ، ففي العهد الراشدي والاموي كانت البدايات الرائعة لكل ما تفتح من ازهار فيما بعد .

المؤسسات القضائية في العراق

القضاء العام

يقصد بالقضاء العام المحاكم التي يلجأ اليها عامة الناس . يتولاها قضاة وحكام احكامهم نافذة على جميع الناس دونما تمييز . ونشاط وعمل هذا القطاع العدلي هو الذي يمثل في الواقع جوهر عمل القضاء ، يحسم جميع الدعاوي والاحكام المعروضة عليه ، تنحصر مؤسساته في القضاء الاعتيادي ، الذي يتولاه القضاة ونوابهم في جميع مدن وكور (قرى) العراق . يكمل عمله القضاء الاداري ، او مايسمى النظر في مظالم الشعب . وكلا القضاء الاعتيادي والاداري يستعين بجهاز الشرطة الذي اخذ على عاتقه حسم الدعاوى الجنائية «الجرائم والجنح» . ومع ان الحرفيين والصناع ، واصحاب الحوانيت لهم حق اللجوء الى مختلف المحاكم ، لكن اغلبهم يفضل حسم مشاكله داخل السوق ، ومن قبل موظف خاص ، هو عامل السوق او المحتسب .

١ ـ القضاء الاعتيادي

تقليد القضاة في العراق

تنعقد ولاية القضاء في العراق ، بحضور المرشح لهذه الوظيفة امام الخليفة مباشرة ، او من ينوب عنه ، فاذا انعقدت ولاية القضاء بين الخليفة

عهـود القضـاة في العـراق

بعد ان يتم تقليد القاضي في العراق ، يصدر عهـده مكتوباً مـن دار الخلافة ويمارس بموجبه مهام وظيفته، ويكون العهد بمثابة وثيقة رسمية تحدد صلاحياته ، والاسلوب الامثل الذي عليه مراعاته في سيرته في الاحكام وفي مجلسه ، وواجباته تجاه الموظفين التابعين له .

في صدر الاسلام ، كان عهد عمر بن الخطاب الى قاضيه ابي موسى الاشعري في البصرة دستورا للقضاة ساروا في محاكمهم على هداه . وتلته عهود كثيرة في العصر العباسي ، كان اولها عهدا من الخليفة المنصـور الى قاضيه ، على البصرة ، سوار العنبرى . ويذكر ابن الجوزي ان احد قضـاة العراق (محمد بن صالح بن أم شيبان) خوطب سنة ٣٦٣ هـ/٩٧٣ م في تقلد القضاء فأمتنع فألزم فأجاب ، وشرط لنفسه شروطا منها انه لا يأخذ راتبا عن القضاء ، ولا يخلـع عليه ، ولا يأمر ما لا يوجبه حكم « ولا يشفـع اليه في انفاق حق وفعل ما لا يقتضيه شرع » وبعد موافقته ركب على بغلته الى دار الخلافة وقابل الخليفة المطيع فاستلم عهـده ، وركب مـن غد الـى المسجد الجامع ، حيث قرىء فيه عهده ، ووردت في نسخة العهد اوامر الخليفة التي عليه تطبيقها والعمل بها . ومنها انه أمره ان يجعل كتاب الله في كل مايعمل به، وان يتخذ سنة محمد رسول الله (ص) مثالاً يتبعه ، وان يراعي الاجماع، وان يقتدى بالائمة الراشدين ، وان يعمل اجتهاده فيما لا يوجد فيه كتـاب ولا سنة ولا اجماع ، وان يحضر مجلس قضائه من يستظهر بعمله ورأيه ، وان يسوى بين الخصمين اذا تقدما اليه في لحظة ولفظة ويوفي كلا منهما نصيبه من انصافه وعدله ، وان يشرف على اعوانه واصحابه ومن يعتمد عليه من امنائه .

لا ريب ان عهودا كثيرة كتبت لقضاة العراق ، ضاعت مع ماضاع من تراث هذه الامة في ظروف المحن ، ولم يبق من هذه العهود الا العدد القليل •

ويكرم بعض القضاة فتخلع عليهم الهدايا من الخليفة ، فيأخذها ويتمم عهده بموكب رسمي شعبي ، يجتاز شوارع المدينة ، كي يعرفه الناس ، يتقدمه القاضي راكبا بغلته ، وعليه الخلع ، ويرافقه الشهود العدول ، والمحامون ، واعوان المحكمة • ولا يخلو هذا الموكب احيانا من تعليقات واراء للناس في القاضي الجديد ، وهو يخترق في موكبه الشارع الرئيسي في المدينة •

ويستقر القاضي في مجلسه في المسجد الجامع للمدينة ، ليقرأ هناك عهده على الناس ، يقرأه احد العدول ، او احد القضاة السابقين ، وعليه بعد قراءة عهده ان ينظر في دعوى من الدعاوى لتستقر وظيفته وتستكمل مراسيم تقلده •

استلام مسؤوليات القاضي السابق

لا شك ان مباشرة القاضي الجديد لعمله لا يمكن ان يكون بمعزل عن عمل القاضي السابق فان اول عمل له هو المباشرة في وظيفته والاحاطة بجميع القضايا التي تركها القاضي السابق ولم يحسم الحكم فيها ، أو التي حسمها وترك وثائقها في سجلات المحكمة • وفيما يلي بعض المسؤوليات الاساسية التي يتولى القاضي الجديد استلامها من القاضي السابق •

وثائق وسجلات المحكمة

ان استلام الوثائق والسجلات القضائية من القاضي المعزول او المستقيل، هو اول عمل يقوم به القاضي الجديد ، وهذا امر طبيعي يمهد له الطريق للاحاطة والالمام بدائرته ، وسير الاعمال والاحكام فيها • والتعليمات الرسمية تسمى استلام الوثائق هذه باستلام ديوان الحكم ويقصد به (حجج الخصوم من المحاضر والسجلات ، وكتب الوقوف لان الحكام يستظهرون في حفظ الحقوق على اربابها بحفظ حججهم ووثائقهم في نسختين يتسلم المحكوم له

الخلفاء في كتب عهودهم للقضاة في العراق على ضرورة اختيار الامنـاء مـن الثقات والاتقيـاء •

النظر في الوقوف العامة والخاصة

ويتفحص القاضي الجديد امـور الوقوف في مدينتـه ، الوقوف العامة والخاصة . فهو يتأكد هل صرفت اموالها ، وعوائدها ، وفق شروط واقفيها ؟ ان اموال هذه الوقوف شغلت دائرة القاضي في العراق كثيرا ، كما انها تعرضت في بعض الاوقات الى التلاعب في عائداتها فكان التأكيد على حفاظها من جملة مايرد في عهود قضاة العـراق •

المحكمـة العامـة في العـراق

المحكمة العامة ، يلجأ لها عامة الناس ، فهي لا تقتصـر في عملها علـى فئـة معينـة منهم ، كالجيش مثلاً (الـذي يتبـع في دعاويـه القضـاء العسـكري) ، وتنظـر فـي دعـاوى جميـع النـاس علـى اختلافها • ومن هنـا سـميت بالمحكمة العامـة تمييـزاً لها عن المحكمـة الخاصـة والتي تحدد واجباتها في فئة خاصة من الناس ، وربما في فترة محدودة مـن الوقت تنتهي بانتهاء دعوى معينة كمحاكمة رجل كبير من رجالات الدولة •

ان فكرة المحكمة ، اي تعيين مكان معين للقضاء بحيث لا يعتبر حكـم القاضي حكما نافذا الا اذا صدر في هذا المكان ، ان هـذه الفكـرة عرفهـا تاريخ القضاء العراقي ، واشار لها الماوردي بوضوح فقال : ان القاضي لو قلد الحكم فيمن ورد اليه في داره او في مسجده ولم يجز ان يحكم في غير داره ولا في غير مسجده ، لانه جعل سلطته مقصورة على مـن ورد الـى داره او مسجده وهم لا يتعينون الا بالوزود اليهما ، فلذلك صار حكمه فيها شرطا •

لقد اتخذ غالبية قضاة العـراق المسجد الجامع ، او دورهم ، مكانـا مخصصا لعقد جلسة الحكم • وذلك لانعدام وجود بناية مخصصة رسـميا

احداهما ، وتكون الثانية في ديوانه حجة يرجع اليها اذا احتاج ، ليكـــون على ثقة مما في يده) .

وديوان الحكـــم في مسؤولية موظف يسمى (خازن ديـــوان القضـــاء) هو احد موظفي المحكمة الاداريين ، يختم عليه حال استقالة او عزل القاضي ، ليسلمه للقاضي الجديد ، بحضور الشهود العدول ، والوكلاء (المحامين) .

تفقد احـــوال المحبوسين

والمهمة الثانية للقاضي ، بعد استلام ديوان القضاء ان يتفقد احـــوال المحبوسين في السجن ، والنظر في قضاياهم والعمل على اطـــلاق ســـراح من لا تستدعي جنايته استمرار حبسه . فقد يكون فيهـــم من طالـــت اقامته في السجن ظلماً . وهذه المهمة من واجب القاضى الاسراع بها ، ولهـــذا وجـــب عليه ان يعلن في منطقة عمله : ان القاضي بدأ في امور المحبوسين فمن كان له محبوس في حق فليحضر الى المحكمة عند القاضي .

النظر في امـــور الاوصياء

يتعين على القاضي الجديد النظر في امور الاوصياء وما في عهدتهم من اموال ترجع عائديتها الى بعض الاطفال والفقراء فينظر في حق كل واحد منهم ، فاذا عرف القاضي ما انيـــط بالوصي من وصاية أختبـــر سيرته في امانته ، فاذا وجده اميناً صادقاً اقره على وصيته ، واذا ثبت للقاضى خيانة الوصي ، فلا يجوز له ان يقره على وصيته ، وعليه ان يردها الى غيره ، ويبطل ما قام بـــه من تصرف ، فاذا كان باع فسخ بيعه ، واغرمه قيمة ماتصرف به .

النظـــر في امور امناء القضاة

يشكل الامناء طائفة من موظفي المحكمة ، ولهـــم تأثير كبير في ســـمعة القاضي ، فلهم تعهد امانة الاموال والاشـــراف على الايتام ، فعليه ان يدرس اوضاعهم ، ويتصرف معهم على ضوء نتائج دراســـته لاحوالهم . وقد اكـــد

للمحكمة . لكن الدولة العباسية شعرت ، ومنذ القرن السادس للهجرة ، بضرورة تخصيص « دار للقضاء » يمارس فيه القاضي شؤون وظيفته . لقد اصبح (دار القضاء) محكمة رسمية يحل فيها القاضي وموظفوه وسجلاته ، ويخصص قسما من هذا الدار الى اسرته . فاذا اقيل القاضي من منصبه او نقل من بغداد الى هيت مثلا ، انتقل من « دار القضاء » ليسكن فيه القاضي الجديد .

المسجد الجامع

الاتجاه السائد في العراق ان يعقد القاضي مجلس حكمه (المحكمة) في المسجد الجامع الذي يعبر عن روح الاسلام ، وقواعد العدل عند العرب ، ويتصل بالجماهير والشعب مباشرة ، فهو لذلك اكثر الاماكن ملاءمة لعمل القاضي ، ولا ننسى ان اتخاذ المسجد مركزاً لعمل القضاة ، يجعل القضاء مفتوحا للشعب ويكسبه صبغة قدسية .

لقد ذكرت ان شدة صلة القضاة في العراق بالناس ، قضت ان يكون المسجد الجامع موضع (مجلس الحكم) ويقتضي هذا ان يتخذ قاضي مدينة المنصور مجلس قضائه في جامعها والخطيب البغدادي يذكر : ان محمد بن يوسف ولي قضاء مدينة المنصور سنة ٣١٠ هـ/٩٢٢م وجلس للحكم في المسجد الجامع بالمدينة . وفي سنة ٣٢٧هـ/٩٣٨م ولي يوسف بن عمر قضاء بغداد، فجلس في (جامع الرصافة وقرأ عهده بذلك وحكم).

دار القاضي

اتخذ بعض قضاة العراق دورهم الخاصة مكانا لعقد مجلس القضاء. وهذا الامر جوزه الفقهاء فالماوردي يذكر ان القاضي اذا حكم بين الخصوم في داره (التي لا يدخلها احد الا بأذنه جاز ولم يكره) ، وابانته كتب العهود لقضاة العراق فهي لم تخصص لهم مكانا معينا للحكم وكل ما ورد فيها ، ان يختار القاضي للحكم (الاماكن الفسيحة الارجاء الواسعة الفضاء) .

ان المصادر تذكر ان بعض قضاة تكريت اتخذوا المسجد الجامع فيهـا مكانا لمجلس الحكم • لكن بعضهم خصص مكانـا معينا من داره ، يقصده الخصوم ، يجلس فيه القاضي لفض منازعاتهم • وهذا مافعله بعض قضـاة الموصل ، والبصرة ، وهيت ، وسامراء •

هيئـة المحكمـة

يتميز النظام القضائي في العراق بميزة الاعتماد على نظام القاضى الفرد التي تناط به مسؤولية دراسة الدعاوى في دائرته ، ومن ثم اصدار الحكـم الذي تقتضيه كل دعوى على انفراد • وهذه صفة عامة للنظام القضائي فـي الدولة العربية في الحقبة التاريخية التي نحن بصدد دراستها (١١هـ ـ٦٥٦هـ / ٦٣٢ ـ ١٢٥٨ م) •

مع هذا فمصادرنا تؤكد ان المحكمة في العراق وان اعتمدت على القاضي الواحد ، فهنالك طائفة من الموظفين يساعدونه ، فهـو لا يسـتطيع وحده ان ينهض بكل اجـراءات التقاضي ، دون ان يساعده بعض الموظفين العدليين ، والاداريين ، فهؤلاء يشكلون في الواقع هيئة متجانسة في عملها ة تساهم بشكل واخر ، في تسيير شؤون العدل والعدالة بين الناس ، كان اول ذكر لاعضـاء هيئة المحكمة في العراق مجتمعين ورد عند ابن الجوزي سنة ٣٦٣هـ/٩٨٣مفذكر منهم القاضي ، والكاتب، والحاجب، والفارض، وخازن دار الحكم، والاعوان هؤلاء جميعهم موظفون رسميون في المحكمة ، بدليل ان الدولة خصصت لهم رواتب محدودة تدفع شهريا لقاء مايقومون به من اعمال تحت اشراف القاضي • ويمكن ان نضيف اليهم اعضاء جدداً ، يتولـون وظائف اخـرى ، ويساهمون بدورهم في اصدار الحكم ويؤثرون فيه كالمشاورين ، والعدول ، والمحامين • ان اول اعضاء مجلس الحكم واهمهم هو القاضي •

القاضـي

ذكرت ان القاضى في المحكمة العراقية تقع عليه وحده مسؤولية اصدار

علمه لانه (كان يشاور ، فلم ير من القضاة احد هو اصح سجلات منه ، لانه لم يكن ينفذ شيئا الا بمشورة) •

كانت مجالس القضاء في العراق تحفل بحضور العلماء والفقهاء ورجال الحديث على اختلافهم ، ولم تقتصر مجالستهم للقاضي ، على مجلس القضاء حسب ، بل كانت تمتد حتى بعد رفع جلساته • وهذه ظاهرة كانت تساير روح العصر يومذاك •

ان اشتراك الفقهاء في هذه الجلسات اكسب القاضي العراقي المعرفة التي تؤهله على الموازنة بين ارائهم المختلفة في المسألة الواحدة • علما ان الدولة لم تلزم القاضي ان يصدر حكمه وفق مذهب معين ، بل انها خولته ان يصدر حكمه الذي تكاملت قناعته الشخصية بصوابه ، حتى لو خالف هذا الحكم المذهب الذي ينتمي اليه •

كاتب الاحكام

كاتب الاحكام احد موظفي المحكمة في العراق ، تعهد اليه مهمة تسجيل ما يدور بين المتخاصمين من حجج وبينات ، كما يدون في نهاية الجلسة قرار الحكم الذي يصدره القاضي • ويثبت عليه شهادة العدول ، بنسختين ، تعطى الاولى للمدعي وتحفظ الثانية في ديوان الحكم (وثائق المحكمة) •

وثقافة كاتب الاحكام وحذقه بالشروط والسجلات امر جوهري ولهذا أُلزم الكتاب ان يكون فقيهاً باحكام وظيفته ، والمصادر تورد معلومات جيدة لبعض كتاب قضاة العراق ، وصلوا الى درجة كبيرة من المهارة في فن الكتابة في مجلس القضاء ، حتى ارتقت منزلة بعضهم فخلفوا القاضي في مجلسه ، كما تقلد بعضهم القضاء ، فوكيع مثلاً ولي قضاء كور الاحواز كلها ، وكان قبل ذلك كاتبا لقاضي مدينة المنصور سنة ٢٥٣هـ/٨٦٧م ، كما ارتقت مكانة بعضهم فولوا قضاء القضاة •

الحكم ، والنتائج التي تترتب عليه ، والمحكمة في العراق ، اساسها القاضي الواحد ، وهو يستعين ويستشير بعض الفقهاء فيما يعرض عليه من دعاوى ، الا انه لم يكن ملزما بقبول اراء من يستشيرهم فله ان يقبلها او يرفضها ، كما له في حالة أختلاف اراء من يستشيرهم ان ينتقي الرأي الذي يقره هو .

ان المصادر تسهب في ذكر اعداد كبيرة من قضاة العراق مارسوا الحكم والقضاء فترات طويلة ، كانوا خلالها النموذج الامثل لقيم العدالة ، والالتزام بالمثل العليا لافكار الامة ، نذكر منهم مثلا أبا يوسف القاضي تلميذ الامام ابي حنيفة ، وأبا عبدالله الدامغاني وكثيرين سنشير لمواقفهم في مجلس الحكم .

المشاورون في المحكمة

نظرا لتنوع القضايا التي عرضت على قضاة العراق ، ذات العلاقة بالاحوال الشخصية ، واحوال السوق ، وبعض الجنايات كان على القاضي ان يكون على المام بالاوضاع الاجتماعية والاقتصادية ومعرفة واطلاع على الاعراف القانونية السائدة في المدينة ، لهذا وجدنا حاجته ماسة وضرورية الى بعض اهل المدينة التي يمارس عمله فيها ، هذه الحاجة فرضتها طبيعة عمله وسعة دائرة اختصاصه .

لقد اشار وكيع (كانت القضاة لا تستغني ان يجلس اليهم بعض العلماء يقومونهم اذا اخطأوا) فشريح قاضي الكوفة في العصر الاموي كان يستشير (اشياخاً يجالسونه على القضاء) اما في العصر العباسي ، فقد تنامت اهمية المشاورين ، بعد ان تبلورت الاتجاهات الفقهية وتشعبت مؤلفاتها ، وتزاحمت في اثبات آرائها ، حتى وجدنا هذه الفئة وقد غدت معينة الاشخاص . فلما ولي ابو البختري قضاء بغداد ، في عصر الرشيد كان اول ماطلبه في مجلسه (اجمعوا لي المشيرين ، فأدخلوا عليه سبعة وعشرين رجلا) والمصادر أطرت مقدرة عبدالله بن سوار العنبري ــ قاضى البصرة ــ في الاحكام على قلة

الوكلاء (المحامون)

اقصد بالوكلاء هنا من يقومون بمهمة المحاماة في العصر الحاضر فالوكيل في تلك العصور هو المحامي اليوم • يتولى مهمة المرافعة امام القاضي وكالة عن موكله ، لقاء مبلغ معين من المال ، يدفع قسم منه عند تحرير كتاب الوكالة ويستوفى الباقي بعد حسم الدعوى •

ظهرت مهنة المحاماة في عصر هارون الرشيد ١٧٠ ــ ١٩٣هـ/٧٨٦ــ٨٠٨م) فصار لكل قاض مجموعة من المحامين يختارهم بنفسه ، من اهل الستر والعدل والعفاف ، ومن يكون مأموناً على الخصومة ، وعلى دقيق مايجرى فيها ، لا يتوقف عن حجة اذا لاحت له على قضيته ، فموكله اقامه مقام نفسه ، فلا ينبغي للوكيل ان يغش موكله ، ولا يستعجله في طلب اجر وكالته ، ولا يواطيء عليه في الباطل •

تذكر المصادر اسماء من امتهنوا المحاماة منذ القرن الهجري الثاني ، وهي تزودنا بقوائم كثيرة لهم ليس مجال ايرادها هنا ، لكن بعضهم تميز في مهنته ، فألف كتباً في الوكالة ، نذكر منهم مثلا : الشيخ ابو محمد بركة بن علي البغدادي (ت٦٠٥هـ/١٢٠٨م) الوكيل بباب القضاة في العراق • كانت له معرفة بالشروط والكتب الحكيمة ، الف كتابا سماه (كامل الآلة في صناعة الوكالة) • ومحمد بن الشيخ ابي القاسم هبةالله البغدادي الوكيل (ت٦٠٧هـ /١٢٠٩م) كان من رجال الحديث ، حدث بالكثير ، كان وكيلاببباب القضاة هو ووالده ، وكان من المتميزين في هذا الامر •

ويلاحظ من قائمة الوكلاء ان اغلبهم من مدن العراق : من بغداد ، والانبار ، وتكريت ، وواسط ، اتجاهاتهم الفقهية مختلفة ، اكثرهم استمر يمارس المهنة حتى وفاته ، لكن بعضهم ترك المحاماة ، وامتهن المهن الحرة ، وقل منهم من ارتقى الى وظيفة القضاء • لكن اغلبهم دربوا اولادهم على فن المحاماة ، فلم تكن هناك كليات لتخريج الحقوقيين ، لكن المهنة تتوارثها

العائلة ، حتى غدا ذلك سمة لها ، نذكر مثلاً : محمد بن علي بن يحيى كـان وكيل عند ابواب القضاة في العراق ، هو وابوه ، وجده ، وجد ابيه •

لقـد اعترفت بعض المصـادر البغدادية بالمقـدرة الفائقـة والنجاح المسـتمر لبعض الوكلاء في العراق ممن يوفقون في كـل قضية يترافعـون بها امام القضاة ، نذكر منهم : احمد بن المحسن الوكيل(ت٤٤٧هـ/١٠٥٥م)قال عنه ابن الجوزي : كان عالما بالوكالة والشروط متبحراً في ذلك حتى ضرب به المثل في الوكالة • وكان فيه ذكاء مفرط ودهاء غالب •

الفارض

لا ريب ان المواريث وتقسيمها بين مستحقيهـا شـغلت مكانة مهمة في واجبات القاضي ، وقد انـاب عنه خبيراً في قسمتها هـو الفارض او فارض المواريث ، احد موظفي المحكمة ، يتقاض راتبا مقداره ١٠٠ درهم في الشهر •

خازن ديوان الحكم

وهو الذي يتولى وظيفة حفظ وثائق وسجلات وكتب المحكمة ، والظاهر انه يتولى مهمة هامة في حفظ وثائق حقوق الناس واملاكهم ، دفعت الخلفاء في عهودهم لقضاء العراق ، ان يكرروا تأكيدات في ان يختاروا لوثائق المحكمة (خازنا يؤدى الامانة فيه ، ويتوخى الديانة وتقتضيه) •

الاعـوان

هناك طائفة صغيرة من الموظفين يساعدون الدائرة في عملها ويقدمون كل عون يحتاجه القاضي ، نذكر منهم : الحاجب ، وهو الذي ينظم دخول الناس على القاضي ويقوم بمهمة السكرتير • والمدير ، وهو الذي يدير السجلات التي حكم بها القاضي على الشهود حتى يكتبوا فيها شـهاداتهم • والجلاوزة ، وهم اشبه مايكونون بالشرطة القضائية ، يرعون هيبة القاضي عند المرافعـة وربما ادبوا بعض من يحاول التجاوز على مكانة القاضي •

القاضي ينظر في دعاوي الخصوم

جلوس القاضي للحكم

يداوم القاضي في العراق في دائرته (المحكمة) مرتين في اليوم صباحاً وحتى الظهر ، وعصرا حتى المساء ، والجمعة عطلته . وهو يحضر الى مجلس الحكم صباحا ، راكبا بغلته ، لابساً السواد الزي الرسمي للدولة وعليه العمامة والطيلسان (الجبة) وقد جرت العادة في العراق ان يلبس القضاة العمائم السود والطيالسة السود .

واذا دخل القاضي مجلس الحكم يستحسن ان يكون جلوسه في صدر المجلس ليعرفه الداخل عليه ببديهة النظر ، ولا يجلس على الارض بلا بساط ، بل يفترش بساطا يختص فيه بمقعد ووسادة لا يشاركه غيره فيهما .

ويفتتح القاضى جلسة الحكم بالصلاة ركعتين ، يدعو بعدهما بالتوفيق والتسديد ، يطمئن في جلوسه متربعاً .

سير الدعوى

ينظر القاضي في دعاوى الخصوم حسب تسلسل حضورهم في المجلس ينظم ذلك حاجبه.ويجلس طرفي الدعوى امامه المدعي والمدعى عليه، ويستمع من المدعي بينته ليثبت حقه ، كما يسمع من المدعى عليه الاقرار او الانكار ، فاذا اقر فقد ثبت عليه الحق بأقراره ، واذا انكر ما اتهم فيه فان القاضي يطلب من المدعي اثبات بينته لان (البينة على من ادعى واليمين على من انكر) قاعدة وضعها الرسول العظيم محمد (ص) واقر تطبيقها خليفته ، ومهندس دولته ، عمر بن الخطاب (رض) في رسالته لابي موسى الاشعري . واذا لم يكن للمدعي بينة ، فله ان يطلب من القاضي اليمين ، فاذا طلبها استحلف القاضي المدعى عليه ، وبرأه .

تولى القضاء في العراق قضاة كبار ، اشتهروا بمقدرتهم الفائقة في دراسة

ما عرض عليهم من قضايا،واصدار الاحكام الصائبة عليها،من هؤلاء نذكر مثلاً ابا يوسف القاضي صاحب الامام ابي حنيفة ، وصفه الخطيب البغدادي بأنه كان : افقه اهل عصره ، ولم يتقدمه احد في زمانه ، وكان النهايــة في العلــم والحكم والرياسة والقدر ، واول من وضع كتاباً في اصول الفقه على مذهب ابي حنيفة ، واملى المسائل ونشرها وبث علم ابي حنيفة في اقطار الارض .

كان ابو يوسف على قضاء مدينة المنصور ، يرفع اليه سكان بغــداد دعاويهم ، المسلمون وغيرهم ، فاذا وجب على المسيحي اداء اليمين ، ارسله ابو يوسف مع احد اعوانه الى البيعة والكنيسة يستحلفه فيها . لقد فضلوا الرجوع في دعاويهم الــى القضاة العــرب دون رؤسائهــم الروحيين ، لان معاملة القضاة لهم كانت احسن وافضل من القانون المفروض عليهم في بعض المحاكم الكنسية . وكما لجأوا الى القضاة العرب ، لجأوا الى صاحب المظالم في بغداد لعرض بعض ظلاماتهم . وقد ذكرت المصادر المسيحية ، استجابــة صاحب المظالم لهم ، واعادة حقوقهم وأموالهم (راجع اخبار بطاركة كرسي المشرق ص ٨٩ ، ٩٣) .

يستدعي القاضي الخصوم للحضور الى مجلسه بواسطة خاتمه وكــان اهل العراق يتهيبون رد الخاتم وعــدم الاستجابة له ، ويستثنى من ذلــك بعض المتنفذين من كبار رجالات الدولة ، فكان القاضي في مثل هذه الحالات لا يجد غير التهديد باعــلان اعتزاله مــن القضاء فيختم قمطره ويعتكف في منزله (وكان القمطر حقيبة جلدية تحفظ بها اوراق القاضي وخاتمه ، ويــدل ارجاعها الى المسؤولين على اعتزال القاضي) .

مثال على ذلك : كان عمر بن حبيب على قضاء الرصافة لهارون الرشيد فأشتكى اليه رجــل على عبدالصمد بن علي (عم الرشيد) فاستدعاه القاضي فأبى ان يحضر مجلس الحكم ، فختم عمر بن حبيب قمطره وقعد في بيتــه ، فرفع ذلك الى هارون الرشيد ، فارسل اليه يسأله .

الرشيد : مامنعك ان تجلس للقضاء ؟

القاضي : استدعيت رجلاً الى المحكمة فلم يحضر مجلسي •

الرشيد : ومن هـو ؟

القاضي : عبدالصمد بن علي •

الرشيد : والله لا يأتي مجلسك الا حافيا ، وكان عبدالصمد شيخا كبيرا فجعل يمشي ويقول : اتعبني امير المؤمنين ، فلما دخل على القاضي أجلسه مع خصمه وحكم عليه •

اما اسماعيل بن اسحاق قاضي جانبي بغداد ، ومقدم القضاة فيها سنة ٢٦٢هـ/٨٧٥م ، فقد اسهب الخطيب البغدادي في مقدرته القضائية (فأما مكانته في القضاء وحسن مذهبه فيه وسهولة الامر عليه فيما كان يلتبس على غيره فشيء شهرته تغنى عن ذكره) •

وابو عمر القاضي محمد بن يوسف ، تولى القضاء في اكثر مدن العراق (بحدود سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م) كان في الاحكام لا نظير له عقلا وحلما وذكاء، وتمكنا مع معرفة دقيقة في فن القضاء ، وحسن التأني في اصدار الاحكام•راقب احكامه فقهاء العراق زمنا فما عثروا عليه بخطأة واحدة • وقد رفض ابو عمر ان يصدر حكماً يحابي فيه احد كبار دار الخلافة ، فلما ضغطوا عليه ردهم (هذا مما لا يجوز عندي في الحكم ، ولو عرضت علي السيف لم اجب الى محال في الحكم) •

لقد اشتهر بعض قضاة العراق بخشونة في الحكم ، لكن هذه الخشونة، كانت لا تخرجهم عن قواعد العدالة وسلوكها ، فأحمد بن اسحاق بن البهلول الانباري (ت٣١٨هـ /٩٣٠م)ولي القضاء في بغداد ، وغيرها من مدن العراق، عشرين سنة ماعرف عنه جور في حكم اصدره •

ومن المواقف الشجاعة لقضاة العراق موقف قاضي الانبار الشامي فقد طلب منه احد الحكام البويهيين ، ممن اشتهروا بالتعسف والاستبداد في

العراق ان يحابي في الحكم احد اتباعهم فأرسل اليه امرأ يقول : يطلب منك محمد العجمي ان تتوقف عن انفاذ الحكم فرد عليه بغضب (قل لمن ارسلك ان محمداً العربي (ص) لا يرضى ان نحابي احداً في الحكم) ولهذا السبب طلب القاضي من الخليفة تعهدا الا يجبر (على فعل ما لا يقتضيه الشرع) ٠

ويحكم قضاة العراق معتمدين على كتاب الله ، وسنة رسول الله (ص) مع مراعاة الاجماع ، وما لدينا من عهود لقضاة القطر صادرة من دار الخلافة تؤكد ذلك فكلها تجمع على ان اصول الحكم انما تستند على تلك القواعد ٠

ويحق لطرفي الدعوى ان يوكل كل واحد منهما وكيلا يترافع نيابة عنه امام القاضي ، على ان تثبت الوكالة امام القاضي ، ويكون الوكيل معترفا به في سجلات المحكمة ، وكثرة مالدينا من اسماء الوكلاء ، على ابواب القضاة يشير بوضوح الى انتشار واتساع نطاق هذه المهنة في المحاكم العراقية يومذاك ٠

لقد اعترفت المصادر التاريخية المهتمة باخبار القضاة والمحامين ، بالمقدرة الفائقة ، والدهاء المتمكن لبعض الوكلاء ، حتى ذاع صيتهم في العراق ، فكان الناس يقصدونهم في بغداد ، لحسم بعض الدعاوى في الموصل ، او بابل نذكر منهم احمد بن المحسن بن محمد ابن علي الوكيل (ت٤٤٧هـ/١٠٥٥م) ذكر من براعته ودهائه ان رجلا طلق امرأته فتزوجت بعد يوم فجاء الزوج المطلق الى القاضي عبدالله البيضاوى ، وكان يلي القضاء بربع الكرخ ٠ فقال له : طلقت آمس ، وتزوجها اليوم ، فاستدعاها القاضى فورا الى محكمته ، لكن المرأة مضت الى الوكيل ابن محسن واعطته مبلغا من المال جيدا ، فجاء الى القاضي يدافع عن موكلته ٠

قال له : ياسيدنا القاضي ، الله الله لا يسمع الناسّ هذا ويظنون انت لا تعرف هذا القدر ، فقال له القاضي : طلقها أمس وتزوجت اليوم فأين العدة

يا حضرة الوكيل ؟ فرد الوكيل : هذه كانت حاملا فطلقها أمس ، ووضعت البارحة ، ومات الولد ، فتزوجت اليوم ، فسكت القاضي وتخلصت المرأة .

واذا اراد القاضي ان يصدر الحكم بعـد الفراغ من دراسته للقضية فلابد ان يسجل مانصه : قضيت او انفذت عليك القضاء . علـى ان يكون اسجاله للحكم بأسـم قاضي القضاة ، فأن شغر منصبه اسجل باسم الخليفة وبأذنـه .

والظاهرة البارزة في احكـام قضاة العراق ندرة تعرضها للنقض ، او الاستئناف ، ولعل مرجع ذلك تمرسهم في القضاء واستيعابهم للدراسات الفقهية واحكامها القضائية . اضف الى هذا رغبة الدولة ، في عدم تعقب القاضـي لأحكام من سبقه من القضاة وامضاء (ما امضاه قبله الحكام ، من القضايـا والاحكام غير منعقب احكامهم بنقض ولا تبديل) .

ان دراسة سير الدعاوى في المحاكم العراقية يشير الى دقتهـا ، وسرعة البت بها ، وهي تسجل عادة بنسختين ، نسخة تعطى للمدعي ، وتحفظ الثانية في سجلات المحكمـة .

٢ ـ القضـاء الاداري (النظـر في مظالم الرعية)

اقيست هذه المؤسسة لانظـر في شكاوى الشعب ضد رجـال الادارة والحكم في الدولة ، وترجع اولياتها الى عهد عمر بن الخطاب ، كما نظر فيها علي بن ابي طالب ، وهو اول من شيد لها بناية خاصة ، غرفة بسـيطة يرمي الناس من شباكها ظلاماتهم من موظفي الدولة . والظاهر انها تبلورت اكثر في العصر الاموي ، فكان عبدالملك بن مروان اول من افرد لها يوما للنظر في شـكاوى المتظلمـين .

ونالت هذه المؤسسة في العصر العباسي اهتماما اداريا كبيرا من قبـل الخلفاء انفسهم ، مارسوا من خلالها سلطة قضائية واسعة ، ويعد ابو جعفـر

المنصور اول من عين في بغداد موظفا لهذه المؤسسة ، هو الحسن بن عمـــارة ، وفي خلافة المهدي(١٥٨ــ١٥٩هـ /٧٧٤ــ٧٧٥م) عين ابن ثوبان في وظيفة المظالم ، فكان يجلس للناس بالرصافة يستلم مظالم الناس وشكاويهم من كافة انحاء القطر ، فاذا ملأ كساءه رقاعا رفعها للمهدي لينظر فيها .

ان مؤسسة (النظر في مظالم الشعب) مؤسسة قضائية يمارس فيهـــا صاحب المظالم (الخليفة او الوزيـــر) سلطة قضائية واسعة ، تفـــوق سلطة القاضي ، فهي اشبه ماتكون بالقضاء المستعجل ، تعالج من خلاله الكثير من تجاوزات المؤسسات الادارية على الشعب خاصة في نطاق زراعة الاراضي ، وتوزيع المياه والضرائب على الحرفيين والعمال الصناعيين خاصة .

لقد تجنبت هذه المؤسسة اجراءات الدعوى ، واشكالات التنفيذ التي ترافق القضاء الاعتيادي ، مما دفع الناس الـــى اللجوء لها لحسم الكثير من قضاياهم مع رجالات الدولة ، اعتبارا من الخليفة نفســـه والى اصغر موظف للجباية في القرى الصغيرة . والجدير بالملاحظة ان الخليفة العباسي كان لا ينظر في شكاوى المظالم الموجهة الى جهته ، أو الى أحد أفراد اسرته ، وانما كان يحيلها الى احد قضاته لينظر فيها . وقد حدث مثل هذا مع المنصور والرشيد والمأمـــون .

يجلس الخليفة في دار الخلافة ، في يوم محدد من الاسبوع ــ خصص المأمون لها يومين في الاسبوع الجمعة والاحد ــ فيعرض عليه (صـــاحب الحوائـــج) مظالم الناس حسب تسلسل استلامها ، وهـــم حضور امامه ، ويستغرق حسمها كثيراً من الوقت فالطبري يذكر ان الخليفة الهادي كان (لم يزل ينظر في المظالم الى الليل) وبعد ان تقرأ عرايض الناس من اولها الـــى اخرها ، يأمر الخليفة في التوقيع فيها ، على شكل هامش ، ثم تحرر العريضة بنسختين ، تختم الاولى وتدفع إلى صاحبها ، بينما تبقى الثانية في ديـــوان

المظالم ، ليتابع موظف مختص تنفيذ اوامر الخليفة بحق الموظف الذي رفعت الظلامة ضده ٠

كانت بغداد عاصمة الدولة العربية ومنارا لحرية الفكر والعدل ستة قرون ، يأتيها الناس من سمرقند ، والاندلس والشام ، ومصر ، والموصل ، وسامراء ، يشكون مظالمهم لرئيس الدولة ، هذا يتظلم من الامير ، والاخر من عامل الخراج ، كما تظلموا من القضاة ، والشرطة ، وانصب كثير من الشكاوى على الوزراء ، فقد تعسف وكلاؤهم واغتصبوا بعض حقوق الناس ٠ واوامر الخليفة في رفع هذه المظالم لا تقبل غير التنفيذ الفوري ٠

فدور هذه المؤسسة اذن ، دور خطير وحاسم تصدت فيه الى قضايا خطيرة جابهت المكانة الادارية للدولة واستطاعت بما تملك من قوة النفوذ والسلطة التصدي لها وعلاجها بسرعة ٠ لذا اطلقت المصادر على المكان المخصص لجلوس رئيس الدولة (الخليفة) الذي ينظر فيمظالم الشعب الموجهة لموظفيه اسم (دار العدل) ٠

٣ ـ القضاء الجنائي

فرضت الدولة العربية على بعض الجرائم عقوبات محددة سميت بالحدود ، مثل حد السرقة ، بينما فرضت على البعض الاخر عقوبات سميت بالقصاص ، وتركت بعضها بلا عقوبات محددة ، ترك تقديرها للمسؤولين تسمى بالتعزيرات ٠

فرض هذه العقوبات على مستحقيها كل من القاضي ممثلا للسلطة القضائية ، وصاحب الشرطة ممثلا للسلطة التنفيذية ، فلم يكن في صدر الاسلام (العهد الراشدي والاموي) فصل دقيق بين السلطتين ٠ لكن الاتجاه العام ، ومنذ بداية العصر العباسي صار يميل الى اعطاء الشرطة صلاحيات اوسع في التطبيق وتنفيذ القانون الجنائي بين الناس ، لان الشرطة

اكثر تحررا من القاضي في معالجة هذه الجرائم وحسمها ، فالقضاة لا يقضون الا بما ثبت عندهم في مجلس القضاء ، والاثبات هذا يقع عبؤه على المدعي ، اذا لم يقر المتهم اقرار صريحا بما اتهم به • اما الشرطة واعوانهم فلهم من الصلاحيات الشيء الكثير للحصول على الاقرار ، وتثبيت عوامل الامن والاستقرار •

وقد ظهرت وتنامت مؤسسة الشرطة في السنين الاولى من العصر الاموي (٤١-١٣٢هـ/٦٦١-٧٤٩م) وقد منح صاحب الشرطة صلاحيات واسعة ، قد تصل الى حد ايقاع عقوبات صارمة خلال فترة الاضطرابات ، لكن مثل هذه الحالات نادرة جدا •

تطورت المؤسسة في العراق في العصر العباسي ، ووصل عدد افرادها الى عدة الاف ، حتى انها اشتركت الى جانب الجيش في عدة حروب ، ومع ان اجهزة الشرطة سميت في عصور لاحقة بالمعونة ، او الشحنة ، لكن نطاق نشاطها بقى محصورا في دائرة الامن والجنايات ، والمصادر تشير بوضوح الى سعة هذا النشاط وفعاليته في المجتمع يومذاك • والى جانب مؤسسة الشرطة ، كانت هناك مؤسسة اخرى تابعة ومكملة لها هي مؤسسة السجون •

٤ ـ احكام السوق

نشطت الحياة الاقتصادية في العراق منذ القرن الهجري الاول ، ورافق هذا النشاط اتساع حركة التجارة الداخلية بين مدن العراق ، والاقاليم المجاورة • وكانت الاسواق على تعدد انواعها خير مظهر للحياة الجديدة • لقد اوجدت وظيفة (العامل على السوق) اي الموظف المشرف على نشاط السوق وسير عمل اصحاب المهن والحرف فيه ، لتنظيم هذا المرفق الحيوي ذا الصلة الوثيقة بحياة الناس ورزقهم • والمصادر توضح ان الوظيفة ظهرت بدايتها في العراق ، في العصر الاموي ، ثم تنامت في العصر العباسي ، لكن الموظف المسؤول عنها صار يسمي بالمحتسب بدلا من (عامل السوق) •

نظمت الدولة الاسواق في العراق تنظيماً دقيقاً ، فكان لكل حرفة او بضاعة سوق خاص بها ، ومع انها لم تحد او تقيد النشاط الخاص ، لكنها اشرفت من خلال المحتسب على مشاكل السوق . وخصوماته وقضاياه . فالمحتسب مارس في السوق سلطة الحكم ، وفصل الخصومات بين الباعة دون ان يتسمى بالقاضي . وكان اعتماده في ممارسة سلطته على الاعراف والتقاليد السائدة في السوق . والتي اكتسبت على مر الزمان قوة ونفوذ القانون ، ومع ان اصحاب الحرف والصناعات ، اعلم من غيرهم بالتقاليد السائدة في اسواقهم ، الا ان المحتسب كان يقوم بدور المنظم والمشرف في حسم كثير من الامور . معتمداً على نفوذه الرسمي ، وعلى الاعوان التابعين له .

القضاء الخاص

وهو يتولى مسؤولية النظر في دعاوي فئة خاصة من الناس ، لا يلجأون في حل خصوماتهم الى القضاء العام ، فلهم محاكم خاصة بهم ، يتولاها قاض خاص يصدر امر تعيينه من رئيس الدولة ، وتحدد سلطته بموجب (عهد) يصدر له .

١ ـ القضاء العسكري

يتولى هذا النمط من القضاء قاض يعينه الخليفة يسمى بـ (قاضي العسكر) وهو يرافق الجيش، ويحسم مايظهر فيه من خلافات . ظهرت الوظيفة في العراق ، في معركة القادسية ، حين ولى عمر بن الخطاب ، سلمان بين ربيعة الباهلي وظيفة (قاضي الجند) . والظاهر ان المؤسسة استمرت الى العصر العباسي، حيث عين الخليفة الرشيد (علي بن ظبيان العبسي) على قضاء العسكر، وصار عرفاً ان تحال الدعوى الى قاضي العسكر اذا كان حد طرفي الدعوى من الجند .

٢ ـ قضاء الطالبيين

كان لاهل بيت الرسول ، من آل ابي طالب ، قضاء مستقل بهم يتولاه نقيبهم الذي يعينه الخليفة العباسي،ولدينا كتاب عهد بتقليد ابي احمد الحسين ابن موسى نقابة الطالبيين في العراق سنة ٣٥٤ هـ ، ويتضح من هذا الكتاب ان النقيب هو الذي يقضي ويحكم في النزاع بين سائر افراد الشعب .

٣ ـ قضاء اهل الذمة

كان العراق ، ومنذ العهد العباسي مركزاً وقاعدة لدولة عربية عظيمة ، ضم بالاضافة الى العرب وهم مادة الاسلام ، شعوباً اخرى كانت تدين بديانات مختلفة كالاسلام ، مصدرها الله تعالى مثل اليهودية والمسيحية .

ويمكن ان نقرر بهدوء وموضوعية ان هذه الديانات وجدت في الدولة العربية مناخا حضاريا صحياً ، افضل بكثير مما عانته قبل حكم العرب ، بدليل النهوض الحضاري ، والازدهار الاقتصادي ، والرقي الفكري والمعاشي لهذه الشعوب في ظل العهد الجديد للعرب .

والظاهر ان هذه الروح العالية في التعامل مع غير المسلمين ، هي التي دفعت كثيراً من اليهود والنصارى (اهل الذمة) الى تعلم العربية ، والتكيف مع الحياة العربية .

وتشير المصادر الى تولية رؤسائهم الروحانيين مهمة القضاء في السنين الاخيرة من الدولة العباسية بعهد من الخليفة نفسه . لقد تركت لهم الحرية التامة في اللجوء الى القضاء العام ، الذي يحتكم له الناس او الى قضاتهم الخاصين بهم . اما تفسير ذلك فيوضحه المستشرق هل بقوله : كان اليهود والنصارى في العراق (يتمتعون بالحرية التامة في العبادة والحياة الخاصة بهم) .

٤ ـ محكمة خاصة بامن الدولة .

هذه المحكمة تشكل بأمر من الخليفة لمحاكمة بعض كبار المسؤلين في

السلطة العليا للدولة ، او لمحاكمة بعض من اتهموا بالانحراف او المروق عن الدين بشكل يهدد أمن الدولة واستقرار المجتمع .

ان مثل هذه المحاكم تحل بانتهاء المهمة الموكلة اليها ، وهي الوحيدة المؤلفة من عدة قضاة ، ومن اتجاهات فقهية متعددة .

الادارة القضائية في العراق

ا - الوحدات القضائية

في صدر الاسلام اعتمد التنظيم الاداري للدولة على نظام الامصار .ومن هنا كانت البصرة مصرا عظيما ترتبط فيه مناطق ومدن كبيرة تمتد من الخليج العربي حتى تصل الهند ، وتخضع اداريا الى امير البصرة . وكانت الكوفة كالبصرة مصرا كبيرا ارتبطت فيه مدن كثيرة . والظاهر ان التنظيم القضائي سار على هذا النهج فالدولة تعين قاضيا على البصرة ، وتعطيه صلاحية تعيين قضاة المدن والكور الاخرى ، هؤلاء القضاة يرتبطون بقاضي المصر ، ويتبعون توجيهاته . وهم في سلم التدرج الاداري اقل مرتبة من القاضي الاصيل الذي اتخذ المصر مقرا له ، حتى ان بعض قضاة الامصار كانوا يلزمون قضاة المدن الصغيرة بمراجعتهم ورفع محاضر الدعاوي لهم مباشرة ، فقاضي المدينة الصغيره يعمل محضرا في الدعوى ، يذكر فيها حجج الطرفين المدعي ، والمدعى عليه ، ويرفعها للقاضي في المصر ليبت فيها . وبعض الناس في القرى والارياف كانوا يقصدون البصره ، او الكوفة أوواسط بعد ذلك ، لرفع دعاويهم امام القاضي مباشرة . وكان القضاة في هذه المدن يعطون الاولوية في تسلسل الدعاوي لهؤلاء القادمين من الخارج ليتهيأ لهم الرجوع من حيث اتوا .

ثم ظهر تطور جديد في العصر العباسي ، حيث صارت بغداد عاصمة دولة عظيمة ، قاعدتها العراق ، واخذ الخلفاء يمارسون سلطتهم في تعيين

القضاة • فقضاة هذا العصر صار يسمون (قضاة امير المؤمنين) ، ويولون ويعزلون من جهته مباشرة ، هذا من جهة ومن جهة اخرى ، صارت الدولة تولي قضاة على جميع المدن العراقية تقريبا ، بحيث يمكن القول ان الوحدات القضائية في العراق ازدادت بشكل واضح وكبير في هذا العصر •

ولدينا قوائم باسماء قضاة هذه المدن تدلل على صحة ماذهبنا اليه ، ذكرها وكيع في اخبار القضاة والخطيب في تاريخ بغداد ، والقرشي في كتابه الجواهر المضية في طبقات الحنفية • نذكر منها : بغداد ، الموصل ، البصرة ، بابل ، الانبار ، تكريت ، هيت ، واسط ، اربيل •

وعند الربع الاخير من القرن الهجري الثالث ، اخذ عمل بعض قضاة بغداد يمتد ليشمل عددا من المدن العراقية فيوسف بن اسماعيل ولي سنة ٢٨٢هـ قضاء الجانب الشرقي من بغداد ، بالاضافة الى واسط والبصرة •

ويلاحظ ان بغداد ، كحاضره للدولة العربية ، كان يتولاها أكثر من قاض واحد ، وقد جمع استاذنا الفاضل د• صالح احمد العلي في بحثه (قضاة بغداد) قوائم متكاملة لهؤلاء القضاة على وحدات بغداد وهم :

أ ــ قضاة مدينة المنصور •

ب ــ قضاة الشرقية (الكرخ) •

جـ ــ عسكر المهدي (الرصافة)

د ــ قضاة باب الطاق •

هـ ــ قضاة باب الازج •

و ــ قضاة حريم دار الخلافة •

ز ــ قضاة باب النوبى •

ح ــ قضاة نهر المعلى •

مع ذلك ، كانت بغداد احيانا تقسم بين قاضيين الاول في الجانب الشرقي ، والثاني في الجانب الغربي ، بل انها جمعت في بعض الاوقات لقاض واحد

كما حدث لاسماعيل بن اسحق الذي تقلد قضاء بغداد باسرها سنة٢٦٣هـ/٨٧٦م وكان اوحده عصره في الفقه والعلم بشهادة المبرد ، واستمر على منصبه حتى وفاته سنة ٢٨٣هـ/٨٩٦م •

بعد وفاته قسمت بغداد الى ثلاث وحدات قضائية ، ارتبطت بها كثير من مدن العراق ، فيوسف بن يعقوب القاضي قلد قضاء الجانب الشرقي من بغداد ، وكلواذى ، ونهربين ، والنهروانات وكور دجلة وواسط مضافا الى ماتولاه من القضاء بالكوفة واعمالها ، وعلي بن محمد بن ابي الشوارب قلد قضاء مدينة المنصور وقطربل مضافا الى سر من رأى وتكريت وطريق الموصل ، وابو خازم قلد الشرقية وحدها •

والسؤال هنا ، كيف يوفق قاضي بغداد في القضاء والحكم بين سكان بغداد، بنفس الوقت الذي يكون فيه قاضيا على البصرة او تكريت او الانبار ؟ لقد استحدثت في الادارة القضائية العباسية في العراق لتلافي مثل هذه الحالات وظيفة الاستخلاف والاستنابة في القضاء •

ب ـ الاستخلاف والاستنابة في القضاء العراقي

ظهر مصطلح خليفة القاضي في الادارة القضائية للعراق في القرن الاول والثاني للهجرة ، اثناء غياب مؤقت للقاضي الاصيل ، وتنتهي مسؤولية القاضي المستخلف برجوع القاضي الاصيل من مهمته ، وممارسته لمسؤولياته من جديد • مثلاً على ذلك كان ابو يوسف القاضي يسافر مع الخليفة هارون الرشيد ، فيستخلف ولده يوسف على قضاء مدينة المنصور كما خرج يحيى بن اكثم مع المأمون خارج العراق ، فاستخلف على الجانب الشرقي جعفر بن عيسى ابن عبدالله • واذا اقتضت الضرورة ان يستخلف القاضي الاصيل اصدر الخليفة امره بتعيين خليفته ، وأمر الخليفة هذا يكسب المستخلف صفة (القاضي) المؤقت ، يذكر عريب مثلا في (صلة تاريخ الطبري) ان عبدالله ابن علي بن محمد بن ابي الشوارب مرض ، فامر الخليفة المقتدر ابنه محمدا

(يتولى امور الناس خليفة لابيه حتى يظهر حاله ، ومايكون من علته ، فنظر كما ينظر ابوه . وانفذ الامر مثل تنفيذه) فكان محمد هذا خليفة ابيه علـى قضاء عسكر المهدي ، والشرقية ، والنهروانات ، وقصر ابن هبيرة ، والبصرة ، وكور دجلة ، وواسط ، والأحواز •

في القرون الاخيرة ـــ ابتداء من القرن الثالث للهجرة ـــ تبدلت مكانـة (خليفة القاضي) فصار يحكم ويقضي بين الناس ، وكأنه القاضي الاصـيل ، وبسبب هذا التطور ، عهدت الى القضاة في العراق ، خاصة قضاة بغداد ، وضينة القضاء في وحدات كثيرة ، ومتباعدة ، البعض منهم ولي قضاء بغداد بالاضافة الى دمشق او فلسطين ، فكان يولي عليها قضاة يتولون مهمة الحكم بين الناس ، وبشكل دائمي ، صحيح تسميهم المصادر (خلفاء القضاة) ولكن هؤلاء الخلفاء يمارسون سلطة القضاء ، وفصل دعاوى الناس ، كما لو انهم تولوا القضاء اصالة لاخلافة ، فخليفة قاضي بغداد في دمشق يقضي مـع وجود القاضي الاصيل ، فلم يكن الاستخلاف هنا ، نتيجـة لغياب القاضـي الاصيل عن منطقة عمله ، بل نتيجة لعجزه ، من الناحية العملية ، فكان يسير عمل الدائرة القضائية في دمشق ، ويتولى في الوقت نفسه قضـاء الكرخ ويقيم فيه • خليفة القاضي في حالة الغياب يعزل بعد عودة القاضي الاصيل الى مقر عمله مباشرة ، اما في الحالة الثانية فلايعزل الا بعزل القاضي الاصيل نفسه • وخليفة القاضي في الحالتين ، يحمل صفة القاضي ، فلايجوز ان يستخلف في القضاء من لايجوز ان يكون قاضيا •

ان المصادر تؤكد ان خلفاء القاضي ، لهم ان يحكموا ويسجلوا حكمهم في محاضر ، كما للقاضي الاصيل ، وفي عهد الخليفة المسترشد (٥١٢ـ٥٢٩هـ/١١١٨ ـــ ١١٣٤م) لقاضي القضاة الزينبي اشارة صريحة الى ذلك ، فـان الخليفة (امر ان يستخلف على مانأى عنه من البلاد من جمع الى الوقار الحلم،

والى الدراية الفهم ممن لا يضيق بالامور ذرعا ، ولا تحدث له مراجعة الخصوم ضجرا ولا تبرما .. وان يعهد له بمثل ماعهد امير المؤمنين عليه) .

وفي العصور العباسية المتأخرة صار لقضاة العراق ان يعينوا من ينوب عنهم في بعض المسؤوليات القضائية . وهؤلاء (النواب) ليسوا قضاة ، ولايحتاج الامر الى اخذ موافقة الخليفة على تعيينهم ، فالقاضي الاصيل هو الذي يحدد صلاحياتهم بنفسه . وبقاؤهم في مسؤولياتهم مرهون ببقاء من عينهم ، فهم يعزلون بعزله . يذكر ابن الفوطي في (تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب) ان احمد بن نصر بن الحسين الانباري (ت٥٩٨هـ/١٢٠١م) استنابه قاضي القضاة الشهرزوري في القضاء والحكم بحريم دار الخلافة ومايليه ، الا ان عزل قاضي القضاة المذكور سنة٥٩٠هـ/١١٩٣م (وعزل نوابه فأنعزل) .

ويظهر من دراسة نواب القضاة في العراق ، ان الاستنابة كانت على درجات ، فالقاضي الاصيل يحدد صلاحيات المستناب فلا يتعداها ، واكثرهم صلاحية من يفوض له سماع البينة ، وتدوين الحكم ، واعلانه بحضور الشهود العدول ، الذين يحضرون مجلسه بأذن القاضي الاصيل . كما خصصت استنابة بعض النواب بالنظر بقضايا معينة ، مثل محمد بن علي بن نصر الفقيه ، إستنابه قاضي القضاة عبدالرحمن بن مقبل (ت٦٥٠هـ/١٢٥٢م) في (عقود الانكحة والطلاق والديون) .

يتضح مما ذكرنا ان مراتب القضاة في العراق ليست على درجة واحدة من التساوي ، فقاضي القضاة اعلاهم مرتبة يوليه الخليفة ، ويسجل احكامه باسمه ، ثم يليه مرتبة اقصى القضاة ، وهذا المنصب ظهر في العصر السلجوقي (٤٤٧ـ٥٩٠ هـ/١٠٥٥ـ١١٩٣ م) عندما يشغر منصب قاضي القضاة . واكثر من تولوه رشحوا بعدئذ لمنصب قاضي القضاة ، مع هذا فأقضى القضاة يسجل احكامه باسم قاضي القضاة ، كبقية قضاة العراق ، ويلي اقضى القضاة رتبة

بقية قضاة العراق ، الذين خولوا حق الاستخلاف والاستنابة ، فخلفاء القضاة ونوابهم يشكلون المرتبة الرابعة في سلم التسلسل الاداري لقضاة الدولة .

جـ ـ الاشـراف القضـائي

من المعلوم تاريخيا ان السلطة في العراق ، كخط عـام حافظت علـى استقلالها ، وترسخت هذه الاستقلالية اكثر بما منحته الدولة للقضاة مـن حصانة ومكانة صانت قدسية الامانة التي منحت لهم للحكم والقضـــاء في حقوق الناس . وقد جلس الخلفاء انفسهم امام قضاة العراق ، يحتكمون لهم ، والمصادر تشير انهم قضوا اكثر من مرة على الخلفاء انفسهم ، فأنصاع هؤلاء لحكم الشرع واحترموه .

لكن هذا لا يعني ان الدولة تركت شؤون القضاء والقضاة دونما مراقبة او اشراف ، فالقضاء اصلاً من مهمات الخليفة ، يودعه ويخوله لمن يعتقد في اهليته ومقدرته للعدل بين الناس ، والقضاة يصدرون وينفذون احكامهم باسم الخلافة ، من هنا كان المنصور يتابع ويدقق فيما يقضي به قضـاة المـدن في العراق ، وبشكل تفصيلي ، يرفع له ذلك صاحب البريد في كل مدينة ، وهذا النهج سار عليه بقية الخلفاء العباسيين .

ولدينا معلومات موثقة تشير الى استياء القاضي من حضور صـاحب البريد مجلس حكمه ، ومراقبة مايدور في الدائرة القضائية ، وبعض القضاة في العراق امروا بطرد صاحب البريد من المحكمة ، مما اضطر الخليفة الـى التدخل لمعالجة هـذه الظاهـرة .

وتمت المعالجة بحكمة وروية ، فقد اوجدت الدولة منصب قاضي القضاة ، واعطته سلطة وزير العدل في ايامنا هذه فهو يختار القضاة ، من بين طلبة العلم ورواده فهو قاض مثلهم تربطـه اكثر من صلة ومعرفة بهم . لقد ادار قاضي القضاة المؤسسة القضائية بشكل امن للدولة الاشراف على الماكنة القضائية

وضمن للقضاة عدم خضوعهم او ارتباطهم مباشرة بالسلطة التنفيذية ممثلة بصاحب البريد •

مع هذا كان الناس ، اذا احسوا ظلما او تعسفا من القاضي ، واجهوا الخليفة مباشرة ، وعرضوا عليه مظلمتهم اثناء جلوسه للنظر في مظالم الشعب • فالقضاة اذن مع استقلالهم التام ، يخضعون بشكل واخر الى اشراف الدولة ، وهم اساسا من موظفيها • لكن هذا الاشراف لم يؤثر او يخل يوما على نزاهة القضاة واستقلالهم ، وهذه النزاهة اشتهر بها قضاة العراق ، حتى ضرب بهم المثل ، فذكر اليعقوبي في مفاخر العراق « •••ولااعدل من قاضيهم » •

ادب القضاة في العراق

آ ـ طلب القضاء

وضع الفقهاء الكثير من التحفظات على طلب منصب القضاء ، فمن المعيب عندهم ان يسعى العالم ، فيطلب هذا المنصب من الدولة ونجد النقاش في دوائر الفقهاء في طلب القضاء ، او حتى قبوله يمتد حتى العصور العباسية الاخيرة ، قال بعضهم : لاينبغي أن يطلب القضاء ، واذا ولي رجل بغير طلب منه فلابأس بان يقبل اذا كان يصلح لذلك الامر • وقد احتج من كره قبول المنصب باحاديث رويت عن رسول الله (ص) من شأنها ان ترهب القضاة ، حتى العادل منهم ، فعن ابي هريرة (ض) يروى قول الرسول العظيم (ص) : (من جعل قاضيا فكأنما ذبح بغير سكين) •

بعض كبار الفقهاء في العراق لم يطلبوا القضاء ، بل رفضوا عرض الدولة بقبوله ، على رأسهم الامام ابو حنيفة ، عرض عليه المنصب في العصر الاموي ، والعصر العباسي الاول فرفضه ، ويبدو لي انه كان يرى توظيفه مكانته العلمية المرموقة لخدمة طلاب العلم وتدريسهم ، افضل من قبول وظيفة

القضاء والتفرغ له ، بدليل انـه هيأ ودرس ، وعلم طلابه ، اصول القضاء ، وفن الحكم فيه ، فتولوه سنين لاحقة بجداره ومقدرة نادرتين .

والمصادر ، عندى لم تشر الى ان احـد طلاب العلم ، ورواده طلـب وظيفة القضاء من الدولة ، كانت الدولة هي التي تطلب منهم ان يشـغلوا المنصب ، وكثيرون منهم قبلوا المنصب بعد تردد طويل ، كان العلم شاغلهم ، وهمهم الاول .

ب ـ رواتب القضاة ((ارزاقهم))

كانت الدولة العربية تقـدر المكانة العلمية للقضاة فهم مسؤولون عن تطبيق العدل بين الناس ، لهذا اجزلت لهـم الارزاق لتوفر لهم حياة اجتماعية تليق بمكانتهم ومسؤولياتهم ، وبشكل عام تزايدت رواتبهم باستمرار ، ومع الرواتب كانت لهم بعض الجوائز ، فأبو جعفر المنصور اجاز القاضي محمد بن عمران بعشرين الف دينار . وكان رزق حفص بـن غياث في الكوفـة ٣٠٠ درهم فشكا للرشيد تخلف ارزاقه فبعث اليه ٥٠٫٠٠٠ درهـم وكان رزق قاضي واسط (ابو شيبة) في الشهر ١٥٠ درهما وثلاثون منها لكتابه واعوانه، فزادها الخليفة المهدي (١٥٨ـ١٦٨هـ /٧٧٤ـ٧٨٤م) فصارت ٣٠٠ درهم ، ثم زيدت فبلغت ٤٨٠ درهما .

وفي مراجعة لميزانية الدولة في عهد الخليفة المعتضد (١٧٩ـ١٨٩ هـ / ٧٩٥ـ٨٠٤ م) نجد ان رواتب اسحاق بن ابراهيم قاضي بغداد ، وخليفته يوسف بن يعقوب واولادهما وعشرة من الفقهاء خمسمائة دينار في الشهر .

بعض القضاة تولوا الوظيفة دون ان يأخذوا رزقا ، والظاهر ان وضعهم المالي كان اكثر من جيد ، فابن ام شيبان تقلد قضاء بغداد سنة ٣٦٣هـ /٩٧٣م، واشترط ان لا يرتزق عن الحكم ، لكنه حدد رواتب موظفيه ، فقرر لكاتبه في كل شهر ٣٠٠ درهم ، ولحاجبه ١٥٠درهما ، وللفارض على بابه ١٠٠ درهم ، ولخازن ديوان القضاء والاعوان ٦٠٠ درهم .

ج ـ ملابس القضـــاة

تنوعت البسة الناس في العراق كما تنوعت ازياؤهم ، فللجند زي خاص بهم وللكتاب زي خاص ، كما ان للفقهاء والعلماء ـ ومنهم القضاة ـ زيـا خاصا . وقد جرت العادة في العراق ان يلبس القضاة (العمائـــم الســـود والطيالسة السود) وقد اشار الصابي الى ذلك في حديثه عن ملابس ارباب المراتب في الدولة فذكر ملابس قضاة العراق : الطيلسان والدنيات والعمائم السود المصقولة . (والطيلسان يشـبه الجبة ، والدنية قلنســوة طويلـة ، والقلنسوة تشبه العرقجين الحالي) .

لبس قضاة العراق الطيلسان الاسود ، وهو الزي الرسمي لهم ، ادخله ابو يوسف (ت ١٨٢هـ/٧٩٨م) قاضي القضاة في الدولة العباسية ، كما لبسوا الطيلسان بحنك ، وهو زي اهل العلم . وكان العرف ان يخلع القاضي طيلسانه اذا نقل الى وظيفة غير القضاء . ولبس بعض القضاة مـع الطيلسان الجبة في الشتاء ، وقد خلع ابو جعفر المنصور على سوار القاضي (جبة وشـي وطيلســـان) .

وذكروا من ملابس قضاة العراق الطرحة (وهي تلبس فوق العمامة) فقد خلع على أقضى القضاة البخاري طرحة كحلية ، ورفـع الطرحـة عـن القاضي من علامات عزله . كما يرفع القضاة طرحاتهم عندما تعلن الدولة الحداد ، فلما توفي الناصر لدين الله سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م ، رفع (القضـاة والمدرسون والمشايخ الطيالس والطرحات) .

د ـ جلوسهم للحكـم

كانت مجالس القضاة في العراق ، تتسم بالبساطة ، وتبتعد عن مظاهر الفخامة ، فقاضي الشرقية على بن ضبيان العبسي كان يجلس على بارية ، وقد كتب له احد اصدقائه (بلغني انك تجلس للحكم على بارية ، وقد كان من قبلك من القضاة يجلسون على الوطاء ويكتبون فرد عليه : اني لاستحي

ان يجلس بين يدي رجلان حران مسلمان على بارية وإنا على وطاء ، لست اجلس الا على مايجلس عليه الخصوم .

ويلخص الطرابلسي (معين الحكام ص١٦) مايريده العلماء من القاضي وهو يجلس لتطبيق احكام العدالة بين الناس ان : يتوقى مايشينه في دينه ومروءته وعقله او يحط من منصبه وهمته ، فانه اهل لان ينظر اليه ويقتدى به ، وليس يسعه في ذلك مايسع غيره ، وليجتهد ان يكون جميل الهيئة ظاهر الابهة وقور المشية والجلسة ، حسن النطق والصمت محترزا في كلامه من الفضول ومالاحاجة به ، كأنما يعد حروفه على نفسه عدا فأن كلامه محفوظ . وليكن ضحكه تبسما ونظره فراسة ، واطراقه تفهما وليلزم من السمت الحسن والسكينة والوقار مايحفظ به مروءته فيكبر في نفوس الخصوم .

اضف الى ذلك ان على القاضي ان يكون فهماً عند الخصومة ، ولا يكون قلقا وقت الجلوس للقضاء ، ولاضجرا ، ولاغضبان ، ولاجائعا ، ولاعطشان لان هذه العوارض مما يشغله عن التأمل والانتباه لما يجري بين الخصمين ، وربما تبعده في حكمه عن الالتزام بقواعد الحق والعدل .

ان استعراض سجلات وحياة قضاة العراق تملأالانسان فخرا واعتدادا بهذا الجيل من رواد العدالة والحق ، لقد ملأوا مراكزهم ، فكانوا نموذجا للقاضي ، في شخصيته ، ونزاهته ، وفراسته ، وعمله ، ولو أردنا ان نكتب عن كل واحد منهم لاحتجنا الى سجلات لنكتب عن واحد منهم : محمد بن يعقوب ، ابو عمر القاضي الازدي ، ولي قضاء مدينة المنصور والاعمال المتصلة بها سنة ٢٨٤هـ/٨٩٧م وصفه الخطيب البغدادي : ابو عمر محمد بن يوسف في الحكام لانظير له عقلا وحلما وذكاء ، وتمكنا للمعاني الكثيرة باللفظ اليسير ، مع معرفته باقدار الناس ومواقعهم ، وحسن التأني في الاحكام ،

والحفظ لما يجري على يديه ، واذا بالغنا في وصفه كنا الى التقصير فيما نذكره من ذلك اقـرب •

هـ ـ المذاهب الفقهية للقضاة

كان القاضي في العراق يستند في حكمه وقراره الى اصول الحكـم الاربعة : القرآن الكريم ، والسنة النبوية المشرفة ، واجماع الامة ، ومن بعدها يجتهد رأيه • وكتب عهود القضاة في العراق ، الصادرة من دار الخلافـة ، كلها تؤكد اهمية الالتزام بهذه الاصول الاربعة • هذا النهج سـار عليه القضاة والتزموه طيلة سني صدر الاسلام (العهد الراشدي ، والاموي)

ثم شهد العصر العباسي الاول ظهور وتبلور المذاهـب الفقهية وكان ظهورها مرافقا لظاهرة تدوين المدونات الفقهية التي سهلـت للقضاة مهمـة اصدار الاحكام وفق مقتضيات الشريعة ، فكان القاضي يتبـع الفقيه فيما يدونه ، ففي هذا العهد ارتفع شأن الفقيه ارتفاعا عظيما وقل شأن القضاة ، يقول العلامة السنهوري : اصبح رجل هذا العهد هو الفقيه ، ففيـه تركزت حركة الاجتهاد وعنه صار العرب والمسلمون يأخذون شريعتهم ، وسـاعد على ذلك ان تم تدوين الفقه في هذا العهد ، وان الدولة القائمة هي الدولة العباسية ، وهي الدولة التي اصطبغت بالصبغة الدينية ، واخذت بيد الفقيه ورفعته الى اعلى الدرجات •

لقد رفع الفقهاء في هذا العصر اسس الفقه العربي الاسلامي وقد انقسم هذا الفقه الى مدرستين: مدرسة اهل الحديث وقد تركز مذهبهم في الامام مالك فقيه مدينة الرسول واهل الحجاز ، ومدرسة اهل الرأي ، وقد تركز مذهبهم في ابي حنيفة ، فقيه الكوفة ، واهل العراق • وقد نشب الخلاف العلمي بين المذهبين ، كما ينشب بين مدرستين علميتين ، لكل منهما منهج خاص ، وطرائق خاصة في الاستنباط والتفكير ، وقد انعكس هذا الخلاف بصورة واضحـة على احكام القضاة فكان مدعاة لمحاولة المنصور ادخال فكـرة (التقنين

والتشريع) في المؤسسة القضائية للدولة العباسية الا ان المحاولة فشلت ، لمعارضة الامام مالك لها .

توجه العباسيون في السنوات الاولى نحو المدينة ، وهذا امر طبيعي ، فهم رغبوا ـ كما قالوا ـ في احياء سنة الرسول فكان لابد من التوجه نحو مدينة الرسول ، دار السنة ومركز اصحاب الحديث وعلى رأسهم مالك بن أنس .

كان غالبية القضاة في عهد المنصور من المدينة منهم يحيى بن سعيد الانصاري ، قاضي بغداد ، لم يكن في مدينة الرسول بعد كبار التابعين اعلم منه ، كما استدعى المنصور ربيعة الرأي استاذ مالك لتولي القضاء . لقد ادرك المنصور ان الدولة العباسية في بدء تأسيسها بحاجة الى الصرامة ومذهب مالك اقرب الى هذا الاتجاه من مذهب اهل الرأي . وعلى نهجه سار من تبعه من الخلفاء العباسيين ، وحتى عهد خلافة الرشيد .

في عهد الرشيد ، وبعد ان استقرت الافكار والنزعات ذات الجذور القديمة في العراق ، كان المذهب الحنفي اكثر مرونة وانسجاما مع الوضع الجديد ، واكثر مقدرة على تلبية حاجات الدولة في مختلف مؤسساتها القضائية ، وحاجات الناس في معاملاتهم ومعاشهم . فرسخ نفوذه اكثر ، وكان ذلك على يد ابي يوسف ، تلميذ ابي حنيفة البارز ، والمؤسس الفعال للمذهب الحنفي في العراق .

ابو يوسف القاضي ، من عرب الجنوب اصلا ، من الانصار في مدينة الرسول ، انتقل من الكوفة الى بغداد ، حيث توثقت علاقته بالخليفة الرشيد ، ووضع له كتاب الخراج في مخاولة لتنظيم مالية الدولة العباسية . ويلاحظ ان ابا يوسف وجه خطابه للرشيد في مقدمة كتاب الخراج ، ويبين له بصراحة المبادىء التي تقوم عليها حكومة عربية وصحيحة تهتدي بسنة الخلفاء الراشدين

وسيرة عمر بن عبد العزيز ، وفي هذا مقاومة ضمنية للاخذ بالموروث الساساني .

ومن الطبيعي ان يحرص ابو يوسف على نشر مذهبه ، بعد ان اصبح تعيين القضاة راجعا اليه من خراسان الى افريقية وقد نجح في ذلك نجاحا ملحوظا ، لكن انتشار المذهب ، لايرجع لكونه مذهبا رسميا للدولة ، كما توهم بعض المؤرخين ، بقدر ما يرجع الى جهود ابي يوسف فلم يقلد ببلاد العراق والشام ومصر الا من اشار به القاضي ابو يوسف ، فكان نتيجة لذلك ان (فشا مذهب ابي حنيفة ببلاد المشرق) .

لقد توجه العلماء الاحناف ، توجها ذكيا نحو المؤسسات القضائية ، فقد وجدوا فيها ميدانا علميا لترسيخ مذهبهم ووسيلة لاشغال وظائف رسمية تدر ارزاقا ثابتة ، وتخدم الدولة والامة ، ولعل هذا النمط من التناسق بين الدراسات الفقهية النظرية وتطبيقاتها في المؤسسات القضائية هو الذي اكسب المذهب الحنفي مرونته ومقدرته في الاستنباط والاجتهاد في الاحكام .

ان الدولة بحاجة الى قضاة يتقنون الشريعة وينالون رضا الناس عن احكامهم وقد سد الاحناف هذه الحاجة ، والطريف ان القرشي في كتابه (الجواهر المضية في طبقات الحنفية) يذكر اثني عشر تلميذا حنفيا تنبأ لهم ابو حنيفة بالقضاء فتولوه فعلا في مناطق شتى من الدولة العباسية خاصة العراق ، حتى صار (الغالب على فقهاء هذا الاقليم وقضاته اصحاب ابي حنيفة) كما اشار المقدسي في : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ص١٢٧ .

مع هذا فلم يكن جميع القضاة في العراق من الاحناف ، فمنذ ان تأسست بغداد تبوأ الوظائف في العراق قضاة ينتمون الى مذاهب مختلفة منهم المالكيون ، والشافعيون ، لكن اصحاب الشافعي جاءوا متأخرين ، في

مطلع القرن الثالث للهجرة ، عندما تولى ابن سريج القضاء فعاتبه ابن خيران الشافعي بقوله (هذا الامر لم يكن فينا وانما كان في اصحاب ابي حنيفة) • اما الحنابلة فكان دورهم بعد الحنفية والشافعية ، فلم يتقلدوا القضاء في العراق الا في العصور العباسية المتأخرة ، وقد عبر عن هذه الحقيقة بمرارة شيخ الحنابلة علي بن عقيل حين قال : هذا المذهب إنما ظلمه اصحابه ، لان اصحاب ابي حنيفة والشافعي اذا برع واحد منهم في العلم تولى القضاء وغيره من الولايات ، فكانت الولاية لتدريسه واشتغاله في العلم ، فاما اصحاب احمد فانه قل منهم من تعلق بطرف من العلم الاويخرجه الى التعبد والتزهد لغلبة الخير على القوم) ومع هذا فمن الضروري الاشارة فيما يتعلق بالمذاهب الفقهية لقضاة العراق الى الامور التالية :

أ ـ كان غالبية القضاة من الاحناف ، والشافعية ، والمالكية والحنابلة والبعض منهم لم يعرف عنه اتجاه فقهي معين •

ب ـ كانت هنالك اتجاهات فقهية اخرى ، ومهمة ، لكنها عزفت عن قبول القضاء ، وتفرغت للعلم والتدريس ، فلم نذكرها •

جـ ـ حتى القضاة ذوى الاتجاهات الفقهية ، لم يجعلوا المذهب طوقا لاحكامهم وقراراتهم • كانوا ذوي نزعة حرة في التفكير والاجتهاد ، والبعض منهم جوز الحكم بخلاف مذهبه ، مراعاة لمصالح الناس •

د ـ الدولة العباسية ، في سياستها العليا ، كانت مع الايمان والتوحيد وضد الالحاد والزندقة التي نشط وتوثب في مدارسها الفرس خاصة ، لكنها لم تلزم نفسها باتجاه فقهي معين • كان الاسلام دين الدولة

الرسمي ، ولم يكن هناك مذهب رسمي • ورعيت كل الاتجاهات الفقهية في اطار شرعية الدولة ، وترسيخ مبادىء الاسلام • من هـذا المنطلق لم تفرض الدولة او تؤثر عـلى قضاة العراق لان يقضـوا وفق مذهب معين ، لانها اساسا لم تعترف (بوجود مذاهب تستلزم تعدد القضاة) كما اشار استاذنا الدكتور صالح العلي (قضاة بغـداد ص١٠)•

المصادر والمراجع

الباجي ، سليمان بن خلف .
كتاب الحدود في الاصول (بيروت ـ ١٩٧٣م)

التميمي ، تقي‌الدين بن عبدالقادر
الطبقات السنية في تراجم الحنفية

ابن جزي ، محمد بن احمد
كتاب القوانين الفقهية (فاس ، ١٣٥٤هـ)

ابن الجوزي ، عبد الرحمن بن علي
المنتظم

ابن حزم ، علي بن احمد
الاحكام في اصول الاحكام (القاهرة ـ ١٣٤٥هـ)

الخطيب البغدادي ، احمد بن علي
تاريخ بغداد

ابن الدبيثي ، محمد بن سعيد
ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد ، مج١ (بغداد ـ ١٩٧٤م)
تحقيق استاذنا الدكتور بشار عواد معروف الاعظمي

ابن رسته ، ابو علي احمد
الاعلاق النفيسة (ليدن ـ ١٨٩١ م)

الزيلعي ، فخرالدين عثمان بن علي
تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق (بولاق ـ ١٣١٣ هـ)

السمناني ، علي بن محمد
روضة القضاة وطريق النجاة (بغداد ١٩٧١ ـ ١٩٧٥)
تحقيق العلامة استاذنا الدكتور صلاح‌الدين الناهي

ابن الشحنة ، ابراهيم بن ابي اليمن الحنفي
لسان الحكام في معرفة الاحكام . بهامش الطرابلسي

الطرابلسي ، علاءالدين علي بن خليل
معين الحكام فيما يتردد بين الخصمين من الاحكام (القاهرة ـ١٣٠٦هـ)

ابن طيفور ، احمد بن ابي طاهر
كتاب بغداد (سويسرا ــ ١٩٠٨م)
ابن العماد الحنبلي : ابو الفرج عبد الحي
شذرات الذهب في اخبار من ذهب (القاهرة ــ ١٣٥٠هـ)
الغزالي ، محمد بن محمد
الرد على فضائح الباطنية (ليدن ــ ١٩٥٥م)
ابن فرحون ، برهان الدين
تبصرة الحكام في اصول الاقضية ومناهج الحكام (القاهرة ١٣٠٢هـ)
القريشي ، محي الدين عبد القادر
الجواهر المضية في الطبقات الحنفية (الدكن ــ ١٣٣٢هـ)
الماوردى ، علي بن محمد
ادب القاضي (بغداد ــ ١٩٧٢م تحقيق استاذنا الدكتور محي هلال السرحان)
الاحكام السلطانية (القاهرة ــ ١٩٦٦)
مسكويه ، احمد بن محمد
تجارب الامم (القاهرة ــ ١٩١٤م)
ملاخسرو
درر الحكام في شرح غرر الاحكام (القاهرة ــ ١٣٠٤ هـ)
المنذري ، زكي الدين
التكملة لوفيات النقلة . تحقيق استاذنا الدكتور بشار عواد معروف الاعظمي
وكيع ، محمد بن خلف
اخبار القضاة (القاهرة ــ ١٩٤٧)
الانباري ، الدكتور عبدالرزاق الحاج علي
منصب قاضي القضاة في الدولة العباسية (بيروت ــ ١٩٨٥)
النظام القضائي في بغداد في العصر العباسي (النجف ــ ١٩٧٤م)
ادارة المؤسسات القضائية والعدلية في الدولة العربية الاسلامية (تحت الطبع)
العلي ، الدكتور صالح احمد .
قضاة بغداد في العصر العباسي. مجلة المجمع العلمي العراقي ١٩٦٩ م.

الفصل الخامس

الجيش والشرطة

د. خالد جاسم الجنابي
كلية التربية ـ جامعة بغداد

تشريع الجهاد في الاسلام ونظام التجنيد

تشريع الجهـاد في الاسـلام

بعد ان هاجر الرسول (ص) الى المدينة واتخذها دارا للهجرة بدأ من هناك ينشر دعوته في بلاد العرب داعيا الى التوحيد والاخاء والمساواة ونشر رسالة الاسلام وتحرير الارض والانسان العربي • ونتيجة لازدياد الاخطار المحدقة بالدعوة الجديدة وتكالب قوى الشرك والوثنية فقد أذن للرسول محمد (ص) بقتال المشركين ونزلت الآية الكريمة « أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير » وبذلك اصبح الجهاد فريضة على كل مسلم وصار القتال واجبا ملزما لكل رجل قادر على حمل السلاح واصبحت الامة كلها امة مقاتلة •

لهذا فأن تشريع الجهاد في الاسلام جاء لغرضين اساسيين :

الاول ــ تأمين الحماية الكافية للدين الجديد ونشر التوحيد وازالة الوثنية وديانة الشرك وقد اعلن الرسول (ص) انه أمر ان يقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله وان محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فأن فعلوا ذلك فقد عصموا دماءهم واموالهم •

الثاني ــ صيانة ارواح المسلمين ودفع الظلم والشر عنهم وردع المعتدين « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله ان الله مع المتقين » ، « فأن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين » •

وقد بشر الرسول (ص) المؤمنين بما امر الله تعالى واخذ يحرضهم على القتال ويزين لهم الجهاد ويحثهم عليه وجعله اعلى درجات الايمان وافضل الاعمال عند الله ثم اعلن (ص) ان الجهاد باب من أبواب الجنة وصور ما اعد للمجاهد في الآخرة من الاجر والثواب فجسده محرم على النار وان رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وماعليها •

وبهذا كان الرسول (ص) يحث المؤمنين على الجهاد ويدفعهم الى الاستعداد له ويبث فيهم روح الفروسية والنجدة والشجاعة فكان لهذا أثره الواضح في نفوس العرب المؤمنين فصار الجهاد رمزا يلهب مشاعرهم ويرسخ الايمان في قلوبهم بأن الدنيا ليست الا مجازا للاخرة وان من يموت في سبيل الله يموت شهيدا •

وقد اندفع العرب المؤمنون بعقيدتهم الجديدة لقتال اعدائهم من المشركين واليهود والفرس والروم ليس حبا في القتال وسعيا وراء مغانمه كما يحلو لبعض المغرضين والشعوبيين ان يصوروا هذا الاندفاع وانما جهاد في سبيل الله وفي سبيل الدعوة الى الحق •

نظام التجنيد واعداد المقاتلين

وتنفيذا لسياسة الرسول (ص) الرامية الى تأمين التخوم العربية وتوجيه انظار العرب الى ماوراء الحدود في شبه الجزيرة لحمل راية الاسلام ، وتأكيدا لوحدة الامة فقد وضع الخليفة ابو بكر (رض) نصب عينيه تحرير العراق وبلاد الشام من الفرس والروم باعتبارهما امتدادا طبيعيا لاراضي شبه الجزيرة العربية •

ففي العراق كانت القبائل العربية المستقرة منذ القدم في ربوعه تمثل امتدادا لقبائل جزيرة العرب فقد استقرت قبائل مضر وربيعة في سواد العراق وكانت في صراع دائم مع الفرس الذين حاولوا بسط نفوذهم وسيطرتهم على هذه القبائل وقد تطور الصراع بين عرب العراق والفرس متمثلا بالحملات التي كان يقودها القائد العربي المثنى بن حارثة الشيباني واغارته على قوات الفرس في رجال من قومه بني شيبان بمنطقة الحيرة وحملات قطبة بن قتادة السدوسي فيمنطقة البصرة وقد كتب هذان القائدان الىالخليفة أبي بكر (رض) بضعف الفرس واضطراب امرهم ويسألانه ان يمدهما بجيش يقتحمان به بلاد الفرس ويفتحان اقاليمها ومدنها فكتب لهما بذلك عهدا وراحا يغيران على قوات الفرس فأذا ما واجهتهما قوة كبيرة من الفرس انسحبا الى الصحراء فلا يتبعهما احد ولما توالت انباء انتصارات المثنى وحاجته الى الامدادات امر الخليفة القائد خالد بن الوليد بالتوجه الى العراق وطلب منه ان يستنفر قبائل العرب في طريقه وان لا يكون معه احد ممن ارتد حتى يرى رأيه •

ولم يلبث خالد بن الوليد ان قدم العراق بالفي رجل ممن قاتل المرتدين وحشد ثمانية الاف رجل من قبائل مضر وربيعة بالاضافة الى ثمانية الاف كانوا مع امراء الجند المسلمين في العراق والمثنى في مقدمتهم فيكون مجموع طلائع القوات التي ساهمت في تحرير العراق ثمانية عشر الف رجل معظمهم من قبائل العراق وحدوده المتاخمة لشبه الجزيرة العربية •

وتنفيذا لسياسة ابي بكر (رض) فقد عامل خالد بن الوليد الفلاحين من العرب بعد انتصاره على الفرس معاملة طيبة وأقر من لم يقاتل المسلمين على ارضه مما يؤكد قوة الرابطة التي تربط عرب العراق بابناء عمومتهم في الجزيرة العربيـــة .

ومما يلاحظ ان الخليفة ابا بكر (رض) لم يلزم احدا بالقتال الا من ثبت اسلامه ولم يرتد فقد كتب الى خالد بن الوليد وعياض بن غنم حين بعثهما الى العراق والجزيرة بعد حروب الردة (وأذنا لمن شاء بالرجوع ولا تستفتحا بمتكاره) ثم كتب اليهما وهما في الطريق (ان استنفرا من قاتل اهل الردة ومن ثبت على الاسلام بعد رسول الله (ص) ولا يغزون معكم احد ارتـــد حتى ارى رأيي .

ولما تولى عمر بن الخطاب (رض) الخلافة حدث تطور جديد في اعداد المقاتلين وتجنيدهم فقد كانت الحاجة ماسة الى ارسال اعداد كبيرة من المقاتلين لمواجهة قوات الفرس والروم وقد استطاع الفرس بعد تولي يزدجرد الثالث العرش ان يثيروا اهل السواد على العرب فأضطرت القوات العربية الاسلامية بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني الى الانسحاب الى ذي قار على حدود الصحراء بانتظار الامدادات من المدينة،ولما كان الخليفةعمر بن الخطاب(رض)يقدرحراجة موقف المثنى لذلك اسرع بتهيئة الامدادات وبدأ بأستنفار الناس للقتال فكتب الى قواده في العراق (اما بعد فأخرجوا من بين ظهرى الاعاجـم وتفرقوا في المياه التي تلي الاعاجم على حدود ارضكم وارضهم ولا تدعوا في ربيعة احدا ولا مضر ولا حلفائهم احدا من اهل النجدات ولا فارسا الا اجتلبتموه فان جاء طائعا والا حشرتموه احملوا العرب على الجد اذا جد العجم فلتلقوا جدهـــم بجدكم) ثم كتب الى عماله على الاقاليم والقبائل (ولا تدعوا احدا له سلاح او فرس او نجدة او رأى الا انتخبتموه ثـم وجهتموه الي والعجل العجل) وعندما وجه سعد بن ابي وقاص الى العراق طلب منه ان يستنفر كل من يمر

به من ذوي القوة والنجدة والرياسة ثم سمح للمرتدين الذين عادوا الى صفوف المسلمين بالاشتراك في حروب التحرير فكتب الى من ظهرت توبته من المرتدين يدعوهم الى الجهاد وكان هؤلاء على احر من الجمر لمشاركة اخوانهم في حروب التحرير فأقبلوا سراعاً من كل انحاء الجزيرة العربية .

وهنا نلاحظ ان الخليفة عمر بن الخطاب (رض) قد اعطى كتبه الى القواد والولاة صيغة الامر والالزام فوضع بذلك القاعدة في التجنيد التي نصت على الالزام الى جانب التطوع كما ارسى الاسس الاولى لتولي قيادة الدولة مسؤولية متابعة اعداد المقاتلين وتجنيدهم فلا يمكن تهيئة الاعداد الكافية من المقاتلين في مثل تلك الظروف بعد ان اتسعت رقعة الدولة العربية الاسلامية فشملت الجزيرة العربية كلها وبعض اطرافها دون مبادرة من السلطة لاشعار الناس بالخطر المحدق بهم ووجوب الدفاع عن عقيدتهم وحماية انفسهم وحثهم على الجهاد وترغيبهم بفضائله .

ويمكن اعتبار ديوان الجند الذي انشيء في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) الخطوة الاولى في عملية تجنيد المقاتلين التي كانت تؤمن للدولة الاعداد الوفيرة من المقاتلين واصبحت دواوين الجند في الامصار الاسلامية مراكز لتجنيد المقاتلين بواسطة السجلات التي تحوى اسماءهم وانسابهم واوصافهم ومقدار اعطياتهم حيث كان يتم استنفارهم عند الحاجة واصبح اولئك المقاتلون جند الدولة العربية الاسلامية ورجالها المتفرغين للجهاد في سبيل الذود عن الاسلام ودياره .

وفي بداية العصر الاموي اصبحت عملية اعداد الجند وتهيئة المقاتلين تأخذ الحيز الاكبر من سياسة الدولة واتبع ولاة العراق في عهد الخليفة معاوية بن ابي سفيان سياسة الحزم في تطبيق عملية التجنيد وتهيئة المقاتلين وعدم التهاون مع المتخلفين ويمكن اعتبار ولاية زياد بن ابيه على البصرة سنة ٤٥ هـ /٦٦٥ م البداية الحقيقية للتشديد في النفير ومعاقبة المتخلفين لان

سياسته القائمة على الحزم وعدم التهاون مع المتخلفين لم تدع احدا من الجند يجرؤ على الاخلال بمكانه او الهرب من الجيش لان ذلك كان يعرضه لاشـد العقوبـات .

وقد شعر زياد بن ابيه انه لا يمكنه السيطرة على الجند وليس باستطاعته تهيئة قوات كبيرة على انجاز مهام القتال الا باعادة تنظيم القبائل في البصـرة والكوفة ليضمن السيطرة عليها من الناحية العسكرية فقسم قبائل البصرة الى اخماس على كل خمس رجل وقسم الكوفة الى ارباع بعد ان كانت مقسـمة الى اسباع .

ورغم تعثر عملية التجنيد بعد وفاة يزيد بن معاوية نتيجة اضطراب الحياة السياسية الا ان مجيء الخليفة عبدالملك بن مروان الذي شهد عهده تطورا كبيرا في مؤسسات الدولة قد اعاد للتجنيد فاعليته وقوته وعندما تولى الحجاج بن يوسف الثقفي العراق سنة ٧٥ هـ /٦٩٤ م اعاد تنظيم ديوان الجند والعطاء وانذر المتخلفين من الجند بالتعرض للعقوبة الشديدة .

وقد شملت هذه الاجراءات اصحاب الديوان من اهل العطاء الذين كانوا ملزمين بالقتال عندما تدعو الضرورة ولذلك لم يكن يسمح لاي رجل سواء من قريش او من بيوتات العرب بالتخلف عن الجهاد .

ويمكن اعتبار هذه الاجراءات التي اتخذتها الدولة في العراق بمثابة اعلان عن عزم السلطة وحرصها في تطبيق التجنيد والزامها المقاتلة به دون اي نوع من المرونة او التسامح لان الظروف السياسية والعسكرية والاخطار المحدقـة بالدولة كانت تفرض اتخاذ مثل هذه الاجراءات حيث كانت تتطلب تجنيد اعداد كبيرة من المقاتلين وقد اثمرت هذه الاجراءات فقد استطاعت الدولة تهيئة اعداد كبيرة من الجند بعثت بهم الى مختلف جبهات القتال .

وفي عهد الخليفة هشام بن عبدالملك اصبح التجنيد الالزامي احد انظمة

الجيش العربي الاسلامي فلم يكن يسمح لاحد بالتخلف عن الجهاد وحروب التحرير واشترط على كل من يأخذ العطاء من اصحاب الديوان ان يخرج الى الجهاد او يخرج عنه بديلا وكان هذا الشرط ساريا حتى على اعضاء البيت الامـوي .

لقد حقق نظام التجنيد للدولة العربية الاسلامية الاعداد الكبيرة من المقاتلين واذا استعرضنا جبهات القتال وساحات العمليات الحربية التي خاضتها الجيوش العربية خلال العصر الاموي والتي شملت خراسان وما وراء النهر وبلاد الهند والسند وارمينيا واذربيجان وجبهة الحدود مع الدولة البيزنطية وشمال افريقيا وبلاد الاندلس امكننا ان نتصور الاعداد الهائلة من الجنود التي تتطلبها هذه الجبهات ولهذا دأبت المؤسسة العسكرية للدولة المتمثلة بدواوين الجند وقيادات الحاميات وامراء الجيوش على ممارسة الاشراف على عملية التجنيد وتهيئة الاعداد المطلوبة من المقاتلين اضافة الى المتطوعين .

و في العصر العباسي حدث تغيير كبير في نظام التجنيد في الجيش العربي الاسلامي فبعد ان كان الجيش في عهد الامويين يتألف في غالبيته من عنصر واحد هو العنصر العربي اصبح في عهد العباسيين يتألف من عناصر وجنسيات مختلفة ورغم ان العرب ظلوا يكونون عنصرا مهمـا في الجيش في العصـر العباسي الاول الا انهم لم يكونوا في غالبيتهم منظمين تبعا لقبائلهم كما كان الحال في العصر الاموي كما ان العباسيين استخدموا جنـدا من الاعاجم كالفرس والاتراك والبربر وقد اصبحت لهؤلاء وقوادهم مكانة لا تقل عن مكانة العرب .

ان اول العناصر الاجنبية التي بدأت تتغلغل في صفوف الجيش هـم الفرس الذين قوي نفوذهم واخذوا يشاطرون العرب في السيطرة على قيادة الجيش وبلغوا اوج قوتهم حين تسلط البرامكة (الفرس) على مقاليد الامور في عهد الخليفة هارون الرشيد وبالرغم من قضاء الخليفة الرشيد على البرامكة الا ان

نفوذالفرس عاد الى الظهور من جديدفي عهد المأمون بالنظر لكونهم احدى القوى التي ساعدته في انتصاره على اخيه الامين وبعد وفاة المأمون وتولي المعتصم الخلافة برز الخلاف بينه وبين الفرس خاصة بعد ان اظهروا موقفهم المعادي له بتأييدهم بيعة العباس بن المأمون ثم ظهور حركة الخرّمية ذات النعرة العنصرية المجوسية مما دفعه الى البحث عن عنصر جديد يدين بالولاء المطلق للخليفة ويتمتع بالقدرة والقابلية على القتال فلم يكن هناك غير مماليكه الاتراك الذين كان يقدر عددهم عند توليه الخلافة بثلاثة الاف .

ان البداية الرئيسة لتجنيد الاتراك لم تكن على يد الخليفة المعتصم فقد سبقه الى ذلك المنصور والمأمون فقد استخدم الخليفة المنصور عددا من المماليك الاتراك وان الخليفة المأمون كان يوجه برسله الى بلاد ما وراء النهر لشراء الاتراك وترغيبهم بالمجيء الى بغداد .

وبالاضافة الى الاتراك فقد كان الخليفة المعتصم ومن جاء بعده من الخلفاء يضمون الى صفوف الجيش اعدادا من الجند غير الاتراك كالمغاربة والبربر والسودان .

والخلاصة ان استخدام الاتراك على هذه الصورة وان فسح المجال للتجنيد وزيادة عدد الجند فقد اضعف الروح المعنوية للجيش ذلك لان هؤلاء الجند المرتزقة لم يكونوا اهلا للوثوق بهم والركون اليهم فأصبح الجيش نهبا للانقسامات والمنازعات في عهود الخلفاء المستضعفين .

وعندما تسلط البويهيون (الفرس) على الخلافة العباسية بعد سنة ٣٣٤ هـ /٩٤٥ م زاد الخراب والفساد في مؤسسات الدولة بسبب اكثارهم من تجنيد العناصر الاجنبية في الجيش كالديالمة الىجانب الاتراك.وادى ذلك الى اشتداد التنافس بين الديالمة والاتراك للحصول على الامتيازات والاقطاعات العسكرية ومما زاد الامر سوءا لجوء البويهيين الى سياسة تفضيل فريق على

فريق اخر فكانت النتيجة اضعاف الجيش بشكل عام وظهور انقسامات خطيرة في صفوفـه •

اما السلاجقة فقد زادوا الامر سوءا بسبب قيامهم بتجنيد عناصر اخرى جديدة كالتركمان والمماليك اضافة الى ان سلاطين السلاجقة كان لكل منهم جيش خاص من القبائل التركمانية يقوم بتسليحه وتموينه واقطـاع الجنود اقطاعات من الاراضي تكون بدلا عن الرواتب التي اعتاد الجند استلامها خلال العصور العباسية،مما ادى الى استشراء الظلم وانتشار الفساد•وفي اواخر العصر السلجوقي جرت محاولة تخليص الخلافة العباسية من سيطرة الجيش السلجوقي الذي كان لا يدين بالولاء للخلافة فقرر الخليفة المسترشد بالله بناء جيش خاص بالخلافة فأمر بأعلان النفير العام للتجنيد وكان الاقبال شديدا من اهل العراق للتطوع والدفاع عن انفسهم واموالهم وكان بداية لتكوين اداة فاعلة لضرب الاجانب وارهابهم •

اما في العصر العباسي الاخير فان ضعف الخلفاء المتأخرين ادى الى الاعتماد على العناصر الاجنبية التي كانت غالبيتها من الاتراك والمماليك ومع ذلك فقد كانت بغداد عاصمة الخلافة تحتل مكانة مرموقة في نفوس كثير مع المسلمين وكان كثير من الجند والامراء والقـواد يلتجئون الى بغـداد اما هربا من منافسيهم او من رؤسائهم او طمعا في العطاء والخلع فكانت دولة الخلافـة لا تعارض في استخدام هؤلاء الغرباء وفي اسناد المناصب الحساسة اليهم اضافة الى ذلك ان الدولة كانت تفتح باب التجنيد كلما شعرت بحاجة الى العساكر ويقوم اصحاب الديوان بتدوين من يرغب في الانضمام الى الجيش •

وعند تتبع عمل ديوان الجيش خلال العصور العباسية المختلفة يتضح ان ديوان الجيش في العصور الاولى كان يتألف من مجالس وهذه اشبه بالدوائر او اللجان او الهيئات ، وان لكل مجلس اختصاصاً معيناً فمجلس (المقابلة) في ديوان الجيش له صلة وثيقة بعملية التجنيد فهو يتولى الاشراف على جميـع

الامور المتعلقة بالتجنيد كتثبيت اسماء الجند وتصفح سجلاتهم ومراقبة عملية تنقلهم او فكهم او اسقاطهم •

وفي العصور العباسية المتأخرة اصبح ديوان الجيش يسمى بديوان العرض وكان متولي هذا الديوان يسمى (العارض) الذي ينحصر عمله في معرفة العساكر وعرض اسمائهم ، ثم تطور عمل هذا الديوان في العصر الاخير حيث قسم عمله بين عارضين احدهما يتولى ديوان العرض المختص بالعساكر البغدادية والاخر يتولى ديوان العرض المختص بالغرباء وهم طائفة الامراء والقواد الغرباء الذين كانوا يلتجئون الى العراق بمحض ارادتهم أو ان يرسل الخليفة في طلبهم •

وبالاضافة الى الجيش النظامي الذي كانت غالبية تشكيلاته من الجند النظاميين المثبتين في ديوان الجيش كانت عملية التطوع للجهاد تشكل رافدا كبيرا لعملية تجنيد المقاتلين وتهيئة القوات اللازمة للدفاع عن الدولة وحماية امنها •

فالجند المتطوعة هم الذين ينضمون الى الجيش تلبية لداعي الجهاد ودفاعا عن الارض العربية الاسلامية واغلبهم من سكان البوادي والقرى والامصار الذين يخرجون للنفير كلما دعا داعي الجهاد فكان لهؤلاء المقاتلة دور كبير في حماية الثغور او الاطراف التي تتعرض للغزو فان جميع سكان الاطراف والقرى المحيطة بها يقفون وقفة رجل واحد للدفاع عنها وكانت الحروب بين العرب والبيزنطيين تثير حماس كثير من المسلمين باعتبارها تمثل اسمى معاني الجهاد وهذا مما يدعونا للقول ان الطابع العام للجيش في عهد العباسيين كان عربيا اسلاميا رغم وجود الاعداد الكبيرة من الجند الاعاجم بين صفوفه• ومما يؤكد ذلك ان هذا الجيش هو الذي قضى على اهم الفتن والحركات الهدامة واشدها خطرا على كيان الدولة العربية الاسلامية كحركة بابك الخرمي وحركة الزنج والقرامطة، كما قام باعظم الاعمال الحربية عندما دحر البيزنطيين في موقعة عمورية

التي تمثل صفحة مشرقة من صفحات التاريخ العربي الاسلامي وان هذا الجيش استطاع بعد ان توفرت له القيادة المخلصة من ابعاد التسلط الاجنبي (السلجوقي) كما حدث في عهود الخلفاء العباسيين : المسترشد بالله والمقتفي لامر الله والناصر لدين الله •

عطاء الجند

بعد ان تم وضع الديوان من قبل الخليفة عمر بن الخطاب (رض) في سنة ٢٠ هـ /٦٤١ م اصبحت هناك اسس ثابتة لتوزيع العطاء على المقاتلين وهذه الاسس هي :

(١) ان العطاء الذي وضع اسسه الاولى الخليفة عمر (رض) لم يشمل العرب جميعهم بل شمل اهل المدينة من المهاجرين والانصار وهم قلب الامة العربية الاسلامية ثم اضيفت اليهم القبائل التي شاركت في حروب التحرير واستقرت في الامصار ومن لحق بهذه القبائل من العرب •

(٢) لقد خص الخليفة عمر (رض) المقاتلة الاولين بالافضلية في العطاء دون ان يغفل بقية الناس بصرف النظر عن اصلهم او عشائرهم او مكانتهم لذلك صنف الخليفة عمر (رض) اهل العطاء الى درجات مبتدئا بالقرابة من الرسول (ص) ثم القدم في الاسلام والخدمة في الاسلام ثم الحاجة • ففرض لاهل بدر من المهاجرين والانصار خمسة الاف درهم سنويا ورفع عطاء الحسن والحسين (رض) وجعلهما مثل عطاء ابيهما الامام علي (رض) اي خمسة الاف درهم لشرفهما ومكانتهما من رسول الله (ص) واربعة الاف درهم لمن اسلم بعد بدر وشهد أحداً ولمهاجرة الحبشة وثلاثة الاف درهم لمن هاجر قبل فتح مكة ولاهل الايام قبل القادسية والفي درهم لمسلمة الفتح ولاهل القادسية واليرموك وفرض لاهل الشجاعة والبلاء في الحرب من اهل القادسية واليرموك الفين وخمسمائة درهم وفرض لباقي

المقاتلة لكل رجل ما بين الفين الى الالف الى تسعمائة الى خمسمائة الى ثلثمائـــة •

(٣) لم يفرق الخليفة عمر (رض) في العطاء بين العرب والموالي فقد اوعـز الى امراء الاجناد كافة ان يساووا في العطاء بين العرب والموالي •

(٤) لم يفرض العطاء للاعراب من اهل البادية الا لمن شارك منهم في حروب التحرير مع اهل الامصار لذلك فان حصر العطاء باهل الحضر لم يكن الا تأكيدا للنهج الذي سار عليه الرسول (ص) والخلفاء من بعده لتشجيع العرب على الهجرة الى الامصار والعيش حياة التمدن والتحضر التي دعت اليها رسالة الاسلام والمساهمة في بناء كيان الامة العربية الاسلامية والنهي عن حياة البداوة وما فيها من عادات جاهلية •

و في بداية العصر الاموي وبفعل التطور الذي حصل في الدولة العربية الاسلامية وشمل اجهزتها ومؤسساتها فقد شمل هذا التطور نظـام العطـاء فأصبحت بمقاييس السبق في الاسلام او البلاء في سبيل الاسلام تعني الولاء للدولة العربية الاسلامية والخدمة في قواتها ومؤسساتها •

وكان الحد الادنى للعطاء في العصر الاموي يتراوح ما بين مائتي الى ثلثمائة درهم • ويبدو ان هذا ماكان يأخذه غالبية الجند وخاصة رجال القبائل التي هاجرت حديثا الى الامصار الاسلامية وخاصة العراق واستمر هذا المقدار كحد ادنى للعطاء حتى نهاية العصر الاموي وكان وقت العطاء سنويا وفي بداية شهر محرم من كل سنة •

وبالاضافة الى العطاء السنوي كان هناك الرزق الشهري الثابت وهو ما يعطى للمقاتل وعياله من المواد العينية شهريا ولما كانت الحنطة هي المـادة الرئيسية التي يعتمد عليها الناس في حياتهم المعيشية لذلك كانت الارزاق توزع من الحنطة غالبا اضافة الى المواد الاخرى كالسمن والتمر •

وعني الامويون بتنظيم الارزاق فأنشأ زياد بن ابيه دار الرزق في الطرف الشرقي من مدينة البصرة حيث كانت تخزن فيها الحبوب لتوزيعها على الناس. وبسبب غنى الاقطار العربية الاسلامية بالمنتوجات الزراعية وخاصة الحنطة والشعير وتوفر هذه المادة الحيوية، فلم تنشأ للدولة اية مشكلة في توزيع الارزاق اضافة الى ما كان يحصل عليه المقاتلون من غنائم البلاد المفتوحة وامكانهم شراء المواد الغذائية من عطائهم او من اسهم غنائمهم .

وخلال العصر العباسي حدث تطور جديد فيما يتعلق بعطاء الجند حيث لم يعد هناك فرق بين العطاء والرزق وان اغلب المؤرخين كالخوارزمي والصابي والماوردي والطبري والبلاذرى يذكرون دائما كلمة عطاء مرادفة لكلمة رزق وهذا يعني ان الدولة لم تعد تعنى بتقديم الارزاق الشهرية الثابتة للجند الا في حالات نادرة جدا لان التقدم الحضاري وازدياد رواتب الجند جعلهم في غنى عن الارزاق المحددة التي تقدمها لهم الدولة اضافة الى ان الدولة خلال العصور العباسية المتأخرة لجأت الى اسلوب جديد في تقديم العطاء للجند وهو اسلوب اقطاع خراج الاراضي الزراعية للجند عوضا عن الرواتب الشهرية لذلك لم تعد هناك حاجة الى تقديم ارزاق شهرية لهم .

اما رواتب الجند ومقدار ما كان يتقاضاه كل واحد منهم فالمعلومات عن ذلك قليلة جدا ولكن من خلال دراسة القوائم التي أوردها (الصابي) في كتابه (الوزراء) عن مجمل رواتب بعض اصناف الجيش خلال العصر العباسي الثاني والتي استطاع الحصول عليها من جهاتها الرسمية وهي الدواوين يمكن ملاحظة ما يلي :

(١) لم تكن ايام الشهر الذي يتم فيه صرف الرواتب ثابتة وانما لكل صنف شهر عدد ايامه معلومة فبعض هذه الصنوف كانت تقبض كل ثلاثين يوما وبعضها كانت ايام شهرها اربعين يوما وهناك عدد من صنوف الجيش كانوا يقبضون كل سبعين يوما وتصل المدة الى مائة وثلاثين يوما وقد

يكون ما اورده (الفراء الحنبلي) في كتابه (الاحكام السلطانية) تبريرا لهذه الظاهرة اذ يقول : ويكون وقت العطاء معلوما يتوقعه الجيش عند الاستحقاق وهو يعتبر بالوقت الذي تستوفى فيه حقوق بيت المال فاذا كانت تستوفى في وقت واحد من السنة جعل العطاء في رأس السنة وان كانت تستوفى في وقتين جعل العطاء في كل سنة مرتين ، وان كانت تستوفى كل شهر جعل العطاء في راس كل شهر ليكون المال مصروفا اليهم عند حصوله فلا يحبس عنهم اذا اجتمع ولا يطالبون به اذا تأخر .

(٢) ان مقدار الراتب كان يتناسب مع اهمية الجند عند الخليفة فحرس الخليفة وغلمانه وفرسانه تكون رواتبهم اكثر من غيرهم .

(٣) كانت مدة ايام الشهر تقل كلما ارتفعت منزلة جماعة من الجند وكانت تزداد كلما قل الاهتمام بصنف من الصنوف .

(٤) كانت رواتب الجند في العصور العباسية الاولى بصورة عامة قليلة ولكنها كانت تزداد من عصر الى عصر ، ففي عهد الخليفة المقتدر كان راتب الفارس بحدود (١٢ر٥) دينار شهريا والراجل (٦ر٥) دينار شهريا وفي عصر التسلط البويهي وبسبب محاولة البويهيين الاعتماد على القوة العسكرية كان راتب الفارس في عهدهم حوالي (٤٠) دينارا شهريا والراجل (٢٠) دينارا شهريا .

اما في بداية العصر السلجوقي فان اضطراب البلاد وخرابها في اواخر العصر البويهي ، ونظرا لقلة الاموال الواجب صرفها على الجيش البويهي البالغ عدده حوالي (٧٠) الف رجل راى الوزير السلجوقي نظام الملك ان واردات الاراضي قليلة بسبب خرابها وانها لا تفي بالرواتب ففرق الاراضي على الجند على شكل اقطاعات وجعل وارداتها بمثابة رواتب لهم وهذا ما اصطلح عليه بالاقطاع الحربي الذي طبقه نظام الملك لانه راى ان تسليم الاراضي للمقطعين يضمن عمارتها لاعتنائهم بها وخدمتهم لها .

ورغم شدة سياسة نظام الملك في تطبيق القواعد الصحيحة لهذا الاقطاع الا ان المقطعين صاروا يميلون الى الاستغلال والاساءة الى الفلاحين مما ادى الى انتشار الفساد .

وفي العصر العباسي الاخير لم ترد الاشارة الى مقدار رواتب الجند وانما هناك اشارات الى رواتب بعض امراء الجند فالامراء الصغار كانت رواتب كل منهم الف دينار في السنة ورواتب الامراء الزعماء اربعة الاف دينار وقد تصل الى خمسة الاف دينار .

الغنائـــم

وهي ما يحصل عليه المقاتلون من العدو بعد المعركة من السلاح والمال والامتعة وكانت الغنائم توزع على من اشترك في الحرب فعلا ولا يشاركهم فيها احد . اما خمس الغنيمة فكان يرسل الى الخليفة عملا بالآية الكريمـة (واعلموا ان ما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) ونتيجة لحروب التحرير ومعارك الفتح التي خاضها العرب مع الفرس والروم فقد وقعت بايدي المقاتلين غنائم كثيرة من الاموال والكنوز والسلاح والامتعة والاسرى فاعتبرت هذه غنائم حرب وكانت توزع بعد انتهاء المعركة على من اشترك فيها فعلا ولهذا فان غنائم الحرب كانت تدر على المقاتلين اموالا كبيرة اضافة الى ما يحصلون عليه من العطاء .

لقد كانت غنائم معارك التحرير الاولى في العراق كثيرة جدا فقد اصاب المسلمون بعد معركة القادسية اسلحة وتيجانا ومناطق ذهب فقسمها سعد بن ابي وقاص بين المقاتلين فاصاب الفارس ما قيمته ستة الاف درهم والراجل الفين، وبعد دخول المسلمين المدائن وقعت بأيديهم كنوز كسرى وامواله واموال اتباعه فأمر سعد بجمع هذه الاموال والكنوز فكان منها تاج كسرى وحليته

وملابسه المنسوجة بالجوهر فقسم ذلك بين من شهد الوقعة بعد ان اخرج الخمس وبعث به الى الخليفة عمر بن الخطاب (رض) •

وكانت قيمة الغنائم التي قسمت بعد معركة جلولاء كبيرة حتى اصاب الفارس تسعة الاف درهم وتسعة من الدواب ، واصاب المسلمون في فتوح خراسان وما وراء النهر على عهد قتيبة بن مسلم الباهلي غنائم كثيرة اشتملت على تماثيل الذهب والفضة واللؤلؤ وبلغت الغنائم من الكثرة حتى ان قتيبة رفض فداء احد الاسرى من الترك عرض عليه خمسة الاف قطعة حرير بعد ان علم انه كان يهيج الاعداء على المسلمين قائلا : لا والله لا يروع بك مسلم ابدا •

وكان المقاتلون يحصلون نصيبهم من الغنائم ما دامت هناك معارك وحروب تخوضها الدولة العربية الاسلامية مع اعدائها ففي العصر العباسي بلغت غنائم المقاتلين العرب في موقعة عمورية من السلاح والمتاع والسبي ما يفوق كل وصف •

اما تقسيم الغنائم بين المقاتلين فكان يتم على اساس الاسهم ويفضل الفارس على الراجل لما يبذله من جهد وعناء وتقسم الغنيمة بعد اخراج الخمس منها فيكون للراجل سهم واحد اما الفارس فكان يعطى ثلاثة اسهم سهم له وسهمان لفرسه او يعطى سهمان سهم له وسهم لفرسه ولا يفرق عند تقسيم الغنائم بين المتطوعة من الجند وبين اصحاب الديوان •

معسكرات الجند في العراق

بعد ان حقق العرب انتصاراتهم الرائعة على الفرس في معارك القادسية وجلولاء ونهاوند اتجهوا الى تنظيم حياتهم في مواضعهم الجديدة لتحقيق فكرة الجهاد ونشر راية الاسلام وهكذا انشئت الامصار الاسلامية الجديدة في

العراق لتكون دور هجرة جديدة للعرب ومراكز لتجميع قواتهم استعدادا لانطلاقهم الى آفاق ابعد •

وقد انشئت دور الهجرة هذه في بلاد هي اطراف المنطقة التي سبقت اليها هجرات عربية قبل الفتح بوقت طويل وقد لقيت حركة الهجرة حماسا كبيرا من قبل العرب وخرجوا باعداد كبيرة ازدادت تدفقا بازدياد الانتصارات ثم بتوسع الفتوح اضافة الى تشجيع الخلافة حتى اسقطت من العطاء من لم يقاتل في البلاد المحررة ومن لم يهاجر اليها وكان المقاتلة يسمون تمييزا لهم عمن يبقون في ديارهم (بالمهاجرة) •

البصـــرة والكوفـــة

كانت البصـرة والكوفة القاعدتين اللتين صدرت عنهمـا كل العمليات الحربية بعد استقرار المسلمين فيهما واصبحت كل منهما مركزا لاستقطاب القبائل العربية التي هاجرت لغرض الاشتراك في حروب التحرير •

ولقد لعبت هاتان المدينتان دورا بارزا في حياة الدولة العربية الاسلامية خلال العصرين الراشدي والاموي وكان للقبائل العربية التي استقرت في هذين المصرين النصيب الاوفر في تحقيق الانتصارات العظيمة في فتوح الجناح الشرقي للدولة العربية الاسلامية وايصال حدودها الى الصين وقد بذل الخليفة عمر بن الخطاب (رض) جهوداً كبيرة ليجعل من الأمصار الجديدة مراكز حربية تضم اعدادا كبيرة من المقاتلين مع اسرهم يجرى عليهم العطاء السنوي ليكونوا على استعداد دائم لكل طارىء وكانت شروط ديوان الجند تقضي بان يقيم المقاتلة في الامصار الجديدة التي لم تكن في الحقيقة الا معسكرات حربية انطلقت منها الجيوش الاسلامية الى حروب التحرير ، وفي هذه المدن كان المقاتلون يتمتعون بكامل حقوقهم التي منحها لهم الاسلام •

وقد بنيت البصرة والكوفة على اطراف الصحراء حيث لا يفصلهما عن عاصمة الدولة ومقر الخلافة حاجز مائي وحيث المناخ الجاف الملائم لطبيعة العربي وتشابهت مراحل البناء للمدينتين فقد تم تأسيس المسجد اولا ثم دار الامارة الملحق به في مركز المدينة ثم تم بعد ذلك توزيع بقية الاراضي على المقاتلة على شكل خطط تضم كل خطة افراد عشيرة معينة فبنى المقاتلون البيوت لهم ولعوائلهم وجعل لكل عشيرة عريف يشرف على شؤونها ويحفظ بسجلات تحوي اسماء المقاتلين كما يشرف على توزيع العطاء عليهم •

وتحقيقا للاهداف العسكرية من وجود هاتين القاعدتين العسكريتين قام الوالي زياد بن ابيه في خلافة معاوية بن ابي سفيان بتنظيم سجلات اهل العطاء (المقاتلة) في كل من البصرة والكوفة ليضمن السيطرة عليهم وليستطيع تهيئة القوات الكافية القادرة على انجاز مهام القتال، فقسم قبائل البصرة الى خمسة اقسام سميت (بالاخماس) ويضم كل (خمس) عددا من القبائل المتقاربة النسب وهذه الاخماس هي تميم ، وبكر بن وائل ، واهل العالية (قبائل نجد والحجاز) ، والازد وعبدالقيس •

اما الكوفة فقد كانت قبائلها مقسمة الى (اسباع) منذ خلافة عمر بن الخطاب (رض) الى ان جاء زياد بن ابيه فجعلها (ارباعا) وكانت قبائل الارباع هي ربع اهل المدينة وربع ربيعة وكندة ثم ربع مذحج واسد •

وقد حاول زياد من خلال هذا التقسيم اضعاف نفوذ رؤساء القبائل على افرادها فعين على كل ربع رجلا من الموالين للدولة وكان غرض زياد من التنظيم الجديد تخفيف حدة العصبية القبلية وصولا الى ممارسة الدولة لسلطانها ومسئولياتها في اعداد الجيوش وترتيب القيادات والسيطرة على توزيع العطاء للمقاتلين وهم المكلفون بالدعوة للجهاد وتأمين سرعة استنفار الجند وكان من نتيجة هذه السياسة ان ازداد عدد المقاتلة في العراق خلال مدة ولاية زياد فقد كان عدد المقاتلة في البصرة حين قدومه اربعين الفا فأصبح عددهم ثمانين الفا

كما اصبح عدد مقاتلة الكوفة ستين الفا وقد قلت اهمية مدينتي البصرة والكوفة بعد بناء مدينة واسط .

واسـط

في سنة ٧٥ هـ/٦٩٤ م تولى الحجاج بن يوسف الثقفي العراق وكانت الاوضاع السياسية انذاك مضطربة نظرا لاستفحال خطر الخوارج واستمرار قيام الحركات المناوئة للحكم الاموي في العراق والتي كان اخرها حركة ابن الاشعث مما دفع الحجاج الى الاستعانة بجند الشام للقضاء على الفتن والاضطرابات . ولضمان عزل الجند الشاميين عن اهل العراق وايجاد معسكر دائم لهم صمم الحجاج على بناء مدينة تتوسط مصرى (البصرة والكوفة) ولتكون مقرا دائما لادارة العراق .

ويمكننا ان نعتبر مدينة (واسط) التي بناها الحجاج في حدود سنة ٨١ هـ/٧٠٠ م مثالا على رغبة الامويين في الابقاء على الطابع العربي للامصار الاسلامية فقد جعل الحجاج منها مركزا لادارة العراق لانها تتوسط البصرة والكوفة والاحواز ، ولادارة المشرق الاسلامي كله وقاعدة للجيوش العربية الاسلامية التي ساهمت في الفتوح التي امتدت الى بلاد السند والصين فنقل اليها من الكوفة المقاتلة العرب من جند الشام الذين كان يعتمد عليهم كثيرا في مهمات المواجهة مع الخوارج او المعارضين للحكم الاموي .

كان جند الشام الذين اسكنهم الحجاج مدينة واسط ينتمون الى قبائل الشام اليمنية فبنى لهم خططا سميت باسماء قبائلهم مثل كلب وخزاعة والسكاسك وقضاعة وعك بني الأشعر وحريش ، كما اسكن الحجاج بواسط جماعة من مقاتلة القبائل العربية في العراق مثل بكر وتميم وقيس والازد .

وقد حرص الحجاج على بقاء السكن في واسط مقتصرا على العرب وحدهم فكان لا يدع احدا من اهل السواد يسكن واسطا . وبعد فراغه من

بنائها امر باخراج كل نبطي فيها واقبلت القبائل العربية على سكن مدينة واسط وبناء المنازل فيها يشجعهم على ذلك وقوعها في منطقة سهلة وان طبيعة هـذه المنطقة تتفق مع رغبة العرب في السكن في الاماكن الفسيحة كأماكنهم فـي الجزيرة العربية .

لقد كان إختيار الحجاج لموقع واسط نتيجة ادراكه اهمية الموقع مـن الناحية العسكرية وبفضل الخبرة التي اكتسبها خلال حروبه العديدة التـي خاضها مع اعداء الدولة علما بان الهدف الرئيس من بنائه لمدينته كان عسكريا يدل على ذلك مناعة المدينة وعدم استطاعة احد دخولها الا من الابواب لانـه احاطها بخندق وسورين كما انه جعل على كل باب من ابواب المدينة حرسـا اضافة الى وجود نهري دجلة والفرات كمانعين مائيين ضد هجمات المتمردين من البصرة او الكوفة واخيرا فان اختيار واسط كان بسبب قربها من المشرق لغرض الاشراف على تجهيز الحملات وتسيير الجيوش لمواصلة الفتوحات فكان على اتصال دائم بهذه الجيوش وانه كان يمد قادتها بآرائه ونصحه وان اهتمامه الشديد بالبريد بينه وبين قادة العمليات العسكرية من المشرق جعل الاخبـار تصله كل ثلاثـة ايـام .

وقد قلت اهمية واسط بعد بناء بغداد عاصمة الدولة العربية الاسلامية في العصر العباسـي .

بغـــداد

بعد نجاح الدعوة العباسية في سنة ١٣٢ هـ /٧٤٩ م بدا واضحا ان بلاد العراق اصبحت مركزا مهما لنشاط العباسيين السياسي ومقرا لدعوتهم فأليها التجأ ابو العباس واهل بيته وفيها اعلنت الخلافة العباسية لذلك برزت اهمية العراق للعباسيين كأنسب مكان لقيام عاصمة الدولة فيه وقد اتخذ ابو العباس السفاح مدينة قرب الكوفة مقرا له سماها الهاشمية ثم قام ببناء مدينة اخرى

على شاطيء الفرات سنة ١٣٤ هـ /٧٥١ م سماها الهاشمية ايضا واتخذهـا عاصمة له الى ان توفي سنة ١٣٦ هـ /٧٥٣ م ٠

ولما تولى المنصور الخلافة فكر ببناء عاصمة جديدة للدولة تتوفر فيهـا كافة المستلزمات العسكرية الدفاعية اضافة الى التحصينات الطبيعية التـي تجعل من الصعب على الاعداء اقتحامها فتم اختيار بغداد لمـا تمتاز به مـن خصائص عسكرية دفاعية اضافة الى وقوعها في منطقة سهلة وخصبة تكثر فيها المزارع وتتوفر فيها شبكة من الانهار وتستطيع تأمين الغذاء والماء لاعـداد كبيرة من الجند والناس ٠

ثم بوشر ببناء مدينة بغداد التي صممت على شكل مدينة دائرية يحيطها سوران الداخلي منهما اعرض سمكا واعلى ارتفاعا من السور الاول ويحتوى على ابراج دفاعية تتجاوز المائة وعشرة ابراج وجعل للمدينة اربعة ابواب سمى كل باب باسم البلد الذي يواجهه وهي باب البصرة وباب خراسان وبـاب الكوفة وباب الشـام ٠

وكان المنصور عند بنائه لمدينة بغداد قد تدارك الخطأ الذي وقع فيه الامويون لعدم اتخاذهم مدينة محصنة تحصينا قويا تستطيع ان تقاوم الاعداء مدة طويلة فعزز المدينة بالثكنات التي تتسع لقوة كبيرة من الجنـد وكانت هذه الثكنات خارج المدينة المدورة وتسمى مواضع هذه الثكنات (بالارباض) حيث تم توزيع الاراضي على فرق الجيش المضرية واليمانية والخراسانية فـي الاطراف الشمالية والغربية ٠

ونتيجة للتوسع الكبير الذي طرأ على مدينة بغداد وارباضها والمناطق المحيطة بها ولغرض انشاء خط دفاعي عن بغداد من الناحية الشرقية تم بنـاء مدينة الرصافة علـى الجانب الشرقي من دجلـة سميت بـ (عسكر المهدي) واحاطها بسور وخندق فكانت معسكرا توفرت فيه كل شروط الاقامة للجند

بصورة دائمية وكانت القوات التي تمركزت في هذا المعسكر بقيادة (المهدي) ابن الخليفة وولي عهده مما يعطي الخليفة فرصة استدعاء هذه القوات واستخدامها لضرب اي تمرد قد يحصل •

ان نظام انشاء المعسكرات الدائمة والمدن العسكرية كان يحظى بأهتمام الدولة العربية الاسلامية وقد زاد اهتمام الخلفاء العباسيين ببناء المعسكرات والحاميات والثكنات وشحنها بالمقاتلة والسلاح والمؤن والتجهيزات وبناء الاصطبلات لايواء الخيول ادراكا منهم لاهمية هذه المعسكرات في توفير مستلزمات الامن والدفاع عن الدولة •

سامراء

تم بناء مدينة سامراء على عهد الخليفة المعتصم بالله في سنة ٢٢١ هـ / ٨٣٦ م وقد بنيت لتكون معسكرا دائما للجند الاتراك الذين ضاقت بهم بغداد وكان الدافع الرئيس لبنائها هو تكاثر جند المعتصم من الاتراك والمغاربة والبربر في بغداد والذين صاروا يشكلون جيشا عدته ٧٠ ألف مقاتل فكان من الطبيعي ان يحدث الاحتكاك والتصادم بين هؤلاء الجند الغرباء وبين اهل بغداد وكانت غطرستهم وقسوتهم على الاهالي عامة والصبية والضعفاء من الناس خاصة سببا لضيق الاهالي بهم وتضجرهم منهم حيث « كان لا يزال يوجد الواحد بعد الواحد قتيلا بالارباض والدروب وذلك انهم كانوا يركبون دوابهم ويدوسون الصبيان فيأخذهم الشبان فينكسونهم عن دوابهم ويخرجون بعضهم ويقتلونهم سرا » فثقل ذلك على المعتصم وقرر الابتعاد عن بغداد وبناء معسكر لجنده بعد ان تأكد لديه بان بقاء مثل هذا الجيش في عاصمة الدولة امر محفوف بالمخاطر •

وقد توخى المعتصم بعد حلوله مع جيشه في سامراء عزل جنده من الناس ومنع الاحتكاك او الاختلاط بهم كي لا يتكرر ماحدث في بغداد من المصادمات

بين الجند والاهالي وكذلك بنى للجند قطائع منفردة عن قطائع الناس جميعا لا يختلط بهم احد وأمر ان تبنى مساكن الجند في هذه القطائـــع في شوارع واسعة وطويلة بعيدة عن أسواق المدينة وزحامها ومنفردة عن قطائع غيرهم من الناس وجعلهم منعزلين عنهم لا يختلط بهم غريب من تاجر او غيره لاجل تأمين حياتهم المعاشية وأمر ان يبنى في كل موضع المساجد والحمامات والاسواق وقد منع المعتصم هؤلاء الجند من مصاهرة الذين لا ينتمون الى اجناسهم لهــذا جلب لهم الجواري وزوجهم منهن ويبدو ان المعتصم كان يبغي من عمله هذا أمرين اولهما استمرار ولاء الجند له وذلك بالمحافظة على نقاء العنصر التركي بينهم وثانيهما المحافظة على العادات والتقاليد الموروثة لهم لئلا يفقدوا روح القتال التي يتمتعون بها ٠

أن بناء سامراء على هذه الصورة اتاح لها ان تصبح فيما بعد القاعــدة العسكرية الرئيسة للدولة العربية من سنة ٢٢١ هـ الى سنة ٢٧٩ هـ / ٨٣٦ ـــ ٩٨٢ م ٠

الموفقيـــة

على اثر استفحال حركة الزنج في جنوب العراق في عهد الخليفة المعتمد على الله رأى ولي العهد (الموفق) وكان قد تولى قيادة الجيش الذي إرسل للقضاء على هذه الحركة ان طبيعة حربه مع الزنج تحتم عليه بناء مدينة حربية لتكون قاعدة عسكرية متقدمة تؤمن له كل مايحتاجه من المؤن والرجال خاصة اذا علمنا ان خطوط مواصلاته الطويلة والبعيدة عن العاصمة بغداد تفرض ان يكون هناك قاعدة او معسكر يهيء الفرص لاعادة تنظيم القــوات القادمــة للحرب والتي زاد عددها على خمسين الف مقاتل بالاضافة الى الفرق الجديدة التي انضمت اليه فيما بعد ٠

وبعد ان لاحظ الموفق حصانة مدينة (المختارة) قاعدة الزنج الرئيسة تأكد لديه ان اي هجوم مفاجىء عليها يؤدى الى خسارته للحرب فقرر المطاولة في الحرب وامر ببناء مدينة على نهر ابي الخصيب وبازاء مدينة المختارة في سنة ٢٦٧ هـ / ٨٨٠ م سماها (الموفقية) وامر بحمل الميرة اليها من البر والبحر وانشأ فيها ديوانا للجند وكتب الى عماله في النواحي بارسال كل من يصح للاثبات في ديوان الجند واكثر من بناء السفن النهرية التي يحتاج اليها للتموين ولاعتراض سفن صاحب الزنج وقطع المؤن عنه واتخذ بها المساكن للجند وعوائلهم وبنيت فيها المساجد والاسواق ودور الضرب .

وهكذا اصبحت مدينة (الموفقية) معسكرا دائما للجند وقاعدة عسكرية توفرت فيها كل متطلبات الحرب الطويلة في مناطق المستنقعات والاهوار والاحراش الكثيفة ذات المسالك المعقدة وبذلك تمكنت الخلافة العباسية من تحرير جنوب العراق من اخطر الحركات السياسية التي واجهتها وهي حركة الزنج .

صنوف الجيش

كانت الدولة العربية الاسلامية ومنذ نشأتها تولي اهتماما كبيرا ببناء قواتها تنظيما وتسليحاً استعدادا لخوض معارك التحرير ومواجهة جيوش الاعداء والطامعين .

وكانت الصنوف البارزة والمعروفة في القوات العربية هي الخيالة (الفرسان) والرجالة (المشاة) والنشابون (الرماة) ومن خلال سير معارك التحرير الاولى في العصر الراشدى لا يمكننا القول بوجود وحدات خدمات متخصصة بواجب معين بل ان المقاتلين جميعا وفي اغلب الحالات كانوا يقومون بواجباتهم القتالية اضافة الى الواجبات الاولى كحفر الخنادق وتقديم الخدمات

الادارية من مؤن وذخيرة والقيام بنقل الاخبار عن العدو وتحركاته •

واذا اخذنا معركة القادسية كمثال على ذلك وجدنا ان المقاتلين انفسهم كانوا يتولون هذه الاعمال كافة اذ كانوا يحملون شهداءهم وجرحاهم خلف صفوفهم وتقوم النساء بمداواة الجرحى واسعافهم كما يقوم الصبيان والنساء بحفر قبور الشهداء ودفنهم وكان قادة الجند وفرسانهم وابطالهم ممن عرفوا بالفصاحة هـم القـراء والقصاص الذيـن يثيرون حماس الجنـد بخطبهم واشعارهـم •

ونتيجة الاحتكاك الحربي مع جيوش الفرس والـروم وتفاعل العـرب الحضاري مع الامم الاخرى وقابليتهم الفذة في التطـور والابتكار خـلال العصرين الاموي والعباسي ظهرت وحدات قتالية جديدة اقتضتها طبيعة المعارك وظروفها لزيادة القدرة القتالية للصنوف الرئيسة • ومع امتداد رقعة الدولة العربية الاسلامية وتنامي حجم قواتها اصبح مـن الواجب وجـود وحدات عسكرية اخرى تقوم بتهيئة كل مستلزمات المعركة من ادوات الحصار وفتح الطرق ونصب الجسور وتهديم الحصون والقلاع وانشاء المعسكرات وبنائها واخلاء الجرحى من ميدان المعركة واسعافهم ونقل الاخبار عن خطط العدو وتحركاتـه •

ولمعرفة كل صنف من هذه الصنوف ينبغي عدم تقسيمها الى صـنوف رئيسة وصنوف ثانوية كما هو المتعارف عليه في تقسيم صنوف الجيش لان جميع الصنوف مهمة وكل صنف منها يؤدي اعمالا وواجبات لا تقل اهميـة وخطورة عن واجبات الصنوف الاخرى وهي بمجموعها تشكل وحدة متكاملة وهذه الصنوف هي :

الفرســــان

لقد عرف العرب فضل الخيل وقيمتها واهميتها لحياتهم لانها كانت عدتهم في الحرب والغارات والكر والفر كما كانت عنوان مجدهم وفخارهم لذلك بالغوا في العناية بها وتحسين نسلها وحفظ انسابها حتى عرفت الخيول العربية بانها أجود خيول العالم •

ولما كان الجهاد ركنا أساسيا من اركان الاسلام فان العرب لم يجابهوا صعوبة كبيرة في اعداد الخيول للفرسان وقد كان المقاتل ينفر للحرب مع فرسه الذي عوده على شظف العيش والاكتفاء بالقليل من اوراق الشجر او العشب لذلك لم تتكلف الدولة او بيت المال شيئا ، ومما شجع الجند على اقتناء الخيول أن الاسلام جعل نصيب الفارس من الغنائم ثلاثة اضعاف نصيب الراجل كما وجه الخلفاء الراشدون عنايتهم بتهيئة كتائب الفرسان بالنظر للاهمية التي تحتلها كقوة فعالة تتحمل العبء الاكبر في القتال وعليها يتوقف تقرير النتائج النهائية للمعركة فخصصوا مساحات كبيرة من الاراضي لرعي الخيل والماشية وعينوا عمالا للاشراف عليها •

وحرصا من الخليفة عمر بن الخطاب (رض) على تهيئة قوة كافية من الفرسان للاستعانة بهم عند الضرورة خصص في كل مصر من الامصار اربعة الاف فرس وعين عليها من له دراية وخبرة في تربيتها ورعايتها وتدريبها لتكون عدة للطوارىء فكان سلمان بن ربيعة الباهلي مسؤولا عن رعاية خيل المسلمين في البصرة •

وبذل ولاة العراق خلال العصر الاموي جهودا كبيرة في العناية بكتائب الفرسان فكانوا يعرضون الخيل كما يعرضون الجند وينقصون عطاء كل فارس اهزل فرسه او اهمل العناية به فبدأ صنف الفرسان خلال العصر الاموي يزداد

قوة بتوالي انتصارات العرب في معاركهم ، ولم تمض فترة طويلة من قيام الحكم الاموي حتى اصبحت معظم القوة العربية الضاربة من الفرسان وذلك لشعورهم بأهمية هذا الصنف في المعركة .

ولقي صنف الفرسان اهتماما كبيرا من قبل العباسيين فكان قواد الجيش يوصون الجند بالعناية بخيولهم وتسمينها ثم ترويضها وتضميرها لتكون قوية شديدة التحمّل سريعة الجرى كما حرص قادة الجيوش على ابعاد الخيول الضعيفة او الهزيلة لئلا تعيق مسيرة الجيش فأذا اراد احد القواد ان يكشف الخيول الضعيفة في فرسانه فانه يضرب فرسه بالسوط فيركض ركضا شديدا يسبق بقية الفرسان بمسافة ميلين ثم يقف على مرتفع ينظر الى الذين لحقوه فمن لم يلحق به لضعف دابته رده الى المعسكر .

وكان للعباسيين ميادين كبيرة في الرقة والشماسية يدربون فيها خيولهم ويرسلونها الى حلبات السباق فكان لهذه المباريات اكبر الاثر في تحسين جنس الخيل . وبأعتماد العباسيين على الجند الاتراك زادت اهمية الفرسان في الجيش لان هؤلاء الاتراك كانوا فرسانا ماهرين كما اشار الى ذلك الجاحظ لذلك اصبحت فرق الفرسان تشكل العمود الفقري للجيش العباسي في حين لم يستعمل الحصان في فرقة مشاة الا في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) للتنقل او لانهم للقتال بعد ذلك .

وبالنظر للدور الكبير الذي يلعبه الفارس في المعركة فقد اشترطوا في الفارس ان يكون عارفا بالخيل وله معرفة بشيء من البيطرة وله دراية بالفروسية وما يجب على الفارس عند القتال من مقابلة العدو والثبات والمراوغة والاستطراد .

وتقع على الفرسان واجبات أهمها :

الهجوم : وكانت كتائب الفرسان العربية تستخدم في الاجنحة وكان ذلك يتيح لها حرية الحركة والمناورة والمرونة في الاستخدام .

الالتفاف : ويقع على الفرسان واجب الالتفاف على العدو من الخلف لارباك صفوفه •

المطاردة : واذا ما حلت الهزيمة بالعدو فعلى الفرسان واجب مطاردته والسيطرة على معسكره واثقاله وكان القواد يخصصون قوة احتياطية من الفرسان للقيام بهذا الواجب •

الاستطلاع : ومن واجب الفرسان ايضا الاستطلاع وهو ارسال مجموعة من الفرسان لاستطلاع خبر العدو والسيطرة على المناطق الحيوية •

الحماية : كما يقوم الفرسان ايضا بواجب حماية القطعات اثناء التعسكر واثناء المسير •

أما اسلحة الفرسان فكانوا يستخدمون الاسلحة الرئيسة وهي السيوف والرماح والقوس ببراعة حيث لم يستطع الخيالة الفرس استخدام السيوف وهم راكبون بينما كان العرب يجيدون ذلك وكان الفرسان يفاخرون باستخدام الرماح الطويلة التي تسمى (الخطل) وهو الرمح الذي يضطرب بيد صاحبه لافراط طوله وكان لا يحمله الا الفارس الشديد الذي اذا رآه عدوه هابه وحاد عنه وكانوا يستخدمون ايضا رماحا قصيرة تسمى (المطارد) تستخدم للرمي بها عن بعد •

ويلبس الفرسان الدروع والخوذ ويحملون في السروج تحت أرجلهم الفؤوس والدبابيس التي تستعمل في تهشيم الخوذ أما السرج الذي يركب عليه الفارس فله اجزاء متعددة كاللبد والابزين والحياصة والقبقب والمرشحة والركاب صممت لضمان قيام الفارس بمهامه على اتم وجه وتأمين الراحة اثناء التنقل •

الرجالة (المشاة)

وهم الجنود الذين يقاتلون وهم راجلون ويؤلفون القسم الاكبر من الجيش ويقع عليهم عبء الاصطدام المباشر مع العدو وقد امتاز الجند العرب الرجالة بقابليتهم على القتال في مختلف الاماكن وتحت مختلف الظروف وقد منحتهم طبيعتهم الصحراوية القاسية البأس والعزيمة ثم جاء الاسلام فمنحهم قوة الايمان والعقيدة فأصبح المقاتل العربي المسلم نموذجا للمقاتل الذي لا يهاب الموت في حين نرى اعداءهم من الفرس والروم كانوا رغم الاعداد الهائلة التي يدفعون بها الى المعارك يربطون جندهم بالسلاسل جماعات جماعات حذرا من فرارهم .

وفي العصر العباسي كان الجند الرجالة في حروبهم مع الروم او مع الخرمية في مناطق اذربيجان وأرمينية وآسيا الصغرى يجتازون الوديان والمضائق الخطرة ويصعدون الى رؤوس الجبال، وفي معركة عمورية قطعوا مئات الاميال وهم يدكون حصون الروم حتى وصلوا عمورية وفي معاركهم مع الزنج امضوا السنين الطويلة يجتازون الاهوار والاراضي الموحلة دون كلل او ملل حتى قضوا على هذه الحركة .

ان واجب الرجالة الرئيس هو الالتحام مع العدو وتحطيم قوته الرئيسية فهم يتقدمون بثبات وسكون ملقين الرعب في صفوف اعدائهم ولم تكن اصواتهم ترتفع بالتكبير الا عند حدوث ما يستدعي ذلك مثل قتل قائد العدو او فرار اعدائهم او عند الصولة النهائية حيث يكون للتكبير اثره في خلع قلوب الاعداء واضعاف روحهم المعنوية بعكس اصوات اعدائهم وخاصة الفرس التي لا تضير من تعودها لانها لا غاية لها ولا هدف .

وللرجالة واجب اخر هو التصدي لفرسان العدو وابطال فاعليتهم بعقر

خيولهم وهناك واجبات اخرى كالقيام بالحراسات ومسك المناطق الحيوية والقيام بواجب المسالح ٠

أما لباس الرجالة فتكون عادة من القمصان المحبوكة على اجسامهم الى ماتحت الركبة ويضعون على رؤوسهم الخوذ ويلبسون الدروع الواقية وقد يخصص لقائد الرجالة فرسا او دابة لكي تمكنه من سرعة الانتقال بين جنوده لاعطائهم الاوامر والسيطرة عليهم ٠

النشابون (الرماة)

وهم حملة الاقواس التي يرمون بها السهام او النشاب وقد برع العرب في استخدام القوس ثم فاقوا اعداءهم باستخدام هذا السلاح وكان للعرب فرق وسرايا من الرماة تجيد الرماية الى درجة كبيرة فقد كان لخالد بن الوليد فرقة من الرماة عند حصاره لاهل الانبار سنة ١٢ هـ /٦٣٣ م فأصابوا عيون كثير من الاعداء فسميت تلك المعركة بوقعة (ذات العيون) وكان لقتيبة بن مسلم فرقة من الرماة استخدمهم في معاركه في خراسان وماوراء النهر ويدعون بـ (المرامية) ٠

ورغم اشتهار العرب في العصر العباسي الاول بفن الرماية الا ان استخدام الاتراك الذين كانوا يجيدون الرمي بالقوس عزز من قوة فرق الرماة وكان لهذه الفرق دور كبير في حرب بابك الخرّمي فقد بعث القائد العباسي الرجالة النشابة خلف صفوف الخرّمية فقاموا بالهجوم المفاجيء عليهم ورميهم بالنشاب فكان لذلك اثر كبير في اختلال صفوف الخرّمية وبث الرعب في قلوبهم وانهزامهم ٠

كان للرماة دور كبير في المعارك وغالبا ماكانت المعارك تبدأ بالتراشق بالنبل لايقاع اكبر الخسائر في صفوف العدو لهذا يكون تأثيرهم في الدفاع

اكبر منه في الهجوم لان الرامي يكون في حالة الوقوف اكثر دقة في الرمـي والاصابة من الرامي المهاجم الذي يندفع بسرعة مما يؤثر على دقة اصابته لذلك كان استخدامهم في مسك المضائق والربايا ومن فوق الاسوار يكون اكثـر فائـدة .

المنجنيقيـون

وهم الجند الذين يرمون حصون الاعداء وقلاعهم بالمنجنيق عند الهجوم او رمي جيوش الاعداء من داخل الاسوار والحصون في حالة الدفاع ومـن هنا تظهر اهمية رماة المنجنيق كصنف له التأثير على سير الحروب لما تسـببه المقذوفات من تخريب او حرائق في حصون الاعداء او ارباك الجيوش المهاجمة.

استخدم العرب المنجنيق في وقت مبكر واول من استخدمه من العرب هو جذيمة بن مالك الابرش ملك المناذرة في الحيرة وقد استخدمت القوات العربية الاعداد الكبيرة من المجانيق في معاركها واصبح سلاحا عاديا يتخذه معظم القواد وعلى الاخص في حصار المدن وكان حجم بعض هذه المجانيـق كبيرا جدا فقد استخدام محمد بن القاسم الثقفي في حصار احدى مدن السند منجنيقا ضخما يسمى (العروس) يقوم على خدمته خمسمائة جندي من رماة المنجنيق وكان لقتيبة بن مسلم منجنيق كبير يسمى (الفحجاء) .

ثم برز اثر هذا الصنف في العصر العباسي في معركة عمورية فقد أمـر الخليفة المعتصم بعمل مجانيق كبيرة يعمل على كل واحد منها عدة رجال فكان لضرب المنجنيقات المتواصل لاسوار عمورية الاثر الفعال في هدم اسوارهـا واحراق مبانيها اما في حصار بغداد سنة ٢٥١ هـ /٨٦٥ م فأن اصحاب الخليفة المستعين بالله علقوا اهمية خاصة على هذا الصنف في صد الهجوم الذي قام به جيش الاتراك القادم من سامراء فقد وزعوا المنجنيقات على ابواب بغداد كافة وهكذا استطاعت بغداد ان تصمد فترة طويلة أمام الحصار الذي فرض

عليها بفضل رجال المنجنيق ولحق جيش الاتراك المحاصر لبغداد خسائر كبيرة بسبب رميه بالمنجنيق .

أن مثل هذه الاعداد الضخمة من المجانيق التي استخدمتها القوات العربية الاسلامية في حروبها لابد وان يتوفر لها الاعداد الكافية من رماة المنجنيق الذين يقومون بنصبها واعدادها وتهيئة الحجارة والمقذوفات لها اضافة الى العمال الذين يقومون بنصبها او اصلاحها لذلك كان القادة عند محاصرتهم للمدن يسارعون الى تهيئة الاعداد الكافية من المنجنيقيين والعمال وحيوانات النقل للتعجيل بنصب المجانيق واحضار الحجارة والمقذوفات وبدء العمل فورا لغرض التأثير على العدو .

والى جانب المنجنيقيين ظهرت طائفة الدبابين وهم مقاتلو الدبابات التي تستخدم في التقرب من اسوار العدو لغرض هدمها او احداث ثغرة فيها ولكن استخدام الدبابات خلال العصر الاموي كان قليلا بسبب عدم استخدام القوات العربية هذا الصنف على نطاق واسع اما في العصر العباسي فكان الدبابون يشكلون صنفا مهما فقد أمر الخليفة المعتصم عند حصاره عمورية بعمل دبابات كبيرة تسع كل واحدة منها عشرة رجال وتسير على عجل لغرض الاقتراب من اسوار عمورية وهدمها .

الفعلة (المهندسون)

ان استمرار معارك التحرير خلال العصر الاموي واتساع نطاقها وتطور اساليب القتال دعا الى ضرورة وجود طوائف وجماعات من العمال للقيام بالاعمال التي تتطلبها العمليات الحربية من فتح الطرق ونصب القناطر والجسور والمعابر وحفر الآبار وتنقيتها وقد اطلق على هؤلاء اسم (الفعلة) واطلق عليهم في العصر العباسي اسم (الكلغرية) وكانت وظيفة (صاحب الكلغرية) من المناصب

المهمة في الجيش العباسي اثناء الحروب فهم على اتصال دائـم بقائد الجيش لتلقي الاوامر والتعليمات منهم مباشرة او الايعاز بتنفيذها دون تأخير .

النفاطـــون

كان استعمال النفط في الحروب معروفا غير ان استعماله من قبل العرب في صدر الاسلام كان نادرا الا ان العباسيين برعوا في استعمال النفط والنار في القتال بعد ان لمسوا تأثيره الفعال في المعارك ولهذا ألحقوا بكل فرقة أو قطعة عسكرية جماعة من النفاطين يلبسون ملابس غير قابلة للاحتـراق ويقذفون بالنفط والمواد الحارقة على الاعداء .

وكان رامي النفط يلبس ثوبا خاصا اسمه (لباس النفاطين) لكيلا يصيب نفسه بأذى . قيل ان مخترع هذا الثوب جندي عراقي اسمه محمد بن يزيد ارتداه عندما اقتحم نيران مدينة هرقلة بعد وقوعها في ايدي جيوش الخليفة هارون الرشيد .

ويبدو ان النفاطين اصبحوا خلال العصر العباسي صنفا مهما من صنوف الجيش لا يمكن الاستغناء عنه .

والنفاطة هي الآلة التي تقذف النفط وكان هناك جماعة من الرجالـة النفاطين كانوا يقاتلون بقوارير النفط وهي زجاجات تملأ نفطا سريع الالتهاب وترمى على جنود الاعداء فيحترقون .

الكوهبانية (المخابرة)

الكوهبانية هم اصحاب الاخبار او المكلفون بواجب المخابرة بين قطعات الجيش فهم مكلفون بنقل الاخبار بين قطعات الجيش كافة واعطاء الاشارات الى امراء الوحدات العسكرية لاحاطتهم علما بكل ما يجرى في ساحة المعركة

وقد ورد ذكرهم كثيرا في الحروب مع الخرّمية وفي موقعة عمورية وكان هؤلاء الكوهبانية يعتمدون في نقل اخبارهم على تحريك الاعلام فيقفون على مشارف الطرق او المرتفعات وعند مشاهدتهم حركةغير اعتيادية يقومون بتحريك الاعلام بطريقة متفق عليها فيفهم قائد القطعةالعسكرية مضمون الخبر وكان للكوهبانية واجب آخر هو كشف وتعقيب الكمائن والدوريات التي يبعثها العدو ويعلمون قائد الجيش بها فيتخذ الحيطة والحذر • واستخدام الكوهبانية كأدلاء يرافقون القطعات المتقدمة ليدلوها على الطرق والمسالك الصحيحة ويقومون بحراستها ليــلاً •

الخدمات (النقل والتموين والطبابة)

ان توالي انتصارات العرب واتساع رقعة الدولة العربية الاسلامية خلال العصرين الاموي والعباسي ادى الى توفر الاعداد الكبيرة من الاسرى والرقيق فأمكن الاستفادة من هذه العناصر في انجاز كثير من الاعمال الخدمية كتأمين الطعام ونصب الخيم ونقل الامتعة والمهمات واقامة المعسكرات وتوفير المؤن والذخيرة •

وفي مجال النقل نجحت القوات العربية في تأمين متطلباتها من المــؤن والذخيرة والمعدات وايصالها الى مناطق القتال بواسطة قوافل الابل والبغال وقد ادت الابل للعرب اجل الخدمات في حروبهم فقد كانت اداة المواصلات والنقل وكان عليها المعول في قطع القفار واجتياز الصحارى وليس هناك من يتحمل السير الطويل والعطش في هذه المناطق غير الجمل فقد كان واسطتهم في نقل الخيام والامتعة الثقيلة وآلات الحصار •

أما في المناطق الجبلية فمن الطبيعي ان يستفيد العرب في نقل معداتهم من البغال والاستعانة باهالي تلك المناطق لهذا الغرض • واستخدم البريد في نقل الامدادات السريعة من الجند الى مناطق القتال في الحالات الطارئة •

وفي مجال خدمات التموين من الطعام والذخيرة اعتادت القوات العربية الاسلامية ان تتزود بالمؤن من المدن والقرى الواقعة في طريق تقدمها وكان بعض رؤساء القبائل او الفرسان المعروفون يتبارون في اطعام الجند على نفقتهم انطلاقا من روح الكرم المتأصلة في نفوسهم وكان هذا يؤدى في بعض الاحيان الى تحمل نفقات قد تكون باهضة فاتبعوا طريقة (التناهد) في الحرب وهو ان يخرج كل واحد منهم شيئا معلوما من طعام او شراب ويوزعوه على الجند فأذا نفد اخرج الثاني مثله وهكذا ...

وكانت قوافل الميرة والذخيرة في العصر العباسي كبيرة جدا تحتوي على مئات الابل والدواب مع الجند يحرسونها وكان قادة الجند يحرصون دائما على توفير الماء والزاد اثناء المعركة ويشرفون بانفسهم على تأمين الطعام للجند ويأمرون الجند الذين يصعدون الى رؤوس الجبال ان يأخذوا معهم الماء وجميع مايحتاجونه وكانوا يأمرون المسؤول عن حمل الماء ويسمى (صاحب الشراب) ان يتوسط المقاتلين ويحمل معه الماء لئلا يعطش الجند فيضطرون الى ترك اماكنهم والرجوع لشرب الماء .

أما في مجال الخدمات الطبية واسعاف الجرحى فأن وسائل العلاج والاسعاف كانت ترافق القوات الى مناطق القتال وفي معركة القادسية كان الخليفة عمر بن الخطاب (رض) يبعث العلاج للمقاتلين من اطباء وممرضين وخيم وأدوية .

ومن البديهي ان تزداد عناية العرب بأمور الجرحى من المقاتلين نتيجة لتطور نظامهم الحربي فظهرت المحامل لنقل الجرحى الى مواضع الاسعاف فكان الجريح يوضع على محمل من جلد او قماش بين خشبتين ويحمله رجلان .

وكان قادة الجيش خلال العصر العباسي يصطحبون معهم مجموعة من

الاطباء والممرضين لاسعاف الجرحي ومداواتهم او اخلائهم من ساحة المعركة ونقلهم الى مستشفيات الميدان بحملهم على النقالات المعدة لهذا الغرض •

وكانت المستشفيات المتنقلة عبارة عن خيم ونقالات ومعدات طبية تحمل على البغال اذا استخدمت في الاراضي الجبلية اما في الاراضي السهلة فكانت الجمال تتولى نقل هذه المعدات •

العيــون (الجواسيس)

العيون عناصر قتالية وهي وان لم تباشر القتال الفعلي فهي تقاتل العدو داخل صفوفه من خلال كشف خططه ونواياه • ويتوقف على المعلومات التي يقدمها العيون وضع الخطط الحربية لذلك فالعيون عناصر عسكرية تؤدى خدمات لا غنى عنها للقيادة •

وكان لمتاخمة القبائل العربية في العراق لدولة الفرس اثره في نجـاح المثنى بن حارثة الشيباني في الحصول على معلومات مسبقة ومبكرة لتحركات قوات الفرس فكان بنو شيبان بحكم منازلهم القريبة منهم واتصالاتهم معهم مادة صالحة لان يكونوا عيونا ترصد تحركاتهم التي كانت تصل الى المثنى في الوقت المناسب •

وقد عرف الخليفة عمر بن الخطاب (رض) قيمة العيون في الحصول على المعلومات ويظهر ذلك واضحا من رسالته الى سعد بن ابي وقاص التي يقول له فيها (واذا وطئت ارض العدو فأذك العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك امرهم وليكن عندك من العرب او من اهل الارض من تطمئن الى نصحـه وصدقه فأن الكذوب لا ينفعك خبره وان صدقك في بعضه والغاش عين عليك وليس عينا لك) •

وقد استطاع القادة العرب وضع الخطط العسكرية الصائبة المبنية على

المعلومات الدقيقة التي كان يقدمها لهم العيون سواء من العرب او من اهالي البلاد المحررة الذين اخلصوا النية والنصيحة للعرب والمسلمين .

ولخطورة مهمة العيون كانوا يحاذرون ان لا يعرفهم الجند او يشار اليهم بالاصابع ويحاولون ان لا يتعرف العيون بعضهم على بعض ولضمان ذلك كانوا يكلفون احد اعوان القائد بالاتصال بهم سرا دون ان يعرف احد بذلك ووضعوا شروطا قاسية لمن يختار لهذه المهمة كأن يكون ثقة كتوما وله خبرة والمام باحوال البلاد التي يتوجه اليها وان يكون صبورا على العقوبة والتعذيب اذا ظفر به العدو .

وقد بالغ العباسيون مبالغة كبيرة في استخدام العيون والتوصل بكل وسيلة الى كشف اسرار اعدائهم ومعرفة نواياهم مستخدمين في ذلك الرجال والنساء والغلمان من مختلف طبقات المجتمع فكانوا يسافرون الى مختلف الاقاليم متنكرين على هيئة تجار او اطباء او طلبة علم او غلمان او جوار ليتمكنوا من التغلغل الى الاماكن التي بعثوا اليها وليحصلوا على ما يريدونه من معلومات واسرار .

ان الدافع الاساس الذي دفع العباسيين الى المبالغة باستخدام الجواسيس هو وجود الامبراطورية البيزنطية التي تعتبر العدو الاول الذي يهدد كيان الدولة العربية الاسلامية واستخدام البيزنطيين للنصارى القاطنين على الحدود بين الدولتين للتجسس على احوال المسلمين ثم وجود الدول الاسلامية الاخرى كالامويين في الاندلس والفاطميين في المغرب والمماليك في مصر والشام وولايات الاطراف كالبويهيين والسامانيين والحمدانيين وغيرهم مما يدفع كل الاطراف الى استخدام العيون والجواسيس لرصد حركات الاخرين اضافة الى الحركات والفتن الداخلية التي كانت تدفع الدولة الى استخدام العيون لكشف المتمردين والثائرين والحركات المناهضة للدولة .

القــراء والقصاص

كان وجود بعض القراء والقصاص ضمن الوحدات المقاتلة ضروريا لغرض اثارة حماس الجند ورفع روحهم المعنوية فيقصــون عليهــم امجاد اسلافهــم ويزهدونهم في الدنيا ويرغبونهم في الشهادة وكان القراء يقرأون سورة الجهاد وهي سورة الانفال قبل بدء القتال عملا بالسنة النبوية لحث المقاتلين على الصبر والجهاد •

ولم يشكل القراء والقصاص خلال العصر الراشدي وحدات مستقلة في القوات العربية الاسلامية فقد كان قادة الجند وفرسانهم وابطالهم ممن عرفوا بالفصاحة والبلاغة وقوة البيان هم الذين يثيرون حماس الجند بكلمات موجزة بليغة ومؤثرة تلهب حماسهم وتثير فيهم حب القتال في سبيل العقيدة ففي معركة القادسية كان القارىء الذي يقرأ سورة الجهاد غلاما من القراء كان الخليفــة عمر (رض) قد بعثه مع سعد بن ابي وقاص • وكان القصاص هم ابطال العرب وفرسانهم وقادتهم منهم قيس بن هبيرة الاسدي وعاصم بن عمرو التميمي أخو القعقاع وربيع بن البلاد السعدي وربعي بن عامر •

واخذت ظاهرة استخدام القراء والقصاص خلال العصر الاموي تتوسع فكان القصاص ينتشرون بين الجند ويقصون عليهم امجاد اسلافهم ويلقون عليهم الشعر الحماسي وفي اواخر العصر الاموي اصبح القراء والقصاص من اهل العلم والفقه والدين وهم الذين يتولون حث الجند على الجهاد واثارة حماسهم وحميتهم فكانوا يتفرقون بين صفوف الجند ويحرضونهم على الجهاد ويذكرون فضله وبعد ان يصل الجند الى ذروة الحماس يرسل القائد الى القصاص بان يتنحوا جانبا ويخلوا بين الجند وبين عدوهم •

واتخذت وظيفة القاص او القارىء صفتها الرسمية خلال العصر العباسي شأنها شأن الوظائف الاخرى التي الحقت بالجيش كقاضي العسكر وصاحب شرطة العسكر وغيرهم •

التسليح

عرف العرب انواعا عديدة من الاسلحه وبرعوا في استخدامها لانها كانت عدتهم في الدفاع عن انفسهم ومواجهة اعدائهم وقد بذلت الدولة العربية الاسلامية منذ عهد الرسول (ص) اهتماما بالغا بالسلاح واعطته كل عنايتها وبذلت كل الجهود في سبيل اعداده وتوفيره وتطويره وفقا لمتطلبات واحتياجات المعارك .

كانت ابرز الاسلحة التي استخدمها الجيش العربي الاسلامي منذ عهد الرسول (ص) هي السيف والرمح والقوس اضافة الى الاسلحة الدفاعية كالدرع والترس والبيضة وكانت هذه الاسلحة هي عدتهم في الحرب لذلك برعوا في استخدامها براعة فائقة تتناسب مع روح الفروسية والشجاعة والتضحية التي كانت تميز حياتهم ولم يقف استخدام العرب للسلاح عند هذا الحد فقد تطلب التوسع الكبير في حجم القوات وطبيعة القتال مع جيوش الاعداء من الفرس والروم تطوير هذه الاسلحة واستخدام اسلحة جديدة تتناسب وحجم اعمالهم القتالية الكبيرة .

والملاحظة البارزة التي ظهرت في مجال استخدام العرب لمختلف الاسلحة هي براعتهم الفائقة في استخدام وتطوير الاسلحة الهجومية لان الاسلوب الهجومي التعرضي كان هو الاسلوب الغالب في كل الاعمال الحربية منذ عهد الرسول (ص) وحتى اوائل العصر العباسي وبلغت قابلياتهم في استخدام الاسلحة وتحسينها وتطويرها الى درجة جعلتهم يفوقون اعداءهم في استخدامها بكل كفاءة وبراعة .

اهتمام الدولة العربية بتهيئة السلاح كما ونوعا

عندما اطل العصر الاموي كانت كميات كبيرة من السلاح قد وقعت بايدي

المقاتلين العرب نتيجة انتصاراتهم المتتالية فكان هذا السلاح يوزع على المحاربين ويرسل الباقي الى قواعد الجيش الرئيسة في الكوفة والبصرة وواسط ليحفظ في خزائــن السلاح لهذا فقد توفرت في خزائن السلاح بخراسان على عهــد قتيبة بن مسلم كميات كبيرة من الاسلحة وآلة الحرب فكتب قتيبة الى الحجاج والي العراق ليستأذنه في دفع ذلك السلاح الى الجند فأذن له ٠

و في سنة ٨١ هـ/ ٧٠٠ م جهز الحجاج جيشا من مقاتلة البصرة والكوفة تعداده اربعون الف مقاتل وسيره الى سجستان لمحاربة الترك وجهز ذلك الجيش بكل ما يحتاجه من السلاح والعدة الكاملة حتى سمي ذلك الجيش (بجيش الطواويس) لحسن هيئتهم ٠

وكانت خزائن السلاح في العصر العباسي تحوي اصنافا لا تحصى من الاسلحة والآلات ويروي ابن الزبير في كتابه (الذخائر والتحف) ان خزانــة السلاح في خلافة السفاح كانت تحوي خمسين الف درع وخمسين الف سيف وثلاثين الف جوشن ومئتي الف رمح ٠

ومما يؤكد اهتمام العباسيين بالسلاح وجمعه والعناية به ان الفضل بن الربيع ذكر انه لمــا ولي الامين الخلافــة امره ان يحصي ما في الخــزائن من السلاح فأستدعى الكتاب والمشرفين على الخزائن واقام اربعة اشهر يحصي ما في هذه الخزائن من الآلات كل صنف على حدة وكان من جملة ما احصاه من آلات الحرب : عشرة الاف سيف مُحلى وخمسون الف رمح ومئة الف قوس والف درع خاصة وخمسون الف درع عامة وعشرة الاف بيضة وعشرون الف جوشن ومئة وخمسون الف ترس واربعة الاف سرج خاصة وثلاثون الف سرج عامة واربعة الاف قبة بآلاتها ومئة وخمسون سرادقا وهذا يفسر لنا مدى حرص العباسيين على جمع الاسلحة وتحسينها وخزنها ٠

وفي عهد الخليفة المقتدر بالله وصلت العناية بالسلاح وتزيينه الى درجة

التفاخر به امام الرسل الاجانب ويشير الخطيب البغدادي في كتابه (تاريخ بغداد) الى انه كان في قصر الفردوس من الآلات ما لا يحصى ففي دهاليزه عشرة الاف جوشن مذهبة معلقة وفي ممر طويل طوله ثلثمائة ذراع كان هناك نحو من عشرة الاف درقة وخوذة وبيضة ودرع وجعبة محلاة على جانبيه .

انـواع الاسلحة

تنقسم الاسلحة التي استخدمتها القوات العربية الاسلامية بحسب طبيعة استعمالها الى اسلحة هجومية واسلحة دفاعية ، وتنقسم الاسلحة الهجومية الى : اسلحة خفيفة واخرى ثقيلة .

آ ـ الاسـلحة الخفيفـة

السـيف :

وهـو اشهر اسلحة العرب واقدمها واشرفها وافضلها عندهـم حتـى امتلأت بذكره اشعارهم وأخبارهم وهو عندهم عنوان البطولـة والفروسية فكانوا يجيدون استخدامه في القتال والمبارزة فرسانا ومشاة واشهر السيوف العربية مـا كان يصنع من الفولاذ واشتهرت السيوف اليمانيـة بانهـا اشهر السيوف ثم الهندية .

كانت السيوف التي استخدمها الجيش العربي الاسلامي منذ الصدر الاول وحتى نهاية العصر العباسي مستقيمة وذات حدين وان نصالها تنتهي بطرف مدبب مثلث الشكل ويبدو ان السيف المستقيم كان هو السائـد بين اسلحـة الحضارات القديمة فالسيف القديم الذي استخدمته شعوب الشرق العريقـة في الحضارة كالاشوريين كان مستقيم الشكل كما يتضح من نقوش الاثـار القديمة وبذلك يكون العرب والعراقيون بصورة خاصة قد حافظوا على الشكل المستقيم للسيف العربي الذي ورثوه عن حضارتهم القديمة .

وكانت أغمدة السيوف تغلف ببطائن تسمى (الخلال) ولها حمائل وتزين الاغمدة بحلق مستديرات تسمى الرصائع •

الرمــح

ولا يقل الرمح اهمية عن السيف فهو من اسلحة العرب المشهورة وكان يتسلح به الفرسان والرجالة •

والرمح عبارة عن قناة من خشب الزان او الشوحط ركب في رأسها سنان من الحديد واحسن الرماح ما كان متينا ومرنا ومستقيما لضمان عدم انكساره عند الطعن به •

وكان الرجالة يستخدمون الرماح الطويلة للقتال بها وخاصة عند المضائق او الخنادق اما الجند الاتراك في العصر العباسي فكانوا يستخدمون نوعا من الرماح القصيرة تسمى (المطارد) وهي قناة قصيرة واستخدمت بعض فرق الفرسان العباسية انواعا من الرماح تسمى المزاريق او القنطاريات وهي ليست طويلة واسنتها قصيرة وعريضة •

القــــوس

سلاح قديم استخدمه العرب ببراعة واستطاعوا ان ينتزعوا من خصومهم ميزة التفوق في استخدامه وهو السلاح الرئيس لصنف النشابين (الرماة) وكان يتسلح به الفرسان والرجالة ايضا •

والقوس عود يتخذ من خشب النبع وهو خشب لين متين ويقوس كالهلال ويثبت فيه الوتر لغرض رمي السهام او النشاب ونتيجة للتطوير الذي احدثه العرب على القوس ظهر نوع يسمى (القوس العربية) وتسمى ايضا (قوس الحسبان) لانها ترمي عدة سهام مرة واحدة فاذا دفعها الوتر خرجت كالجراد المنتشر دفعة واحدة فلابد ان يصيب واحد منها الهدف •

وظهرت في العصر العباسي انواع اخرى من الاقواس منها ما يسمى بالاقواس (الناوكية) او اقواس (الزيار) وهي من اشد الاقواس رميا ويحتاج الى شد وترها عدد من الرجال وقد ورد في تاريخ الطبري ان سهام هذه الاقواس من القوة بحيث ان السهم الواحد يمكن ان يصيب اكثر من شخص واحد •

كما طور العباسيون نوعا اخر من الاقواس تسمى باقواس الابراج المتعددة الجهات ويتم نصب هذه الاقواس على الجهات الاربع للبرج في كل جهة قوس ولكل قوس مجراة للسهام وتلتقي هذه المجاري في قفل واحد ويوضع في كل مجراة ثلاثة او اربعة اسهم ويرمى في هذه القسي الاربعة جندي رام واحد فتخرج في دفعة واحدة بضعة عشر سهما فيظن ان في ذلك البرج عدة رجال •

ومن اجزاء القوس الوتر والسهم والجعبة التي توضع فيها السهام ويحملها الرامي على ظهره •

الدبوس

وهو عبارة عن هراوة من الحديد في طرفها كتلة صغيرة فيها نتوءات تستعمل في تهشيم الخوذ المعدنية ويحملها الفرسان في السروج تحت ارجلهم وقد شاع استعمالها في العصر العباسي كثيرا •

المقلاع

وهو عبارة عن كفة توضع فيها القذيفة وهذه الكفة مربوطة بثلاثة حبال او سيور متينة تمسك من اطرافها وبعد تدويرها مرات باليد يفلت طرف واحد من الحبال فيقذف ما في الكفة الى بعد عظيم بقوة وقد استخدم العيارون هذا السلاح في بغداد كثيرا وبرز استخدامه اثناء حصار بغداد سنة ٢٥١ هـ /

٨٦٥ م وقتالهم للجند الاتراك وكان بعضهم يجيد الرمي بهذا السلاح ولا يخطيء مرماه •

ب ـ الاسـلحة الثقيلـة

وهذه الاسلحة تمتاز بتأثيرها الفعال والواسع اثناء الحرب لما تسببه من تخريب وهدم وحرائق ويقوم باستعمالها مجموعة من الجند وهذه الاسلحة هي :

المنجنيـق

سلاح فعال ذو تأثير بالغ في تهديم الاسوار والحصون واشعال الحرائق وقد استخدم هذا السلاح الفعال من قبل الجيش العربي الاسلامـي طيلـة العصرين الاموي والعباسي وعلى نطاق واسع وبكفاءة عالية •

والمنجنيق عبارة عن قاعدة من الخشب السميك يرتكز عليها عمود خشبي سميك في رأسه كفة لوضع المقذوفات ويشد هذا العمود الى الاسفل بواسطة اقواس او لوالب متينة فاذا أريد الرمي به سحب العمود الى الاسفل بواسطة اللوالب ثم يفلت فجأة فيصطدم بعارضة خشبية قوية امامه فيرمي ما بداخل الكفة الى مسافات بعيدة •

وقد استخدمت في العصر الاموي انواع ضخمة من هذا السلاح فقـد استخدم محمد بن القاسم الثقفي في الهند منجنيقا ضخما يدعى العروس يعمل عليه خمسمائة رجل وكان لقتيبة منجنيقا كبيرا يسمى (الفحجاء) واستخدم المنجنيق ايضا لرمي المقذوفات النارية لاشعال الحرائق وارباك العدو والحاق الخسائر به •

وقد اتخذ الجيش العباسي انواعا عديدة من المجنيقات ففي معركة عمورية طلب المعتصم صنع منجنيقات كبيرة تسير على عجل ويتولى الرمي بها عدة رجال

واستخدم المدافعون عن بغداد اثناء حصارها سنة ٢٥١ هـ /٨٦٥ م من قبل الجند الاتراك منجنيقات كبيرة نصبت على اسوارها وابوابها وكان احد هذه المنجنيقات الكبيرة يسمى (الغضبان) •

واستخدم ابو احمد الموفق ولي عهد الخليفة المعتمد على الله وقائد الجيوش العباسية في حربه للزنج انواعا من المنجنيقات منها ماكان محمولا على السفن لضرب معسكرات الاعداء وتجمعاتهم •

وهناك انواع اخرى من المجانيق استخدمها العباسيون في حروبهم منها ما يستعمل لرمي السهام او لرمي قدور النفط او الكرات المشتعلة لاحراق الحصون او لرمي سلال العقارب او الرماد وغيرها من المواد المتعفنة •

اما (العرادة) فهي آلة أصغر من المنجنيق تستخدم لرمي الاحجار الى مسافات بعيدة لغرض هدم الاسوار او ضرب المعسكرات او الجند المهاجمين •

الدبابـــة

هيكل ضخم من الخشب السميك قاعدته مربعة الشكل وجوانبه مغطاة بالجلود او اللبود لحماية الجند الذين يعملون داخل الدبابة وتركب على اسطوانات او بكرات ويدفعها الجند فتتحرك وتدب على الارض ، والغرض منها التقرب الى اسوار الاعداء لهدمها و احداث فجوة فيها •

وكان استخدام هذا السلاح خلال العصر الاموي على نطاق ضيق وذلك لان القوات العربية الاسلامية كانت في تقدم مستمر وسريع لا يسمح لها بحمل هياكل الدبابات الكبيرة خاصة اذا علمنا ان هذه القوات كانت تنسحب الى قواعدها الرئيسة في وقت الشتاء اضافة الى وعورة الاراضي وخاصة في الاقاليم الشرقية واخيرا سهولة تعرض الدبابة الى اسلحة ونيران العدو خلال تقربها من مواقعه واسواره في حين ان المنجنيق يمتاز بثبات موقعه وبعده عن تأثير أسلحة العـدو •

اما في العصر العباسي فقد زاد استخدام هذا السلاح على نطاق واسع واستخدم المعتصم اعداداً كبيرة من الدبابات في معركة عمورية الا انها لم تكن فعالة بسبب ضخامتها او صعوبة حركتها وتعلق جلود الحيوانات التي طرحت في الخندق بين عجلاتها مما اعاق حركتها ٠

وهناك نوع من الدبابات يسمى (رأس الكبش) يمتاز بوجود عمـــود افقي من الخشب يركب فيه رأس من الحديد يشبه رأس الكبش ويتدلى هذا العمود من سطح الدبابة من موضعين بسلاسل حديدية او حبال قوية ويتم العمل بتعاون الرجال داخل الدبابة على دفع العمود بقوة باتجاه السور لمرات عديدة لتهشيم حجارته ٠

الابـــراج

ويمكن اعتبار البرج نوعا من انواع الدبابات فهو هيكل خشبي يمتاز بعلوه المرتفع ويتألف من طبقات او ادوار يوصل اليها بسلالم ويستعمل للعبور الى الاسوار لذلك فهو ينتهي بطرفه من الاعلى بقنطرة خشبية متينة يمكن القاؤها على السور ليعبر عليها الجند اثناء الهجوم ويكون البرج في العادة مربع الشكل ويراعى ان يكون عريضا من الاسفل وضيقا من الاعلى لتحاشي انقلابـــه ٠

ســـلالم الحصـــار

وهي سلالم عريضة من الخشب توضع على الاسوار ليتسلقها الجنـــد ويعبروا الى داخل الحصن وهناك نوع اخر من هذه السلالم عبارة عن حبل متين في رأسه كلاب يرمى على السور فيتعلق به ثم يبدأ الجنود بتسلق السور بواسطة الحبل حتى يصلوا الى اعلاه ٠

ونتيجة لتطور اساليب القتال اصبحت هذه السلالم من الخشب وكان بعضها من الضخامة بحيث انها كانت تسير على عجل وفي هذه الحالة تكـــون

على شكل مثلث قائم الزاوية يلصق الضلع القائم على الاسوار فيكون الوتر هو السلم الذي يصعد عليه الجند ، وتركب القاعدة على عجل او بكرات .

السفن والزوارق النهرية

شاع في العصر العباسي استعمال السفن والزوارق النهرية في الحروب وقد تفنن العباسيون في صناعة انواع مختلفة من هذه السفن واستخدموها في حروبهم سواء لنقل آلات الحرب او شحنها بالمقاتلين والرماة واطلقت على هذه السفن اسماء عديدة كالسميريات والشذاءات والحراقات والبوارج والطرادات والطيارات ... الخ وقد ذكر الخطيب البغدادي ان عدد هذه السفن بلغ في ايام المعتمد على الله ثلاثين الف سفينة وكان اكثر هذه الانواع استخداما في القتال هي (الشذاءات) وكانوا يعملون لها مظلات من خشب تغلف بجلود الجاموس وتطلى بمواد تمنع احتراقها،واستخدم الموفق هذه الانواع من السفن في حربه للزنج في الاهوار واستخدمت في نهر دجلة السفن التي تسمى (البوارج) وهي سفن كبيرة تسع كل منها خمسة واربعين رجلا ما بين مقاتل ونفاط وجذاف .

الاسلحة والوسائل الدفاعية

وتنقسم الى قسمين :

آ ـ الاسلحة الدفاعية الخفيفة

الدروع

وهو سلاح قديم عبارة عن ثوب ينسج من حلقات حديدية متداخلة تدعى الزرد ويلبس على الصدر والظهر والبعض الاخر من الدروع عبارة عن صدر لا ظهر له كان يلبسه ابطال العرب وفرسانهم دلالة على الشجاعة

والثبات في القتال ، فقد كان الامام علي (رض) يلبس درعا لا ظهر له فقيل له في ذلك فقال : اذا استمكن عدوي من ظهري فلا يبقي •

وقد لبس الجند العرب الدروع بمختلف انواعها بعد توالى انتصاراتهم ووقوع اعداد كبيرة من اسلحة العدو في ايديهم وتعتبر البيضة (الخوذة) من ملحقات الدرع وهي غطاء من حديد يغطي الرأس لحمايته من ضربات السيوف او الحجارة ثم استخدموا (المغفر) وهو عبارة عن نسيج من حلقات يتدلى على الوجه والرقبة لحمايته وله فتحتان امام العينين لتأمين الرؤية •

الترس

وهو آلة دفاعية تتكون من صفيحة من الجلد او الخشب او الحديد يحملها الفرسان او الرجالة لحمايتهم من سيوف الاعداء او رماحهم او سهامهم وفي معركة القادسية كان العرب يحملون نوعا من التروس تسمى (الجحفة) ويبدو ان هذه التروس كانت تصنع من الجريد او الخشب ثم تغطى بالجلود •

ثم توسع العرب في استخدام انواع من التروس منها المدور او المستطيل الذي يستر الفارس او الراجل •

ب ـ الاسلحة والوسائل الدفاعية الثقيلة

وهي كل ما يتخذ من تحصينات دفاعية لتأمين الحماية للمعسكرات او المدن سواء كانت هذه التحصينات طبيعية او من عمل الانسان •

ومع ان الاسلوب الهجومي التعرضي كان هو الاسلوب الغالب في العمليات الحربية خلال العصرين الراشدي والاموي الا ان العرب لم يغفلوا او يهملوا الاساليب الدفاعية لضمان حماية المدن والمعسكرات ومع ذلك لم يوجه العرب كل اهتمامهم الى بناء القلاع او الحصون لان ذلك سيجعلهم في موقف دفاعي وهذا يخالف طبيعتهم القتالية ولم تتخذ القوات العربية من هذه الوسائل الا ما هو ضروري •

أما أبرز التحصينات التي اتخذها الامويون في الاقاليم الشرقية فهي الخنادق وهي من الوسائل الدفاعية السريعة والتي لا تكلف جهودا كبيرة ولا يتطلب الخندق سوى حفر اخدود يحيط بالقلعة او المعسكر ويراعى عند الحفر اخراج التراب او الرمال او الصخور ناحية المعسكر او الحصن ليكون ساتراً يحمي الجنود ويضمن عدم اعادة ردم الخندق من قبل العدو ويعتبر المهلب بن ابي صفرة من ابرز القادة الذين استخدموا الخنادق في حروبه وخاصة مع الخوارج كما استخدمها العباسيون ايضا في حروبهم وعند بنائهم للمدن والحصون مثل بغداد وسامراء •

وتعتبر الحصون من الوسائل الدفاعية المهمة وليس المراد بالحصون القلاع العالية البناء والمحاطة بالاسوار فقط وانما تشمل ايضا العوارض الطبيعية التي يمكن الاستفادة منها لكسب المعركة كالجبال والانهار والاراضي الموحلة وغياض الشجر ، وان سر انتصار القادة العباسيين في معاركهم خلال العصرين الاول والثاني يكمن في قابلياتهم العظيمة وقدراتهم الهائلة في الافادة من طبيعة الاراضي التي كانوا يقاتلون عليها واستخدامها كسلاح يضاف الى اسلحتهم الاخرى كاستخدام الاهوار والمستنقعات في مطاردة الزنج وسد الطرق عليهم وكذلك استخدام المناطق الجبلية وممراتها في مطاردة الخرّمية والقضاء عليهم •

الحسك الشائك

وهو قطع حديدية صغيرة لها شوكات كيفما وقعت على الارض برزت منها شوكة واحدة وكان ينثر حول المدن والمعسكرات والمسالك والخنادق ليكون كالمانع فأذا هجم العدو وسار عليه تعلقت تلك الشوكات في حوافر الخيل او ارجل المشاة فتعيقهم عن الحركة •

وقد عرف العرب اهمية الحسك كوسيلة دفاعية حيث استخدمه

الرسول (ص) في حصاره للطائف وكان عبارة عن خشبتين مسمرتين تتألف منها اربع شعب فأذا رمي في الارض بقيت منه شعبة بارزة •

أما الحسك الـذي يصنع من الحديد فقد عرفه العـرب خلال معارك التحرير في العراق ثم اخذوا يستخدمونه في حروبهم فصار لهم صناع يصنعونه ويفرشونه حول الخنادق او المدن او المعسكرات تاركين طرقا لا يعرفها سواهم ليقوموا منها بالهجوم المضاد اذا دعت الحاجة •

واستخدمه العباسيون في حروب بابك الخرّمي فكان القائد العباسـي اذا اراد ان يقيم معسكرا لجنده فأنه لا يحفر خندقا لان ذلك يستغرق وقتـا لا يمكن التضحية به فيأمر عند ذلك بنثر الحسك الشائك حول المعسكر •

ومن التحصينات الدفاعية التي استخدمها العباسيون عمل حفر صغيرة حول المعسكرات او القطعات العسكرية وتغطى بقصب او قضبان ويوضـع فوقها التراب لاخفائها فاذا سارت عليها الخيل تعثرت وسقطت على الارض •

التعبئة واساليب القتال

التعبئة تعني الاستخدام الافضل للاسلحة والقطعات في المعركة مع حشد جميع الطاقات المادية والمعنوية اللازمة لتحقيق النصر وتعتبر الآية الكريمـة (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عـدو الله وعدوكم) المرتكز الاول الذي استندت اليه التعبئة العربية الاسلامية •

وقد عرف العرب التعبئة في معاركهم قبل الاسلام حيث كانوا يجيدون قتال الكر والفر وكانوا يقومون بالهجوم المباغت والانسحاب بسرعة وتنفيذ اعمالهم القتالية بهجمات حاسمة وسريعة وكان من عادة العرب في قتال الكـر والفر اتخاذ قاعدة امينة من الاثقال والحيوانات تكون خلف المقاتلين ينطلقون منها في كرهم ويلجأون اليها في فرهم لادامة زخم القتال وتسمى هذه الطريقة

التعبوية (بالمجبوذة) وقد اعتمد العرب هـذا النظام لانـه ملائـم لطبيعة الصحراء التي يعيشون فيها •

وعندما جاء الاسلام حدث تطور جذري في اساليب القتال وفن الحرب فقد وضع الرسول (ص) نظاما للقتال في ضوء ما أمره الله تعالى به في كتابه (ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) فتحول القتال من نظام الكر والفر الى نظام الصفوف او الزحف وفي هذا النظام ترتب الصفوف وتسوى كما تسوى صفوف الصلاة وبهذا النظام الذي يصفه ابن خلدون بانه (اصدق في القتال وارهب للعدو) حدث تحول جديد في اسلوب الحرب فقد واجه العرب به اعداءهم من المشركين واليهود فكان مفاجأة لهـم وسببا من اسباب انتصار العرب في معاركهم الاولى •

وهنا يظهر التشابه التام بين نظام الصفوف في القتال ونظام صلاة الجماعة بالمسجد ففي كلتا الحالتين تسوى الصفوف بدقة ويسود الصمت ولا يرتفع الصوت الا بالتكبير وتسد ثغرات الصف الاول من الصف الذي يليه ويخضع المصلون لاشارة الامام خضوع الجند لامر القائد •

واسلوب القتال في نظام الصفوف هو ترتيب المقاتلين في صفوف مستوية متعاقبة وكان رجال الصف الاول وهم المسلحون بالرماح الطويلة يجثون على ركبهم ويحمون انفسهم بالتروس من نبال الاعداء ورماحه ويغرسون رماحهم الطويلة في الارض موجهـين رؤوسها باتجاه العدو ويتمركز النبالون خلف حاملي الرماح ويرمون العدو المهاجم من فوق رؤوسهم •

وكان عدد الصفوف يتوقف على عدد المقاتلين وعلى رأى القائد ومايتطلبه ظرف المعركة ففي القادسية كان عدد الصفوف ثلاثة صف فيه الرجالة اصحاب الرماح والسيوف وصف فيه الرماة وصف فيه الخيالة وهم امام الرجالة ويفهم من هذا الترتيب ان الفرسان كانوا يقفون اماما والى الجانبين لتمكين الرماة من مزاولة عملهم وللقيام بحماية الجانبين •

ويبدو ان هذا الاسلوب من القتال لم يكن غريبا على العرب وخاصة القبائل التي كانت تجاور الفرس فقد وصف البلاذري قبيلة ربيعة بقوله (وكانت ربيعة قوما ادركهم الاسلام وهم أهل حروب فكانوا يصفون صفين فيقاتل صف ويقف صف فاذا ملوا القتال وقف هؤلاء وقاتل هؤلاء) •

وهناك انواع من الصفوف كانت تتخذ اثناء القتال بحسب ماتمليه ظروف المعركة او تتحكم في ذلك طبيعة الارض وهي :

آ ـ الصف المستوى : ويعتبر اوثق الصفوف واثبتها عند القتال ويكون فيه الجناحان والقلب في خط مستقيم •

ب ـ الصف الهلالي : وهو الخارج الجناحين الداخل القلب وهو اوثق للقلب واضعف للجناحين لذلك كانوا يضعون قوة من الخيالة في كل طرف من الجناحين •

جـ ـ الصف المعطوف : وهو الخارج القلب الداخل الجناحين وهو اضعف للقلب واقوى للجناحين لذلك كانوا يضعون قوتين من الخيالة امام طرفي القلب •

وقد ظل العرب يعملون في قتالهم بنظام الصفوف الى ان تحولوا الى نظام الكراديس وهو تقسيم الجيش الى عدة كتل تدعى كل كتلة منها كردوسا تعداده الف جندي •

أن تحول العرب من نظام الصفوف الى نظام الكراديس يعود الى عدة اسباب منها اتساع رقعة الدولة العربية الاسلامية وتزايد اعداد الجند فأصبح من الضروري تقسيم الجيش الى وحدات او مجموعات متعارفة ليسهل السيطرة عليها ثم لغرض احكام القيادة عن طريق التسلسل القيادي واخيرا اضطرار العرب الى مجابهة العدو بتنظيم مماثل وقد بدأ ذلك واضحا منذ معركة اليرموك التي قادها خالد بن الوليد وقسم قواته الى كراديس وقد ظل العرب

يعملون بنظام الصفوف ونظام الكراديس معا حتى جاء مروان بن محمد آخر خلفاء بني اميه فأبطل القتال بالصفوف واعتمد نظام القتال بالكراديس الذي كان شائعا آنذاك بسبب استمرار محاربة العرب للروم فترة طويلة ولملاءمة هذا النظام لطبيعة الاعمال الحربية وقد سار الجيش العباسي في اساليبه القتالية على هذا النظام واضافوا اليه اساليب قتالية جديدة املتها عليهم طبيعة الارض وتأثير السلاح .

الاساليب التعبوية في القتال

برع العرب في ممارسة مختلف اساليب القتال في جميع صفحات المعركة براعة ادهشوا بها خصومهم وتوصلوا الى وضع مفاهيم جديدة في القتال واساليب تعبوية جديدة دلت على عبقريتهم وامكانياتهم القتالية العالية ولغرض تتبع الاساليب التعبوية في القتال يجب استعراض صفحات المعركة كالاستطلاع والتقدم والهجوم والدفاع والانسحاب والمطاردة لمعرفة الاساليب التي استخدمها العرب في كل صفحة .

الاستطلاع (الطليعة)

لا يمكن لاية قوة عسكرية ان تباشر القتال دون ان يكون لها (طليعة) وهي قوة منتخبة من الفرسان الشجعان ذوي البأس والخبرة في الحرب تتقدم القوة العسكرية لتستكشف اخبار العدو وتحركاته واستعداداته واعطاء المعلومات الى قائد الجيش لغرض اتخاذ الاحتياطات اللازمة والتهيؤ لكل طاريء وقد امتازت الطلائع العربية بالخفة وسرعة الحركة .

المسير او (التقدم)

سلكت القوات العربية الاسلامية اثناء تقدمها طرقا ومسالك واودية ومضائق وعرة وخطرة واستطاعت هذه القوات وتحت كل الظروف اجتياز هذه

الطرق بكل أمان وحقق العرب بذلك مبدأ سلامة القوات او الامن معتمدين في ذلك على شجاعتهم وصبرهم وقوة تحملهم وحذرهم وخفة حركتهم .

ولما كان المسير او التقدم مرحلة من مراحل المعركة لذلك كانوا يحاولون ان لا يستنزف المسير قوة المقاتلين حتى يستطيعوا ملاقاة العدو وهم غير مجهدين لذلك كانو يأمرون جنودهم ان لا يتخذوا من المتاع الا ماخف وزنه وعظمت نكايته لئلا تأخذ الاثقال من قوتهم وقابليتهم وكان زياد بن ابيه يوصي قواده دائما بان يتجنبوا في حروبهم مع العدو (الشتاء وبطون الاودية) لان المسير في الشتاء يتطلب احمالا واثقالا اضافية من الزاد والفرش والاغطية والخيم مما يضيف عبئا جديدا على المقاتلين وكان قتيبة بن مسلم يقول لجنده (اني اغزيكم قبل ان تحتاجوا الى حمل الزاد وانتقلكم قبل ان تحتاجوا الى الادفاء) وكان الخليفة مروان الثاني يوصي دائما بعدم زيادة اثقال الجند عند المسير لان ذلك يدخل السآمة في نفوسهم ويشغلهم عن عدوهم .

وكان القادة يحرصون دائما على تأمين شروط الحيطة والحذر لقواتهم حتى لا تباغت بهجوم مفاجىء من العدو فكان مسير قطعاتهم دائما على شكل رتل يتألف من مقدمة (طليعة) ومجنبتين (ميمنة وميسرة) وساقة لتأمين الحماية من جميع الجهات اما القوات الرئيسة والشؤون الادارية فتوضع وسط هذا التشكيل بحيث تحيط بها قوات الحماية من جميع الجهات مع الاهتمام بالساقة وتقويتها بالفرسان مع كامل اسلحتهم ليكونوا على استعداد تام لرد اي خطر قد يلحق مؤخرة القوات . ولتأمين الحماية للقطعات كانوا يرسلون مجموعة من المقدمة تكون طليعة لكي تستكشف الطريق ولتتحقق من عدم وجود كمائن وارصاد للعدو والاستعانة بالفعلة (المهندسين) لاصلاح الطرق وقطع الاشجار واقامة الجسور والمعابر ولتسهيل الطرق لمسير القطعات .

ولما كان الجند يختلفون من حيث القابلية على المسير والتحمل كان القادة

ينظرون الى اضعف الجند سيرا فيسيرون بسيره لتأمين الراحة فيالمسير وليكون في مقدورهم التهيؤ للقتال عند الضرورة •

وكان الحرص على أمن القطعات اثناء المسير من ابرز صفات القادة العرب كالمهلب بن ابي صفرة الذي عرف بالحيطة والحذر وخاصة مع الخوارج الذين لم يستطيعوا ان يجدوا منه غرة او غفلة ، وعبدالرحمن بن محمد بن الاشعث الذي سيره الحجاج الى سجستان فأستطاع تأمين سير قطعاته وتقدمها باستخدام الارصاد ووضع المسالح على المضائق والشعاب والاماكن الخطرة وكان يمنع الجند من التوغل في ارض العدو حتى يجترئوا على طرقها ويتعرفوا عليها ويعتادوا على شتائها القاسي •

أما في العصر العباسي فكان مسير قطعات الجيش على جانب عظيم من الروعة والتنظيم فيقول فون كريمر (اذا سارت في المقدمة قوة من الفرسان الخفيفة بدروعها الحديدية البراقة وبيضاتها الحديدية المتلالئة مع رماحها الطويلة التي تزين رؤوسها ريشة سوداء من ريش النعام كان يصاحب المقدمة الرماة بلونهم الاصحن وبنيتهم القوية ويجرون بحيث يلاحقون الخيل وفي الوسط يسير المشاة مسلحين بالمزاريق والسيوف والدروع وفي صحبتهم الاف الابل تحمل المؤن والخيام والعتاد على حين يتبعهم من الخلف ادوات الاسعاف والنقالات للمرضى والجرحى محملة على الابل ومعها آلات الحرب) •

وكان حمل الماء في المسير ضرورة لابد منها فكان بعض العارفين بأمور الحرب ينصحون القواد بقولهم (ولا يفوتنك حمل الماء ولو كنت على شاطىء نهر) •

التعسكر (اقامة المعسكرات)

اذا ما أرادت القطعات المتقدمة ان تنزل موضعا للتعسكر اما بسبب حلول الظلام او لاراحة الجند توخى القائد في ذلك الموضع مزايا وصفات لابد منها

كتوفر الناحية الامنية وتوفر المياه والمراعي والحطب مع الاستفادة من العوارض الطبيعية كالتلال والجبال والانهار كموانع ضد هجمات الاعداء المباغتة وكان نزول القطعات في المعسكر يتم بترتيب خاص ومعروف مسبقا بحيث ان كل صنف من الاصناف او قائد من القواد يعرف مكانه وفي اية جهة من المعسكر وذلك لضمان عدم ارتباك الجند عند نزولهم ونصب خيامهم وليسهل على كل واحد معرفة مكانه عند دخوله وخروجه •

ثم تبدأ مرحلة تحصين المعسكر وحمايته كحفر الخندق حوله ونشر الحراسات خارجه في المناطق الخطرة التي يحتمل قدوم العدو منها واذا ما حان وقت الرحيل وتقويض المعسكر كانوا يسارعون الى تهيئة قوة كافية على جانبي المعسكر لرد اي هجوم مفاجيء من قبل العدو الذي يحاول استغلال انشغال الجند بتقويض المعسكر •

ونتيجة لتطور الجيش خلال العصر العباسي كان القادة يولون عناية خاصة بعملية التعسكر من خلال تأمين الراحة للجند وتوفير الامان للقطعات فكانوا يبثون الطلائع نهارا في الطرق والمواضع المهمة ويقيمون الربايا على مشارف المعسكر وفي الليل يقيمون الحراس يدورون حول المعسكر ويجعلون الفرسان على شكل كراديس تتناوب الحراسة فيما بينها ليكونوا على استعداد دائم اذا داهمهم خطر •

الهجوم

وهو اهم اساليب القتال عند العرب فقد اعتمدوا على اسلوب الهجوم القائم على مبدأ التعرض في كل معاركهم واعمالهم القتالية ، والتعرض نوع من انواع الدفاع باعتبار ان (الهجوم خير وسيلة للدفاع) ، ويهدف الى كسر شوكة العدو واجباره على اتخاذ موقف الدفاع واضعاف روحه المعنوية وتحطيم رغبته في مواصلة القتال •

ان استخدام العرب للهجوم كوسيلة اساسية في حروبهم ساعدهم على الاحتفاظ بالمبادأة التي لم يتخلوا عنها لاعدائهم أذ كانوا يضعونهم دائما امام مواقف جديدة تجبرهم على بعثرة قواتهم وترغمهم على خوض المعركة فـي المكان وبالاسلوب الذي يريدون •

وقد تميزت معارك التحرير التي خاضـها العرب ضـد الفرس والروم بتطبيقها لمبدأ الهجوم المستمر من اجل تدمير قوة العدو والافادة من كل فرصة لارغامه على الدخول في معركة حاسمة وابرز مثل على ذلك معركة القادسية حيث اراد الفرس المطاولة في الحرب لكسب الوقت الا ان سعد بن ابي وقاص كان يمسك بزمام المبادأة فارغمهم على الدخول في المعركة الحاسمة •

كانت القوات العربية الاسلامية تقوم قبل مباشرتها القتال بجمع المعلومات عن العدو ودراسة ارض المعركة واختيار الموقع الملائم منها ومحاولة اكتشاف طرق امدادات العدو لقطعها عنه ثم محاولتهم الافادة من ظروف الطبيعة كجعل الشمس والرياح من وراء ظهورهم قدر الامكان •

وقبل ان يبدأ الهجوم جرت العادة ان يسير الخطباء والقصاص والقراء لاشعال حماس الجند وترغيبهم في الجهاد ثم تقرأ سورة الجهاد وهي (سورة الانفال) عملا بالسنة التي سنها الرسول (ص) بعد معركة بدر ، ان تقرأ هذه السورة عند لقاء العدو ثم تبدأ المبارزات بين ابطال الفريقين لاثارة حميـة الجند وتشويقهم للقتال وكانت هذه المبارزات صفة بارزة في كل المعارك التي جرت منذ ظهور الاسلام وغالبا ماكانت نتائج هذه المبارزات تنتهي في صالح المقاتلين العرب لما يتمتعون له من ايمان عميق ومعنويات عالية وتصميم على احراز النصر وبعد ذلك تعطى اشارة الهجوم وغالبا ماتكون بالتكبير او بهز اللواء مع التاكيد على لزوم الصمت والسكينة وتجنـب الصياح لان كثـرة الصياح تعني الفشل او لربما الخوف ثم يبدأ الالتحام مـع العدو فيشتبك الرجالـة بسيوفهم ورماحهم ويقاتلون متراصفين كأنهم رجـل واحـد فـاذا

تضعضعت صفوف العدو يشدد الرجالة عليها الضغط ثم تبدأ المرحلة الاخيرة من المعركة وتسمى الحملة او الصولة لتحطيم اخر مقاومة للعدو ويصاحب الحملة او الصولة التكبير بصوت عال لارهاب العـــدو •

أما الفرسان فيكون واجبهم حماية الاجنحة لمنـــع العدو مـــن الالتفاف وكذلك الضغط على اجنحة العدو لنقض صفوفه وان الاسلوب الذي اتبعه العرب في توزيع الفرسان على الاجنحة وفي الجبهة واستخدام الاحتياط كان يؤمن المناورة العالية وتحقيق امكانية تغذية المعركة باستمرار •

وقد استخدم العرب وسائل عديدة لانهاء المعركة لصالحهم منها : القيام بالالتفاف على قوات العدو من الخلف وارباك صفوفه الخلفية مما يعجل في الحاق الهزيمة به كما حدث في اليوم الثالث من معركة القادسية ، ومنها قيـــام احد قواد الحجاج بارسال قوة دارت خلف صـــفوف الخـــوارج واحرقـــت خيامهم مما تسبب في هزيمتهم •

اما الهجوم الليلي (البيات) فقد عرف عن العرب تمرسهم في هذا النوع من القتال الذي ورثوه عن حياتهم القبلية في الجزيرة العربية وكان المهاجمون يختارون الليالي الظلماء وشديدة الريح لاخفاء الحركات والاصوات التـــي تصدر عنهم ثم ينقسمون الى مجموعتين تقوم المجموعة الاولى بالرمي علـــى معسكر العدو من الخارج لمشاغلتهم ثم تقوم المجموعة الثانية بالتسلل الـــى داخل المعسكر لنشر الاضطراب وتخريب المنشآت وعقر الدواب او قطـــع أرسانها ووخزها حتى تنطلق مذعورة داخل المعسكر لنشر الاضطراب فيه ثم الانسحاب بسرعة قبل ان يتمكن العـــدو من اعتراضهم او اللحاق بهـــم •

ومن اساليب القتال الهجومية التي برع فيها العرب براعة فائقة اسلوب (اقتحام المدن والحصون) فمن المعروف ان العرب اشتهروا بمحافظتهم على العهود والمواثيق وشروط الصلح التي يعقدونها مع اهالي البلاد والمدن المحررة

موقفهم بالالتزامات التي تترتب على ذلك أما المدن التي كانت تعلن عصيانها ومقاومتها الشديدة فقد حرص العرب على تجنب مهاجمتها او اقتحامها الا بعد نفاد كل الوسائل في التوصل الى الصلح وعند ذلك لا يجدون بدا من محاصرتها لاجبارها على التسليم وقد استخدم العرب اساليب جديدة في حصار المدن وتحريرها دلت على قوة الصبر والامكانات القتالية العالية والقدرة على ابتداع اساليب الحصار فكانوا يحاولون السيطرة على جميع المنافذ والطرق التي قد يتمون منها العدو لان ذلك يضعف أمل العدو في المقاومة .

أن العامل الاساس في قدرة القوات العربية على اقتحام المدن والحصون وتحريرها هو التصميم والثبات على القتال ووجود المجموعات الاقتحامية التي كانت شجاعتها وبطولاتها النادرة تجبر المدافعين على الهرب او الاستسلام اضافة على ذلك كفاءة القادة الميدانيين وقدرتهم على اتخاذ المواقف الصائبة التي تحقق لهم كسب المعركة ودخول المدينة وهناك امثلة وشواهد عديدة من معارك اقتحام المدن وتحريرها وخاصة في العراق والمناطق الشرقية من الدولة العربية الاسلامية تعتبر نماذج في الفن الحربي .

ويعتبر فتح مدينة (بخارى) على يد قتيبة بن مسلم سنة ٩٠هـ / ٧٠٨م من اشهر الامثله على روح الاصرار والعزيمة للقوات العربية في تحرير المدن مهما اشتدت مقاومتها فقد طال حصار قتيبة لمدينة بخارى دون جدوى فبعث الى الحجاج يستشيره فطلب منه ان يصورها له فبعث له قتيبة بمخطط يصور موقع المدينة فأجابه بان يتقدم اليها من اماكن معينة محذرا اياه من الجبال ومنعطفات الطرق وبعد محاصرة المدينة جاءتها امدادات كبيرة وحاولت تلك القوات الاطباق على قوات قتيبة الا انه اسرع بالانسحاب المنظم لتحاشي الاطباق عليه ثم قام بعملية التفاف جريئة باندفاع قوة من فرسان وابطال قبيلة تميم خلف صفوف العدو وقاموا باشغال قطعاته في حين اندفع قتيبة بقوته الرئيسية ملحقا الهزيمة بالعدو ومقتحما المدينة .

واستخدم قتيبة بن مسلم في حصاره لمدينة (بايكند) طريقة الحفر تحت الاسوار لاضعاف اسسها واسناد الجدار باعمدة خشبية ومن ثم يحرق الخشب فيهوى الجدار او تفتح به ثغرة تسمح بدخول مجموعات الاقتحام •

ومن الاساليب التعبوية الهجومية التي استخدمها العرب تطبيقا لمبدأ الهجوم التعرضي هو اسلوب (الصوائف والشواتي) وهي حملات فصلية من قوات عسكرية يتألف عددها مابين الف وخمسمائة الى الفي رجل واجبها الاغارة على مناطق العدو الحدودية والحيوية وتوجيه ضربات خاطفة وسريعة ثم الانسحاب والعودة •

ان الهدف الاساسي لحملات الصوائف والشواتي الذي اتبعته الدولة العربية الاسلامية هو اشغال البيزنطيين في عقر دارهم عن طريق التوغل التدريجي في اراضيهم بحملات فصلية لغرض استنزاف وتدمير قوتهم العسكرية وارغامهم على اتباع اسلوب الدفاع وانتزاع المبادأة منهم كذلك تعد حملات الصوائف والشواتي اساليب تعبوية هجومية جديدة استخدمها العرب تطبيقا لمفهومهم الحربي القائم على اساس ان (الهجوم خير وسيلة للدفاع) وتنفيذا لسياستهم في ردع العدو ومنعه من التفكير باستخدام القوة •

الدفاع

استخدمت القوات العربية الاسلامية الاساليب الدفاعية للمحافظة على المكاسب التي حققتها الدولة العربية وتأمين حدودها المترامية الاطراف ضد هجمات الاعداء وكما برع المقاتلون العرب في استخدام الاسلوب الهجومي التعرضي فقد برعوا ايضا في استخدام الاساليب الدفاعية سواء في صد الهجمات المقابلة للقوات المعادية او في الدفاع عن المدن والاراضي التي تم تحريرها ، ففي ساحة المعركة تنظم الصفوف في مواضعها ويشرع مقاتلو الصفوف الامامية رماحهم في وجوه العدو وهم جاثون على ركبهم ويستعد خلفهم رماة السهام فاذا وصل العدو الى مدى رمي السهام رشقه الرماة بوابل من سهامهم لايقاف

تقدمه وعند اقترابه يهب اصحاب الرماح بوجه جنود العدو ويشرعون رماحهم في صدورهم ويشتبك معهم حملة السيوف وعندما تتضاءل حدة الهجوم تبدأ المرحلة التالية وهي الايعاز الى كل الصنوف برد هجوم العدو واجباره على التراجع •

وقد تميز المقاتلون العرب بالثبات في مواضعهم واتخاذ الحصون في كل الظروف تحسبا لكل طارىء ويمكن اعتبار اجراءات المهلب بن ابي صفرة الدفاعية في قتال الخوارج مثالا واضحا على الحيطة والحذر واستخدام كل الوسائل الكفيلة لمنع الخوارج من النيل من قواته او مفاجأتها (فلم يقاتلهم انسان قط كان اشد عليهم ولا أغيظ لقلوبهم منه) •

وقد وصف العرب بانهم اجرأ على القتال الليلي من غيرهم لما يمتازون به من خفة الحركة والسرعة والمناورة وان براعتهم في صد الغارات الليلية لا تقل عن براعتهم في الهجوم الليلي (البيات) الذي امتازوا بـه في حروبهم وكان اعداؤهم من الفرس والترك يتحاشون مهاجمتهم ليلاً فهم يعترفون (بان العرب اشد حذرا واسرع فزعا واجرأ على الليل من العجم) •

ومن اساليبهم الدفاعية لضمان أمن قواتهم ضد هجمات الاعداء تقسيمهم القوات على جميع أطراف المعسكر بحيث يلزم كل منهـم موضعه ويستعد لمواجهة العدو ليلا فاذا ماطرقهم العدو ليلا اطلق اهل الناحية التي طرقها العدو ثلاث تكبيرات متوالية ليعرف الموضع الذي جاء منه العدو ولتتخذ الاجراءات لمواجهتـه •

وتعتبر (الكمائن) اسلوباً تعبوياً دفاعياً ومعناه وضع قوة من الجند في موضع خفي عن رصد العدو واجبها الانقضاض على قوات العدو لاعاقة تقدمه او انسحابه ومفاجأته والحاق اكبر الخسائر به او لتحويله عن الهدف الـذي يسـير اليـه •

واستخدم العرب ايضا (المسالح) وهي مراكز عسكرية الغرض منها السيطرة على مفترقات الطرق ونقاط العبور او مناطق الرعي او مداخل المدن. والمسالح اسلوب تعبوي دفاعي اتخذه العرب بسبب سعة حدود الدولة العربية وانكشافها وكثرة اعدائها مما يحتم انشاء مثل هذه المراكز التي تتبدل مواضعها وقواتها حسب مصادر الاخطار .

وقد ازدادت قدرة القوات العربية الاسلامية وكفاءتها في الفنون الدفاعية خلال العصور العباسية وللدلالة على ذلك نورد ماذكره الامبراطور البيزنطي (ليو السادس) الذي عاصر الخلفاء العباسيين المعتمد والمعتضد والمكتفي والمقتدر أذ يقول (ان تعبيتهم في حومة الوغى كانت على هيئة مربع طويل يصعب اختراقه وكانوا بهذا النظام العجيب يتمتعون باعظم مزايا الدفاع سواء كانوا في المسير او في ميدان القتال وكانوا يقفون في مراكزهم بثبات مستبسلين بحيث لا يستطيع العدو اغراءهم بالتسرع في الهجوم او بانهاء المعركة بعد نشوبها ما لم يحوزوا النصر وكانوا على الاغلب يؤثرون هجوم العدو الذي متى زحف اليهم صدوه في اول هجوم وبكل قواهم) .

وقد اعترف هذا الامبراطور ايضا بمهارة العرب العسكرية وقدرتهم الدفاعية فيقول (ان العرب احسن الامم تبصراً وروية في العمليات العسكرية وان كل قائد عسكري يريد مهاجمتهم عليه ان يمتلك القدرة التكتيكية وان يكون جيشه على احسن تدريب وجرأة) .

وتعتبر الاساليب الدفاعية التي اتبعها الجيش العباسي في الدفاع عن بغداد اثناء حصار الجند الاتراك لها في سنة ٢٥١ هـ /٨٦٥ م من ابرع الاساليب في الدفاع عن المدن فقد تم بناء سورين حول بغداد بجانبيها الشرقي والغربي وحفرت الخنادق حولهما ووضعوا الموانع الخشبية فيها المسامير الظاهرة (الشداخات) على الابواب ثم صنعوا بابا من الخشب مصفحة بالحديد ومعلقة بالحبال استعملت لقتل كل من يمر تحته بفك الحبال منه وابقاطه عليه

ووضعوا المنجنيقات والعرادات على الابواب وجعلوا لكل باب دهليزا مسقفا لحماية الجنود وشارك العيارون في الدفاع عن بغداد فعملوا لهم تراساً كبيرة من البواري المقيرة للاحتماء بها وزودوا بالسلاح وتفرقوا على ابواب بغداد وقد استطاعت بغداد بهذه التحصينات المنيعة ان تقاوم الحصار مدة طويلة ولو لم يجبر الخليفة المستعين بالله على خلع نفسه لحالت هذه الاساليب الدفاعية دون تمكن الاتراك من دخول بغداد ٠

ومن الوسائل الدفاعية التي اتبعها الجيش العباسي لصد تقدم القرامطة على بغداد في سنة ٣١٥ هـ ـ ٩٢٧ م قطع القناطر والجسور لمنعهم من عبور النهر فتم قطع قنطرة باب الحديد وقنطرة باب حرب وقنطرة الواردة قرب عقرقوف وبذلك حالوا دون تمكن القرامطة من التقرب الى بغداد ٠

القيادة

لقد برزت القيادة العسكرية الناجحة في الدولة العربية الاسلامية مع بداية بزوغها متمثلة بقيادة الرسول (ص) الذي كان مثالا لنمط القيادة العسكرية الفذة والتي اصبحت مدرسة تخرج منها قادة عظام تعلموا فنون الحرب واساليب القتال من امثال ابي بكر (رض) وعمر بن الخطاب (رض) وعلي بن ابي طالب (رض) وخالد بن الوليد وسعد بن ابي وقاص وعمرو بن العاص وابي عبيدة بن الجراح والمثنى بن حارثة الشيباني ٠

وجاءت حروب الردة لتساهم بشكل واضح في صقل مواهب هؤلاء القادة وزيادة خبرتهم واغناء تجربتهم القتالية وتمرسهم بقيادة التشكيلات فظهرت براعتهم في القيادة على مسارح العمليات العسكرية في العراق والشام ومصر خلال معارك التحرير ٠

وقد تميزت قيادة العمليات العسكرية في العصر الراشدي بمركزية قوية

فكان الخليفة القائد العام للجيوش العربية هو الذي يحدد الاهداف المتتابعة وينسق العمليات العسكرية بين القوات في مختلف الجبهات •

وتعتبر رسالة الخليفة عمر بن الخطاب (رض) الى سعد بن ابي وقاص مثالا بارزا على مركزية القيادة فقد وضع الخليفة عمر بصفته قائدا عاما للجيوش العربية الاسلامية دستورا وخطة عسكرية وطلب من سعد ان يلتزم بها ولا يحيد عنها ومما جاء في هذه الرسالة قوله (وليكن منك عند دنوك من ارض العدو ان تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا امدادهم ومرافقهم وتتبع الطلائع عوراتهم وانتق للطلائع اهل الرأى والبأس من اصحابك وتخير لهم سوابق الخيل فان لقوا عدوا كان اول ماتلقاه القوة من رأيكم واجعل امر السرايا الى اهل الجهاد والصبر على الجلاد لا تخص بها احدا بهوى فيضيع من رأيك وامرك مما حابيت به اهل خاصتك ولا تبعثن طليعة ولا سرية في وجه تتخوف عليها فيه غلبة او ضيعة ونكاية فأذا عاينت العدو فأضمم اليك اقاصيك وطلائعك وسراياك واجمع اليك مكيدتك وقوتك) •

ثم كتب اليه ايضا ان يوافيه بكل ما يستجد من امور المعركة وجاء في هذه الرسالة (فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذي بينك وبين المدائن صفة كأني انظر اليها واجعلني من امرك على الجلية) •

لقد شهد عمر (رض) اعظم الانتصارات التي حققها العرب على جميع الجبهات ولم يكن ذلك الا بفضل قيادته الفذة ومقدرته المدهشة في اختيار القواد •

وشهد العصر الاموي عناصر قيادية على مستوى عال من الكفاءة والقابلية في ادارة المعارك ولم تكن قابلياتهم وكفاءاتهم الا امتدادا طبيعيا للقيادات التي برزت خلال العصر الراشدي فقد تعلموا وتخرجوا على يد القادة

العظام من امثال المثنى بن حارثة الشيباني وخالد بن الوليد وسعد بن ابي وقاص وعمرو بن العاص •

وقد ظهر في ساحة العمليات الحربية في العراق والاقاليم الشرقية قادة بارزون اصبحت اساليبهم في ادارة المعارك نماذج رائعة في فن القيادة ولم تخف على عبدالملك بن مروان المزايا القيادية الفريدة للمهلب ابن ابي صفرة فقد كان هو واولاده من الشجعان الابطال المعدودين ورغم ان المهلب كان من ابرز قواد مصعب بن الزبير الا ان عبدالملك استطاع بعد مقتل مصعب ان يستميله ويأخذ منه البيعة فأصبح من ابرز قواده وقد كان عبدالملك موفقا في اختيار المهلب فهو شيخ الحروب وامامها وكان اولاده لا يقلون عنه شجاعة ومهارة وكان ابنه المفضل فارسا شجاعا (فما كان في العرب اضرب بسيفه ولا احسن تعبئة للحرب ولا اغشى للناس منه) •

ولقد كان للقبيلة دور في اسناد الوالي او القائد الذي ينتمي اليها الا ان قوة الخليفة او الامير كانت هي السند الاكبر في تعزيز قوة القادة الولاة فقبيلة باهلة التي ينتمي اليها قتيبة بن مسلم لم يكن لها شأن يذكر في خراسان ومع ذلك كان قتيبة يحظى بتأييد الحجاج ودعمه •

وقد اثبت قتيبة بن مسلم قدرته العسكرية وقابلياته القيادية فبلغت القوات العربية الاسلامية على عهده حدود الصين وطبقت شهرته الآفاق •

وقد اختار الخليفة هشام بن عبدالملك نصر بن سيار لولاية خراسان بالرغم من عدم وجود عشيرة له فيها لانه راى فيه بأسا وحزما وتجربة وشدة رأي •

اما في العصر العباسي فقد اصبحت قيادة الجيش من اهم مناصب الدولة لذلك كان الخلفاء العباسيون الاوائل من ابرز القادة العسكريين فقد اثبتت الاحداث ان الخليفة المنصور كان قائدا عسكريا ناجحا نظراً للخبرة العسكرية

والكفاءة العالية التي اكتسبها قبل خلافته وممارسته العمل العسكري بصورة فعلية وقد شهد له بذلك القائد الاموي يزيد بن عمر بن هبيرة حيث قال (ما رأيت رجلا قط في حرب ولا سمعت به في سلم امكر ولا ابرع ولا اشد يقظا من المنصور) وكان لا يقبل من قائد عثرة ولا يغفر له زلة فقد قتل عمه عبدالله بن علي وهو احد القادة العباسيين المشهورين لانه خالفه وتمرد عليه وقتل ابا مسلم الخراساني وهو من ابرز القادة لانه احس منه روح التعاظم والسيطرة والانحراف .

وقد اعتمد الخليفة المنصور في قيادة جيوش الدولة على القادة العرب المعروفين بولائهم واخلاصهم للبيت العباسي من ابرزهم ابن اخيه عيسى بن موسى وخازم بن خزيمة التميمي وروح بن حاتم المهلبي والحسن بن قحطبة الطائي وعمرو بن حفص بن ابي صفرة وغيرهم .

واستمرت قيادة الجيش بيد العرب الى ان تولى الخلافة هارون الرشيد الذي قرب البرامكة (الفرس) واشركهم في قيادة الجيوش فقد جعل الفضل ابن يحيى البرمكي قائدا للجند في خراسان فأتخذ جندا من العجم سماهم (العباسية) بلغت عدتهم خمسمائة الف رجل ثم قدم بعشرين الف منهم الى بغداد فسموا (الكرنبية) وخلف الباقي بخراسان فلما أحس الرشيد بخطر البرامكة على سيادة الدولة نكل بهم وانقذ الدولة من هذا الخطر الداهم وعاد الى وضع ثقة الخلافة بالقادة العرب من امثال علي بن عيسى بن ماهان ويزيد بن مزيد الشيباني وهرثمة بن اعين .

ولكن القيادات الفارسية سرعان ما عادت الى التسلط على قيادة الجيش في عهد الخليفة المأمون من امثال الحسن بن سهل وطاهر بن الحسين الذي استأثر فيما بعد هو وعائلته بادارة مناطق خراسان ومن ثم الانفصال بها عن الدولة وتكوين امارة فارسية هي (الامارة الطاهرية) .

وبعد وفاة الخليفة المأمون وتولي المعتصم الخلافة حدث تطور جديد في سياسة الدولة وهو ازدياد غارات البيزنطيين وبروز الخلاف بين المعتصم والفرس بعد ان اظهروا موقفهم المعادي له بتأييدهم بيعة العباس بن المأمون ضده ثم ظهور حركة الخرمية بزعامة بابك الخرمي وهي حركة ذات نعرة عنصرية مجوسية اضافة الى ان العرب شعروا بانحراف المعتصم عنهم فساءهم ذلك فظهرت حركات معارضة في الشام ومصر ثم قام بعض القادة العرب وعلى راسهم القائد العربي عجيف بن عنبسة بتدبير مؤامرة لقتل المعتصم بعد رجوع الجيش من عمورية الا ان المؤامرة فشلت .

كل هذه العوامل دفعت المعتصم الى الاعتماد على عنصر جديد يدين بالولاء المطلق للخليفة ويتمتع بالقدرة والقابلية على القتال فلم يكن هناك غير الجند الاتراك الذين كان يقدر عددهم عند توليه الخلافة بالالاف .

ولكي يضمن الخليفة المعتصم طاعة هؤلاء الجند اناط قيادة الجيش بالاتراك انفسهم لمعرفتهم بطباع وعادات ابناء جنسهم ذلك ان هؤلاء الجند كما يقول الجاحظ كانوا سريعي النفور وحياتهم اقرب الى البداوة ولم يكن همهم غير الغزو والغارة وطلب الغنائم .

لذلك لم تكن هناك اسس معينة يتم بموجبها تعيين قادة الجيش لان عددا من الاتراك الذين تولوا المراكز القيادية في الجيش كانوا ممن خدموا في بلاط الخليفة او في قصور كبار رجال الدولة فكان منهم الخادم والوصيف والمملوك ثم دربوا على القتال واستخدام السلاح فأزدادت مكانتهم وترقى بعضهم في المناصب العسكرية حتى اصبحوا من قادة الجيش الكبار وقد اثبت بعض هؤلاء القادة مهارة كبيرة في المعارك التي خاضتها الجيوش العباسية مثل الحرب مع بابك الخرمي وموقعة عمورية وبدأوا ينالون الحظوة الكبيرة لدى الخلفاء .

وبالرغم من المكانة المرموقة التي منحتها الدولة لهؤلاء القادة فقد بدأوا يسيئون الى اليد التي مدت اليهم وقد احس الخليفة المعتصم بالخطأ الذي وقع فيه باعتماده على هؤلاء القواد وكان يصرح بهذا الاحساس الى المقربين اليه من خاصته ثم بدأ يفقد الثقة بهم وبولائهم وعندما وصلته الاخبار بان بعض هؤلاء القادة اخذوا يتآمرون عليه اخذ ينكل بهم الواحد بعد الاخر .

ورغم تنكيل المعتصم بعدد كبير من القواد الاتراك الا ان نفوذهم استمر لا سيما (اشناس) و (ايتاخ) و (وصيف) وقد حاول الخليفة المتوكل على الله التخلص من سيطرة هؤلاء القادة بعد ان ضاق ذرعا بتصرفاتهم فحاول نقل عاصمة الخلافة من سامراء الى الشام والاعتماد على العرب هناك الا انه فشل في ذلك واجبر على العودة الى سامراء ثم حاول ضرب هؤلاء القادة بعضهم ببعض واخيرا استطاع التخلص من القائد التركي (ايتاخ) وحبسه ثم قتله وعندما علم باقي القواد ان الخليفة يريد القضاء عليهم تآمروا عليه وقتلوه فذهب الخليفة المتوكل ضحية تآمر وغدر هؤلاء القادة الغرباء .

وكان مقتل الخليفة المتوكل فاتحة عهد من الفوضى والاضطراب عمت ارجاء الدولة بسبب سيطرة طغمة القادة الاتراك الذين لم يراعوا سلطة الدولة ولا حرمة الخلافة واستمر استبدادهم طيلة خلافة المنتصر والمستعين والمعتز حتى تولى المهتدي الخلافة وقد ادرك هذا الخليفة بان ضعف مؤسسة الخلافة يكمن في وجود جماعات من القادة العسكريين المتناحرين وان السبيل الوحيد لانقاذ الخلافة هو التخلص منهم والحد من نفوذهم السياسي وعندما شعر هؤلاء القادة بما ينويه الخليفة تواطأوا على حربه ومقاتلته وازاء ذلك لم يجد بدا من استنفار العامة الذين هبوا للدفاع عن خليفتهم ولكن تكاثر الجند الاتراك وخوف العامة من بطشهم ادى الى ان يبقى الخليفة وحده في الميدان فهجم عليه الاتراك وقتلوه وهكذا انتهت حياة هذا الخليفة الذي حاول ان يضع حدا لتسلط الطغمة العسكرية على مقاليد الامور وان يعيد للخلافة هيبتها .

وتلت خلافة المهتدي فترة من الهدوء وانتعشت الخلافة ويرجع الفضل في ذلك الى جهود ابي احمد الموفق ولي عهد الخليفة المعتمد على الله فاظهر من المقدرة والكفاءة العسكرية العالية ما ساعده على انقاذ الخلافة واستعادة هيبتها خاصة بعد انتصاره على حركة الزنج وانقاذه الدولة من خطر الصفاريين (الفرس) حيث حال دون تقدمهم الى بغداد فانحسر نفوذ قادة الجيش الاتراك ولعل انصراف هؤلاء القواد الى الامور الحربية تحت قيادة الموفق اثر في ضعف نفوذهم .

وعندما تولى الخليفة المعتضد بالله تقلص نفوذ الاتراك كثيرا لما اتصف به المعتضد من القوة والحزم والشدة فخضع له القواد وهابه الناس واعاد للخلافة مكانتها وهيبتها في النفوس .

وبمجيء المقتدر الى الخلافة عاد نفود قادة الجيش على اشده ويرجع ذلك الى ضعفه والخلاف بين وزراء الدولة وتدخل الحريم في سياستها وكان من نتيجة هذا التدخل الاصطدام بين الخليفة وقادة الجيش وعلى رأسهم (مؤنس الخادم) ووقوع الحرب بينهما في منطقة باب الشماسية ببغداد فقتل الخليفة المقتدر وذبح بالسيف وترك مكشوف العورة حتى مر به رجل من اهل الريف فستره بحشيش ودفنه بباب الشماسية فكان مقتل الخليفة على هذه الصورة البشعة وما فعله القادة الاتراك سببا في انخراق هيبة الخلافة وضعف امرها وطمع ولاة الاطراف بالاستحواذ على ما في ايديهم من البلدان .

ثم ازداد امر الخلفاء ضعفا بعد ان زاد تعنت القواد وطغيانهم الى درجة ان الخليفة الراضي اضطر ان يقبل بتعيين (ابن رائق) القائد التركي اميرا للامراء في بغدد فانتقلت اليه رئاسة الجيش اضافة الى سيطرته على ادارة الدولة ولم يبق للخليفة غير الاسم .

وقد مني نظام امرة الامراء في بغداد بفشل ذريع وعجز عن استرداد هيبة الخلافة وبقي الامر على هذه الصورة المضطربة الى ان دخل البويهيون

العراق وتسلطوا على الحكم وقبضوا على زمام الامور فاصبحت مؤسسة الخلافة لعبة بيد البويهيين واصبح الخليفة اشبه ما يكون بالموظف الحكومي فقد سلبوا الخليفة كل امتيازاته وشاركوه في اختصاصاته ومن هذه الامتيازات والاختصاصات رئاسة الجيش فاصبح الجند وقادة الجيش يأتمرون باوامرهم ثم لجأ البويهيون الى الاكثار من العناصر التركية في الجيش الى جانب الجند البويهيين من الديالمة ومحاولتهم تفضيل عنصر على حساب العنصر الاخر وهذه السياسة التي اتبعها البويهيون ادت الى اضعاف الجيش بشكل عام واحداث الانقسام في صفوفه ثم بدأ نجم بني بويه يضمحل فيما كان السلاجقة يتوسعون في ايران وصار نفوذهم يقوى يوما بعد يوم ووجد طغرلبك الفرصة سانحة لدخول العراق والقضاء على سلطة البويهيين سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م •

كان القادة العسكريون في العصر السلجوقي يسمون (الاصفهسلارية) وقد يتولون قيادة الجيوش وعند ذلك يسمى احدهم (بالامير الاصفهسلار) •

لقد كانت بغداد مهمة للحكام السلاجقة كما كانت مهمة للبويهيين نظرا لمكانتها وسمعتها في العالم الاسلامي انذاك لذلك اتخذوها مقرا وقد اعتبر السلاجقة ان من تكون بغداد بحوزته فهو صاحب السلطة العظيمة وقد كان لهذا الاهتمام اثره السيء على بغداد اذ ان مجيء السلطان وخاصة السلاجقة على رأس جيشه الى بغداد سنويا لقضاء فصل الشتاء فيها يتلوه الاستيلاء على الاقطاعات وفرض الاتاوات وحدوث شتى صنوف السلب والنهب وكانت هذه الاعتداءات تتجدد كلما جاء الجيش الى بغداد حيث يعم الخوف والذعر فيهرب الناس الى الجانب الاخر من بغداد اذا عرفوا الجانب الذي سيأتي منه الجيش السلجوقي •

ورغم انحسار التسلط البويهي والسلجوقي عن الدولة ايام الخليفة الناصر لدين الله الا ان مقدرات الجيش بقيت بيد الامراء المماليك من الاتراك •

وكان هؤلاء على نوعين : الامراء المماليك العراقيون والامراء المماليك الغرباء وانقسم تبعا لذلك ديوان الجيش الذي اصبح يسمى ديوان (العرض) في العصور العباسية المتأخرة الى قسمين ايضا احدهما للامراء العراقيين والثاني للامراء الغرباء .

فالامراء المماليك العراقيون او البغداديون كما اطلق عليهم احيانا هم في الغالب من الاتراك ممن اشتراهم الخلفاء ودربوا على السلاح في قصور الخلافة فأصبحوا من مماليكهم فكان احدهم ينسب الى الخليفة الذي اشتراه فيقال الناصري او المستنصري ، وقد كون هؤلاء المماليك العسكريون طبقة مسيطرة على الجيش وبأيديهم الولايات وكانت لهم درجات واصناف بحسب مكانتهم فبعضهم صغار وبعضهم كبار وكان الامراء الكبار يطلق عليهم الزعماء او اصحاب العمائم او الكوسات (الصنجات) وما ورد عنهم من اخبار تعكس مكانة احدهم وعلو منزلته اذ كان بعضهم من حرس الخليفة الخاص وهناك البقجة دار أي (حامل ثياب الخليفة) والدواة دار (حامل الدواة) والكواز دار (حامل الماء) والشرابي (المعني بامر الشراب وتقديمه) والامير اخور (امير الاصطبل) وقد اصبح بعضهم من المقربين للخلفاء ومن ذوي الثراء العريض واصحاب الكلمة المسموعة مثل الدوادار الصغير مجاهد الدين ابي الميامن ايبك الخاص المستنصري والشرابي عزالدين نجاح بن عبدالله الناصري كما عهدت لبعضهم رئاسة موكب الحاج الى مكة والتي لم يكن يتولاها الا الاشراف من الهاشميين علويين وعباسيين .

وكانت ارزاقهم (رواتبهم) تتفاوت في مقدارها حسب منزلة الامير فالامراء الصغار يأخذون الف دينار اما الزعماء اصحاب الكوسات والذين ترفع في مواكبهم السيوف وتضرب الطبول فيعطى احدهم حوالي اربعة آلاف دينار سنويا غير الهبات والهدايا من الخليفة في المناسبات المختلفة وغير ما

تدره املاكهم ، وكثيرا ما كان المال او الرشوة تساهم في انتقال الامراء الصغار الى مرتبة الزعمـاء ٠

اما الامراء الغرباء فيبدو انهم من بقايا نظام الاقطاع العسكري الذي ورثه المشرق الاسلامي من السلاجقة فكان بعض الامراء الطموحين المتنافسين من الزنكيين والايوبيين يحاولون عرض خدماتهم على كل راغب في سبيل الحصول على الاقطاعيات وممارسة الحكم فيها وهذا مما ادى الى انتشارهم في المشرق الاسلامي في العراق والجزيرة والشام ومن امثال هؤلاء ابو الهيجاء السمين وكان من امراء الايوبيين وصاحب اقطاع بيت المقدس والامير معين الدين ابو المظفر بهرم الايوبي ومظفر الدين بن اسدالدين بن شيركوه وقد اعطـي هؤلاء رزقا سنويا ما بين خمسة الاف وستة الاف دينار باستثناء ارزاق اجنادهم ومماليكهم وهذا المبلغ اكثر مما كان يعطى للامراء العراقيين انفسهم ٠

واخيرا فأن هؤلاء الامراء لم يكونوا كثيري العدد كما لم يكن لديهم دور في الحرب الفاصلة ضد المغول سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م ٠

الشرطـة

التطور التاريخي لنظام الشرطة والامن

ان المجتمع الجديد الذي بناه الرسول (ص) في المدينة كان بحاجة الى من يتولى حفظ النظام وتطبيق شعائر الاسلام وتعاليمه ومراقبة الاعداء من الداخل والضرب على ايدي الذين يثيرون الفوضى ويبثون السموم ويحاولون الاعتداء على اموال المسلمين واعراضهم لذلك فقد اتخذ الرسول (ص) رجالا يعسون بالمدينة ويحرسون الناس ويتتبعون اهل الريب والفساق وكل من يريد افساد امن المدينة فالرسول (ص) يعتبر اول من اتخذ نظاما للعسس يتولى رجاله (وهم الصحابة) القيام بهذه المهمة ليلا عندما ينام الناس ٠

وعلى هذا الاساس يمكن اعتبار نظام العسس الذي اوجده الرسول (ص) في المدينة النواة الاولـى لنظام الشرطة في الدولـة العربية الاسـلامية وقد اتسع هذا النظام ليشمل العسس واقامة الحدود على المخالفين •

وفي عهد الخليفة ابي بكر (رض) كان صـاحب العسس والمسؤول عن حفظ الامن بالليل والنهار عبدالله بن مسعود • اما اقامة الحدود فقد جعلها الى علي بـن ابي طالـب (رض) •

ولما آلت الخلافة الى عمر بن الخطاب (رض) تولى العسس بنفسه فكان كثير الطواف باحياء المدينة وازقتها يسـهر على راحـة الناس وامنهم ويطارد المفسدين واهل المجون وهذا التصرف من عمر املته عليه ضرورة توفير الامن للرعية المتمثل بالاطمئنان على النفس والمال والعرض وقد عبر عن ذلك بقوله (والله لو هلكت سخلة بشط الفرات ضياعا لكنت ارى ان الله تعالى سائل عنهـا عمر) •

وهكذا يعتبر عمر بحق واضع الخطوط الرئيسية الاولى لمهام الشرطة وقد اشار الى ذلك ابن سعد في طبقاته بقوله ان الخليفة عمر (رض) هو اول من اشتد على اهل الريب والتهم وهو اول من عسّ في عمله بالمدينة وحمل الدرّة وادب بها واسند اقامة الحدود بالسيف والسوط للامام علي (رض) وممـا يؤكد وجود الشرطة في عهد الخليفة عمر (رض) قول الشاعر (ابو شجرة) :

ضـن علينـا ابـو حفص بنائلـه	وكل مختبط يومـا لـه ورق
ما زال يرهقني حتى خذيـت لـه	وحال من دون بعض الرغبة الشفق
لمـا رهبـت ابا حفص وشـرطته	والشـيخ يفـزع احيانـا فينحمق

وبعد جريمة الاغتيال التي تعرض لها الخليفة عمر (رض) قـام الخليفة عثمان (رض) بتقوية جهاز الامن في المدينة وعين على هذا الجهاز الصحابي المهاجـر بن قنفذ القرشي وانحصرت واجبـات الشرطة في عهـد الخليفـة

عثمان (رض) في نصرة الضعيف وكبح جماح الظالم وجلبه واخذ الحق منه مع المحافظة على الامن والنظام ومقاومة الفوضى •

وبعد مقتل الخليفة عثمان (رض) استعد الامام علي (رض) لمواجهة احتمالات الوضع الجديد باحكام نظام الشرطة وتطويره في العدد والعدة واختيار رجاله فاصبح متولي الشرطة يلقب بـ (صاحب الشرطة) وقد تولاها في عهده امهر القادة واحزم الرجال مثل قيس بن سعد الانصاري ومعقل بن قيس الرياحي وابي الهيجاء الاسدي ومع ذلك بقيت وظيفة صاحب الشرطة تابعة لوظيفة القضاء اما السجون فقد نظمت وجعلت تحت اشراف صاحب الشرطة •

وبالنظر التطور الكبير الذي طرأ على المؤسسات الادارية في العصر الاموي فقد صار نظام الشرطة اكثر وضوحا واشد قوة واحكاما وعرف رجاله بشدة المراس وقوة الشكيمة وعفة الخلق والصدق في الامانة والاخلاص في العمل وكان صاحب الشرطة منفذا لقرارات القاضي واحكامه كما تولى الحكم في عدد من الجنح البسيطة فيعاقب عليها آنيا كما كان يراقب المجرمين ويطاردهم •

يقول (الشعبي) اشهر قضاة الكوفة في العهد الاموي عن عبدالرحمن بن عبيد التميمي صاحب شرطة الكوفة في عهد الحجاج : والله ما رأيت صاحب شرطة قط مثله لا يحبس الا في دين وكان اذا اتي برجل قد نقب على قوم وضع منقبه في بطنه حتى يخرج من ظهره واذا اتي بنباش حفر له قبرا فدفنه واذا اتي برجل قاتل بحديدة او شهر سلاحا قطع يده واذا اتي برجل قد احرق على قوم منزلهم احرقه واذا اتي برجل يشك فيه انه لص ضربه ثلثمائة سوط فكان ربما اقام اربعين ليلة لا يؤتى باحد فضم اليه الحجاج شرطة البصرة مع شرطة الكوفة •

وكان (صاحب شرطة) واسط في عهد الحجاج بن يوسف من اكبر موظفي الادارة في العراق الى جانب الامير فكان علـى رأس جهاز الشرطة في المدينة وكانت مهمة هذا الجهاز حفظ النظام واستتباب الامن في المدينة .

لذلك لم يكن يتولى مثل هذا المنصب الا من توفرت فيه شروط الكفاءة والمقدرة والحزم وعندما اراد الحجاج ان يعين صاحب شرطة لمدينة واسط لم يجد افضل من عبدالرحمن بن عبيد التميمي صاحب شرطة الكوفة .

ويبدو ان صاحب الشرطة في العهد الاموي كان يتمتع بسلطات واسعة انذاك كأن يمارس الحكم على الافراد الذين يرتكبون جرائم تخـل بالنظام وتعكر صفو الناس وامنهم وينفذ فيهم الاحكام بصورة آنية كما كان يفرض عقوبات زاجرة على بعض الاشخاص المشتبه بهم قبل حدوث جرائم وذلك للحيلولة دون وقوعها ففي عهد معاوية بن ابي سفيان اعدت سجلات خاصة في الامصار لحصر المشبوهين من ذوي النشاط الاجرامي ونظمت اجـراءات مراقبتهم والحد من نشاطهم وقد عين زياد بن ابيه والي العراق الجعد بن قيس لمراقبة المشبوهين في الكوفة .

ولمواصلة مهمة استتباب الامن برزت اهمية العرفاء في العصر الاموي ورافقت تنظيمات زياد بن ابيه في البصرة والكوفة فيقول البلاذري (ان زيادا جعل الناس بالبصرة اخماسا على كل خمس رجلا وعرف العرفاء) ومـع ان نظام العرفاء كان معروفا في العراق في خلافة عمر بن الخطاب (رض) الا ان زياد بن ابيه اعاد تنظيمه من جديد لذلك فان العرفاء اصبحوا مسؤولين عـن الامن والنظام ومراقبة مثيري الفتن داخل قبائلهم فكانوا حلقة الاتصال بين القبائـل العربية في المصـر وبين السلطات الاداريـة للدولـة وقـد حـل اولئك العرفاء في القوة والنفوذ محل رؤساء القبائل والعشائر وكان اختيارهم يتم عن طريق الوالي او الامير وفي هذه الحالة كان يختارهم من بين ذوي النفوذ ليستطيعوا اداء واجبهم تجاه الدولة .

ثم استحدث زياد بن ابيه وظيفة (المنكب) وكان الغرض منها الاشراف على اعمال العرفاء فيقول ابو هلال العسكري في كتابه (الاوائل) (ان زياد اول من عرف العرفاء وجعل عليهم المناكب وقال العرفاء كالايدي والمناكب فوقها) .

وقد زادت اهمية العرفاء في الامصار التي كانت تسودها الاضطرابات كالبصرة والكوفة وخراسان وكان الولاة يلزمون العرفاء بالاخبار عن الخوارج والمتمردين على السلطة من افراد قبائلهم واعتمد الحجاج اعتمادا كبيرا على العرفاء في مراقبة نشاط القبائل السياسي وفي استنفار المتخلفين من الجند وكان قتيبة بن مسلم يعتمد على العرفاء في معرفة احوال الجند .

وبالنظر لخطورة مهمة العرفاء لتماسهم المباشر مع السلطة واتصالهم بقبائلهم كان يشترط فيهم الامانة والورع وان يحوزوا رضى الجميع فقد كتب الخليفة عمر بن عبدالعزيز الى عامله على البصرة عدي بن ارطاة (ان العرفاء من عشائرهم بمكان فأنظر عرفاء الجند فمن رضيت لأمانته لنا ولقومه فاثبته ومن لم ترضه فأستبدله بمن هو خير منه) لذلك فان العرفاء كانوا يقدمون خدمات لا غنى عنها للدولة في حفظ الامن ومراقبة المشاغبين ومثيري القلاقل في العراق فالغالب على الظن ان اصحاب الشرطة كانوا يتلقون من العرفاء بصورة مباشرة او غير مباشرة كشفا عن حالتهم ومن هنا تبدو العلاقة بينهم واضحة فالجميع يعملون لغايات موحدة تنحصر في تمكين الناس من حقوقهم ومساعدتهم على القيام بواجباتهم في اطمئنان .

وظهر في العصر الاموي ايضا وظيفة الاحداث الى جانب جهاز الشرطة ، والاحداث جمع حدث والمراد به كل عمل جديد منكر من الاعمال المخالفة للشرع الاسلامي جاء حصيلة البدع والاهواء استنادا الى قول الرسول محمد (ص) : (كل حدث بدعة وكل بدعة ضلالة) وصاحب هذه الوظيفة يسمى (صاحب الاحداث) او (والي الاحداث) ومهمته المحافظة على الامن

خارج العواصم وهي خطوة وسطى بين الشرطة والجيش ويغلب على صاحب الاحداث الطابع العسكري الصارم وذلك لكثرة تعرض المناطق النائية عن العاصمة الكبرى للفتن والاضطرابات من الداخل وغزوات الاعداء من الخارج وبذلك حققت وظيفة الاحداث التعاون مع الشرطة من ناحية والتعاون مع الجيش من ناحية اخرى وقد طبق نظام الاحداث في بداية نشوئه في العراق نظرا لاضطراب الامن فيه فعاد باحسن النتائج •

وخلال العصر العباسي شهد نظام الشرطة كغيره من الانظمة الادارية تطورا كبيرا وازداد احكاما وضبطا فقد بلغ صاحب الشرطة خلال هذا العصر مكانة لم يبلغها من قبل حيث كان صاحب شرطة بغداد (عاصمة الخلافة) لا يقل عن منصب الامير او الوالي بالنظر لاهمية بغداد وسعتها وكثرة سكانها وقد تعددت واجبات صاحب الشرطة وزاد اعوانه واتسعت اختصاصاته فصار ينظر في بعض الامور التي كانت من اختصاصات القاضي وقد ابقى العباسيون على نظام (الاحداث) واعتنوا به واسندوه الى امهر القادة لمؤازرة نظام الشرطة على خدمة الامن وكان الخلفاء يحرصون على ان يتولى منصب (الاحداث) اهل العقل والضبط والعفة (وان يوعز اليهم بترك المحاباة والاعراض عن المسألة والشفاعة ، وبالتشدد على اهل الريب وان يعملوا على ابطال الحانات والمواخير ويضعوا من سائر المناكير •• لئلا تباح المحرمات وتضاع الصلوات وتقترف السيئات وترتكب المحظورات) •

وامتد نظام الشرطة ليشمل المدن الاخرى غير العاصمة بغداد او عواصم الولايات فقد عين للمدن المهمة منصب (صاحب المعونة) او (والي المعونة) ومعنى ذلك ان الذي يعنى بالامن في مقر الخليفة او الوالي صاحب الشرطة اما في المدن الاخرى فكان يتولى ذلك (صاحب المعونة) •

ان استحداث وظيفة (صاحب المعونة) لا يعني انهاء مهمة وظيفة (الاحداث) لان وظيفة الاحداث استمرت باداء مهامها خلال العصر العباسي

في المدن الكبرى متعاونة مع اصحاب الشرطة و اصحاب المعونة وقد تضاف ولاية المعونة الى صاحب الشرطة او الى والي الاحداث فيقال صاحب الشرطة والمعاون او والي الاحداث والمعاون •

ولقد ادى جهاز الشرطة وما يتبعه من وظيفتي (المعونة) و (الاحداث) خدمات كبرى الى المجتمع العربي الاسلامي بسبب اناطة هذه الوظائف الحساسة الى اصحاب الكفاءة والمقدرة من الاعوان وتعاون هؤلاء على توفير الامن والطمأنينة خلال العصر العباسي الاول مما دفع المجتمع الى العمل والبناء ولما صارت هذه الوظائف بيد الاتراك وامثالهم من المتسلطين على اجهزة الدولة اصبحت الشرطة مصدر خوف ورعب في العصور التالية واصبحت مهمة الشرطة شاقة ومليئة بالاخطار خاصة في مدينة بغداد عاصمة الدنيا تلك المدينة المكتظة السكان والمباني يؤمها ويقطنها كثير من الاجناس وتعيش فيها طبقات متعددة بينها فوارق شاسعة •

وكان قادة الجند الاتراك في العصر العباسي الثاني هم الذين يتولون وظيفة صاحب الشرطة في بغداد او واسط او غيرها من مدن العراق المهمة وكان قادة الاتراك يتسابقون للحصول على هذه الوظيفة لما تهيؤه لهم من فرص الاثراء والحصول على الرشاوى والاتاوات •

وكانوا يتدخلون في مسألة تعيين اصحاب الشرطة في بغداد وكان اصحاب الشرطة في بغداد ايام سيطرة الاتراك من القوة بحيث كان والي الشرطة في خلافة القاهر يقف كقوة مواجهة للوزير ابن مقلة •

وعندما تولى ابن رائق امرة الامراء في بغداد في خلافة الراضي سنة ٣٢٤ هـ /٨٣٨ م أرسل وهو بواسط احد اتباعه المدعو (لؤلؤ) الذي عينه واليا على الشرطة فتسلم بغداد وبدأ يطارد المعارضين والمناوئين لامير الامراء ويقبض اموالهم ويحرق دورهم •

كانت واجبات صاحب الشرطة في عصر امرة الامراء حفظ النظام والقضاء على محدثي القلاقل والفتن من العيارين واللصوص واصحاب المذاهب المتطرفة وكان يقوم بالتطواف لتسكين الفتن خاصة عندما يتسلم امير امراء جديد منصبه وكذلك يكلف بمهمة القضاء على قطاع الطرق ومع ذلك كان جهاز الشرطة فاسدا كفساد بقية اجهزة الادارة فالرشوة وسرقة اموال الدولة متفشية فيمن يتقلد منصبها .

وكان اصحاب الشرطة خلال هذه الفترة كثيرا ما يساهمون في المؤامرات السياسية فقد قام صاحب الشرطة محمد بن بدر الشرابي باحباط مؤامرة ارادت الاطاحة بخلافة الراضي في زمن امارة (ابن رائق) وفي سنة ٣٢٨ هـ /٩٣٩ م قام صاحب الشرطة ابراهيم بن اسماعيل بتدبير مؤامرة لقتل امير الامراء (بجكم) .

وبعد ان تسلط البويهيون على مقدرات الدولة اصبح لصاحب الشرطة اهمية كبيرة في ادارة الدولة بالنظر لاضطراب الحياة السياسية مما يستدعي ان يكون لصاحب الشرطة السلطة القوية لغرض هيبة الامير البويهي وكثيرا ما كان البويهيون يعتمدون على اصحاب الاخبار وبث العيون في كل مكان للاطلاع على كل مايحدث وما يقال في انحاء الدولة فقد كان عضد الدولة مولعاً باخبار الناس وبسماع مايقال فاحكم نظام الاخبار (الشرطة السرية) في الداخل والخارج فكانت اخبار الدنيا عنده وكان المعلمون في عهده منخرطين في سلك الاخبار السرية ولهم رزق وافر على مايقدمونه من معلومات واخبار .

وعندما تسلط السلاجقة على مقدرات الدولة العربية الاسلامية استحدثوا وظيفة (الشحنة) لتحل محل وظيفة صاحب الشرطة ويعين صاحبها من قبل السلطات ويتمتع متقلدها بسلطات ادارية وامنية واسعة فهو مسؤول عن ادارة المدينة والمحافظة على امنها واستقرارها وملاحقة الخارجين على النظام ومعاقبة المسيئين ، ولاهمية هذه الوظيفة كان السلاطين السلاجقة يختارون

شحنة بغداد (العاصمة) او شحن المدن الاخرى كواسط من الامراء السلاجقة الذين كانوا يتصفون بالشجاعة والمقدرة العسكرية والادارية فكان شحنة واسط يقوم بالواجبات التي كان يقوم بها صاحب الشرطة نفسه فقد عهد اليه حفظ الامن ومراقبة المفسدين والقبض على الجناة كما كان عليه ان يحفظ الامن ومراقبة اللصوص وقطاع الطرق وملاحقة المفسدين .

اما في العصر العباسي الاخير بعد زوال التسلط السلجوقي فيبدو ان وظيفة صاحب الشرطة قد تداخلت مع وظيفة (صاحب باب النوبي) وباب النوبي احد ابواب دار الخلافة العباسية ببغداد ويقع في الجانب الشرقي منها وكان متولي حجابة هذا الباب يقوم باعمال صاحب الشرطة ويعد من ارباب البلد فقد كان يسير في الاعياد بموكب كما كان يستطيع ان يعاقب ويقتل كما كان له اعوان يكلفهم القيام ببعض اعماله كما كان له اصحاب اخبار ويبدو انهم كانوا ينقلون له الاخبار عما يسمعون ويرون لكي يتخذ مايلزم .

أن الواجبات الاساسية لحاجب باب النوبي هي ضبط الامن واخماد الفتن واحلال الهدوء والسلام ببغداد فكان يراقب عقائد الناس ويعاقب ذوي المبادىء المعادية للاسلام والتي يؤدي انتشارها في المجتمع الى بلبلة افكار الناس وكان حاجب الباب يراقب الاتفاقيات التجارية كي لا يلحق أحداً حيف او ضرر كما كان يعاقب مثيري الفتن المذهبية والمسيئين على اختلاف منازلهم العلمية والاجتماعية .

من خلال هذا الاستعراض التأريخي لنظام الشرطة والأمن تتجلى اهمية هذا الجهاز في اشاعة الامن وتوفير الطمأنينة للناس والسهر على تطبيق النظام وحفظ حقوق الدولة واجهزتها الادارية كما تبرز امامنا حقيقة اساسية هي ان هذا الجهاز الحساس لا يمكن ان يقوم بدوره الحقيقي الذي أوجد من اجله الا في ظروف استقلال الخلافة وقوتها وسيطرة قيادة الدولة على مقدراتها وممارستها الفعلية لسيادتها الكاملة على مؤسساتها الادارية وبخلاف ذلك فان

هذا الجهاز الاداري الحيوي يفقد اهميته ويتحول الى أداة للارهاب والابتزاز والقمع والتعدى على حقوق لناس ٠

اختيار صاحب الشرطـــة

نظراً لاهمية هذا المنصب فلم يكن يتولاه الا من كان حازما شديد اليقظة قويا على الشر امينا ورعا رحيما وقد جاء في كتاب عيون الاخبار لابن قتيبة ان الحجاج بن يوسف عندما اراد ان يعين صاحبا للشرطة قال : دلوني على رجل للشرطة فقيل : اي الرجال تريد ؟ قال : اريده دائم العبوس ، طويل الجلوس سمين الامانة ، عجيف الخيانة ، لا يحنق في الحق على جرة (حقد) يهون عليه سبال (رد) الاشراف في الشفاعة فقيل له عليك بعبدالرحمن بن عبيد التميمي فارسل اليه يستعمله فقال له : لست اقبلها الا ان تكفيني عيالك وولـدك وحاشيتك فقال : ياغلام ناد في الناس من طلب اليه منهم حاجة فقد برئت منه الذمـة ٠

وكان المنصور يشترط في صاحب الشرطة العفة والقوة لنصرة المظلوم من الظالم لذلك لم يكن يتولـى الشرطة الا مـن كانت شخصيته تنطق بالكفاءة والحنكة والشجاعة والقدرة على التصرف في الامـور فلا غرابة ان يكـون اصحاب الشرطة في عصور الدولة العربيـة الاسلامية الاولى الساعد الايمن للخلفاء والولاة والعدة القوية للمحافظة على كيان الدولة وصيانة المجتمع ٠

وقد ساعدهم على تبوء هذه المكانة قوة شخصيتهم ومستواهم الخلقي الرفيع وكفاءتهم العسكرية الى جانب العدد الهائل من الاعـوان المسلحـين الاقوياء فقد كان لزياد بن ابيه عند ولايته للبصرة في خلافة معاوية اربعة الاف من رجال الشرطة وكان تحت إمرة نازوك صاحب الشرطة في خلافة المقتدر اثنا عشر الف من رجال الشرطة ٠

الواجبات الاساسية لصاحب الشرطة

تنحصر واجبات صاحب الشرطة بلزوم اتباع قواعد الشريعة الاسـلامية في جميع تصرفاته واختصاصاته وان يكون منفذا لحدودها وعلى هذا الاساس يمكن حصر اختصاصات صاحب الشرطة بثلاث وظائف الاولى قضائية والثانية اداريـة والثالثة اجتماعية •

القضـائية

كانت الشرطة في بدايتها تابعة للقضاء تساعد القاضي في الاثبات والتنفيذ ثم استقل صاحب الشرطة تدريجيا فيما يتعلق بالنظر في المخالفات التي تتطلب اجراءات فورية ثم أضيف اليه في العصر الاموي النظر في الجرائم واقامـة الحدود ثم تعاظم هذا الاستقلال خلال العصر العباسي فكان صاحب الشرطة يوجه التهمة ويحقق مع المتهمين ثم ينفذ العقاب بحقهم •

الاداريـة

وتنحصر الوظيفة الادارية بتنفيذ اوامر القضاة في السهر على استتباب الامن وحفظ النظام والاشراف على السجون ومراقبة اماكن اللهو ومنع ماقد يحدث من مخالفات قد تؤدي الـى الاخلال بالفضيلة ومصاحبة الخليفة او الوالي عند التنقل وحمل الحربة بين يديه لاظهار الهيبة في النفوس ومساعـدة عمال الخراج في استيفاء اموال الفيء واخيرا استنفار الناس للقتال وحثهـم على الجهـاد •

الاجتماعيـة

ان هذه الوظيفة لا يمكن أن تبرز الى حيز الواقع الا اذا كـان جهـاز الشرطة يتمتع بثقة الناس ومساندتهم وقد كانت هذه الصورة واضحة في صدر الاسلام وتنحصر الوظيفة الاجتماعية بابداء المساعدة والنجدة الى المحتاجين

والضعفاء ثم الاشراف على السجون والعمل على اصلاح السجناء وارشادهم الى طريق الصواب •

مواكب الشرطة

المواكب عبارة عن دوريات تضم عددا كبيرا من رجال الشرطة باسلحتهم وخيولهم وحملة المشاعل والنفاطين اظهارا للقوة وترويعا للصوص والمفسدين وردا لكيدهم وتطمينا لنفوس الناس وكانت اكبر الدوريات والمواكب هي التي يرأسها صاحب الشرطة نفسه •

فالموكب اذن جزء مهم من تنظيمات الشرطة يبرز دوره في اوقات الاضطرابات فقد كان مؤنس الخازن والي شرطة بغداد ايام المقتدر اذا اشتدت الفتنة واضطرب حبل الامن ركب في موكبه فيسكن الناس هيبة له •

وعندما بلغ اهل بغداد في سنة ٣١٢ هـ /٩٢٤ م هلاك اكثر الحجاج على يد قطاع الطرق وخروج النساء يصرخن ويلطمن في الشوارع فكانت صورة قبيحة وفظيعة فركب نازوك في جميع افراد شرطته من الفرسان والرجالة والنفاطين حتى سكن الناس •

وفي سنة ٣١٥ هـ /٩٢٧ م بلغت بغداد اخبار القرامطة واعمالهم وعزمهم على مهاجمة بغداد فاضطربت المدينة واستغل اللصوص والمفسدون حالة الذعر التي اجتاحت النفوس فتهيأوا للسلب والنهب فكان للموكب العظيم الذي قاده نازوك والذي يضم عددا هائلا من الفرسان والرجالة والنفاطين اثر كبير في سلامة بغداد من اعدائها فلم يكن احد ينزل من رجال الموكب الا لاداء الصلاة حتى ضربت لهم الخيم •

مجلس الشرطة

وهو المكان الذي يمارس فيه صاحب الشرطة سلطته الرسمية ومن خلال لمحاكمات والاستجوابات وتنفيذ الاحكام المشار اليها في كثير من مصادر التاريخ الاسلامي لا تدع مجالا للشك بوجود هذا المجلس سواء في العصرين الاموي او العباسي الا ان مجالس الشرطة وبخلاف بقية الوظائف الادارية كالقضاء والمظالم والحسبة كانت خارج المسجد لان من أهم اختصاصات مجالس الشرطة هي التأديب واقامة الحدود وتنفيذ قرارات القاضي وقد نهى رسول الله (ص) عن اقامة الحدود في المساجد حيث يروى عن الرسول (ص) انه قال (لا تقام الحدود في المساجد) •

وكانت جلسات صاحب الشرطة في العصر العباسي علنية وعلى غاية من الهيبة حيث يتصدر المجلس صاحب الشرطة ويجلس الى جانبه كاتبه لتدوين محاضره واحكامه ويقف حولهما اعوان كثيرون مدججون بالسلاح •

ويجري في مجالس الشرطة استجواب المتهمين وتنفيذ الاحكام ومن ابرز الامثلة على استجواب المتهمين وتنفيذ الاحكام بحقهم في العصر العباسي هو استجواب الحلاج وبعض اصحابه فقد تم في مجلس الشرطة تنفيذ قرارات فتوى القضاء باحلال دم الحلاج بتهمة الزندقة فقد احضر الى مجلس الشرطة ونفذ فيه قرار القضاة بضربه بالسياط ثم قتله كما تم في هذا المجلس استجواب ثلاثة من اصحاب الحلاج فطالبهم صاحب الشرطة بالرجوع عن مذهب الحلاج فأبوا فضربت اعناقهم •

اسلحة الشرطة وملابسهم

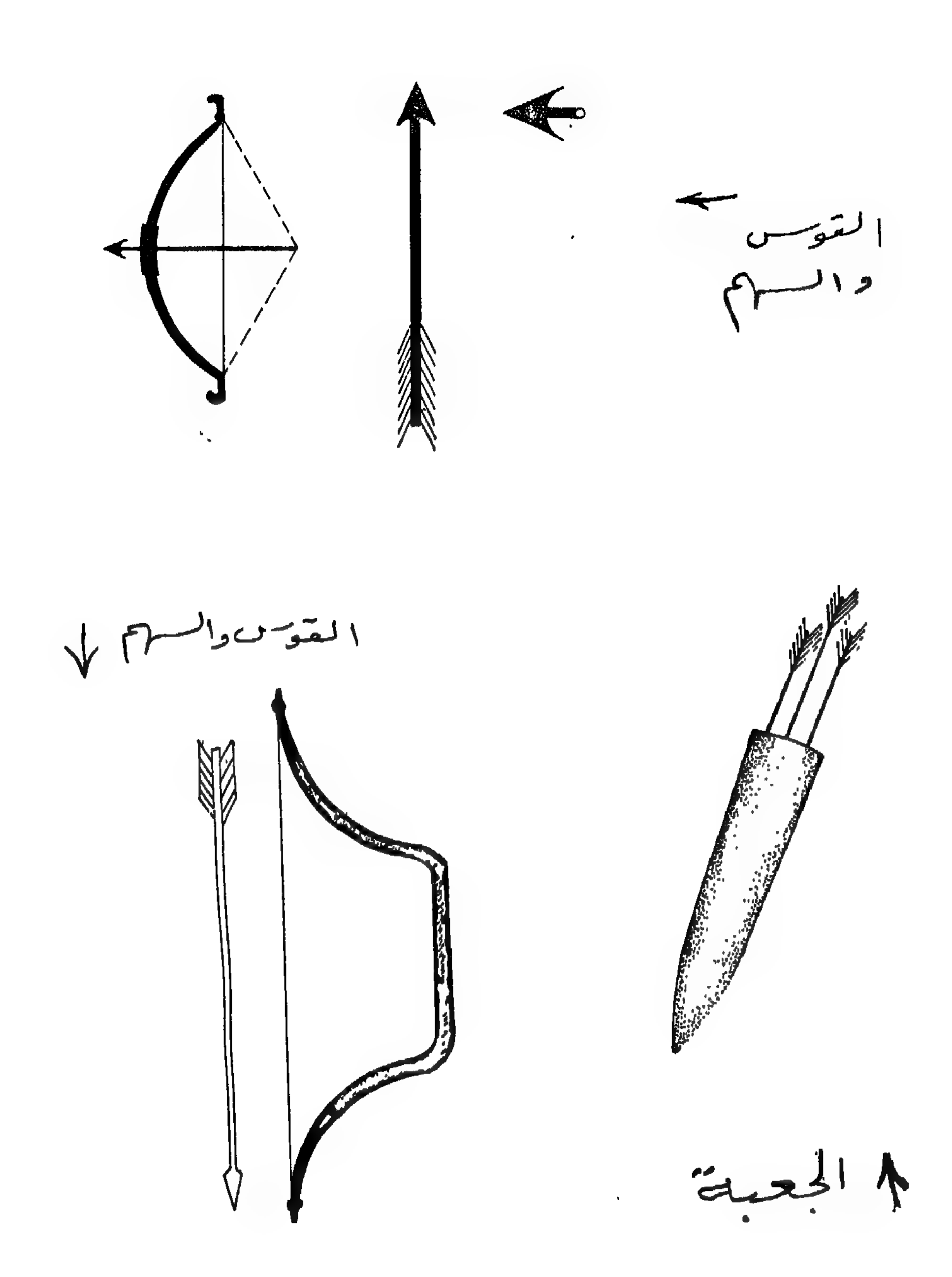
كان افراد الشرطة يتسلحون بالدرة ويؤدبون بها كما كانوا يستعملون المقرعة والقلوس للتأديب والسياط لاقامة الحدود سواء بالجلد او بحمل

الناس على تطبيق النظام وكانوا يتسلحون ايضا بانواع اخرى من الاسلحة المعروفة كالسيوف والحراب والاقواس والرماح القصيرة (المطارد) ويعلقون في اوساطهم الطبرزين وهو سلاح يشبه (الطبر) له نصل قصير وعريض وكان افراد الشرطة في العصر العباسي يحملون الاتراس للوقاية وقد كتب عليها وعلى الاعلام اسم صاحب الشرطة •

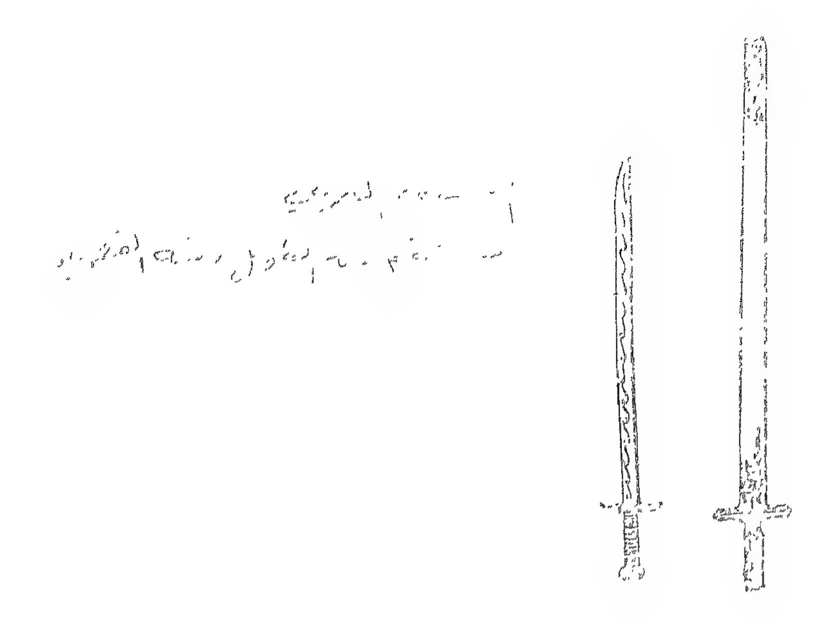
واضافة الى هذه الاسلحة كانوا يستعملون بعض الادوات التي تلائم عملهم مثل الكتاف ، والصفاد ، والغل ، والكبل ، والقيد والسلاسل وكلها آلات اعدت لاهل الدعارة والتلصص والجنايات وكان رجال الشرطة يستعينون بها في حالات خاصة لتكبيل المتهمين او نقلهم الى مجالس الشرطة او السجون •

أما لباس الشرطة او العلامات التي كانوا يميزون بها فان صاحب الشرطة في بداية العصر الاموي كان يقلد سيفا عند تعيينه من قبل الخليفة او الوالي ويظل عنده الى ان ينتهي عمله وعند ذلك يعاد الى دار الخلافة او الامارة ولاشك ان حمله لهذا السيف اثناء قيامه بعمله يعد شرطا وعلامة تميزه عن الخاصة والعامة وكان ايضا يحمل الحربة بين يدي الخليفة او الوالي في المواكب الرسمية •

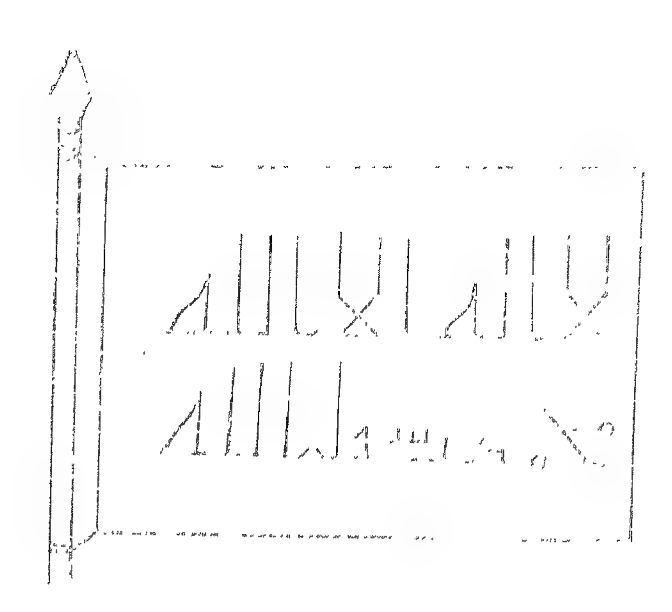
وفي العصر العباسي كان صاحب الشرطة يرتدى القباء الاسود ويتقلد سيفا وهما علامتان : الاولى تميزه عن عامة الناس والثانية تميزه عن الخواص كالقضاة والمحتسبين وغيرهم من اعوان الدولة الذين يرتدون السواد هذا بالاضافة الى حملة الحربة في المواكب •


القوس والسهم
القوس والسهم
الجعبة

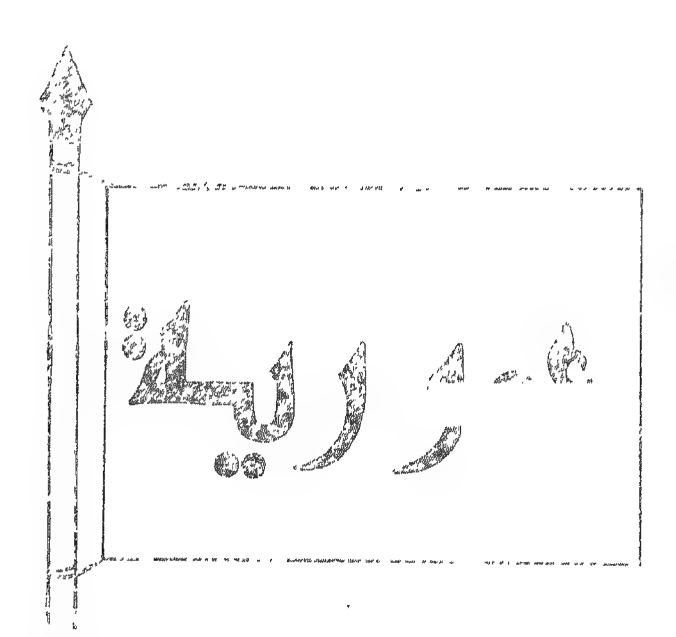

الخوذه
الخوذه
الترس
الدرع



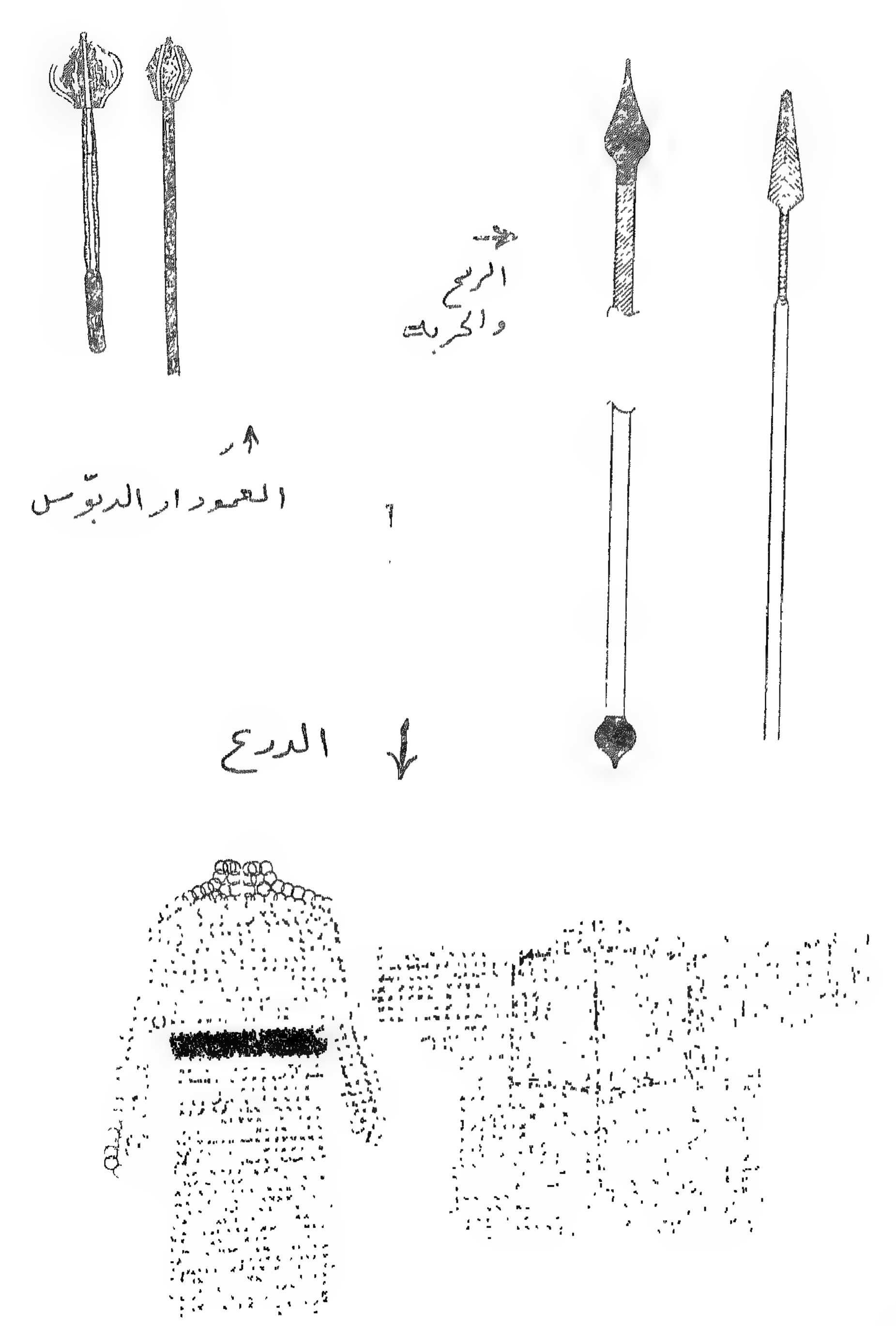
راية العباسيين


لا اله الا الله
محمد رسول الله

[illegible]



[illegible]


الرمح
والحربة
العمود او الدبوس
الدرع

المصادر والمراجع

١ ــ ابن الاثير : عزالدين علي بن محمد (٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م)
الكامل في التاريخ ــ بيروت ١٣٨٥ هـ / ٩٤٥ م

٢ ــ الازدى : الشيخ ابو زكريا يزيد بن محمد (٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م)
تاريخ الموصل ــ القاهرة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م

٣ ــ الاصفهاني : ابو الفرج على بن الحسين (ت ٣٥٦ هـ)
الاغاني ــ نسخة مصورة عن مطبعة بولاق ، بيروت ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م

٤ ــ الانصارى : عمــر بــن ابراهيم الاوســي
تفريــج الكروب في تدبير الحروب ــ القاهرة / ١٩٦١ م

٥ ــ بحشل : اسلم بن سهل الواسطي : (ت ٢٩٢ هـ /٩٠٥ م)
تاريخ واسط ، تحقيق كوركسس عواد ــ بغداد ١٣٨٧هـ/١٩٦٧ م

٦ ــ البلاذرى : احمد بن يحيى (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م)
فتوح البلدان ، نسخة مقابلة عن نسخة الشنقيطي
مراجعة رضوان محمد رضوان ــ بيروت ١٣٩٨ هـ /١٩٧٨ م
انساب الاشراف جـ ٥ ــ القدس ١٩٣٦ م

٧ ــ الجاحظ : ابو عثمان [illegible] بحر ت ٢٥٥ هـ / ٩٦٨ م
رسائل الجاحظ ــ تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة ١٩٦٤ م
البيان والتبيين ــ تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة ١٩٦٨ .

٨ ــ الجهشيارى : ابو عبدالله محمد بن عبدوس ت ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م
الوزراء والكتاب ــ تحقيقمصطفى السقا، القاهرة ١٣٥٧هـ/١٩٣٦م

٩ ــ ابن الجوزى : ابو الفرج عبدالرحمن بن علي ت ٥٩٧ هـ /١٢٠٠ م
المنتظم في تاريخ الملوك والامم ــ حيدر اباد ــ الدكن ١٣٥٧ هـ.

١٠ـ الحسن بن عبدالله :
اثار الاول في ترتيب الدول ـ مطبعة بولاق ـ القاهرة ١٢٩٥ هـ / ١٩٧٨ م

١١ـ الخطيب البغدادي : ابو بكر احمد بن علي ت ٤٦٣ هـ
تاريخ بغداد ، ١٤ جزء ـ القاهرة ١٩٣١ م

١٢ـ ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد ت ٨٠٨ هـ /١٤٠٥ م
كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر ـ القاهرة ١٩٣٦
المقدمـــة ـ المكتبة التجارية ـ مصر ـ القاهرة

١٣ـ ابن خلكان : ابو العباس احمد بن ابي بكر ، ت ٦٨١ هـ
وفيات الاعيان وانباء أبناء الزمـــان
ت محيي الدين عبدالحميد ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٤٩ م

١٤ـ خليفة بن خياط : ابو عمر ت ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م
تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق اكرم العمري ـ بيروت ١٩٧٧ م

١٥ـ الخوارزمي : ابو عبدالله محمد بن احمد ـ ت ٣٨٧ هـ
مفاتيح العلـــوم ـ القاهـــرة ١٣٤٢ هـ

١٦ـ الزبير بن بكّار : ت ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ م
الاخبار الموفقيات ـ بغداد ـ ١٩٧٣ م

١٧ـ ابن الزبير : احمد بن الرشيد بن القاضي الزبير
الذخائر والتحف ـ تحقيق محمد حميد الله ـ الكويت ١٩٥٩ م

١٨ـ ابن سعد : محمد بن سعد بن منيع البصرى ت ٢٣٠ / ٨٤٤ م
الطبقات الكبرى ـ بيروت ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٧ م

١٩ـ ابن سلام : ابو عبيد القاسم ت ٢٢٤ هـ / ٨٣٨ م
كتاب الاموال ـ القاهرة ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م

٢٠ـ الصابي : ابو الحسين هلال بن المحسن ت ٤٤٨ هـ
كتاب الوزراء ، مطبعة الحلبي ـ القاهرة ١٩٥٨ م

٢١ـ الصولى : ابو بكر محمد بن يحيى
اخبار الراضي بالله والمتقي لله ـ القاهرة ١٩٣٥ م

٢٢ـ الطبرى : ابو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م
تاريخ الطبرى ، تحقيق ابو الفضل ابراهيم . دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٩ م

٢٣ـ العسكري : ابو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل ت ٣٩٥ هـ /١٠٠٤م
كتاب الاوائل ـ المدينة المنورة ١٣٨٥ هـ /١٩٦٦ م

٢٤ـ ابن قتيبة : عبدالله بن مسلم بن قتيبة ت ٢٦٧ هـ
عيون الاخبار ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٣٤٣ هـ /١٩٢٥ م

٢٥ـ الكوفي : احمد بن اعثم ت ٣١٤ هـ
كتاب الفتوح ، حيدر اباد الدكن ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م

٢٦ـ مسكويه : ابو علي احمد بن محمد ت ٤٢١ هـ
تجارب الامم ـ القاهرة ١٩١٤ م

٢٧ـ الهرثمي : ابو سعيد الشعراني ـ من القرن التالث الهجري
مختصر سياسة الحروب ـ بتحقيق عبدالرؤوف عون ـ القاهرة

٢٨ـ ياقوت : شهاب‌الدين ابو عبدالله الحموي ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩ م
معجم البلدان ـ دار احياء التراث العربي ـ بيروت

٢٩ـ ابو يوسف : يعقوب بن ابراهيم القاضي ت ١٨٢ هـ /٧٩٨ م
كتاب الخراج ـ القاهرة ١٣٥٢ هـ

المراجع

١ ـ ثابت : نعمان
الجندية في الدولة العباسية ـ بغداد / ١٩٣٩

٢ ـ دكسن : د. عبدالامير
الخلافة الاموية ، بيروت / ١٩٧٣ م

٣ ـ الدوري : عبدالعزيز
ـ مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، بغداد / ١٩٤٩
ـ النظم الاسلامية ، بغداد / ١٩٥٠
ـ دراسات في العصور العباسية المتأخرة ، بغداد / ١٩٤٥

٤ ـ خطاب : محمد شيت
الرسول القائد ـ بغداد ١٩٦٠
قادة فتح العراق ، القاهـرة
٥ ـ زكـي : عبدالرحمن
السيف في العالم الاسلامي ـ القاهرة ١٩٥٧
السلاح في الاسلام ـ القاهرة ١٩٥٦
٦ ـ عماش : صالح مهدي
قتيبة بن مسلم الباهلي ـ بغداد ١٩٧٨
٧ ـ عـون : عبدالرؤوف
الفن الحربي في صدر الاسلام ـ القاهرة ١٩٦١
٨ ـ المعاضيدي : عبدالقادر
واسط في العصر الاموي ـ دار الحرية ، بغداد ١٩٧٦ م/١٣٩٦ هـ

الفصل السادس

العلاقات السياسية الخارجية

د. حسن فاضل زعين

كلية التربية ـ جامعة بغداد

المبحث الأول

السفارات نظام سياسي حضاري

عرف العرب قبل الاسلام نظام السـفارات ، ومارسوه في علاقاتهـم السياسية ، الداخلية منها والخارجية . فكانوا اذا أرسلوا رسولا أو سفيرا أوصوه (بالصبر واليقظة والاحتراز) ، وورد في اقوالهم (بالرسول يعتبر المرسـل) .

ففي مجال العلاقات الخارجية ، كانت لهم سفارات مع بلاد الهند والروم والفرس وغيرهم . واولوا هذا النوع من العلاقات اهمية تتوازن ومصالحهم مع ملوك تلك الشعوب ، فيذكر الواقدي (ان قريشا في الجاهلية كانت اذا ارسلت رسولا الى بعض الملوك قالت له : انتهز الفريصة ، فانها خلسة وبت عند

رأس الامر لاذنبه ، واياك وشفيعاً مهينا فانه اضعف وسيلة واياك والعجز فانه اوطأ مركب ، وعليك بالصبر فأنه سبب الظفر ، ولا تخض الغمر حتى تعرف القدر) واذا توجه للمسير قالت : (اللهم قو ضعفته واحرس غفلته ، وشد منته .. حتى تؤديه سالما الى سالمين) .

اما علاقاتهم الداخلية ، وما رافقها من ظروف ، استثنائية احيانا ، فقد اقتضى حلها بالعقل والتروي والحكمة عن طريق السفراء المتميزين ، فيذكر ابن الاثير (ان عمر بن الخطاب كان من اشراف قريش ، واليه كانت السفارة في قريش) .

وجاء التغيير الشامل في حياة العرب ، بقيام الدولة العربية الموحدة على يد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليشمل تنظيم العلاقات الدبلوماسية وادخالها ميدان العلاقات السياسية الدولية ، وفق قواعد واسس جديدة واهداف تتفق ومصالح الامة العربية ورسالتها الدينية والقومية والحضارية .

وحين انتقل مركز الدولة العربية الى الشام زمن الامويين ، برز دور العراق المهم في العلاقات الخارجية ، باعتباره قاعدة للتحرير والفتح للمناطق الشرقية ، رغم عدم توسع الدولة في علاقاتها السياسية الدولية ، بسبب طبيعة المرحلة التي مرت بها ، وانشغال الامويين بتثبيت كيان الدولة .

ورافق استلام العباسيين قيادة الدولة العربية ، وانتقال عاصمتها للعراق ، تطور وازدهار حضاري كبيرين ، وانفتاح واسع في العلاقات السياسية الخارجية للدولة على الشعوب والامم المعاصرة لها ، فجاء هذا الازدهار وذاك التوسع ليشمل تنظيم السفارات العربية ، بشكل دقيق ، ووفق ضوابط جديدة ، تتناسب وازدهار الدولة الحضاري ومصالحها الواسعة ، فشهدت بغداد اقوى العلاقات الدبلوماسية واوسعها ، وظلت كذلك حتى سقوطها سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م .

اهداف واغراض السفارات العربية

لقد رافق توسع الدولة العربية وازدهارها حضاريا ، تطور علاقاتها الدبلوماسية وتوسع سفاراتها شرقا وغربا ، خاصة بعد ان اصبحت بغداد عاصمة للدولة ، ومركزا حضاريا وسياسيا مهما في العالم انذاك ، فازدادت صلاتها الدبلوماسية بالامم قوة ، وعظم شأن الرسل والسفراء وكثر توافدهم .

وكان من الطبيعي ، ان تكون لهذه السفارات والبعثات اهداف واغراض مختلفة ، تحقق للدولة مصالحها المشروعة ، وتزيد من روابطها السياسية والعلمية والاجتماعية مع الدول والامم المعاصرة لها ، ويمكن اجمال هذه الاغراض بالامور التالية :

أ ـ الفداء او عملية تبادل الاسرى

والهدف منه ان يفدى الاسرى العرب بمال أو نحوه لانقاذهم من الاسر، او ان يتم اطلاق سراحهم مقابل اطلاق عدد من اسرى الروم (البيزنطيين) لدى العرب . وقد حرصت الدولة على فك اسراها بالطرق الدبلوماسية انطلاقا من واقع مسؤوليتها القومية والتاريخية تجاه رعاياها . وكان الفداء يجري وفق مراسيم مخصوصة يسبقها مفاوضات وشروط . فيذكر المقريزي (ان اول فداء مشهور وقع ايام بني العباس ، كان في زمن الخليفة الرشيد). اما المسعودي فقد ذكر : انه جرى بين الطرفين اثنا عشر فداء حتى سنة ٣٣٥ هـ .

ب ـ التجسس

من أهم اغراض السفير أو الرسول أن يحاول من خلال سفارته جمع المعلومات بطرق واساليب شتى ونقلها لدولته للاستفادة منها .

والمعلومات المتأتية عن هذا الطريق ، تكون في غاية الخطورة والاهمية فيذكر البيهقي (ان السلطان مسعود قد بث بين الرجالة والسواس الذين صحبوا رسول الخليفة رجلا من العيون (جاسوسا) يسير متنكرا لينهي له كل ما يرى قل او كثر الى الحضرة السلطانية) .

وقد ادركت الخلافة ببغداد أهمية هذا الغرض وخطورته فاتخذت اجراءات احترازية لمنع سفراء الدول من التجسس عليها . فمنعت رعاياها من الاتصال بهؤلاء السفراء او مخاطبتهم خشية استغلالهم في جمع المعلومات. واصدرت وثيقتها الدبلوماسية التي جاء فيها :

(ويجب ان يعلم ان الملوك بارسالهم السفراء لا يقصدون تسليم رسالة ، او نقل سفارة فقط ، بل ان هناك مئات الاغراض يبغونها ، فهم في الحقيقة يريدون ان يعلموا حالة الطرق .. ويعلموا ان كانت معبدة تستطيع الجيوش ان تمر بها ، والامكنة التي توجد فيها المروج والاعشاب ... وان يعلموا قوة الجيش ومؤونته في العدد والعدة وفي الدفاع وفي الهجوم ، وان يعرفوا كيف يعيش الامير ، وماذا ياكل وبمن يجتمع ، وان يدركوا تنظيمات بلاطه . وهم يجهدون لمعرفة عاداته واخلاقه في عدله وظلمه ولهوه وتبذله وكرمه ورقته ، وهل متعلم ام جاهل ، وهل ازدهرت مملكته بالعمران ام ملأتها الخرائب والاطلال ، وهل رضي عنه جنده ام هم مغضبون مغيظون وهل اتباعه من الفقراء أم الاغنياء ، وهل يجدّ في شؤون مملكته أم يهملها ، وهل هو بخيل أم جواد ، ووزيره قدير ام عاجز . وحاشيته من العلماء الاذكياء ام لا ؟ وما يحب ويبغض ، وان يعلموا ما شأنه اذا شرب الخمر ، وهل يميل الى الحب والى النساء ، حتى اذا رغبوا في مهاجمة مملكته يوما أو ارادوا نقض خططه أو نقد عيوبه كانوا مطلعين مدركين يضعون المحاسن والمساوىء نصب اعينهم وينهجون بحسبها) .

يتضح من هذه الوثيقة ، ان الدولة العربيـــة كانت على خبرة واطلاع واسعين باغراض الدبلوماسية واهدافها الخفية ، فاستخدمت نفس الاساليب للوقوف على احوال جيرانها ، لتكون بمنأىً عن مفاجئـــات اعدائها ، يحدثنا الطبري فيقول (ان عمرو بن العاص لما عجز عن ارطبون الروم ، دخل عليه كأنه رسول ، فأبلغه مايريد ، وسمع كلامه ، وتأمل حصونه حتى عرف مـــا أراد) •

ج ـ التجـارة

ادخلت في اطار العمل الدبلوماسي ، كوسيلة من وسائله خاصة بعد ان اصبحت بغداد من اهم المراكز التجارية في العالم، وتوسعت تجارتها شرقا وغربا فاضطر الخلفاء الى استغلال التجارة في شؤونهم الدبلوماسية • فارســلوا رسلهم وسفراءهم للتبادل التجاري مع امم ودول العالم من الروم والفرنجة والهند والصين وغيرها • كما استقبلت بغداد مثل هذه البعثات •

د ـ التهنئة والتعزية

التي اصبحت من اغراض الدبلوماسية ـ قديمـا وحديثـا ـ فكانت الرسل والسفراء تتردد للتهنئة تارة ، وللتعزية تارة اخرى ، حســب الظروف التي تتلاءم وكل حالة • يروى الخطيب البغدادي (ان وافدا من الروم قدم على الخليفة المهدي العباسي يهنئه ، فأمر بانزاله واكرامه) • ويذكر البيهقي (ان الخليفة القادر بالله ارسل سفيرا يحمل رســالة الى السلطان مســعود الغزنوي تتضمن التعازي والتهاني بوفاة السلطان محمود وتنصيبه محلــه باعتباره ولي عهده) •

هـ ـ المصالحة

من الاغراض التي ادخلت في حيز العمل الدبلوماسي ، وصولا لتهدئة الاوضاع الاستثنائية ، وفض النزاعات والخلافات بين الامراء والحكام ، التي

غالبا ما كانت تقع بين الايوبيين انفسهم • فيذكر المقريزي (ان الخليفة الظاهر بالله اوفد سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م الشيخ محيي الدين ابن الجوزي في سفارة ليوقع الصلح بين بني ايوب) ويذكر ايضا (ان الخليفة المستنصر بالله اوفد سنة ٦٣٥هـ /١٢٣٧م ابن الجوزي ايضا في سفارة لتوقيع الصلح بين الملك الصالح واخيه الملك العادل، فأستقبل سفير الخليفة استقبالا كبيرا وادى مهمته بنجاح) • وكذلك فعل الخليفة المستعصم بالله حين اوفد سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م الشيخ نجم الدين البادرائي ليوقع الصلح بين الملك الناصر والملك المعز •

و ـ الهدنــة والصلــح

وكانت غالبيتها تقع بين الروم (البيزنطيين) والدولة العربية ، نتيجة العمليات الحربية المتكررة بينهما ، فاستغل الطرفان الطرق الدبلوماسية لعقد الهدنة وتوقيع الصلح ، ومن الوثائق الدبلوماسية المكتوبة ، تلك الرسالة التي ارسلها امبراطور الروم ثوفيل سنة ٢١٧هـ/٨٣٢م للخليفة المأمون يطلب فيها الصلح ، جاء فيها (•• وقد كتبت اليك داعيا الى المسالمة ، راغبا في فضيلة المهادنة ، لتضع اوزار الحرب عنا •• مع اتصال المرافق والفسيح في المتاجر وفك المستأسر وأمن الطريــق) •

فرد عليه المأمون برسالة مطلعها « اما بعد ، فقــد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوت اليه من الموادعة •• غير اني رأيت ان اتقدم اليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك الــى الوحدانية والشريعة الحنفية فأن ابيت ففديــة •• »

ومن الجدير بالذكر ، ان اغراض واهداف الدبلوماسية العربية لــم تقتصر على الجوانب المهمة الآنفة الذكر ، فهناك اغراض اخرى كثيرة تدخل في العمل الدبلوماسي ، منها سفارات الهدايا والزواج والاستنفار والثقافــة والمحالفــة •

المواصفات الحضارية والسياسية للسفير

لما كان السفير او الرسول ، يمثل الدولة ، فهو يتكلم باسمها ، ويبرم المعاهدات والاتفاقيات نيابة عنها ، لذا اصبح من الضروري وضع مواصفات حضارية وسياسية لمن يصلح للسفارة تتناسب وأهمية هذا المنصب • يقول ابو زيد في السياسة المختصرة (وان يكون الذي تختاره في الرسائل ، جهر الصوت حسن الرواء والمنظر ، مقبول الشمائل ، حسن البيان ، جيد العبارة حافظا لما يتبلغ ليؤديه على وجهه • ولا يمنعه الصدق عن سلطانه رغبة يقدمها فيمن يتوجه اليه ، ولا مهانة يستشعرها في نفسه ، وتقديم النصيحة لرئيسه ، فانه متى لم يكن المستكفى لهذا العمل ، واستعمل بابا من التحريف والتمويه ، فيما يختلف فيه بين السلطان وبين من يراسله ويشافهه على لسانه بما يحتاج اليه ، فان عدا هذه الصفة وقع في اعمال السلطان بذلك اظهر خلل واعظم ضرر• ولذلك يجب على السائس ان يجتهد في تخيره لهذا العمل من يصح له ويستقل به ويجريه على وجهه ، ولا يحتمل متوليه على تقصير يقع منه فيعرض امر السلطان لوقوع الخلل والانتشار فيه) •

وحدد ابن الفراء مواصفات السفير فقال : (يكون الرسول مذكورا ، وسيما قسيما ، لاتقتحمه العين ، ولا يزدرى بالخبرة ، عفيفا جيد اللسان ، حسن البيان ، حاد البصر ، ذكي القلب ، يفهم الايماء ، ويناظر الملوك على السواء فانه انما ينطق بلسان مرسله ، فاذا ذكروه عرف واذا نظر اليه لم يحتقر ، ويجب ان يجمّل بكل ما امكن الوافد ، والعامة ترمق الزي أكثر مما ترمق الكفاية والسداد ، ويجب ان تزاح علله فيما يحتاج اليه ، حتى لاتشره نفسه الى مايبذل ويدفع اليه ، فأن الطمع يقطع الحجة ، والرسول أمين لا أمين عليه ، فيجب ان يرتهن بالاحسان اليه والافضال عليه) •

وورد في الشعر العربي ذكر لبعض صفات السفير وطرق اختياره فقال شاعرهم •

ان الرسول مكان رأيك فالتمس للرأي آمن مـــن وجدت وانصحا

تأبى الامور على الغبي فان سعى فيها الذكي فبالحرا أن تصلحـــا

فاذا تخيرت الرسول فلا تكـــن متجـــوزا في امـــره متسمحـــا

وتوخ في حســـن اسمه ورواته قول النبـــي تيمنـــا وتنجحـــا

واجعله امـــا ماضيـــا او نافـــذا او ياسرا او منجمـــا او مفلحـــا

وقد وفقت الدولة العربية الى حد كبير في اعتمادها هذه المواصفات الحضارية والسياسية لسفرائها ، والتي يمكن تبويبها كالآتي :

أ ـ **الصفات الجسمية**

التي جعلها العرب في مكان الصدارة لاهميتها فقالوا : يستحب في الرسول تمام القد وعبالة الجسم ، حتى لا يكون قميئا ، ولا ضئيلا ، وان كـــان المرء باصغريه ، ومخبوءا تحت لسانه ، ولكن الصورة تسبق اللسان، والجثمان يستر الجنـــان) •

وجاء في الحديث الشريف قوله صلى الله عليه وسلم (اذا ابرد تـــم الي بريدا فليكن حسن الوجه ، حسن الاسم) •

وورد عن عمر بن الخطاب (ض) قوله (يؤذن لكم ، فيقدم احسنكم اسما ، فاذا دخلتم قدمنا احسنكم وجهـــا ، فاذا نطقتم ميزتكم السنتكم •• وكانت اعين الملوك تسبق الى ذوي الرواء من الرســـل ، وانما توجب ذلك في رسلها لئلا ينقص اختيارها حظا من حظوظ الكمال ، ولانها تنفذ واحدا الى أمة وفذا الى جماعة ، وشخصا الى شخوص كثيرة ، فاجتهدوا في ان يكون ذلك الواحد ، وسيما جسيما يملأ العيون المتشوفة اليه فلا تقتحمه ، ويشرف على تلك الخلق المتصدية له ، فلا تستصغره) •

وقد ادرك العرب هذه الصفات، فجعلوها في مقدمة مواصفات السفير أو الرسول لتأثيرها الكبير في نفوس الرائين ، لان النفس الانسانية مطبوعة

على نعظيم الجميل ، مجبولة على رفعه وتكريمه ، ففي جمال الزي وجمـــال الاسم سحر يبهر ويعجب •

فيذكر ابن الفراء ، ان امبراطور الروم ادهشه ماكان عليه سفراء الدولة العربية من مهابة في الجسم وابهة في المظهر ، فعبر عن دهشته حينما دخل عليه سفير الخليفة المعتصم ، وراى من هيبته وكثرة تجمله ، وما صحبــه في رحلته من مظاهر العظمة والثراء والالات التي لا يكون مثلها الا لعظمــاء الملوك ، فسأله : كم ترزق من مال سلطانك ؟ قال السفير : ارتزق انا وولدي في كل شهر عشرين الف درهم او نحوها • قال : فتحت فتحا قط كان السلطان به معنياً ؟ قال السفير : لا • قال : نازلت رجلا مشهورا بالفروسية مــن اعداء سلطانك فقتلته مجادلــة ؟ قال الســفير : لا • قال : فاستنقذت خليفــة او ولــي عهــد قــد لجــج في مضــيق او معركــة لــم يظــن الخلاص منهــا ، فوجــد باقدامــك وقــد احجــم نظراؤك فرجــة ؟ قــال الســفير : لا • قال : فبأي شيء تستحق هــذا الرزق الكثير ؟ قــال الســفير : ان للخلفاء خدما يتصرفون في انحاء الخدم لكل طائفة مذهب يجتبون له ويحتملون عليه ، لا يكلفون سواه ، ولايراد منهم غيره ، فمنهم من يعد للفتــوح فهو يلبس السلاح ويقود الجيوش ومنهم من يعد للقضاء ، فهو يلبس المبردات والدنيات (القلانس) ومنهم مثلي من يصلح ان توفده الخلفاء للملوك ، ويتحمل رسائلهم الى مثلك من اهل الجلالة والقدر والسناء والذكر ، فلولا ثقتهم بي ، وعلمهم بمناصحتي وصدقي فيما اورد واؤدي ، صادرا وواردا ، لما رأوني اهلا للتوجه فيما توجهت فيه اليك ، وقليل لمثلي هذا الرزق مع هذا التحمل ومع هذا المحل من الخلافة وهي من الجلالة على ماهي • فسكت سكوت معترف ولم يقل في ذلك شيئا • لان جواب السفير كان في منتهى الدقــة والوضوح والذكاء ، وكأن الدولــة ارادت ان تستجمع هــذه الفضــائل على مراتبها في شخصية سفرائها ، فيكون السفير حسن الاسم والخلق والبيان •

٢ ـ الصفات الخلقية

اشترطتها الدولة العربية الى جانب الصفات الجسمية ، وهذه الصفات متعددة الجوانب وقلما تتوفر مجتمعة في شخص واحد ، فاذا توفرت فيه ، كان جديرا بالسفارة ، مؤهلا للقيام بها ، ومن تلك الصفات

أ ـ ان يكون السفير على درجة كبيرة من « نفاذ الرأي وحصانة العقل » تجعله يستنبط غوامض الامور ودقائقها ، فلا يغيب عنه شيء . فقد جاء في وصية المهلب بن ابي صفرة ليزيد ولده (وليكن الرسول بيني وبينك من يعقل عني وعنك ، واذا كتبت كتابا فاكثر النظر فيه ، فان كتاب الرجل موضع عقله ورسوله موضع رأيه) .

ب ـ ان يكون حاضر الفصاحة ، مبتدر العبارة ، ظاهر الطلاقة ، ليعجب السامع بطلاوة حديثه ، ويسحره بحلاوة لسانه ، ويفتنه بخلابة لفظه ، ثم ليكون كلامه ممتعا نافعا فان للبيان من السحر ما لاينكر ، وان له في التوصل الى البغية ماهو معروف .

ج ـ ان يكون ذكي القلب ، وثابا على الحجج ، فتكون حججه تحت لسانه ، يفهم الايماء ، ويدرك حجة خصمه قبل النطق بها (مبرما لما نقض وناقضا لما ابرم) في طبع لا تكلف فيه ، ليسهل عليه المحاورة والمكايدة ، للوصول الى الغاية ، وتحقيق اهداف السفارة .

د ـ ان يكون السفير على درجة من الاقدام والجرأة ، على ان تكون مقرونة بالوقار والهدوء « لانه ليس على كل الطبقات يشتد ، ولا لكلها يلين ، وربما لم يسعه الا ان يصدع بالرسالة على مافيها ، فمن لم يكن جريئا حرفها وأخل بها وافسد معانيها » ، يروى ان الخليفة عبدالملك بن مروان، ارسل بعض اصحابه الى الحجاج بن يوسف برسالة غليظة، وحذره من تعديها او الانة الفاظها ، فأداها وعاد اليه ، فقال له : اديت ما حملتك ؟ قال :

نعم يا امير المؤمنين ، فقال : اما لو لم تفعل لضربت عنقك • فقال : هذا عقاب المعصية ، فما عقاب الطاعة ؟ فأمر له بجائزة •

فان لم يكن الرسول شجاعا ، وقورا ثابت العقل ، وورد من الاعداء على من يرعد ويبرق عليه ،ويجمع له عَدَده وعُدَده ، فأكثر الرسول التفتت الى ذلك ، ضعف مرسله ووهنه • وأوهم المرسل اليه ان صاحبه دون قوته ومنعته ، لان رسول الرجل مكان رأيه ، وكتابه مكان عقله •

هـ ــ ان يكون متصفا بالحلم وكظم الغيظ ، متأنيا صبورا ، فربما وجه الى سخيف ، ودفع الى طائش • فبدرت منه الكلمة البذيئة التي يجب ان يقابلها بالحلم « لانه مع الحلم والكظم اخلق بالنجاح وبلوغ المراد »• فان لم يكن صبورا فربما اندفع الى ابرام أمور تضر بدولته ، بسبب عجلته التي تقوده الى خلتين (فاما ينقاد الى مؤاتاة من ارسل اليه ، واما ان يعود بأمر لم ينفصل ورأي لم ينبرم) •

و ــ ان يكون امينا لئلا يخون مرسله ، وان يترك الافراط في الانقباض والحشمة لان الانقباض يوجب الوحشة ، والانبساط يوجب المؤانسة والمؤانسة تجمع القلوب فلابد من التظاهر بتلك الصفات (لئلا تكون الوحشة سبيلا الى النفور ، ويكون النفور سبيلا الى الفشل) وان يؤثر الصدق على غيره ، لان الصدق يورث الثقة ، والثقة تمهد للاجابة •

ز ــ ان يكون على درجة كبيرة من الثقة بالنفس ، وعلو الهمة (ليشعر نفسه بالنجاح ، ويمكن في قلبه الظفر ، فيلقى الامور بنشاط القدرة ويباشرها بعلو الهمة) فنكلل مساعيه بالنجاح •

وقد نبهت الدولة العربية سفراءها الى امرين مهمين للتمسك بهما :

أولهما : تجنب شرب الخمر والافراط فيه اذا بلغ ارض المرسل اليه ، لان الخمر تفضح شاربها في اغلب الاحايين ، وتطلع على مافي نفسه من

الاسرار ، والابتعاد عن الميل الى النساء ، لان لهن حيلا بارعات يستخرجن بها الاخبار (فكان الفرس يلجأون الى النساء لاستخراج الاسرار) .

ثانيهما : عدم التدخل في شؤون المرسل اليه وامور مملكته ، والا يثير الملك على الرعية ، او يتصل بشخصيات مشتبه في امرها لدى سلطان الدولة المرسل اليها ، لان ذلك يعتبر تدخلا في شؤون الدولة وسيادتها .

٣ ــ الثقافة العامة

اضافتها الدولة العربية الى الصفات الجسمية والخلقية للسفير، لتستكمل بذلك مؤهلاته ومواصفاته السياسية والحضارية ليتمكن من اداء عمله بشكل امثل يجنبه مواطن الزلل ويجعلــه قادرا على المحاورة والمناقشــة . وليس المقصود بالثقافة العامة ، هو التدقيق في تحصيل كل علم . وانما الهدف ان يكون له المام بكل علم ، بحيث يمكنه أن يتكلم به اذا ما اضطر اليه وابلغ تعبير عن هذا المعنى قول عامر الشعبي : العلم اكثر من ان يحصى ، فخذ من كل شيء احســنه .

وكانت الثقافة العامة السائدة في عصر الدولة العربية ، هي معرفة الامور الدينية كالفرائض والسنن واحكام الدين ، ثم التواريخ والسير التي توسع الافق العلمي ، (ليناظر كلا بحسب مايراه من صوابه وخطئه) .

واضافت الدولة الى هذه المواصفات ، نسب الســفير فقالت (وليكن من اهل الشرف والبيوتات ، ذا همة عالية ، فانه لابد مقتف اثار اوليته محب لمناقبها مساو لاهله فيها) .

ولم يكن هدف الدولة من اضافة النســب ، التمايز الطبقي او النظرة الاستعلائية ، كما كانت تراه الامم انذاك بقدر ماهو اقتران اصحاب الاصل العريق بسلوكهم ، فالنبيل منهم لايصدر عنه الا العمل النبيــل والســلوك الحســن .

هذا وقد ساعدت المواصفات التي وضعتها الدولة في انتقائها لسفرائها الى خلق طبقة جيدة منهم ، كانوا عنوانا كريما على سمو الدولة العربية وتعاليمها الدبلوماسية ، مما اعجز حكام الدولة الذين قابلوهم من التأثير عليهم او خداعهم • كما وجدوا فيهم رجالا على جانب كبير من الادب الجم ، وسمو الخلق ، وغزارة العلم ، وبراعة المحاورة •

ارسال البعثات الدبلوماسية وشروطها

لما كان السفير يمثل الدولة في الخارج ، فهو المتكلم باسمها ، المفاوض عنها ، يبرم العقود ويوقع المعاهدات نيابة عنها ، وهي بمجملها امور على غاية من الاهمية والخطورة • ولهذا حرصت الدولة العربية على انتقاء واختيار سفرائها ممن يتصفون بالكفاءة والمقدرة ، فاذا تعذر ايجاد شخص يتحلى بالضوابط التي وضعتها ، فحينئذ تلجأ الى تشكيل بعثة دبلوماسية ، تضم أكثر من شخص ، يكمل الواحد منهم بمواهبه مواهب الاخر ، على ان يتولى رئاسة السفارة اكثر الاعضاء تمتعا بتلك الصفات • وقد تلجأ الى هذا النوع من البعثات لضرورات سياسية تمليها مصلحتها •

وكان الخليفة يتولى مهمة ترشيح السفراء واختيارهم ، بعد اجراءات سابقة يتولاها موظفون مختصون • فالخليفة عبدالملك بن مروان ، اختار عامر بن شراحيل الشعبي الفقيه ، سفيرا بعد مقابلة معه كانت اشبه بامتحان لاختبار معلوماته • فسأله حين وفد عليه من العراق : ياشعبي ما العلم ؟ فقال : هو مايقربك من الجنة ويباعدك من النار •

فسأله الخليفة : ياشعبي ما العقل ؟
فاجاب : مايعرفك عواقب رشدك • ومواقع غيك •
فسأله الخليفة : متى يعرف الرجل كمال عقله ؟

فاجاب : اذا كان حافظا للسانه ، مداريا لاهل زمانه ، مقبلا على شأنه . واخذ الخليفة يسأله عن الحكمة والادب والشعر والشعبي يجيب بنباهة واقتدار ، مما حدا بالخليفة عبدالملك ان يقول له اخر الامر انك لكنيف علم ، دلالة على اعجابه به ، فبعثه سفيرا .

وتولى ديوان الرسائل الذي انشأته الدولة العربية منذ وقت مبكر من قيامها ، مهمة المكاتبات مع ملوك وامراء الدول المجاورة ، وفي العصر العباسي كان كاتب الرسائل يمهد لاختيار السفراء واعداد الكتب التي يحملونها .

وحرصت الدولة على تزويد سفرائها وبعثاتها الدبلوماسية باوراق الاعتماد وجوازات السفر . وهذه الاوراق عبارة عن كتاب صادر عن لسان الخليفة ، يتضمن التعريف بالسفير ، والغرض من سفارته ، لأمكان اعتماد اقواله وافعاله عند الجهة المرسل اليها .

وكان يتولى كتابة الوثائق الرسمية هذه كاتب مخصوص باللغة العربية ، واحيانا يحمل السفير ترجمة بلغة البلد الموفد اليها واستعمل الورق البغدادي ، وهو اجود انواع الورق ، في كتابة هذه الأوراق .

وسارت الدولة البيزنطية على منوال الدولة العربية في تجميل اوراق اعتماد سفرائها . الا انها غالت فيها كثيرا ، فيروى ابن مسكويه (ان ملك الروم بعث كتابا الى الخليفة الراضي بالله في بغداد مع سفرائه سنة ٣٢٦هـ/٩٣٧م دونت كتابته الرومية بالذهب ، وترجمته العربية بالفضة) .

والى جانب اوراق الاعتماد ، زود السفراء بأوراق الجواز ، التي دون فيها اسمه ولقبه وصفته والجهة التي يقصد اليها ، ومدة مكوثه ورجوعه ، مع الرجاء الى السلطات المختصة بتسهيل مهمته وابداء المساعدات والتسهيلات له ، ومعاملته باكرام ، وحمله على خيول البريد التي كانت احسن واسرع وسائل المواصلات انذاك .

استقبال سفارات وسفراء الامم والدول الاجنبية وتوديعهم

حرصت الدولة العربية على حسن استقبال السفراء الوافدين اليها بطريقة تتناسب وعظمة حضارتها ومكانتها السياسية ، فشملتهم برعايتها وعنايتها • وبالغت في اكرامهم والحفاوة بهم • وهدفها من وراء ذلك امران :

اولهما : ان السفير يتكلم باسم رئيس دولته ، وأن اكرامه ، انما اكرام للملك المرسل نفسه وللدولة التي يمثلها •

ثانيهما : اظهار عظمة الدولة وبذخها وقوتها لادخال الرهبة في نفوس السفراء الوافدين عليها ، فينقل هؤلاء لملوكهم ماسمعوه وشاهدوه من مظاهر ، فيعظم شأن الدولة العربية لديهم ، ويحذرون قوتها وسطوتها •

وبلغ من اهتمام الدولة العربية زمن العباسيين ، ان خصصت جزءا من المال لتغطية مصروفات السفراء الوافدين اليها ، يذكر الصابي (ان العباسيين كانوا يضعون كل عام مبلغ من المال للرسل الواردين) •

اما مراسيم الاستقبال فكانت تبدأ منذ دخول السفراء حدود الدولة العربية فيستقبلهم الولاة والموظفون ، ويهيئون لهم المسكن اللائق ويتولون الانفاق عليهم من مأكل ومشرب ويخصصون لهم الأدلاء للسير معهم الى عاصمة الخلافة •

وعندما يقترب موكب السفير من العاصمة بغداد ، يأمر الخليفة باعداد موكب عظيم لاستقباله ، يضم كبار موظفي الدولة ، الى جانب الفقهاء والولاة وغيرهم ، وعند دخول العاصمة ، ينزل في دار خاصة للضيافة ، وكانت (دار صاعد بن مخلد) ببغداد مخصصة لهذا الغرض • وفي اواخر ايام العباسيين ، كان يخصص للسفراء دار يسكنون فيها ، او ينزلون مدرسة من المدارس •

وبعد ان يستقر السفير ومن معه في دار الضيافة هذه ، يترك لستريح من عناء السفر ، ثم يلتمس مقابلة الخليفة وسط اجراءات رسمية .

وقد جرت عادة الخلفاء على عدم استقبال السفراء مباشرة ، وانما ينبغي للسفير أن يقابل الوزير اولا ، لتوضيح هدف سفارته ، والامور التي جاء من اجلها ، والرغبة اليه في تسهيل الاذن على الخليفة . فيذكر ابن مسكويه (ان رسولي الروم لما وردا على الخليفة المقتدر بالله سنة ٣٠٥هـ/٩١٧م انزلا ومن معهما في دار صاعد ، والتمسا الوصول الى المقتدر بالله لتبليغه الرسالة فاعلما ان ذلك متعذر صعب لا يجوز الا بعد لقاء وزيره ومخاطبته فيما قصدا اليه ، وتقرير الامر معه والرغبة اليه في تسهيل الاذن على الخليفة والمشورة عليه بالاجابة الى ما التمسا ، فسأل ابو عمر عدي بن عبدالباقي الوارد معهما من الثغر أبا الحسن بن الفرات الاذن لهما في الوصول اليه ، فوعده بذلك في يوم ذكره له) .

ويصف الخطيب البغدادي وابن مسكويه وابن الجوزي الاستقبال الكبير الذي استقبل به السفير ، ابتداء من دار صاعد بن مخلد ، مقر اقامة السفير حتى دار الخلافة . فقالوا (... ثم صف العسكر من دار صاعد التي انزلوا فيها الى دار الخلافة ، وكان عدد الجيش مائة وستين الف فارس وراجل ، فسار الرسول بينهم الى ان بلغ الدار ، وكانت اسواق الجانب الشرقي وشوارعه وسطوحه ومسالكه مملوءة بالعامة النظارة .. وفي دجلة الشذا آت والطيارات والزلالات ... بأفضل زينة واحسن ترتيب وتعبية ، وكانت الدار قد امتلأت بالفرش الجميلة وزينت بالالات الجليلة ورتب الحجاب وخلفاؤهم والحواشي على طبقاتهم ، ووقف الجند صفين بالثياب الحسنة تحتهم الدواب بمراكب الذهب والفضة ، بين ايديهم النجائب على مثل هذه الصورة ، وقد أظهروا العدد الكثيرة والاسلحة المختلفة ، فكانوا من اعلى باب الشماسية والى

قريب دار الخلافة وبعدهم الغلمان والخدم بالبزة والسيوف والمناطق المحلاة ، ودخل الرسول على دار نصر القشوري الحاجب .. فظن انه الخليفة وتداخله هيبة وروعة ، حتى قيل انه الحاجب ، ودخل بعد ذلك الدار التي كانت برسم الوزير وفيها مجلس ابي الحسن علي بن محمد بن الفرات ، فرأى اكثر ما راه لنصر الحاجب ولم يشك انه الخليفة ، فقيل له انه الوزير ، ثم أجلس بين دجلة والبساتين في مجلس قد علقت ستوره واختيرت فروشه ونصبت فيه الدسوت واحاط به الخدم بالاعمدة والسيوف ، ثم استدعى الى حضرة المقتدر وهو جالس في قصر التاج بعد ان لبس الثياب الديبقية المطرزة بالذهب على سرير من ابنوس قد فرش بالديبقي المطرز بالذهب .. وبين يديه خمسة من ولده ثلاثة يمنة واثنان يسرة ، فقبل الرسول وترجمانه الارض بين يدي المقتدر ، فوقفا حيث استوقفهما نصر الحاجب ، وأديا اليه رسالة صاحبهما في الفداء ورغبا اليه في ايقاعه ، فاجابهما الوزير عنه ، بانه يفعل ذلك رحمة للمسلمين .. ثم خرجا من حضرته ، ورسم لهما ان يطاف بهما في دار الخلافة ، فطيف بهما في حدائق ومقصورات الدار .. فدخل بهما الى القصر المعروف بالفردوس فكان فيه من الفرش والآلات ما لا يحصى ولايحصر كثرة ، وفي دهاليزه عشرة الاف جوشن مذهبة معلقة ، ثم اخرجوا منه الى ممر طوله ثلاثمائة ذراع ، علق من جانبيه نحو عشرة الاف درقة وخوذة وبيضة ودرع وزردية وجعبة محلاة وقسي .. وكان الخدم يسقون الناس الماء المبرد بالثلج والاشربة ، وكان ابو عمر عدي بن احمد بن عبد الباقي الطرسوسي صاحب السلطان ورئيس الثغور الشامية معهم في كل ذلك ، وعليه قباء اسود ، وسيف ومنطقة ، واخرجا من باب الخاصة الى دجلة .. ومنها الى دار صاعد ، وحمل اليهما خمسون بدرة ورقا في كل بدرة خمسة الاف درهم ..) .

ويصح من هذا ، ان استقبال سفراء الدول ، كان يتم وفق مراسيم دبلوماسية مخصوصة ، اتخذت شكل الخطوات التالية :

١ ـ استقبال السفير عند حدود الدولة العربية .

٢ ـ اخبار الخليفة بدخول السفير الدولة ، لاتخاذ الترتيبات اللازمة لحفل الاستقبال ، يذكر الخطيب البغدادي ، ان الخليفة المقتدر حين علم بقدوم سفير الروم ، امر ان يبقى ومن معه بتكريت لمدة شهرين لحين اكمال استعدادات الاستقبال .

٣ ـ تعيين مرافق له أو اكثر اثناء توجهه للعاصمة .

٤ ـ العناية به ومن معه وتوفير السكن والمأكل وما اليهما اثناء الطريق .

٥ ـ انزاله بدار ضيافة السفراء بالعاصمة بغداد وكانت دار صاعد بن مخلد مخصصة لاقامة سفراء الدول الاجنبية .

٦ ـ تعيين ترجمان له ان لم يكن قد اصطحب معه ترجمان .

٧ ـ مقابلة وزير الخليفة أولا لشرح هدف السفارة واغراضها .

٨ ـ قيام الوزير باخبار الخليفة بما دار بينه وبين السفير وتقرير الامر معه وتعيين موعد المقابلة .

٩ ـ مقابلة الخليفة بحضور الوزير والترجمان وكبار موظفي الدولة وسط مظاهر الابهة والزينة .

١٠ـ اكرام السفير وحاشيته وتقديم الهدايا والخلع لهم .

وبعد انتهاء مهمة السفير يودع بمثل ما استقبل به من حفاوة وترحيب ويمتاز هذا الحفل بتقديم الهدايا والخلع التي يغدقها الخليفة على السفير ومرافقيه ، والتي كانت غاية في الروعة وعنوانا على عظمة الدولة العربية ، يذكر الخطيب البغدادي وابن مسكويه (ان الخليفة المقتدر بالله العباسي ، خلع على سفير الروم ومرافقه مطارف خز مذهبة وعمائم خز ، وخلع على ابي

عمر بن عبد الباقي الذي رافقهم من الثغر ، الخلع السلطانية وحمل على فرس، وحمل الى كل واحد من الرسولين عشرون الف درهم صلة لهما وخرجا مع مؤنس ومعهما أبو عمر) •

امان السفراء واعتمادهم (الحصانة الدبلوماسية)

اشتهرت الدولة العربية منذ نشأتها بحرصها التام على تمتع السفراء عندها بالامان أو مايعرف بالحصانة الدبلوماسية • فيروي ابن هشام (ان النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم عليه رسولا مسيلمة بن حبيب الكذاب بكتاب من عنده يدعى فيه النبوة ، قال النبي (ص) لهما حين قرأ الكتاب : فما تقولان انتما ؟ قالا : نقول كما قال • فقال النبي (ص) اما والله لولا أن الرسل لاتقتل لضربت اعناقكما) •

وسار الخلفاء ، على هذا النهج السليم الذي رسمه الرسول (ص) للعلاقات الدبلوماسية ، كما اكدت النصوص الفقهية والعرف العربي هذا الامان ، فاصبح قاعدة رسمية للتعامل الدولي في علاقات الدولة الدبلوماسية بالشعوب والامم الاخرى ، فيذكر ابو يوسف الفقيه (ان الولاة اذا ما لقوا رسولا يسألونه عن اسمه ، فان قال : انا رسول الملك بعثني الى ملك العرب ، وهذا كتابه معي ،وما معي من الدواب والمتاع والرقيق فهدية اليه ، فانه يصدق •• ولا سبيل عليه ، ولا يتعرض له ولا لما معه من المتاع والسلاح والرقيق والمال) • وذكر ايضا (وكذلك لو ان المسلمين اخذوا مركبا في البحر ومن فيه فقالوا : نحن رسل بعثنا الملك وهذا كتابه معنا الى ملك العرب وهذا المتاع الذي في المركب هدية اليه فينبغي للوالي الذي ياخذهم ان يبعث بهم وما معهم الى الامام ، للتحري عن حالهم فان كانوا صادقين تم قبولهم) •

وبذلك شمل الامان جميع الرسل الوافدين للدولة ، سواء أتوا من البرأم من البحر • فهم آمنون مطمئنون لا يمسون بسوء ولايتعرض لهم

باذى ، كما شمل الامان جميع حاشية السفراء واتباعهم ، بتوفير الحصانة الدبلوماسية لهم . واعتبرت الدولة أية اهانة تلحق باحدهم كأنما هي اهانة موجهة لشخصية السفير والدولة التي يمثلها .

واستمرت الدولة العربية في المحافظة على هذه القاعدة طيلة مسيرتها التاريخية ، وفية بالتزاماتها الخلقية ، مما يؤكد حرصها العميق على تطبيق القواعد الدبلوماسية في اروع صورها الحضارية والانسانية .

والى جانب امان السفراء الاجانب ، وقبول اوراق اعتمادهم ، فقد منحت الدولة العربية هؤلاء ، ميزات دبلوماسية ، منها اعفاء السفارات من الضرائب ، واهمها العشر والمكوس التي كانت تؤخذ من القادمين اليها من غير السفراء والرسل ، وقرر الفقهاء هذه الميزات ، فقال ابو يوسف الفقيه (لا يؤخذ من الرسول الذي بعث به ملك الروم . ولا من الذي اعطى امانا عشر) . واستثنى من ذلك الرسل ـ السفراء ـ المتاجرين فقال : (واذا كان الرسل قد حملوا ما معهم للتجارة فيوخذ العشر منهم ، فأما غير ذلك من متاع فلا عشر عليهم فيه) .

ويسمح للسفراء ان يخرجوا ما يشاءون شرط الايتعارض ذلك مع امن الدولة وسلامتها (فانهم لا يتركون ان يخرجوا معهم بسلاح ولا كراع ولا رقيق مما أسر من اهل الحرب ، فان اشتروا من ذلك شيئا يرد على الذي باعه منهم ورد اولئك الثمن اليهم) و (ينبغي للامام ان لا يترك احدا من اهل الحرب يدخل بأمان او رسولا من ملكهم يخرج بشيء من الرقيق والسلاح او بشيء مما يكون قوة لهم على المسلمين فاما الثياب والمتاع وما اشبهه فلا يمنعون منه) .

ومن المميزات الاخرى تمتع السفراء بحرية العبادة مدة مكوثهم في الدولة العربية ، التي وفرت لهم من جانبها الأمن والحرية في ممارسة شعائرهم الدينية منطلقة من مبادىء رسالتها وقيمها الانسانية والحضارية .

المبحث الثاني

دور العراق في العلاقات السياسية الخارجية

السفارات في زمن الرسول (ص) والخلفاء الراشدين

لقد بادر الرسول (ص) بعد اقامته الدولة العربية الموحدة في المدينة المنورة ، الى نقل نشاطه السياسي خارج الجزيرة العربية ، وجاءت هذه النقلة معبرة عن ثقة الرسول (ص) بالامة وبالرسالة ، ودورها في انقاذ البشرية من الظلم والطغيان. فانفذ رسله وسفراءه الى العراق والشام ومصر والحبشة. وكانت لهذه السفارات غايات واهداف دينية وقومية .

فتذكر المصادر التاريخية ان الرسول (ص) ارسل في السنة (٦هـ/٦٢٧م) سفراء الى ملوك ورؤساء الدول المعروفين انذاك يدعوهم للاسلام فأرسل حاطب بن ابي بلتعة الى المقوقس صاحب مصر ، وعمرو بن امية الضمري الى النجاشي ملك الحبشة ، ودحية بن خليفة الكلبي الى قيصر ملك الروم ، وعبد الله بن حذافة السهمي الى كسرى الفرس في العراق بكتاب نصه (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وان محمدا عبده ورسوله ، وادعوك بدعاء الله فأني انا رسول الله الى الناس كافة لانذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، فأسلم تسلم ، فأن أبيت فان اثم المجوس عليك) .

لم تلق هذه الدعوة الانسانية استجابة من لدن الفرس ، فقابلها كسرى بالاستهجان والاستهزاء ، فمزق كتاب الرسول (ص) . وقال بحقه

ما لا يصدر الا عن مغرور . فنقل السفير ابن حذافة ماشاهده وما سمعه لرسول الله (ص) فقال : (مزق ملكه) .

وبعد استلام ابي بكر الصديق (رض) رئاسة الدولة ، على اثر وفاة الرسول (ص) أمر القائد خالد بن الوليد ان يتوجه من اليمامة الى العراق لتحريره من الاستعمار الفارسي ، فاستجاب ابن الوليد للامر ، وبادر الى نقل نشاطه السياسي والعسكري الى العراق . فارسل رسالة الى هرمز نصها « اما بعد فأسلم تسلم واعتقد لنفسك وقومك الذمة واقرر بالجزية والا فلا تلومن الا نفسك فقد جئت بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

وبعد وصوله العراق ، دخل في مباحثات وعلاقات سياسية ، تمخضت عن عقد سلسلة من المعاهدات ، فعقد معاهدة مع اهل الحيرة في ربيع الاول سنة ١٢ هـ . وفي صفر من نفس السنة جرت مصالحة مع اهل بانقيا وباروسما وأليس ، وشهد هذه المصالحة هشام بن الوليد ، والقعقاع بن عمرو وجرير بن عبد الله الحميري وحنظلة بن الربيع ، وجاء في كتابه الذي كتبه لهم « ان خليفة رسول الله (ص) ابا بكر الصديق (رض) آمرني ان اسير بعد منصرفي من اهل اليمامة الى العراق من العرب والعجم بان ادعوهم الى الله جل ثناؤه والى رسوله عليه السلام وابشرهم بالجنة وانذرهم من النار ، فان اجابوا فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ... فان هم خالفوا فلا ذمة لهم ولا امان وان هم حفظوا ذلك ورعوه وادوه الى المسلمين فلهم ما للمعاهد وعلينا المنع لهم ... » .

وبنفس الوقت كتب الى رؤساء اهل فارس وهم بالمدائن كتابين بعثهما اليهم بيد احد سفرائه جاء في احدهما (بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد الى رستم ومهران ومرازبة فارس ، سلام على من اتبع الهدى فاني احمد اليكم الله الذي لا اله الا هو وان محمدا عبده ورسوله اما بعد : فالحمد لله الذي فض خدمتكم وفرق جمعكم وخالف بين كلمتكم واوهن بأسكم

وسلب ملككم ، فاذا جاءكم كتابي هذا فابعثوا الى بالرهن واعتقدوا مني الذمة ، واجبوا الي الجزية ، فان لم تفعلوا فوالله الذي لا اله الاهـو لاسيرن اليكم بقوم يحبون الموت كحبكم للحياة) . كما جرت معاهدات اخرى مع اهل اليس وقرقيسيا وغيرهما . والملاحظ ان المعاهدات والكتب السياسية هذه جاءت نتيجة تعلق العرب بارضهم واصرارهم على تحريرها ، ومقدمة لتحرير شامل لكل ارض العراق بعدئذ . فكانت هذه المعاهدات وما رافقها من دعوة للاسلام بداية لها .

لقد حظي العراق باهتمام كبير من لدن الخليفة عمر بن الخطاب (رض) فأرسل القائد سعد بن ابـي وقاص بقوات ضخمة ليبدأ مـرحلة التحرير الجديدة . فباشر القائد سعد بعد وصوله العراق تنفيذ سياسة الدولة نيابة عن الخليفة ، فأختار سفراء تتوفر فيهم مواصفات السفارة ممـن (عليهم نجار ، ولهم اراء ولهم منظر ، وعليهم مهابة ولهم اراءة).وارسلهم قبل موقعة القادسية سنة ١٥هـ/٦٣٦م الى كل من كسرى يزجرد وقائده رستم في محاولة سيأسية سلمية ، فكان سفراؤه الى كسرى : النعمان بن مقرن ، وحنظلة بن الربيع ، وفرات بن حيان العجلي ، والمغيرة بن زرارة ، والاشعث بن قيس ، وعاصم بن عمرو ، والمغيرة بن شـعبة ، والمعنى بن حارثة ، وعمرو بـن معد يكرب واخرين . وعهد برئاسة السفارة الى النعمان بن مقرن الـذي عرض هدف السفارة على كسرى حين دخل عليه ، وتضمن خيارات ثلاثة (اما الاسلام او الجزية او الحرب) .

رفض كسرى هذا العرض ، وطرد الوفد العربي وتهدده قائلا : (لا شيء لكم عندي .. وارجعوا الى صاحبكم فاعلموه اني مرسل اليكم رستم حتى يدفنكم ويدفنه في خندق القادسية ، وينكل به وبكم من بعد ، ثـم اورده بلادكم حتى اشغلكم في انفسكم بأشد مما نالكم من سابور) .

وامام فشل سفارة المغيرة بن شعبة المرسل الى رستم ، واصرار الفرس

على العدوان ، قامت معركة القادسية التي سجل العرب فيها انتصارا كبيرا خلده التاريخ . وعلى اثره ارسل القائد سعد الى الخليفة عمر (رض) بكتاب النصر مع رسوله سعد بن عميلة الفزاري الذي جاء فيه (.. ان الله نصرنا على اهل فارس .. بعد قتال طويل وزلزال شديد .. واصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارىء ورجال من المسلمين لانعلمهم الله بهم عالم .. وهم آساد الناس لا يشبههم الاسود .. ولم يفضل من مضى منهم مـن بقى الا بفضل الشهادة اذ لم تكتب لهم) .

واستمر العراق يمارس دوره ومكانته السياسية في الدولة ، فعقد ولاته وقادته عدة معاهدات صلح مع اهـل فارس ، منها معاهدة النعمان بن مقرن لاهل ماه بهراذان سنة ١٩هـ/٦٤٠م ونصها « بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما اعطى النعمان بن مقرن ، اهل ماه بهراذان ، اعطاهم الامان علـى انفسهم واموالهم وأراضيهم ، لا يغيرون على ملة ، ولا يحال بينهم وبين شرائعهم ولهم المنعة ما ادوا الجزية في كل سنة الى من وليهم على كل حالم في ماله ونفسه على قدر طاقته ، وما ارشدوا ابن السبيل ، واصلحوا الطرق، وقروا جنود المسلمين ممن مربهم فأوى اليهم يوما وليلة ، ووفوا ونصحوا ، فان غشوا وبدلوا ، فذمتنا بريئة » وكان ممن شهد على هـذه المعاهدة ، القعقاع بن عمرو ، وجرير بـن عبدالله .

وعقد حذيفة بن اليمان معاهدة صلح مع اهل ماه دينار ، تبعه عبدالله ابن عبد الله بن عتبان بتوقيع معاهدة مماثلة مع اهل اصبهان ، اما عبدالله ابن عامر والي البصرة، فعقد عدة معاهدات صلح، منها معاهدة سنة ٣١هـ/٦٥١م التي وقعها حاتم بن النعمان الباهلي ـ موفد عبد الله ـ مع مرزبـان مـرو .

لقد كان العراق وراء معاهدات الصـلح الكثيرة التي وقعـت ابان

تلك الفترة . خاصة بعد ان اصبح قاعدة مهمة للتحرير والفتح العربي منذ وقت مبكر من قيام الدولة العربيـــة .

السفارات زمن الامويين

احتفظ العراق بمكانته السياســية المهمة ، رغم انتقال عاصمة الدولة الى دمشق . فمارس بشكل فعال توجيه سياسة الدولة في المشرق طوال تلك الفترة ، فيذكر اليعقوبي « ان الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق وجه عمارة بن تميم اللخمي سنة٨٣هـ /٧٠٢م برسالة الى رتبيل ملك سجستان يطلب فيها تسليم ابن الاشعث الذي التجأ اليه بعد فشل تمرده ، فوافق على عقـــد الصلح وتسليم ابن الاشعث لرسول الحجاج » .

اما معاهدات الصلح ابان الفتح العربي في المشــرق فكانت غالبيتها تجري بعلم والي العراق وبتوجيه منه ، حتى ان اســمه كان يدخل ضمن بعضها لاهميتها وضمان تنفيذها ، فقد جاء في معاهدة الصلح التي عقدها قتيبة بن مسلم مع غوزك ملك سمرقند (هذا ما صالح عليه قتيبة بن مسلم، غوزك اخشيد السغد أفشين سمرقند على السغد وســمرقند وكش .. صالحه على ثلاثة الاف درهم يؤديها غوزك على رأس كل سنة وجعل له عهـد الله وذمته وذمة الامير الحجاج بن يوسف) .

وظل قادة الفتح على اتصال مستمر مع والي العراق ، فكانوا يرسلون بكتبهم اليه لتلقي توجيهاته ، فكان محمد بن القاسم يكتب الى الحجاج من بلاد السند لتلقي توجيهاته مباشرة ، واحيانا كان يكتب الى الخليفة لكنه يعلم والي العراق بذلـك .

واستعان الخلفاء الامويون ايضـا ، برجال العراق المعروفين بمكانتهم وعلمهم ، لارسالهم في سفارات الى الروم ، لحل المشاكل القائمة بالطرق الدبلوماسية ، فيذكر ابن عبد ربه (ان الخليفة عبد الملك بن مروان كتب الى الحجاج بن يوسف واليه على العراق ، ان يبعث اليه رجلا يصلح للدين

والدنيا ، فوقع اختيار الحجاج على عامر بن شراحيل الشعبي) وكان من فقهاء الكوفة وعلمائها ، وحجة في تاريخ العرب وانسابهم واشعارهم . فلما دخل على الخليفة اراد ان يبعثه سفيرا الى الروم ، فاجرى له الاختبار التالي :

قال الخليفة : ياشعبي ما العلم ؟

فقال : هو ما يقربك من الجنة ويباعدك من النار .

قال الخليفة : ياشعبي ما العقل ؟

فقال : ما يعرفك عواقب رشدك ، ومواقع غيك .

فقال الخليفة : متى يعرف الرجل كمال عقله ؟

فقال : اذا كان حافظا للسانه مداريا لاهل زمانه مقبلا على شانه .

واستمر الخليفة في اختبار الشعبي في مسائل متعددة الى ان تبين له انه اهل لان يكون سفيره الى الروم فأوفده . يقول الشعبي عن مهمته (انفذني عبد الملك الى ملك الروم ، فلما وصلت اليه جعل لا يسألني عن شيء الا اجبته ، وكانت الرسل لا تطيل الاقامة عنده ، فحبسني اياما كثيرة ، حتى استحببت خروجي ، فلما اردت الانصراف ، قال لي : من اهل بيت المملكة انت ؟ قلت لا ولكني رجل من العرب في الجملة ، فهمس بشيء فدفعت الي رقعة ، وقيل لي : اذا اديت الرسائل عند وصولك الى صاحبك، أوصل اليه هذه الرقعة . قال : فأديت الرسائل عند وصولي الى عبد الملك، ونسيت الرقعة فلما صرت في بعض الدار تذكرتها ، فرجعت فأوصلتها اليه ، فلما قرأها قال لي أقال لك شيئا قبل ان يدفعها اليك ؟ قلت : نعم ، قال لي : من اهل بيت المملكة انت ؟ قلت: لا ولكني رجل من العرب في الجملة .. قال : اتدري ما في الرقعة ؟ قلت : لا . قال اقرأها . فلما قرأتها فاذا فيها عجيب من قوم فيهم مثل هذا كيف ملكوا غيره فقلت : والله لو علمت ما فيها ما حملتها ، وانما قال هذا لانه لم يرك قال : افتدري لم كتبها ؟

قلت : لا • قال : حسدني عليك وأراد ان يغريني بقتلك • قال : فتأدى ذلك الى ملك الروم ، فقال : ما أردت الا ماقال) •

وقد تجلت عبقرية الشعبي الدبلوماسية ، ومواهبه الفذة أثناء مقابلته لامبراطور الروم ، واجابته على اسئلته واستفساراته ، بذكاء بالغ واقتدار عال ، فعكس صورة حقيقية لما يتمتع به السفراء العرب من عقلية سياسية راجحة وما يكنونه من ولاء وايمان بالامة وبالدولة •

السفارات زمن العباسيين

ادى انتقال عاصمة الدولــة العربية الى العراق سنة١٣٢هـ/٧٤٩م الى ازدهار حضاري متصاعد ، اهله لا حتلال مكان الصدارة في السياسة الدولية ومجرى احداثها ، خاصة بعد بناء بغداد واتخاذها عاصمة جديدة للدولة •

وقد رافق هذا الازدهار ، توسع مصالح الدول شرقا وغربا ، ونمو علاقاتها السياسية وتطورها مع شعوب وامم العالم المختلفة ، فشهدت تلك الفترة أوسع العلاقات السياسية التي نالت اهتمام الدولة وعنايتها ، فنظمتها بشكل دقيق ، وانعكس هذا الاهتمام على سفارتها ، فاصبحت تخضــع لقواعد وضوابط جديدة ، تتلاءم وروح العصر وتنسجم مع مركز الدولة وعظمتها ، ونظرا لتشعب تلك العلاقات ، واختــلاف اهدافها واغراضها السياسية ولسهولة فهم طبيعتها ، تقسم على النحو التالي :

١ ــ العلاقات الدبلوماسية مع الروم (البيزنطيين)

وكانت اهم العلاقات لاسباب تتعلق بقوة ومكانة الدولتين ، ومجــاورة احداهما للاخرى ، وقيام مصالح مشتركة لهما ، اضافة للاحتكاك الحربــي المستمر بينهما ، فخلــق هذا جوا من عدم الاســتقرار مما اســتدعى اللجوء للطرق الدبلوماسية لحل هذه المشاكل • فتبادل الطرفان السفارات ،

وعقد المعاهدات والاتفاقيات السياسية لاغراض واهداف متعددة ، ياتي في طليعتها اتفاقيات تبادل الاسرى ومعاهدات الصلح، وسفارات المجاملة والتهنئة وغيرها .

ان اول اتصال دبلوماسي بين الدولتين كان زمن الخليفة ابي جعفر المنصور ، ويبدو انه كان للاطلاع على العاصمة بغداد بعد الفراغ من بنائها . فيذكر الزبير بن بكار (ان ملك الروم بعث رسولا داهية منكرا الى امير المؤمنين ابي جعفر فدخل عليه ، فسأله عن اشياء واتاه بهدايا كثيرة وألطاف وطرائف فأمر عمارة بن حمزة ان يركب معه الى المهدي بالرصافة ..) ويقول الجهشياري ان السفارة كانت (عند فراغ الخليفة من الجانبين من مدينة السلام ، فطيف به ببغداد ، وكان معه ترجمان أثناء طوافه) .

ولما ساءت الاحوال بين الدولتين ، نتيجة اعتداء الروم على حدود الدولة ارسل المنصور سفيرا لبلاد الروم هو عمارة بن حمزة يحمل رسالة الى ملكهم تضمنت كما يقول ابن الفقيه (الوعيد بالخيل والرجال فاجاب عنها الملك عند استقباله السفير العربي) .. وقام الامبراطور قسطنطين في وقت لاحق بأرسال سفير للخليفة المنصور سنة ١٥٥ هـ/٧٧١ م ، يطلب الصلح ويعرض عليه الجزية ، بسبب تردي الاوضاع الداخلية للامبراطورية . وتم توقيع المعاهدة بعد موافقة الخليفة عليها .

وحين استلم المهدي الخلافة، طلب الروم الصلح سنة ١٦٣ هـ/٧٧٩ م، على اثر انتصار الجيش العربي بقيادة هارون الرشيد . فوافق عليه وتم توقيع المعاهدة بين الطرفين . لكن الروم نقضوها بعدئذ ، مما اضطر الخليفة ان يرسل اليهم ابنه الرشيد ثانية على رأس حملة كبيرة ، فلما سمعت الملكة ايريني الملقبة باغسطة ارملة ليون الرابع وكانت ملكة الروم يومئذ بضخامة الحملة ، طلبت الصلح ، فيذكر الطبري (انه جرت بينها وبين هارون بن المهدي ، الرسل والسفراء في طلب الصلح والموادعة واعطائه الفدية ، فقبل

ذلك منها هارون وشرط عليها الوفاء بما اعطت له) • ونصت المعاهدة علـى مـا يلـي :

١ ــ تدفع الملكة مبلغا من المال مقداره ٩٠ الف دينار تؤديها في نيسان وفي حزيران من كـل سـنة •

٢ ــ ان تقيم له الأدلاء والاسـواق في طريق رجوعه •

٣ ــ تسليم جميع أسرى العرب لدى الـروم •

٤ ــ يسرى مفعول المعاهدة مدة ٣ سـنوات •

ولتعزيز المعاهدة ارسلت بصحبة الرشيد سفيرا الى الخليفة المهـدي يحمل هدايا من الذهب والفضـة والعرض •

واستمرت العلاقات السياسية بين الدولتين هادئة حتى سنة ١٨٧هـ/٨٠٢م، ففيها قاد نقفور وزير المالية انقلابا على الملكة ايريني واستلم السلطة ، ونقض معاهدة الصلح ، وارسل الى الخليفة هارون الرشيد رسالة يقول له فيها : (من نقفور ملك الروم ، الى هارون ملك العرب ، اما بعد : فان الملكة التي كانت قبلي ، اقامتك مقام الرخ ، واقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت اليك من اموالها ، ما كنت حقيقا بحمل امثالها اليها ، لكن ذاك ضـعف النساء وحمقهن ، فاذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من اموالها ، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك ، الا فالسيف بيننا وبينك) •

وحين وصلت الرسالة الى الرشيد ، اجابه برسالة شـديدة اللهجة ردا على رسالة التهديد تلك ، جاء فيها « من هـارون أمير المؤمنين الى نقفـور •• قد قرأت كتابك يا ابـن الكافرة ، والجواب ماتراه دون ان تسـمعه والسـلام) •

وبذلك توترت العلاقات بينهما ، مما حدا بالرشـيد ان يقـود حملـة

عسكرية ضخمة سنة ١٨٧ هـ توغلت في بلاد الروم ، فاضطر نقفور الى طلب صلح جديد من الخليفة على خراج يؤديه في كل سنة ومقداره دينار واحد عن كل حالم ممن عنده سواه وسوى ابنه ، فوافق الخليفة ووقعت المعاهدة بينهما ، لكن نقفور نقض المعاهدة ، على اثر انسحاب الرشيد ووصوله الرقة ، فرجع الخليفة بقواته ثانية وانتصر عليه ، فعاد نقفور الى طلب الصلح مجددا . وتبعه فداء جميع الاسرى العرب سنة١٨٩هـ/٨٠٤م .

استمر الروم في نقض معاهدات الصلح ، فقاموا باعمال عسكرية مضادة سنة١٩٠هـ/٨٠٥م ، فأضطر الرشيد الى قيادة حملة عسكرية جديدة لردعهم ، توغلت في بلادهم واستولت على هرقلة وغيرها من المدن،فأرسل نقفور حينئذ سفراءه الى الرشيد يعرض عليه مالا مقابل انسحابه ، فرفض الخليفة طلبه ، وبعد مفاوضات بين الطرفين ، وافق الخليفة على توقيع معاهدة صلح وفق شروط جديدة نصت على ما يلي :

١ ــ ان يبعث نقفور بالخراج والجزية عن رأسه وولي عهده وبطارقته وسائر اهل بلده خمسين الف دينار .

٢ ــ ان يدفع عن نفسه اربعة دنانير وعن رأس ابنه استبراق دينارين .

٣ ــ ان لا يقوم بتعمير هرقلة .

٤ ــ ان يدفع للخليفة ٣٠٠ الف دينار .

وبعد توقيع المعاهدة ، ارسل نقفور للرشيد سفيرين من عظماء البطارقة يحملون رسالة يرجوه ان يهب له جارية من اهل هرقلة كان قد خطبها لابنه ، ونصها « لعبد لله هارون امير المؤمنين من نقفور ملك الروم سلام عليكم ، اما بعد ايها الملك ، ان لي حاجة لا تضرك في دينك ولا دنياك ، هينة عليك يسيرة ، ان تهب لابني جارية من بنات اهل هرقلة كنت قد خطبتها لابني ، فان رأيت ان تسعفني بحاجتي فعلت ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

استجاب الرشيد لهذه الرجاء (فأمر بالجارية ، فاحضرت وزينت وحملت ومعها الهدايا الى سفراء نقفور ، وبعث اليه بما سال من العطر وبعث اليه من التمور والاخصبة والزبيب ، فسلم ذلك كله اليه سفير الرشيد) .

وفي عهد الامبراطور توفيل بن ميخائيل ، نقض الروم معاهدة الصلح ، فقاد توفيل حملة عسكرية سنة ٢١٦هـ/٨٣١م ، استولت على طرسوس والمصيصة ، وقتلت ١٦٠٠ من الرعايا العرب ، ووجه بنفس الوقت سفيرا الى الخليفة المأمون يحمل كتابا يبدأ فيه بنفسه ، فرفض الخليفة قراءة الكتاب ورد سفير الروم ، وجهز حملة قادها بنفسه وتوجه الى بلاد الروم ، ردا على عدم احترامهم للمعاهدات السابقة . فتمكن من فتح عدة حصون ووصل الى أذنه ، فأرسل اليه توفيل سفراءه وبصحبتهم ٥٠٠ أسير من العرب ، للتفاوض من اجل الصلح ، فتم الصلح مع اهل هرقلة وغيرها ، ورجع المأمون الى دمشق بعد أن مكث ثلاثةاشهر في بلاد الروم .

ويذكر اليعقوبي ان ملك الروم ارسل بالاسقف صاحبه سفيرا يحمل رسالة مقدما فيها اسم الخليفة ، يعرض عليه الصلح ودفع الفدية جاء فيها (لعبد الله غاية الناس والشرف ملك العرب ، من توفيل بن ميخائيل ملك الروم من قبل .. وسأل ان يقبل منه مائة الف دينار ، والاسرى الذين عنده .. وان يدع له ما افتتحه من مدائن الروم وحصونهم ويكف عنهم الحرب خمس سنين فلم يجبه الى ذلك) .

وعاد المأمون في السنة التالية الى بلاد الروم ، فافتتح عدة مدن ، فأرسل اليه توفيل السفير صقيل يطلب الصلح ويعرض الفدية ، وزوده برسالة للخليفة نصها (اما بعد : فان اجتماع المختلفين على حظهما اولى بهما في الرأي ، مما عاد بالضرر عليهما ، ولست حريا ان تدع لحظ يصل الى غيرك حظا تحوز به لنفسك ، وفي علمك كاف عن اخبارك ، وقد كنت كتبت اليك

داعيا الى المسالمة ، راغبا في فضيلة المهادنة ، لتضع اوزار الحرب عنها ، ويكون لكل ولي وحزب ، مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر ، وفك المستأسر وامن الطريق .. فأن ابيت فلا ادب لك .. ولا ازخرف لك في القـول ، فاني لخائض اليك غمارها آخذ عليك اسدادها ، شان خيلها ورجالها ، وان افعل فبعد ان قدمت المعذرة ، واقمت بيني وبينك علم الحجة والسلام) .

فكتب اليه المأمون (اما بعد : فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوت اليه من الموادعة ، وخلطت فيه من حال اللين بالشدة مما استعطفت به من سرح المتاجر ، واتصال المرافق ، وفك الاسارى ورفع القيل والقال ، فلولا ما رجعنا اليه من اعمال التؤدة ، والاخذ بالحظ من تقليب الفكرة ، والا اعتقد الرأي عن مستقبله الا عن اصطلاح ما أوثره في متعقبه لجعلت جواب كتابك خيلا تحمل رجالا من اهل البأس والنجدة ، والجد والنصر ، يقارعونكم عن ثكلكم ويتقربون الى الله جل وعز بدمائكم ، ويستقلون في ذات الله ما نالهم من الم شرككم ، ثم اوصل اليهم من الامداد وابلـغ لهـم كافيا من العدة والعتاد ، هم أضما الى موارد المنايا منكم الى السلامة مـن مخوف معرتهم عليكم ، موعدهم احدى الحسنيين عاجـل غلبه او كريم منقلب ، غير اني رايت ان اتقدم اليك بالموعظة الى ان يثبت الله عزوجل بها عليك الحجة ، من الدعاء لك ولمن معك الى الوحدانية ، والدخول في شريعة الحنيفية ، فان ابيت ففدية توجب ذمة وتثبت نظرة ، وان تركت ذلك ففي يقين المعاينة لمعاونتنا ما يغني عن الابلاغ في القول والاغراق في الصفة ، والسلام على من اتبع الهدى) . ولم يتم الصلح بين الطرفين .

ويذكر نورمان ان الخليفة المأمون رغب في اواخر خلافته اقامة علاقات ودية مع الروم ، فأرسل رسالة شخصية الى توفيل يطلب فيها ان يسمح لليو. وهو عالم رياضي رومي ، بالحضور الى بغداد ، وقال في رسالته انه يعتبر ذلك عملا وديا ويعرض مقابل ذلك صلحا دائما ، الا ان امبراطور الـروم رفض ذلـك .

وبعد تولي المعتصم الخلافة ، حاول الامبراطور توفيل عقد معاهدة صلح ومهادنة ، فأرسل الى الخليفة سفارة برئاسة يوحنا النحوي الذي حمل الهدايا والتحف النفيسة للخليفة ، وجرى له احتفال كبير ، وكانت لهـذه السفارة غاية مزدوجة ، الاولى : عقد معاهدة سلام دائم مـع الخليفة ؛ والثانية : ان يعمل السـفير على اقناع القائد البيزنطي منويل الذي يلوذ ببلاط الخليفة بالعودة الى القسطنطينية ، وقد نجح السفير في تحقيق الغاية الثانية واخفق في الاولى • ورأى المعتصم ان يجامل الامبراطور فافرج عـن مائة من اسراه لكن هذا العمل لم يرق لتوفيل فقاد حملة عسكرية سـنة ٢٢٢هـ/٨٣٦م، استولى فيهاعلى زبطرة وقتل الكثير من اهلها وشرد الباقين،ولم يلتفت لرسل الخليفة الذين اوفدهم برسالة يطلبون منه الكف عن سـفك الدمـاء •

ان الاعمال العدوانية التي قام بها الامبراطور ، عادت بالضرر الكبير على علاقة الدولتين ، فتدهورت بشكل خطير ، جعلت المعتصم يتخذ موقفا حازما • بدأه بأرسال كتاب الى توفيل جاء فيه (بسم الله الرحمن الرحيم •• الجواب ماترى لا ما تسمع وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار) وسار على رأس جيش كبير سنة ٢٢٣هـ/٨٣٧م وتمكن من الحاق هزيمة منكرة بالقوات الرومية وأسر خال الامبراطور المدعو (ياطس) واتجه بقواته نحو عمورية فضرب عليها الحصار • وحاول توفيل ان يترضاه فارسل إليه وفدا يقول (ان الذين فعلوا بزبطرة ما فعلوا تعدوا امري وآنا ابنيها بمالي ورجالي وارد من اخذ من أهلها واخلي جملة من في بلد الروم من الاسارى وابعث اليك بالقوم الذين فعلوا بزبطرة على رقاب البطارقة) لكن الخليفة رفض مقابلة السفراء واستبقاهم لحين فتحه المدينة بعد ٥٥ يوما من الحصار ، حينئذ اطلـق السفراء وحملهم رسالة له فيها (اني قد اديت دين زبطرة) •

وبعد وصول اخبار للقسطنطينية مفادها ان المعتصم قرر التوجه اليها

بادر توفيل بارسال سفارة برئاسة البطريق باسيل يعرض الاموال وفداء اسرى عمورية ، الا ان المعتصم رفض العرض ، فجدد الامبراطور سفارته بأرسال سفير يحمل كتابا يتضمن اقتراحا للسلم وتبادل الاسرى مصحوبا بالهدايا وتضمن كتابه :(ان الملوك لم تزل يغزو بعضها بعضا ، ويعلو بعضها على بعض ، وربما أتيت من وزراء السوء ، وقد كان منا بزبطرة ما كان ، وتبينت وجه الخطأ فيه ، وقد كلت لي بالصاع اصوعا فيما فعلت بعمورية ، وانا أسألك بالطينة المباركة التي انت منها ان تنعم علي باطلاق بطارقتي فانهم مائة وخمسون بطريقا ، وانا افتدي كل واحد منهم بمائة من المسلمين وقد تهادت الملوك قبلنا ، وقد وجهت مع رسولي من الثياب الديباج المذهبة اربعين ثوبا ..) فلما وصل السفير ومن معه الى بغداد ، ادخلوا على الوزير محمد بن عبد الملك الذي عرف هدف الوفد ومضمون الرسالة فأوصلها مع الرسل الى الخليفة ، فقبلها وارسل بدوره وفدا لملك الروم يحمل هدايا مع وعد منه باطلاق ضعف عدد الاسرى المسلمين الذين يطلقهم الروم . الا ان الفداء لم يحصل بسبب انشغال المعتصم بتمرد الافشين سنة ٢٢٥هـ / ٨٣٩م .

واستمرت العلاقات الدبلوماسية حسنة في خلافة الواثق (٢٢٧ هـ ـ ٢٣٢هـ/٨٤١ـ٨٤٦م) رغم وفاة توفيل ، واستلام امرأته (تدوره) السلطة نيابة عن ابنها الصغير . واقتصرت العلاقات على تبادل الوفود وعقد معاهدات تبادل الاسرى .

فأرسل الواثق سنة٢٢٨هـ/٨٤٢م ، بعثة علمية برئاسة محمد بن موسى لزيارة الكهف الذي حفظت فيه جثث اصحاب الكهف ، وبتفويض من الامبراطور ، الذي عين رجلا ليكون دليلا للبعثة العربية ، تبعه وصول سفارة من الروم ، تحمل رسالة تتضمن اقتراحا لتبادل الاسرى بين الطرفين ، فاستقبلها الوزير ابن الزيات سنة ٢٣٠هـ /٨٤٤م،وجرت مفاوضات بين الجانبين، كان الوفد الرومي اثناءها يرفض (ان يأخذ في الفداء امرأة عجوزا ولا شيخا

ولا صبيا • فلم يزل ذلك بينهم اياما حتى رضوا عن كل نفس بنفس) • حينئذ وجه الخليفة بخاقان الخادم بصحبة الوفد سفيرا لبلاد الروم ، ليطلع على عدد الاسرى العرب هناك ، وعلى صحة نوايا الامبراطور ، فعاد واخبر الخليفة بموافقتهم ورغبتهم في ايقاع الصلح • فأوفد الواثق احمد بن سعيد الباهلي على البريد وامره بحضور الفداء •

وقد تم الفداء في العاشر من محرم سنة ٢٣١هـ /٨٤٥م ، على نهراللامس قرب طرسوس ، واحضر كل طرف ما عنده من الاسرى ، وتم تبادلهم بعملية وصفها السندي مولى حسين الخادم وكان حاضرا الفداء فقال (عقد المسلمون جسرا على النهر ، وعقد الروم جسرا ، فكنا نرسل الرومي على جسرنا ويرسل الروم المسلم على جسرهم • فيصير هذا الينا وذاك اليهم فاذا صار المسلم الى المسلمين كبر وكبروا واذا صار الرومي الى الروم تكلم بكلامهم ، ودامت عملية الفداء أربعة ايام ، فودي فيها ٤٤٦٠ اسيرا من المسلمين •

وجرت معاهدة اخرى لتبادل الاسرى سبقها تبادل هدايا بين الطرفين ، أرسلتها الامبراطورة تدوره الى الخليفة المتوكل ، فرد عليها بأرسال اضعاف ما أرسلت اليه ، فوجهت سفيرها جورجيس بن قرياقس للتباحث في فداء الاسرى المسلمين ، فبعث المتوكل في شعبان سنة٢٤١هـ/٨٥٥م سفيره نصر بن الازهر بن فرج ، للاطلاع على عدد الاسرى في بلاد الروم • وبعد الترتيبات الاولية ، اوفد الخليفة قاضي قضاته جعفر بن عبدالواحد لحضور الفداء الذي تم في ١٢ شوال سنة٢٤١هـ/٢٣شباط ٨٥٥م على نهر اللامس ايضا، وفودي فيه ٧٨٥ رجلا ومن النساء ١٢٥ امرأة •

ووقعت معاهدة جديدة ايام المتوكل ايضا على يد السفير نصر بن الازهر الذي يقول عن سفارته « لما صرت الى القسطنطينية حضرت دار ميخائيل الملك بسوادي وسيفي وخنجري وقلنسوتي ، فجرت بيني وبين خال الملك

بطرناس المناظرة ، وهـو القيم بشأن الملك ، وأبوا ان يدخلوني بسـيفي وسوادي ، فقلت : انصرف ، فانصرفت فرددت من الطريق ومعي الهدايا نحو من الف نافجة مسك وثياب حرير وزعفران كثير وطرائف ، وحملت الهدايا التي معي ، فدخلت عليه ، فاذا هو على سرير فوق سرير ، واذا البطارقة حوله قيام ، فسلمت ثم جلست على طرف السرير الكبير ، وقد هيىء لـي مجلس ، ووضعت الهدايا بين يديه ، وكان بين يديه ثلاثة تراجمة ، غـلام فراش كان لمسرور الخادم ، وغلام لعباس بن سعيد الجوهري ، وترجمان له قديم يقال له سرخون ، فقالوا لي : ما نبلغه ؟ قلـت لا تزيدون على ما أقول لكم شيئا • فاقبلوا يترجمون ما اقول • فقبل الهدايا ولم يأمر لاحد منها بشيء ، وقربني واكرمني ، وهيأ لي منزلا بقربـه ، فخرجت فنزلت في منزلي •• فتغافل عني نحوا من اربعة اشهر •• فراجعوا مخاطبتي وانقطـع الامر بيني وبينهم في الفداء ، على ان يعطوا جميع من عندهم واعطي جميع من عندي ، وكانوا اكثر من الف قليلا ، وكان جميع الاسرى الذين في ايديهم أكثر من الفين منهم عشرون امرأة معهن عشرة صبيان فاجابوني •• فاستحلفت خاله ، فحلف عن ميخائيل ، فقلت : ايها الملك قد حلف لي خالك ، فهذه اليمين لازمـة لـك • فقال برأسـه : نعـم ، ولـم اسمعـه يتكلم بكلمـة منـذ دخلـت بـلاد الـروم الـى ان خرجت منها ، انما يقول الترجمان وهو يسمع ، فيقول برأسه : نعم اولا ، وليس يتكلم ، وخاله المدبر في امره ، ثم خرجت من عنده بالاسرى باحسـن حال ، حتى اذا جئنا موضع الفداء اطلقنا هؤلاء جملة وهؤلاء جملة ، وكان عداد من صار في ايدينا من المسلمين اكثر من الفين » • ويذكر المسعودي انهم كانوا ٢٣٦٧ من ذكر وانثى ، وتمت العملية في مدة سبعة ايام من شهـر صفر سنة ٢٤٦هـ/٨٦٠م •

وفي خلافة المعتضد بالله جرى توقيع معاهدة تبادل الاسرى ، تولاها احمد بن طغان امير الثغور الشامية وانطاكية سنة ٢٨٣هـ/٨٩٦م وجرت احداثها

على نهر اللامس ففودي ٢٥٠٤ من ذكر وانثى من اسرى المسلمين تبعتها معاهدة جديدة في خلافة المكتفي ، عرفت (بفداء الغدر) ، وكان امبراطور الروم يومئذ اليون بن بسيل ، ففي اثناء تبادل الاسرى في ذي القعدة سنة٢٩٢هـ /٩٠٤م غدر الروم ، وانصرفوا ببقية الاسرى ، وانصرف المسلمون بمن معهم من اسرى الروم • ثم استؤنفت بينهما ، فتولاها من الجانب العربي رستم الفرغاني امير الثغور الشامية ، ومن الجانب الرومي اسطانة ، وبلغ عدد من فودى به من المسلمين ١٢٠٠ أسير •

وتبادل بعدها الطرفان السفارات والهدايا ، فيذكر الطبري « ان ملك الروم اليون أرسل سفارة الى الخليفة المكتفي مكونة من خال ولده اليون وبسيل الخادم سنة٢٩٤هـ/٩٠٦م، وزودهم بكتاب الى الخليفة يساله الفداء بمن في بلاده من المسلمين ، فوصلوا باب الشماسية ، فاقاموا فيها اياما ثم دخلوا بغداد ومعهم هدية من صاحب الروم عشرة من اسارى المسلمين فقبلت منهم واجيب صاحب الروم الى ماسأل) وتم تبادل الاسرى على نهر اللامس في شوال سنة ٢٩٥هـ/٩٠٧م، قبل وفاة المكتفي ، وتم فداء ٢٨٤٢من ذكر وانثى •

وكانت سفارة امبراطور الروم قسطنطين بن ليون في سنة ٣٠٥هـ/٩١٧م التي اوفدها للخليفة المقتدر من السفارات المهمة ، في تاريخ العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين ، تميزت بكثرة عدد اعضائها ، اذ بلغوا ٢٢ شخصا محملين بالهدايا ومعهم امر للتفاوض بعقد الهدنة وتبادل الاسرى ، فاستقبلهم الخليفة استقبالا حافلا ، وبالغ في اكرامهم ، وخلع عليهم الهديا والاموال ، ووافق على عقد الهدنة وتبادل الاسرى • وأرسل معهم ، مؤنسا الخادم يعاونه عدي بن عبدالباقي التميمي وبمعيتهما ١٢٠ الف دينار للفداء الذي تم على نهر اللامس في ربيع الاخر سنة ٣٠٥هـ/٩١٧م وبلغ عدد من فودى من اسرى المسلمين٣٣٣٦ شخصا •

وأدى تجدد الاعمال الحربية بين الدولتين الى اضطراب العلاقات

السياسية بينهما ، حتى سنة ٣١٢هـ/٩٢٤م ففيها ارسل امبراطور الروم سفيرا للخليفة المقتدر يلتمس الهدنة والفداء ، فاجيب طلبه ، وارسل المقتدر على اثره، مفلح الاسود سفيرا للتفاوض في امر الاسرى ، الذين تم تبادلهم في رجب سنة ٣١٣هـ/٩٢٥م وبلغ عددهم ٣٩٨٣من ذكر وانثى . الا ان الروم نقضـوا معاهدة الهدنة سنة٣١٤هـ/٩٢٦مفشنوا غارة حربية على ملطية فاخربوها ،تبعها صدامات مسلحة بين الدولتين سنة٣١٥هـ/٩٢٧م والسنوات التي تلتها . حتى سنة ٣٢٦هـ/٩٣٧م فعاد الروم الى طلب الهدنة ، فارسلوا سفيرا لهم الى بغداد يحمل رسالة الى الخليفة الراضي ، مكتوبة بالرومية بالذهب والترجمة العربية بالفضة جاء فيها :

« من رومانس وقسطنطين واسطفانس عظماء ملوك الروم الى الشريف البهي ، ضابط سلطان المسلمين ، بأسم الاب والابن وروح القدس ، الالـه الواحد . الحمد لله ذي الفضل العظيم الرؤوف بعباده الجامع للمفترقات والمؤلف للأمم المختلفة في العداوة حتى يصيروا واحدا ، الذي جعـل الصلح افضل الفضائل اذ هو محمود العاقبة في السماء والارض ، ولما بلغنا مارزقته ايها الاخ الشريف الجليل من موفور العقل وتمام الادب واجتماع الفضائل اكثر ممن تقدمك من الخلفاء ، حمدنا الله تعالى اذ جعل في كل امة من يمتثل امره وقد وجهنا شيئا من الالطاف ، وهي اقداح وجرار من فضة وذهـب وجوهر وقضبان فضة وسقور وثياب سقلاطون ونسيج ومناديل واشـياء كثيرة فاخرة) .

فكتب الخليفة اليهم بالجواب وقبول الهدية والاذن في الفداء وهدنـة سنة ، وارسل السفير ابن ابي ورقاء الشيباني لاتمام عملية الفداء التي جرت على نهر اللامس في ذي الحجة سنة ٣٢٦هـ/٩٣٧م. ودامت ستة عشر يوما تم فيها فداء ٦٣٠٠ اسير من المسلمين من ذكر وانثى . ويذكر المسعودي انهقد فضل في ايدي الروم من المسلمين ثمنمائة رجل ردوا وفودى بهم على نهـر

البدندون وزيد في الهدنة بعد انقضاء الفداء مدة اشهر لاجل من تخلف في ايدي الروم من المسلمين حتى جمع لهم الاسارى .

وتجددت العلاقات السياسية بين الدولتين بعد انتهاء فترة التسلط الاجنبي، البويهي والسلجوقي، حين توسط الخليفة الظاهر في الصلح بين الروم وصاحب آمد . يقول ابن الفوطي « ان صاحب آمد ارسل الى الخليفة الظاهر بامر الله رسالة سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م يعلمه بمحاصرة الروم لبلده ويسأله مراسلة ملك الروم في الكف عنه ، فقبل الخليفة الوساطة فارسل الى ملك الروم السفير يوسف ابن الجوزي الذي يقول عن سفارته هذه: لما وصلت اليه وجدت عساكره قد احاطت بمدينة آمد ، واهل البلد في ضرعظيم ، فعرضت عليه مكتوب الديوان فذكر ان اولئك هم الذين ابتدأوا وقتلوا اصحابه ، قال : فأخرجت خط الخليفة بقلمه ، وتلوت قوله تعالى (كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا اياته وليتذكر اولوا الالباب) وقبلته وسلمته اليه ، فقام ووضعه على عينه ورأسه وقرأه وامر في الحال بالكف عن القتال والرحيل عن البلد) .

وارسل الخليفة المستنصر بالله سفارة برئاسة محيي الدين يوسف ابن الجوزي الى بلاد الروم سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م وكان هدفها المجاملة وتوثيق العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين .

ويتضح مما سبق ، ان العلاقات بين الدولتين العربية والبيزنطية ، مرت في كثير من الاحيان ، بطرق دبلوماسية التجأ اليها الطرفان لتخفيف حدة التوتر الناشئة بينهما ، واسفرت عن عقد عدة معاهدات للصلح وتبادل الاسرى والمهادنة ، تخللتها سفارات الهدايا والمجاملة ، وادت في مجملها الى تأثر الروم من خلال سفاراتهم وبعثاتهم الدبلوماسية بحضارة بغداد وعظمتها .

٢ ـ العلاقات الدبلوماسية مع الفرنج

ادى الانفتاح الحضاري في علاقات الدولة العربية الدبلوماسية الى اقامة علاقات مع الفرنج الهدف منها خلق مناخات سياسية ودية لصالح الدولتين .

وبالرغم من قصر هذه العلاقات ، وعدم تشعبها ، فانها جاءت في عصر قوة الدولة ونهضتها الحضارية وتبوئها مكان الصدارة في السياسة الدولية انذاك ، مما حدا بالفرنج اقامة مثل هذه العلاقات معها .

وقد حدثت اولى الاتصالات الدبلوماسية ، زمن الخليفة ابي جعفر المنصور فيذكر بعض المؤرخين، انملك الفرنج(بيبين)ارسل سنة١٤٨هـ/٧٦٥م، سفارة الى العاصمة بغداد ، ثم غادرتها بعد ثلاثة اعوام الى فرنسا بصحبة سفراء اوفدهم الخليفة الى ملك الفرنج ، ونزلوا بثغر مرسيليا ، وجرى لهم استقبال حافل لدى مقابلتهم الملك الذي دعاهم الى تمضية الشتاء في مدينة متز التي كانت يومئذ منزل البلاط الفرنجي ، واقاموا حينا في قصر (سلس) على ضفاف نهر اللوار ، وعادوا الى بغداد بطريق مرسيليا ايضا محملين بالتحف والهدايا التي ارسلها بيبين الى الخليفة المنصور .

وباستجابة الخليفة لهذا النوع من العلاقات الدبلوماسية الودية مع الفرنج ، يكون قد وضع تقليدا سياسيا سار عليه احفاده من بعده ، ولم تكشف الوثائق التاريخية ، ولا الاحداث المادية الملموسة ، انها كانت محالفات ثنائية ضد دولة معينة ، بقدر ماهي علاقات انصبت على زيارات المجاملة وتبادل الهدايا ، وهذا امر متعارف عليه في مختلف العصور .

وتجددت هذه العلاقات زمن الخليفة هارون الرشيد ، بسفارة ارسلها اليه شارلمان ملك الفرنج سنة١٨١هـ/٧٩٧م فرد عليه الخليفة بارسال وفدله سنة ١٨٥هـ/٨٠١م اعقبه شارلمان بارسال وفد سنة١٨٦هـ/٨٠٢م فاجابه الرشيد بوفد في سنة ١٩٢هـ/٨٠٧م .

ويبدو ان علاقات العاهلين السياسية ، من النوع الودي ، اذ لم يمتد تأثيرها السياسي الى ابعد من تبادل وفود المجاملة والهدايا .

وعادت العلاقات السياسية بين الدولتين ، بسفارة اوفدتها ملكة الفرنج تيودورا أمرأة تيوفيكلت سنة٢٩٣هـ/٩٠٥م الى الخليفة المكتفي العباسي، وكانت

مصحوبة بالهدايا الكثيرة ، اضافة الى رسالة يذكرها علاء الدين الغزولي الدمشقي ، ونصها اني اعلم مابينك وبين ملك القسطنطينية من المحالفة، على اني اقوى منه ، وعندي معدات الحرب اكثر مما عنده وتحت سلطتي ٢٤ مملكة لايشبه لسان احداها لسان الاخرى ، وروميه الكبرى باجمعها تخضع لي) ويقول ابن النديم (ان الكتاب كان على حرير ابيض ارسلته ملكة الفرنج الى الخليفة تخطب صداقته ...)

ويظهر من فحوى الرسالة ، ان تيودورا كانت راغبة في استمالة الخليفة لعقد حلف بينهما . لكن شيئا من هذا القبيل لم يحصل لعدم اقتناع المكتفي بجدوى مثل هذه المحالفات التي قد تضر بمصالح سياسة التوازن الدولي للدولة العربية في علاقاتها الخارجية ، وفي الوقت ذاته يصعب الاخذ بما اورده ابن النديم « في ان الملكة تيودورا طلبت في كتابها الزواج من المكتفى » لأسباب يأتي في مقدمتها وضع الخليفة ، وطبيعة الخلافة ، وبعد المسافة ، ووضع الملكة العائلي بالذات .

ويمكن القول : ان علاقات الدولة العربية مع الفرنج انحصرت في دائرة العلاقات الودية فقط ، ولم تسفر عن محالفات سياسية مهمة .

٣ ـ العلاقات الدبلوماسية مع البلغار ـ الصقالبة

ادى اشتهار بغداد ، وازدهار حضارتها ، وشيوع سمعتها العظيمة شرقا وغربا آنذاك ، الى سعي البلغار (وهم من سكان شمال اوربا على اطراف نهر الفولغا . وعاصمنهم على مقربة من قازان) لاقامة علاقات مع الدولة العربية ، وصلت الى حد استنجاد ملكهم بالخليفة المقتدر لعقد معاهدة دينية ثقافية عسكرية .

فقد ذكر ابن فضلان « ان ملكهم ألمش بن يلطوار طلب الى امير

المؤمنين المقتدر بالله ان يرسل له بعثة من قبله تفقهــه في الدين وتعرفــه شرائع الاسلام ، وتبني له مسجدا ، وتنصب له منبرا يقيم عليه الدعوة للخليفة في جميع مملكته ، وان يبني له حصنا يتحصن فيه من الملوك المخالفـين له ، وهم الخزر اليهود الذين كانوا يعتدون على قومه ويفرضون عليهم الضرائب) .

وكانت الرسالة قد وصلت بصحبة السفير عبدالله بن باشنو الـذي كان يعرف العربية ، فاستقبله الخليفة المقتدر ، ووافق على ما جاء فيها ، بعد التشاور مع وزيره حامد بن العباس ، وقرر ايفاد سفارة من اربعة اشخاص تم اختيارهم بدقة لتنفيذ الاتفاق وهم :

١ ــ احمد بن فضلان ، رئيسا للسفارة ، وهو الذي تولى قيادتها ، وقراءة كتاب الخليفة وتسليم هداياه للملك ، اضافة على اشرافه على الفقهاء والمعلمين المرسلين مع السفارة .

٢ ــ سوسن الرسي مولي نذير الحرمي حاجب الخليفة ، وكان يعــرف الروسية وتعلم العربية ، فأسلم وحسن اسلامه .

٣ ــ بارس الصقلابي

٤ ــ تكين التركي ، وكان يجيدلغات الاتراك التي يمر ببلادها الوفد وهو في طريقه الى الفولغا .

وانحصرت مهمة البعثة الدبلوماسية العربية في الامور التالية :

١ ــ اقامة علاقات ودية بين الطرفين .

٢ ــ نشر الاسلام وتعاليمه السامية في تلك البلاد .

٣ ــ بناء مسجد ومنبر في البلاد لاقامة الدعوة والخطبة للخليفة .

٤ ــ بناء حصن عسكري بخبرة عربية لاتقاء شر الطامعين في البلاد .

وحمل الوفد (الادوية)التي كان ملك الصقالبة قد طلبها من نذير الحرمي، والى جانب الادوية التي اظهرت تقدم الدولة العربية ورقي حضارتها ووفــرة الادوية فيها ، حمل الوفد هدايا الخليفة الى الملك وافراد عائلته وكبار موظفيه.

وقد غادرت سفارة الخليفة بغداد في « صفر سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م الى بلاد البلغار يرافقها سفير الملك • ووصف ابن فضلان اخبار سفارته والمناطق التي مر بها كاقليم الجبال ، والري ، وبخاري وخوارزم وصفا دقيقا وممتعا ، لحين وصولها في ١٢محرم سنة ٣١٠هـ/١٢مارس ٩٢٢م•

وكان في استقبال السفارة العربية ، الملك واخوته واولاده والملوك الاربعة الذين تحت يده ، فانزلهم في احد قصوره • وتم في احتفال كبير ، حضره الملك يلطوار وافراد مملكته قراءة كتاب الخليفة المقتدر وكتاب وزيره حامد بن العباس ، بعدها اعلن الملك اسلامه ، واقيمت الخطبة بأسم الخليفة ووزعت الهدايا على الحاضرين •

يقول ابن فضلان : لقد سألت الملك يوما ، فقلت له (مملكتك واسعة واموالك جمه ، وخراجك كثير ، فلم سألت السلطان ان يبني حصنا بمال من عنده لامقدار له ؟ فقال: رأيت دولة الاسلام مقبلة واموالهم يؤخذ من حلها فالتمست ذلك لهذه العلة ، ولو اني اردت ان ابني حصنا من اموالي من فضة او ذهب لما تعذر ذلك علي ، وانما تبركت بمال امير المؤمنين فسألته ذلك)•

وكان من نتيجة هذه السفارة ، توسع الاسلام وانتشاره بين سكان بلاد البلغار وانتقال الحضارة العربية الى ربوعها ، مما ساعد على ارتقاء البلاد سلم الحضارة بفضل العرب •

٤ ــ العلاقات الدبلوماسية مع الصين

شهدت فترة حكم العباسيين ، نشاطا ملموسا في علاقات الدولة العربية الدبلوماسية مع الصين ، فتشير التواريخ الصينية الى اخبار عدد من السفارات العربية الى البلاط الصيني • فذكرت ان هناك خمس عشرة سفارة خلال نصف قرن (١٣٣هـ ــ ١٨٤هـ/٧٥٠ ــ ٨٠٠م) • في حين اغفلت السفارات الصينية الاشارة الى البلاط العربي لسبب او لآخر ، وتكشف المصادر العربية

جانبا من هذه السفارات • لكنها لم تذكر تفاصيل واسعة عنها ، ولهذا تبقى معلوماتنا مقتصرة على الوثائق الصينية الى حد كبير •

فيذكر المسعودي (ان ملك الصين بغبور قدم الطاعة الى الخليفة المهدي حين ارسل له رسولا يدعوه اليها) • واشـارت رواية اخرى الى احترام ملوك الصين للخلفاء العباسيين فتقول (ان ملك الصـين قال لاحـد اولاد هبار بن الاسود حين قابله : انا نعد الملوك خمسة ، فأوسعهم ملكا الذي يملك العراق ، لانه في وسط الدنيا » وهذا يفسر لنا تقديم ملك الصين الطاعة للخليفة المهـدي •

ويبدو ان العلاقات السياسية مع الصين ، تحولت بعد انتصار العرب الكبير سنة ١٣٤هـ / ٧٥١م على القوات الصينية في موقعة تالاس، الى علاقات ودية ، فوصلت الى البلاط الصيني سفارة عربية سنة١٣٦هـ /٧٥٣م مرسلة من الخليفة ابي العباس ، وهي تحمل هدايا بضمنها ثلاثون جوادا عربيا هدية الى امبراطور الصين •

وتعززت العلاقات الودية بين الطرفين ايام الخليفة ابي جعفر المنصور حين ساعدت القوات العربية الامير الصيني سوجونغ على توطيد حكمه كامبراطور للصين ، مما جعله يستقبل سفارة الخليفة بترحاب بالغ حين وفدت عليه تحمل الهدايا والتحف النفيسة •

واستمرت السفارات تتردد زمن المنصور ، فتشير المصادر الصينية الى وصول سفارة مكونة من ٢٥ عضوا ارسلها الخليفة الى الصين سنة ١٣٩هـ /٧٥٦م وسفارة اخرى سنة١٤٦هـ/٧٦٣م مكونة من ستة اعضاء ، تقول المصادر الصينية عن هذه السفارة انها وصلت الى باب قصر الامبراطور في اللحظة التي وصلت فيها سفارة من بلاد الاواغرة مكونة من ثمانين عضوا ، فكانت كل جماعة تريد ان تدخل قاعة التشريفات قبل الاخرى • مما ادى الى ازمة دبلوماسية ، فوفق امين التشريفات بين السفارتين بادخال كل منهما من باب مستقل •

وتنامت السفارات بين البلدين بعد بناء بغداد ، وازدهار حركة تجارتها مع الشرق الاقصى ، فأدى هذا الازدهار الى توثيق العلاقات الدبلوماسية مع الصين ، فيذكر المسعودي (ان ملك الصين ارسل الى الخليفة المهدي سفارة وصلت بغداد ، وهي تحمل هدايا للخليفة ، وكان بضمنها قرود ، ذكر الوفد ما لهذه القرود من منافع لملوكهم فقبلها المهدي •

وارسل الخليفة هارون الرشيد ثلاث سفارات لبلاد الصين وصلت احداها سنة ١٨٢هـ/٧٩٨م ، وهي محملة بالهدايا للامبراطور الصيني •

وقد مرت العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين بفترة تعثر بسبب الاضطرابات الداخلية والصراع على السلطة في الصين ، الا ان مجيء اسرة سونغ الى الحكم فتح من جديد الصلات الدبلوماسية والتجارية • حيث وردت في المصادر الصينية اخبار ٢٥ سفارة عربية وصلت الى عاصمة الصين بين سنوات ٣٤٩ — ٥٣٥هـ/٩٦٠ — ١١٤٠م • غير ان هذه السفارات لم تكن كلها رسمية ، فاغلبها كان وفودا تجارية ، ومن السفارات الرسمية التي تذكرها المصادر الصينية ، تلك التي أرسلها امبراطور الصين(سنغ نائي جونغ) الى بغداد سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م للخليفة المطيع • وهي تحمل رسالة ودية يرجوه فيها ، ان يمد يد الصداقة اليه فاجاب عنها الخليفة المطيع بأرسال سفارة خاصة تحمل هدايا للامبراطور تعبيرا عن صداقته له •

ان استمرار العلاقات والصلات الدبلوماسية مع الصين جاء في مجمله معبرا عن ازدهار التبادل التجاري بين البلدين ، الذي سبق العلاقات السياسية بفترة طويلة •

٥ — العلاقات الدبلوماسية مع الهند وفرغانة

اقام العباسيون علاقاتهم الدبلوماسية مع الهند وفرغانة على اساس المصالح والمنافع المشتركة التي تربط بينهما ، خاصة التجارية منها فجاءت سفارات الهدايا ووفود المجاملة بين الجانبين ، لتزيد من توثيق تلك العلاقات

التي ابتدأت زمن الخليفة ابي جعفر المنصور ، فيذكر اليعقوبي (ان الخليفة المنصور وجه الليث مولاه سفيرا الى ملك فرغانة ، لعقد معاهدة صلح بينهما ، فأجابه الملك بارسال سفير من اصحابه يقال له باتيجور الى الخليفة ردا على سفارته السابقة) .

واستقبل ملك الهند واراح وهوفور سفير الخليفة المهدي ، واعلن للسفير طاعته واحترامه للخليفة ، في حين استقبل ملك فرغانة فريران سفيرا اخر للخليفة لنفس الغرض . مما وضح قوة الخلافة وهيبتها وتأثيرها في نفوس هؤلاء الملوك ، فاعلنوا طاعتهم لها .

وارسل ملك الهند سفيرا للخليفة هارون الرشيد ، وصل بغداد بصحبة هدايا منها سيوف قلعية (نسبة الى مدينة في الهند) وكلاب سپورية (بلد بالهند) وثياب من الهند ، فأستقبله الخليفة الرشيد في حفل كبير ، وحمله بعد انتهاء المقابلة هدايا للملك الهندي .

وترددت السفراء بين الخليفة المأمون وملك الهند ، فيذكر صاحب كتاب (النبراس) ان السفراء ترددت بين الطرفين ، وهي تحمل الكتب والهدايا ، فأرسل ملك الهند سفيرا له يحمل هدية نفيسة للخليفة المأمون ومعه كتاب جاء فيه :

(من دهمي ملك الهند وعظيم اركان المشرق وصاحب بيت الذهب ... اما بعد ، ايها الاخ من الملك والشرف والثروة .. فأخبارك ترد علينا بفضيلة لك في العلم لم نجدها لغيرك ، ونحن شركاؤك في المحبة والرهبة ، .. وقد افتتحنا استهداءك بان وجهنا اليك كتابا تسميته « صفو الاذهان » وبعثنا اليك لطفا بقدر ما وقع منا موضع الاستحسان له ، وان كان دون قدرك . ونحن نسألك ايها الاخ ان تنعم في ذلك بالقبول ، وتوسع عذرا في التقصير) وكانت الهدية جام ياقوت أحمر فتحة شبر في غلظ الاصبع مملوءا درا .. ووشي ومصليات ومائة الف مثقال عود هندي) .

فرد عليه المأمون بكتاب ورد فيه (من عبد الله ، عبدالله الامام المأمون أمير المؤمنين الذي وهب الله له ولآبائه بابن عمه النبي صلى الله عليه واعلى ذكره ... والتصديق بالكتاب المنزل الى ملك الهند وعظيم من تحت يده اركان الشرق : سلام عليك .. وصل كتابك فسررت لك بالنعمة التي ذكرت ، ووقع اتحافك الينا الموقع الذي أملت من قبول ذلك .. وقد اهدينا اليك كتابا ترجمته « ديوان الادب وبستان نوادر العقول » ... وجعلنا لذلك عنوانا من الهدية ، فهي لطف استقللنا قدرها لك . ولو كانت الملوك تتهادى على اقدارها لما اتسعت لذلك خزائنها ..) وكانت الهدية فرسا بفارسه وجميع آلاته عقيقا .. واصناف من بياض مصر .. ووشي اليمن وجام زجاج فرعوني .. وكان الكتاب في طومار ذي وجهين وغلظ اصبع .

وفي زمن الخليفة المعتضد ، ارسل احمد الحاسب سفيرا للهند ، وكان ذلك سنة ٣٠٩هـ / ٩٢١م ، واستمرت العلاقات الدبلوماسية الطيبة بين البلدين، فيذكر ابن الفوطي (ان الخليفة الناصر لدين الله العباسي أرسل الشيخ الحسن بن محمد الصغاني ، احد علماء الحديث والتفسير والفقه سفيرا الى ملك الهند سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م ، فعاد بعد مدة طويلة في خلافة المستنصر بالله ، الذي أرسله ثانية في سفارة جديدة فعاد بعد مدة » . مما يؤكد ان علاقة الخلافة العباسية بملوك الهند ، كانت علاقة وطيدة وقوية . يرجع تاريخها الى ايام الفتح العربي لتلك البلاد وانتشار الاسلام في ربوعها .

٦ ـ العلاقات الدبلوماسية مع الامارة الغزنوية

ترجع علاقات العباسيين الدبلوماسية مع الدويلة الغزنوية (٣٥١ ـ ٥٨٢هـ/٩٦٢ ـ ١١٨٦م)الى القرن الخامس الهجري(الحادي عشر الميلادي) واستمرت تلك العلاقات حتى بعد سقوط الغزنويين واستلام الغوريين حكم البلاد بقيادة شهاب الدين الغوري .

وقد حاولت الخلافة في بغداد ، خلال فترة التسلط الاجنبي البويهي

والسلجوقي ، ان تكيف علاقاتها السياسية مع تلك الدويلات بشكل ينسجم وطبيعة الفترة التي مرت بها ، في الوقت الذي حاول امراء هذه الدويـــلات التقرب الى الخليفة للحصول على منافع سياسية ، تقوي مركزهم وتضفي عليه صبغة شرعية . وهذا بحد ذاته يشير الى ان الخلافة العباسية لازالـت تحتفظ بهيبتها وتأثيرها الديني في العالم العربي والاسلامي انذاك مما حدا بهؤلاء الامـراء الى كسب ودها .

فحينما نشب النزاع بين مسعود الاول سلطان غزنة . وبين علاء الدولة ابن كاكويه البويهي ، تدخل الخليفة القادر بالله لانهاء النزاع فأرســل في سنة٤٢١هـ/١٠٣٠م سفيرا الى مسعود يطلب منه انهاءه . فاجاب الى طلب الخليفة ، واوفد اليه سفيرا ورسالة ورد فيها (اننا تقبلنا شفاعة امير المؤمنين بالسمع والطاعة ...) ، (فاستقبل الخليفة سفير مسعود ودارت مباحثات استمرت ثلاثة ايام ، استقر الرأي فيها على ان يكون ابن كاكويه خليفة للامير مسعود في اصفهان اثناء تغيبه عنها ، على ان يؤدي له كل عام اموالا وهداياه وكتب القادر منشورا بذلك ، ورجع السفير محملا بالهدايا) .

ويذكر البيهقي ان الخليفة القادر ارسل ســفيرا آخر يحمل رسالة جوابية تتضــمن التعزية والتهنئة ، بوفاة الامير محمود واستلام مســعود السلطة مكانه ، وتضمنت الرسالة ايضا اقرار الخليفة اياه على مناطق الري والجبال واصفهان ، ووعده بان يرسل اليه ما طلبه من اللواء والعهد والكرامات مع رســوله .

وقد رحب الامير مسعود برسالة الخليفة ، واقام احتفالا كبيرا قرأت فيه بحضور السفير (حتى يتأكد لدى الناس انه خليفة امير المؤمنين وولي عهد ابيه) . ثم وصل ابو محمد الهاشمي،في شعبان سنة ٤٢١هـ/آب١٠٣٠م موفدا من قبل الخليفة القادر بالله (حاملا من الصلات والانعامات السنية مالا يذكر الناس ان سلطانا قد حظى بمثلها من قبل فطابت نفس الامير ، وأمر

بتهيئة ما يلزم من المعدات الكاملة لا ستقباله وجرى احتفال كبير لسفير الخليفة ، شارك فيه السلطان مسعود وكبار موظفي الدولة من القضاة والولاة واهالي المدينة واقيمت اقواس النصر ومراسم الابتهاج ، وانزل السفير في مبنى مسجد الجمعة الذي اعد خصيصا لاقامته وبعد ثلاثة ايام تمت مقابلة السفير للسطان فقدم له منشور الخليفة مع الهدايا وجاء في المنشور (ان أمير المؤمنين قد فوض السلطان مسعود كل ما كان في حوزة ابيه السلطان محمود ، وان يكون له كل ما فتحه من الري والجبال واصفهان ...) فأمر مسعود بنسخ صور من هذا المنشور لقراءته في المناطق المختلفة ، في الوقت الذي خلع على السفير ، وأرسل بصحبته هدايا للخليفة ، وعاد السفير في نفس الشهر .

وارسل الخليفة القائم بأمر الله السفير ابا بكر محمد السليماني الفقيه ، الى السلطان مسعود ، يحمل رسالة مهمة تضمنت (اخبار السلطان بوفاة الخليفة القادر بالله ، وان الامة بايعت القائم خليفة عليها ، وان على السلطان ان يعلن بيعته للخليفة) .

وبعد وصول السفير ، اقيمت مراسيم التهاني والتعازي في محرم سنة ٤٢٣هـ / كانون الاول ١٠٣١م ، وقرئت رسالة الخليفة المطولة والتي جاء فيها :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله ابي جعفر الامام القائم بامر الله أمير المؤمنين ، الى ناصر دين الله الحافظ لعبادالله .. سلام عليك . أما بعد : احسن الله حفظك وحياطتك ، وامتع أمير المؤمنين بك وبالنعمة الجسيمة ، والموهبة النفيسة .. ولما استبد الله تعالى بمشيته من نقل الامام التقي الطاهر الزكي القادر بالله .. وانتدب امير المؤمنين للقيام بما وكله الله اليه ووجب عليه بالنص من الامام القادر بالله وقد استقام له الامر ... فامدد الى بيعة امير المؤمنين يدك وليمدد اليها كل من صحبك وسائر من يحويه مصرك ... وخذ على نفسك اليمين المنفذة اليك من اخذ هذا الكتاب ،

واستوفها على جميع من لديك بمشهد أمين أمير المؤمنين محمد بن محمد السليماني لتكون حجة الله وحجة أمير المؤمنين عليك وعليهم قائمة والوفاء بها واجبة ملزمة ٠٠٠) ٠

فبايع السلطان وكتب نسخة البيعة وفيها (بايعت سيدنا ومولانا عبد الله بن عبدالله ابا جعفر الامام القائم بامر الله أمير المؤمنين ، بيعة طوع واتباع ورضى واختيار واعتقاد واضمار ٠٠ غير مكره ، مقرا بفضله مذعنا بحقه ٠٠ واقسمت مع ذلك راضيا غير كاره ٠٠ واشهد الله تعالى على نفسي وكفى به شهيدا) ٠

ويذكر البيهقي : ان السلطان كلف السفير بابلاغ الخليفـة ان يصدر عهدا جديدا ، يفوضه فيه امور خراسان وخوارزم ومناطق اخرى وان لا يكاتب ـ الخليفة ـ خانات تركستان ولا يمنحهم أي لقبمن الالقاب ، كما لا يجوز ان يرسل اليهم خلعا ، كما كان الحال عليه زمن القادر بالله ، وان يعود السليماني نفسه خاصة بهذا العهد على ان يكون معه خلعة تدل على مدى حسن رأي أمير المؤمنين في السلطان وأرسل مع السفير هدايا للخليفـة) ٠

ونظرا لاهمية الرسالة وخطورتها ، فقد ارسل السلطان بعض جواسيسه بصحبة السفير لينقلوا له الاخبار ، يقول البيهقي « ان السلطان مسعود أرسل مع السفير خمسة من السعاة ، على ان يعود ثلاثة منهم واحـدا بعد الاخر أثناء الطريق حاملين كل ما يستجد من الاخبار ، وان يعاد الاخران من بغداد ليذكرا كل ما جرى ، كما دس بين الرجالة والسواس رجلا من العيون يسير متنكرا لينهي اليه كل ما يرى قل او كثر » ٠

وبعد وصول السفير السليماني الى بغداد عاد سنة ٤٢٤هـ/١٠٣٢م بامر الخليفة ، محملا بالهدايـا والمهـمات الاخـرى ، فأستقبله السلطان

استقبالا كبيرا ، وجرت مباحثات بينهما ، ختمت بقراءة منشور الخليفة الذي يقول فيه للسلطان (ان كل الاملاك الموروثة والمكتسبة وما يستجد فتحه كلها لك ...) وبهذا جددت المعاهدة التي كانت معقودة زمن القادر بالله .

وأرسل السلطان الى بغداد سفيرا له هو حسن البرمكي الفقيه ــ الذي سبق له العمل في مثل هذه المهمة عدة مرات ــ للتباحث في أمر الحج ، فصدرت في اثرها اوامر الخليفة ، بان الطريق اصلحت وما على السلطان الا ان يعين أميره للحج .

واستمرت السفارات تتواصل بين بغداد وغزنة ، فيذكر ابن الساعي (ان الخليفة الناصر لدين الله ارسل السفير القاضي الشيخ مجد الدين يحيى ابن الربيع مدرس النظامية الى ملك غزنة شهاب الدين الغوري سنة ٥٩٣هـ / ١١٩٦م فمكث هناك مدة اربع سنوات عاد بعدها الى مقر الخلافة) . ثم عاد فارسله ثانية في سفارة جديدة سنة ٥٩٨هـ / ١٢٠١م فلما عاد ارسله مجددا سنة ٦٠١هـ / ١٢٠٤م وأرسل معه جماعة من الفقهاء .

ووصل الى غزنة سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م السفير ابراهيم بن عثمان الواسطي المرسل من الخليفة الناصر الى شهاب الدين محمد بن بسام ، فأقام عنده مدة وعاد لبغداد . ووصل بنفس السنة الفقيه الشافعي ابو القاسم عبدالرحمن بن يحيى سفيرا الى غزنة ، تبعه وصول السفير يحيى بن الربيع بن سليمان بن حراز الواسطي البغدادي الذي تولى التدريس بالمدرسة النظامية ، مرسلا من الناصر الى الملك شهاب الدين والى اخيه غياث الدين محمد ملك هراة ، فلما عاد ارسله ثانية في سفارة جديدة الى غزنة .

ويبدو ان هذه السفارات كانت لتوثيق عرى الصداقة بين بغداد وغزنة من جهة ، وسعي امراء وملوك تلك البلاد الى كسب ود الخلافة للحصول على اعتراف منها بشرعية سلطتهم من جهة ثانية ورافق هذه السفارات تبادل وفود المجاملة والهدايا .

٧ ـ العلاقات الدبلوماسية مع الامارة الصفارية

استطاع يعقوب بن الليث بن الصفار ان يقيم دويلة فارسية لاتخضع للخلافة العباسية ، عرفت بالدويلة الصفارية (٢٥٤ ـ ٢٩٨هـ /٨٦٨ـ٩١٠م) واتخذ من زرنج عاصمة اقليم (سجستان ـ سيستان) مقرا له ، وحاول التوسع على حساب الدولة ، وصولا لغزو العراق ، واسقاط الخلافة •

ان القاء الاضواء على العلاقات السياسية بين الخلافة وهذه الدولة، تكشف طبيعة الاطماع التوسعية ليعقوب هذا في تلك الفترة • فحين ارسل الخليفة المعتز السفير ابن بلعم سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م الى يعقوب ، طالبا منه اطلاق سراح الاسرى الذين اسرهم في الحرب من الطاهريين ، لم يستجب يعقوب اول الامر لطلب الخليفة ووقف موقفا عدائيا من سفيره ، فلم يحترمه كما ينبغي حتى انه كما يقول ابن بلعم « فسلمت فلم يرد السلام » • الا انه عاد واستجاب لطلب الخليفة خوفا من تأليب الرأي العام الأسلامي ضده وخشية على مركزه السياسي الذي لا يزال قلقا في تلك المرحلة • ولذلك بادر باطلاق سراح الاسرى ، واكرم السفير ابن بلعم ، وارسل معه هدايا للخليفة مع رسالة يقول له فيها انه يدفع ١٥ مليون درهم مقابل استدعاء والي كرمان علي بن حسين بن قريش) لانه كان ينوي تجهيز حملة عسكرية يضم فيها كرمان الى سلطته متجاوزا سلطة الخليفة الذي رفض هذا العرض •

فعاد يعقوب الى اتخاذ موقف عدائي جديد من الخلافة ، حين اصـ منشورا سياسيا يتضمن تعيين محمد بن واصل واليا على فارس في الوقت الذي كانت تصدر فيه الاوامر من قبل الخليفة مباشرة ، واثار عمله هذا غضب الخليفة ، فاراد تدارك الامر ، باسترضاء الخليفة المعتمد فارسل اليه سفيرا محملا بالهدايا سنة ٢٥٧هـ/٨٧٠م ، فاجابه المعتمد بسفارة مكونة من اخيه الموفق ولي عهده • مع مرافقين ثلاثة من كبار رجال ديوانه،وهم اسماعيل

ابن اسحق القاضي ، وابو سعيد الانصاري ، وطغتا وحمل الوفد امـــرا ليعقوب بولاية بلخ وطخارستان وفارس وكرمان وسيستان والسند ، وهي الاقاليم التي استولى عليها قبل وصول سفارة الخليفة اليه سنة٢٥٧هـ/٨٧٠م وتم استقبال الرسل واكرامهم ثم عادوا الى سامراء . وارسل الخليفة مـن جانبه سفارة اخرى قام بها اسماعيل بن اسحق القاضي ، لتهنئة يعقـوب بانتصاره على محمد بن واصل والقضاء على تمرده . وحمل السفير خلعة من الخليفة اليه ، الا ان يعقوب لم يكتف بما حققه فاتجه الى نيسابور فاحتلها دون موافقة الخليفة ، وارسل للمعتمد رسلا سنة ٢٥٩هـ/٨٧٢م يعلمه ذلك .

رفض الخليفة الاجتماع بسفراء يعقوب ، وكلف اخاه الموفق بهذه المهمة ، الذي اصطحب معه عبيدالله بن يحيى ، واجتمع بهم وأخبرهم « ان امير المؤمنين لايقار يعقوب على مافعل وانه يامره بالانصراف الى العمـل الذي ولاه اياه . وانه لم يكن له ان يفعل ذلك بغير امره فليرجع ، فانه ان فعل كان من الاولياء ، والا لم يكن له الا ما للمخالفين) ، وأرجع اليـه هداياه بصحبة سـفرائه .

لم يكترث يعقوب للخليفة ، وواصل بسط نفوذه على مناطق خراسان مما حدا بالمعتمد ان يصدر امرا سياسيا جديدا سنة ٢٦١هـ/٨٧٤م قرىء على الناس جاء فيه (ان السلطان لم يول يعقوب خراســان ، ويعلـن البراءة منــه ..)

ورغم تردي الاوضاع السياسية بين الخليفة ويعقوب ، فقد تجددت السفارات بينهما ، فأرسل يعقوب سفيره درهم بن نصر الذي عمل على استرضاء الخليفة الذي اصدر امرا بولاية المناطق السابقة ليعقوب ، وارسل اليه عمر بن سيما ومحمد بن تركشة برفقة سفيره ابن نصر لاخباره بقرار الخليفة الجديد ، فعاد السفراء يحملون جواب يعقوب (بأنه لا يرضى ما

كتب اليه دون ان يصير الى باب السلطان) متحديا اوامر الخليفة حين توجه بقواته نحو العراق لاحتلاله ، وأرسل بنفس الوقت رسولا الى المعتمد يطلب منه ان يصدر له منشورا (بحكومات خراسان وفارس وطبرستان وجرجان والري واذربيجان وقزوين وكرمان وسيستان والسند الى جانب شرطة بغداد وسامراء • كما طلب منه ان يصدر منشورا يبطل فيه خلعه له) لكن الخليفة لم يجبه على رسالته ، لما فيها من تعد صارخ وتدخل واضح في شؤون الخلافة والدولة •

وازاء هذا الوضع السياسي الخطير ، كان لابد للخليفة ان ينهض بمسؤولياته القومية والتاريخية للدفاع عن كرامة الخلافة والدولة ، فجهز حملة عسكرية قادها بنفسه وتوجه من سامراء قاصدا بغداد ، ثم تجاوزها الى واسط لمقابلة قوات يعقوب المعسكرة قريبا من المدينة ، ودارت وحى الحرب بينهما ، كانت نتيجتها انتصار الخليفة انتصارا كبيرا على يعقوب الذي انسحب بفلوله هاربا بمن بقي معه •

ومع هذا فقد ارسل المعتمد سفيرا جديدا ليعقوب يحذره من مغبة اقدامه على عمل عسكري جديد ، فجاء في رسالة الخليفة التي حملها السفير (انك لم تستفد من تلك المرة ، وتعد نفسك لحرب جديدة معنا ولم تتب عن مخالفتنا وقد رأيت في تلك المرة كمال قدرة الله ، واعجاز صاحب الرسالة ، فيجب ان تتوب عن مخالفتنا وتتوجه الى خراسان وتقنع بحكم تلك المملكة ••) واضاف الخليفة في رسالته قوله (لقد اصبح معلوما لدينا انك رجل ساذج غرر بك السذج ، ولم تتبصر عواقب الامر ، فهل رايت صنع الله فيك ؟ اذ اضاعك واضاع جيشك وحفظ اسرتنا ••• وقد علمنا انك افقت منها ، وندمت على عملك ، ورأينا ان امارة خراسان لا تليق باحد غيرك ولن نأمر بالمزيد عليها ••)

وحين قرأ يعقوب رسالة الخليفة بحضور السفير ، كتب له رسالة

يتحداه فيها وارسلها بيد السفير نفسه ، جاء فيها « انني صفار وقد تعلمت هذه الصنعة عن ابي وكان طعامي خبز الشعير والسمك والبصل والكراث ، وحصلت على هذا الملك والثروة والنعمة عن طريق العيارة والشجاعة ، وليست ميراثا عن ابي او عطاء منك ، وقد بلغ امري هذه الدرجة من الرفعة بقوة دولتي وشدة ساعدي ، وقد عقدت العزم على الا استريح حتى اقهر الخليفة ، فاذا مت فان الخليفة سيستريح من شري ، واذا تركت فراش المرض فان السيف يحكم بيني وبين الخليفة ، فاذا تحقق هدفي فيها ، والا فان الخبز الجاف وصنعة النحاس موجودتان .. فاما احقق ماقلت أو اعيش على خبز الشعير) .

ورغم المرض الذي الم بيعقوب الا انه لم يغفل حتى اللحظة الاخيرة ، من الانتقام من الخليفة ، واسقاط الخلافة العربية ، وتوجه فعلا بقواته يريد العراق ، لكنه مات في جنديسابور سنة ٢٦٥ هـ/ ٨٧٨ م .

لقد تغيرت العلاقات السياسية بموت يعقوب واستلام اخيه عمرو بن الليث الصفارى السلطة ، الذي حاول ان يقيم علاقات ودية مع الخليفة المعتمد ، فأرسل اليه سفيرا سنة٢٦٥هـ/٨٧٨م يحمل رسالة يقول فيها (انهسامع له مطيع) فوجه الخليفة اليه السفير احمد بن ابي الاصبغ يحمل العهد والعقد والخلع . واستمرت العلاقات هادئة حتى سقوط الصفارين سنة ٢٩٨هـ/٩١٠م بعد ان مرت امارتهم بفترة من الفوضى .

٨ ـ العلاقات الدبلوماسية مع الامارة الخوارزمية

ترجع العلاقات السياسية للدولة العربية مع الخوارزميين الى عصر الخليفة المسترشد بالله (٥١٢ ـ ٥٢٩هـ/١١١٨ ـ ١١٣٤م) اذ كانت الخلافة انذاك تمر بفترة تسلط النفوذ السلجوقي الذي سيطر على مقاليد الامور .

وقد حاول الخليفة رغم ذلك ، ان يقيم علاقات دبلوماسية ودية

مع الخوارزميين، فأرسل سفيرا الى خوارزمشاه اتسز سنة ٥٢٨هـ/١١٣٣م يحمل الهدايا والخلع في نفس الوقت الذي بدأ فيه التخلص من النفوذ السلجوقي الا ان قتل الخليفة المسترشد ثم الراشد بالله سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م أدى الى توقف تلك العلاقات .

وانتهز خوارزمشاه اتسز استلام المقتفي لامر الله الخلافة ، فسعى الى توثيق علاقاته السياسية به ، فارسل له خمس رسائل متتالية كتبها رشيدالدين كاتب الانشاء بالدولة الخوارزمية ، حملها سفراء توجهوا الى بغداد في اوقات متقاربة .

وقد كشفت هذه الرسائل جانبا مهما من العلاقات السياسية بين الجانبين متمثلة باعتراف الخوارزميين بسلطة الخليفة الشرعي ، فخاطبه في احداهــا « بسيدنا ومولانا امير المؤمنين وامام المسلمين وخليفة رب العالمين المقتفي لامر الله » واظهرفي الاخرى ولاءه وخدمته له . ويبدو ان خوارزمشاه ، جهد من خلال رسائله ، للحصول على مرسوم من الخليفة ، يعترف فيه بسلطانه ليكسب به صفته الشرعية « والعبد متطلع لورود الامثلة العالية ووصل الاوامر السامية ...) .

واستمرت العلاقات عى ماهي عليه ، زمن الخليفة المستنجد بالله ، فأرسل خوارزمشاه ايل ارسلان سفيرا للخليفة يهنئه بالخلافة ويعزيه بوفاة المقتفي ويعتذر عن عدم تمكنه من الحضور الى دار الخلافة لاداء المراسيم الخاصة واعلن برسالة اخرى ولاءه للخليفة واقامته الخطبة باسمه .

وعلى اثر انتصار خوازمشاه علاء الدين تكش على السلاجقة وانهاء وجودهم السياسي سنة ٥٦٠هـ/١١٩٣م ، أرسل الخايفة الناصر لدين الله وزيره مؤيدالدين بن القصاب ، يحمل الخلع السلطانية له لكن الوزير هرب حين علم ان خوارزمشاه ينوي القاء القبض عليه بتحريض ووشاية من اصحابه .

ويظهر ان الخوارزميين بدأوا يتطلعون الى الاستيلاء على السلطة والحد

من نفوذ الخليفة ، بعد انتصارهم على السلاجقة عن طريق وراثة ماكان للسلاجقة من نفوذ وسلطان في العراق ٠ فطالبوا الخليفة ان يقيم لهم الخطبة في بغداد ، وان يذكر اسماءهم الى جانب اسمه ، فيذكر السيوطي (ان خوارزمشاة ارسل رسولا للخليفة سنة٥٩٢هـ /١١٩٥م يطلب السلطة واعادة دار السلطنة الى ماكانت وان يجيء الى بغداد ويكون الخليفة تحت يده كما كانت الملوك السلجوقية) وهو الامر الذي رفضه الناصرلدين الله فادى هذا الرفض الى توتر العلاقات السياسية بين الجانبين ، وزادها تعقيدا وقوع صدامات عسكرية بين قواتهما في مناطق خراسان ٠

وبعد ان سيطر تكش على مناطق همدان والري واصفهان تظاهر بولائه للخليفة ، فارسل ابن اخيه سيف الدين سفيرا الى بغداد سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م لاعلان الطاعة للخليفة الناصر ، والاعتذار عما طلبه من الخطبة ، فاستقبله الخليفة واكرم مثواه وحمله هدايا كثيرة واذن له بالانصراف) ٠

ومرت العلاقات بفترة هدوء نسبي ، استمرت بعد وفاة تكش واستلام ابنه علاءالدين محمد الذي حكم بين سنوات (٥٩٦ـ٦١٧هـ/١١٩٩ـ١٢٢٠م) فاراد هذا تحسين علاقته بالخلافة العباسية ،بسبب المشاكل التي واجهته فارسل كما يذكر ابن الساعي وزيره ابن الاصباغي سنة٦٠٠هـ/١٢٠٣م للخليفة الناصر اكثر من مرةلهذاالغرض فاجابه الخليفة بارسال سفيره الشيخ فخرالدين بن الشيخ مجدالدين يحيى بن الربيع مدرس المدرسة النظامية سنة٦٠١هـ/١٢٠٤م اتبعه بسفير اخر هو ابن الاصيل نصر بن اسعد فرد عليه خوارزمشاه محمد بسفارة محمد بن عبدالكريم السمعاني الذي وصل بغداد سنة٦٠٢هـ/١٢٠٥م٠ فأوفد الخليفة العماد جبريل المصري سنة ٦٠٥هـ/١٢٠٨م سفيرا الى خوارزم فاستقبله خوارزمشاه محمد بالاكرام ٠ فلما رجع ارسل بصحبته سفيرا عنه ، وصل فاستقبله ابن امسينا نائب الوزارة وانزله بالمدرسة الثقتية بباب الازج ٠

غير ان العلاقات السياسية الهادئة بين الخلافة العباسية والخوارزميين

مالبثت ان تدهورت ، بسبب اطماع خوارزمشاه محمد وتطلعه للاستيلاء على بغداد ، بعد تخلصه من المشاكل التي اعترضت سبيله ، فيذكر ابن السبكي (ان علاء الدين خوارزمشاه محمد بن تكش ، تجبر وطغى وارسل الى الخليفة الناصر يقول له : كن معي كما كانت الخلفاء قبلك مع سلاطين السلجوقية ، فيكون امر بغداد والعراق لي ، ولا يكون لك الاالخطبة) يؤيد هذا القول ماذكر القاضي مجير الدين بن سعد الخوارزمي ، الذي قال(ان خوارزمشاه ارسله مرارا للخليفة الناصر بذلك وكان اخرها سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م الا أن الخليفة رفض اجابته لما طلب) وارسل بصحبته الشيخ شهاب الدين السهروردي رسولا مدافعا وواعظا وازعا،عماكان يلتمسه السلطان وتراجعت المراسلات في المعنى وتكررت فكانت غير مجدية) •

وبعد فشل المحادثات ، توجه خوارزمشاه محمد بقواته لغزو بغداد سنة ٦١٤هـ /١٢١٧م ، فاستعد الخليفة الناصر له وارسل له السفير الشهاب السهروردي لعله يتمكن من اقناع خوارزمشاه بالعدول عن اطماعه ،يقول الشهاب عن سفارته (دخلت على محمد خوارزمشاه فسلمت فلم يرد السلام ولا أمرني بالجلوس ، فشرعت فخطبت خطبة بليغة ، ذكرت فيها فضل بني العباس، ووصفت الخليفة بالزهد والورع والتقى والدين) والترجمان يعيد عليه قولي فلما فرغت • قال للترجمان : قل له هذا الذي تصفه ماهو في بغداد ، بل انا أجيء واقيم الخليفة ، ويكون بهذه الاوصاف ، ثم ردنا بغير جواب) وادى سوء الاحوال الجوية الى فشل الغزو ، ورجوع خوارزمشاه الى خراسان ، وامر بقطع الخطبة للخليفة الناصر في مناطق خراسان وبلاد ماوراء النهر سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م •

وسار خوارزمشاه جلال الدين منكبرتي(٦١٧-٦٢٨هـ/١٢٢٠-١٢٣٠م على سياسة ابيه العدوانية تجاه الخلافة،فحاول عقد حلف مع الايوبيين لاسقاطها، لكن الايوبيين رفضوا التعاون معه ضد الخليفة،فحاول ان يسقطها بنفسه عن طريق

العدوان العسكري ، فجهز حملة عسكرية واتجه لاحتلال بغداد ، فوصل الى بعقوبا ، لكنه اضطر للانسحاب بسبب تصدي قوات العراق له •

وحاول منكبرتي بعد هزيمته مصالحة الخليفة ، فارسل اليه السفير ضياء الملك علاءالدين محمد بن مودود ، فتمكن هذا من عقد صلح مع الخليفة الناصر سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م •

بعد هذه المعاهدة ، استمرت العلاقات السياسية تسير بالاتجاه الهادىء فتبادل الخليفة الظاهر بامر الله السفراء مع منكبرتي ، فارسل له سفيرين هما نجم‌الدين الرازي وركن‌الدين بن عطاف لتوثيق معاهدة الصداقة السابقة، على ان يعود الرازي مع السفراء الذين يرسلهم جلال الدين ، فعاد بصحبة القاضي مجيرالدين سفيرا عن السلطان وهو يحمل الهدايا ، فأستقبله الخليفة•

وطرأ على العلاقات السياسية جوا مشوبا بالتوتر بعد وفاة الخليفة الظاهر، الا ان الخليفة المستنصربالله (٦٢٣ــ٦٤٠هـ/١٢٢٦م ــ١٢٤٢م) تمكن من تصفيتها سنة /١٢٢٨م على يد سفيره سعدالدين الحاجب ،الذي استطاع عقد معاهدة صلح جديدة ، كان من شروطها الايتعرض جلال‌الدين لبدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل ، ومظفر الدين كوكبري صاحب اربيل وعماد الدين بهلوان ملك الجبال باعتبارهم اتباع الخليفة • وارسل جلال‌الدين سفيرا للخليفة هو بدرالدين طوحق بن اينانج خان لاخباره بموافقته على شروط المعاهدة ، فاستقبله المستنصربالله وارسل معه الهدايا الكثيرة سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م،بصحبة سفارة من ثلاثة سفراء هم فخر الدين ابو طالب احمد بن الدامغاني والشيخ ابو البركات عبدالرحمن بن شيخ الشيوخ ، والامير فلك‌الدين محمد بن سنقر الطويل ومعهم سعد الدين حسن بن الحاجب يحملون تشريفات وكراعا ولباس الفتوة •

واستمر تردد السفراء بين الجانبين ، فوصل الى بغداد سفراء جلال لدين نهاية سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م وهم نجم‌الدين اوداك أمير اخور وجمال‌الدين

علي العراقي يحملون هدايا للخليفة • رد عليها المستنصر بسفارة محيي الدين بن الجوزي ، وسعدالدين بن الحاجب ، وسارت العلاقات بهذا الاتجاه ، حتى سقوط الخوارزميين على يد الغزاة التتر سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م الذين بدأوا يتطلعون لاحتلال وغزو المناطق الاخرى الواقعة الى الغرب باتجاه العراق•

٩ ـ العلاقات الدبلوماسية مع التتر والمؤامرة وسقوط بغداد

ظهر التتر على مسرح الاحداث السياسية سنة ٦٠٦هـ /١٢٠٩م بزعامة جنكزخان كقوة عسكرية ، حاولت ان تخضع العالم لسيطرتها بالقوة ، فاتجهت من بلاد الصين نحو الاقاليم الغربية • فاستولت على بلاد ماوراء النهر سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م وتقدمت لاكتساح المناطق الاخرى بهمجية لم يشهد التاريخ لها مثيلا •

وقد ادى ظهور هذه القوة على المسرح السياسي ، الى نشوء علاقات سياسية لهذه الجماعة ، مع الدول المعاصرة لها • ومنها الدولة العربية •

وقد رغبت الدولة العربية في اقامة علاقات سياسية طيبة مع التتر وجاءت هذه الرغبة من قبل الخليفة الناصرلدين الله ، فارسل سفيرا عنه لجنكزخان، وكان وصول السفير في وقت كان جنكزخان يوقع فيه معاهدة صلح مع خوارزمشاه محمد ، ولهذا (لم يلتفت لسفير الخليفة واظهر طرده) فتوقفت بذلك الاتصالات بينهما حتى وفاة جنكزخان•

وبعد استلام اوكتاي السلطة سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م ، قامت قواته بشن هجوم على العراق سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م • الا انها فشلت في السيطرة على اربيل وسامراء وخانقين ، وعلى اثر هذا الفشل ، اوفد التتر سفيرا لهم للخليفة المستنصر بالله لعقد صلح مع الخلافة • فوصل السفير بغداد في ربيع الاخر سنة ٦٣٦هـ كانون الثاني ١٢٣٩م فاستقبله الخليفة وارسل بصحبته السفير جعفر بن محمد بن عباس البطائحي ، لاجراء مزيد من المباحثات • فعاد سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م دون نتيجة •

وحاول التتر غزو بغداد سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م ، لكن فشلهم في تحقيق هدفهم،جعلهم يعاودن اتصالاتهم الدبلوماسية بالخليفة فاوفدوا له سفيرا وصل بغداد سنة٦٤٣هـ/١٢٤٥م ،فارسل المستعصم بصحبته سفيرين هما القاضي ابن عبدالرشيد فخر الدين ابو منصور نصر الله ، وفلك الدين بكش امير اخور ، اتبعها بسفارة برئاسة فخرالدين قاضيالقضاة ، لحضور مجلـــس القوريلتاي الذي عقده التتر سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م، وتم فيه انتخاب كيوك زعيما جديدا لهم • وهذا بدوره اجتمع بالسفير العربي ووجه له (خطاب واعد وموعد بل واعظ منذر)معلنا بدء نواياه العدوانية تجاه الدولة العربية • تلك السياسة التي نفذها مانكو بعد انتخابه خلفا لكيوك من قبل مجلس القوريلتاى سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م فأوكل هذا أمر احتلال العراق والشام ومصر الى هولاكو موصيا اياه (••• امـــا من يعصيك ، فاغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه وابنائه واقاربه وكل مايتعلق به وابدأ بأقليمقهستانفي خراسان، فخرب القلاع والحصون فاذا فرغت من هذه المهمة فتوجه الى العراق ، وازل في طريقك الاكراد ••• واذا بادر خليفة بغداد بتقديم الطاعة وفروض الطاعة، فلا تتعرض له ، اما اذا تكبر وعصى فالحقه بالاخرين من الهالكين •••)

وبهذا كشف التتر وبشكل سافر نواياهم العدوانية تجاه العراق وصولا لاحتلاله • وتسهيلا لمهمتهم هذه ، اتصلوا بالعناصر الحاقدة على العروبـــة والاسلام ، فكان الوزير مؤيد الدين بن العلقمي اول هؤلاء الخونة اذ لعب دورا سياسيا تآمريا على الامة والدولة في المرحلة التالية •

واستغل هولاكو ايضا ، سفراءه الموفدين الى بغداد لمراقبة الاوضاع السياسية والاتصال بعملائهم والحصول على معلومات عسكرية وامنية تسهل غزوهم البلاد • وحاول في الوقت ذاته تجريد الخليفة المستعصم من قوته العسكرية ، بابعادها الى منطقة اخرى ، فارسل اليه سفيرا يطلب منه ان يرسل

تلك القوات لتساعده في القضاء على الاسماعيلية (٦٥١ـ٦٥٥هـ / ١٢٥٣ ـ ١٢٥٧م) ، الا ان الخليفة رفض هذا الطلب ٠

وفي خضم تلك الاحداث برزت شخصية خيانية اخرى تمثلت في الخواجة نصير الدين الطوسي ، الذي يقول عنه رشيد الدين فضل الله (انه وجماعة اخرين قد مالوا الى هولاكو خان الى اقصى حد ، ومن قبل كانوا يرغبون في ذلك ، فصاروا يتشاورون سرا لكي يجعلوا هذا الملك يخضع لهولاكو على الوجه الاحسن والطريق الاسهل ٠٠٠) ٠

وبهذا بدات خيوط المؤامرة على الدولة العربية ، تتظافر لانهائها فبعد القضاء على الاسماعيلية ، وجه هولاكو جواسيسه الى بغداد في مهمة خطيرة ، يقول عنها المقريزي (ان جواسيس هولاكو وصلت سنة ٦٥٤هـ ، الى الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي ببغداد ، وتحدثوا معه ، ووعدوا جماعة من امراء بغداد بعدة مواعيد ٠٠٠) ٠

ومن المؤكد ان هؤلاء الجواسيس ، ارسلوا في مهمة ذات اهداف معينة ، ولابد ان يكون ابن العلقمي ، وهو ثاني رجل مسؤول في الدولة قد افشى اسرارها العسكرية ، ونقاط الضعف فيها ، أثناء اجتماعه السري بهم ، اذ من غير المعقول ان يرسل جواسيس لغير هذا الهدف ، كما ان وصولهم ايضا ، لم يكن محض صدفة ٠ فالروايات التاريخية تشير بوضوح الى اتصالات سابقة مهدت لذلك ، فيذكر ابن كثير « ان الوزير ابن العلقمي كاتب التتار ، واطمعهم في اخذ البلاد ، وسهل عليهم ذلك ، وحكى لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال) ، وكشف ابن كثير ايضا خيانة الوزير عمليا فقال (كان ابن العلقمي يجتهد في صرف الجيوش واسقاط اسمهم من الديوان) فكانت العساكر في اخر ايام المستنصر قريبا من مائة الف مقاتل، فلم يزل يجتهد في تقليلهم الى ان لم يبق سوى عشرة الاف مقاتل) واردف قائلا (ان ابن

العلقمي مالأ التتار ، وانه دبر على الاسلام واهله ماوقع من الامر الفظيع الذي لم يؤرخ ابشع منه منذ بنيت بغداد) .

ويؤكد الذهبي هذه الحقيقة فيقول (ان ابن العلقمي قرر في سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ازالة دولة بني العباس .. فاخذ يكاتب التتار ويراسلونه) وقد اطلق الذهبي على ابن العلقمي بالوزير المدبر المبير لخيانته العظمى .ويؤيد ابن الوردي خيانة الوزير فيقول (واخذ ابن العلقمي يكاتب التتر ويراسلونه ويشجعهم على احتلال بغداد) . ويذكر السيوطي ايضا (ان الوزير كان حريصا على أزالة الدولة العباسية ... والرسل في السر بينه وبين التتر) . (انه كاتب التتار ، واطمعهم في البلاد وسهل عليهم ذلك ، وطلب ان يكون نائبهم ، فوعدوه بذلك ، وتأهبوا لقصد بغداد) . ويقول ابو الفدا (ان ابن العلقمي ارسل اخاه الى التتر يستدعيهم الى بغداد : فساروا اليها ..) .

ان حقيقة خيانة الوزير ابن العلقمي للدولة العربية انعشت آمال هولاكو وشجعته على احتلال بغداد ، وجعلته يتخذ موقفا سياسيا اكثر عدوانية من السابق ، فبعد وصوله همدان ، ارسل للخليفة رسولا يتهدده ويتوعده ، فوصل السفير بغداد سنة٦٥٥هـ/١٢٥٧م يحمل رسالة التهديد التي جاء فيها (لقد ارسلت اليك رسلنا وقت فتح قلاع الملاحدة الاسماعيلية وطلبنا مددا من الجند ، ولكنك اظهرت الطاعة ، ولم تبعث الجند ، وكانت آية الطاعة والاتحاد ان تمدنا بالجيش عند مسيرنا الى الطغاة فلم ترسل الينا الجند ، والتمست العذر ... والان نقول لك : احذر الحقد والخصام وحينما اقود الجيش الى بغدد مندفعا بسورة الغضب ، فانك اذا كنت مختفيا في السماء او في الارض ، فسوف انزلك من الفلك الدوار . ولن ادع حيا في مملكتك ، وسأجعل مدينتك واقليمك واراضيك طعمة للنار ...) .

فرد عليه الخليفة المستعصم برسالة حملها اليه السفير شرف الدين ابن الجوزي سنة٦٥٥هـ/١٢٥٧م مع مساعديه، بدر الدين محمود وزنكي التحجواني

والتي ورد فيها (ايها الشاب الحدث .. التمني قصر العمر ، ومن ظـن نفسه محيطا ومتغلبا على جميع العالم ، مغترا بيومين من الاقبال ، متوهما ان امره قضاء مبرم وامر محكم ، لماذا تطلب مني شيئا لم تجده عندي .. واذا كنت مثلي تزرع بذور المحبة فما شأنك بخنادق رعيتي وحصونهم ، فأسلك طريق الود وعد الى خراسان ...) فاجابه هولاكو برسالة شديدة ، ارسلها بيد سفراء الخليفة ، يقول فيها (ان في اذنيك وقرا ، فلا تسمع نصح المشفقين ولقد انحرفت عن طريق ابائك واجدادك ، واذن فعليك ان تكون مستعـدا للحرب والقتال ، فاني متوجه الى بغداد بجيش كالنمل والجراد ..)

اراد الخليفة دفع الامر بالطرق السلمية ، فارسل لهولاكو السفيـــر بدر الدين دريكي قاضي بندنيجان مع هدية ورسالة ، لكن هولاكو رفض الهدية وهدد السفير والخليفة واصر على العدوان . وتوجه بقواته نحو العراق فحذره منجمه حسام الدين من مغبة عمله لان الوقت في غير صالحه ، وان حوادث خطيرة ستقع له ان هو قصد بغداد . وهنا برز دور الخواجة نصير الدين الطوسي التآمري ، فحسن لهولاكو غزو بغداد ، فيقول رشيد الدين : ان الطوسي اخبر هولاكو بعدم حصول شيء او واقعة من التي ذكرها حسام الدين المنجم . ويذكر ابن الوردي ان الطوسي اصدر فتوى شرعية لهولاكو بعدم وجود موانع شرعية من احتلال بغداد) . (وان هولاكو خان سيحل محل الخليفة) . وبذلك تكاملت فصول الغزو ، بخيانة الوزير ابن العلقمي وتآمر الخواجة نصير الدين الطوسي بعد فشـل كل الوساطات والسفارات التـي ارسلها الخليفة لهولاكو اثناء زحفه نحو بغداد على يد السفراء ابن الجوزي وفخرالدين الدامغاني وعبدالغني الحاجب .

وصل هولاكو ومعه الخواجة الطوسي الى بغداد ، فضرب عليها الحصار في ١١ محرم سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م ، وتحت وطأة هذا الحصار ، مارس ابن العلقمي اخر ادواره الخيانية بمساندة الطوسي ومعاونته فيذكر الذهبي (ان ابن

العلقمي غرر بالخليفة : فاخبره انه سيذهب للقاء التتر وتقرير الصلح معهم فلما رجع خدع الخليفة) ويقول ابن الفوطي (ان ابن العلقمي خرج في ١٤ محرم الى خدمة السلطان في جماعة من مماليكه واتباعه وكانوا ينهون الناس عن القتال ويقولون سوف يقع الصلح فلا تحاربوا) لتثبيط عزم المقاتلين العرب . ويذكر الصفدي (ان ابن العلقمي سعى في دمار الاسلام ، وخراب بغداد ، واخذ يكاتب التتر الى ان جرّ هولاكو وجرأه على اخذ بغداد . وقرر معه امورا انعكست عليه) فأوهم الخليفة بان الصلح واقع لامحالة . وماعليه الا الخروج لهولاكو لتقريره ، في الوقت الذي حذر فيه الطوسي وابن العلقمي هولاكو من عقد صلح مع الخليفة المستعصم . فيقول ابن كثير (ان نصير الدين الطوسي وابن العلقمي اشارا على هولاكو ان لا يصالح الخليفة ، وقال الوزير : متى وقع الصلح فأنه لا يستمر الا عاما او عامين ثم يعود الى ماكان عليه قبل ذلك . وحسنوا له قتل الخليفة ، وان الذي اشار بقتله ، الوزير ابن العلقمي والمولى نصيرالدين الطوسي) .فتم قتل الخليفة واولاده واتباعه وكبار موظفي الدولة من قضاة وولاة وغيرهم ، ثم اقتحموا بغداد في السابع من صفر ، وباشروا بالقتل العام والنهب ، (ولم ينهبوا دار ابن العلقمي) عميلهم وبذلك انهوا الخلافة العربية ، ودمروا حضارة بغداد التي خدمت الانسانية قرونا عديدة .

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ ابن الاثير : ابو الحسن علي بن ابي الكرم الشيباني (ت ٦٣٠هـ) الكامل في التاريخ : طبعة بيروت سنة١٩٧٨م
أسد الغابة في معرفة الصحابة ، طبعة مصر .

٣ ـ بامات : حيدر
مجالي الاسلام : ترجمة عادل زعيتر ، طبع القاهرة سنة ١٩٥٦م .

٤ ـ بارتولد : فاسيلي فلاديمير وفيج
دراسات في تاريخ فلسطين في العصور الوسطى ترجمة عزيز حداد سلسلة دراسات فلسطينية ، طبعة بغداد سنة ١٩٧٣م .
تركستان من الفتح العربي حتى الغزو المغولي ، نقله للعربية صلاح الدين عثمان . طبعة الكويت ١٩٨١ .
رسالة من رومية الى بغداد ، مجلة المقتطف سنة١٩٣٢م .

٥ ـ البيهقي : ابو الفضل محمد بن حسين (٤٧٠هـ)
تاريخ بيهق ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت ، طبعة مصر .

٦ ـ الجهشياري : ابو عبدالله محمد بن عبدوس الكوفي(ت٣٣١هـ) الوزراء والكتاب : تحقيق مصطفى السقا وجماعته طبعة مصر ١٩٣٨م

٧ ـ ابن الجوزي : ابو الفرج عبدالرحمن بن علي (ت٥٩٧هـ) المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، طبع حيدر اباد الدكن سنة ١٣٥٧ هـ .

٨ ـ حسن : د . زكي محمد
الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، طبعة بيروت سنة ١٩٨١ م

٩ ـ حمدي : حافظ احمد
الدولة الخوارزمية والمغول ، طبعة مصر سنة ١٩٤٩م .

١٠ـ الحنبلي : ابو الفلاح عبدالحي بن عماد (ت١٠٨٩هـ)
شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، طبع القاهرة سنة ١٣٥١هـ

١١ـ الحيدر ابادي : د . محمد حميد الله
مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة
طبع القاهرة سنة ١٩٤١م .
١٢ـ الخطيب البغدادي : ابو بكر احمد بن علي الخطيب (ت٤٦٣هـ)
تاريخ بغداد او مدينة السلام ، طبعة بيروت .
١٣ـ خصباك : جعفر حسين
العراق في عهد المغول الايلخانيين ، طبع بغداد سنة ١٩٦٨ .
١٤ـ خليفة بن خياط : ابو عمر الليثي (ت ٢٤٠هـ)
تاريخ خليفة ، تحقيق اكرم العمري ، طبع بغداد سنة١٩٦٧م .
١٥ـ خليفة : حسن
الدولة العباسية ، قيامها وسقوطها ، طبعة مصر .
١٦ـ ابن دحية : ابو الخطاب عمر بن حسن بن علي (ت٦٣٣هـ) النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ، تحقيق عباس العزاوي المحامي طبع بغداد سنة ١٩٤٦م .
١٧ـ الزبير : بن بكار (٢٥٦ هـ)
الاخبار الموفقيات تحقيق د . سامي مكي طبع بغداد سنة ١٩٧٢م .
١٨ـ الازدي : ابو زكريا يزيد بن محمد (ت ٣٣٤هـ)
تاريخ الموصل ، تحقيق د . علي حبيبة ، طبع القاهرة سنة ١٩٦٧م
١٩ـ ابن الساعي : ابو طالب علي بن انجب تاج الدين ابن الساعي (ت٦٧٤هـ)
الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير ، نشر مصطفى جواد طبع بغداد سنة ١٩٣٤
مختصر اخبار الخلفاء ، طبعة مصر سنة١٣٠٩هـ
٢٠ـ السامر : د . فيصل
السفارات العربية الى الصين في العصور الوسطى الاسلامية ـ مجلة الجامعة المستنصرية سنة ١٩٧١ م .
٢١ـ الصابي : ابوالحسين هلال (ت٤٤٨هـ)
تاريخ الامراء والوزراء طبعة قديمة
٢٢ـ السيوطي : جلال الدين عبدالرحمن (ت ٩١١ هـ) تاريخ الخلفاء . تحقيق محمد محيي الدين . طبعة مصر ١٩٦٤ .
٢٣ـ الصفدي : صلاح الدين خليل بن ايبك .
الوافي بالوفيات ، باعتناء س. ديدرينغ ، طبعة دمشق سنة ١٩٥٣م.
٢٤ـ الصيني : بدرالدين حي
العلاقات بين العرب والصين ، طبعة مصر سنة١٩٥٠م.
٢٥ـ الطبري : ابوجعفر محمد بن جرير (٣١٠هـ)
تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابو الفضل ، طبعة مصر سنة ١٩٦٩م

٢٦ـ ابن الطقطقي : محمد بن علي بن طباطبا (ت٧٠٩هـ) الفخري في الاداب السلطانية ، طبعة سنة ١٩٦٢م
٢٧ـ ابن طيفور : ابو الفضل احمد بن ابي طاهر (ت٢٨٠هـ)
كتاب بغداد ، طبع القاهرة سنة١٩٤٩م.
٢٨ـ ظهيرالدين : ابو شجاع محمد بن الحسين الوزير (ت٤٨٨هـ) ذيل تجارب الامم ، تصحيح هـ . ف. امدروز طبع مصر سنة ١٩١٦م).
٢٩ـ ابن عبد ربه : ابو عمر احمد بن محمد الاندلسي (ت٣٢٧هـ)
العقد الفريد : تحقيق احمد امين وجماعته ، طبع القاهرة سنة ١٩٦٥ م .
٣٠ـ العدوى : د. ابراهيم احمد
السفارات ألاسلامية الى اوربا في العصور الوسطى ، طبع مصر سلسلة اقرأ العدد ١٧٩ نوفمبر سنة١٩٥٧م .
٣١ـ العبود : نافع
الدولة الخوارزمية ، طبع بغداد سنة ١٩٧٨ م .
٣٢ـ العزاوي : عباس المحامي
العراق بين احتلالين ، طبعة بغداد سنة ١٩٣٥م .
٣٣ـ عنان : محمد عبدالله
السفارات الخلافية والسلطانية ، مجلة الرسالة عدد مارس وعدد مايس سنة ١٩٣٥ .
مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، طبعة مصر سنة ١٩٥٢ م
٣٤ـ ابو الفدا : الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل (ت٧٣٢هـ)
المختصر في اخبار البشر ، طبعة مصر
٣٥ـ ابن الفراء : ابوعلي الحسين بن محمد
رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ، تحقيق صلاح الدين المنجد، طبعة القاهرة سنة ١٩٤٧م .
٣٦ـ ابن فضلان : احمد بن فضلان بن العباس بن راشد
رسالة ابن فضلان ، تحقيق سامي الدهان ، طبعة دمشق ١٩٧٨م .
٣٧ـ ابن الفقيه : ابوبكر احمد بن ابراهيم الهمداني (ق٣هـ)
مختصر كتاب البلدان ، طبعة بريل سنة ١٨٨٥م .
٣٨ـ ابن الفوطي : كمال الدين ابو الفضل عبدالرزاق بن الفوطي البغدادي (٧٢٣هـ) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة طبع بغداد (١٣٥١ هـ) .
٣٩ـ القلقشندي : ابوالعباس احمد بن علي (ت ٨٢١هـ)
صبح الاعشى ، طبعة القاهرة سنة ١٩١٥م .

٤٠ـ ابن كثير : عمادالدين ابوالفدا اسماعيل بن عمر القرشي (ت٧٧٤هـ)
البداية والنهاية ، طبعة مصر .
٤١ـ متز : ادم
الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، نقله للعربية ابوريده، طبع القاهرة سنة١٩٥٧م .
٤٢ـ المقريزي : تقي الدين احمد بن علي (ت٨٤٥هـ)
الخطط ، طبعة مصر سنة ١٣٢٥هـ .
السلوك لمعرفة دول الملوك ، تصحيح محمد مصطفى زيادة ، طبع القاهرة سنة ١٩٣٤م .
٤٣ـ المسعودي : ابو الحسن علي بن الحسين (ت٣٤٦هـ)
التنبيه والاشراف تصحيح عبدالله الصاوي طبع القاهرة سنة ١٩٣٨م
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيي الدين . طبعه القاهرة سنة ١٩٦٧ م .
٤٤ـ ابن مسكويه : ابو علي احمد بن محمد
تجارب الامم ، تصحيح هـ . ف . امدروز طبعة مصر سنة ١٩١٤م
٤٥ـ ابن النديم : محمد بن اسحق (ت٣٨٥هـ) .
الفهرست ، طبعة مصر .
٤٦ـ النسوي : محمد بن احمد
سيرة السلطان جلال‌الدين منكبرتي ، تحقيق حافظ مهدي . طبعة مصر سنة ١٩٥٣ م .
طبعة مصر سنة ١٩٥٣م .
٤٧ـ نورمان: بينز
الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة حسين مؤنس ومحمود يوسف طبعة القاهرة سنة١٩٥٠م .
٤٨ـ الهمداني : رشيدالدين فضل الله
جامع التواريخ ، تعريب محمد صادق وجماعته ، طبع مصر ،
٤٩ـ ابن هشام : ابو محمد عبدالملك بن هشام المعافري (ت ٢١٨ هـ)
السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وجماعته طبعة مصر سنة١٩٥٥م
٥٠ـ ابن الوردي : زين‌الدين عمربن‌مظفر (ت٧٤٩هـ)
تاريخ ابن الوردي ، طبعة بغداد ١٩٦٩م
٥١ـ اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب (ت٢٩٢هـ)
تاريخ اليعقوبي ، تعليق محمد صادق بحرالعلوم طبعة النجف سنة١٩٦٤.
٥٢ـ ابو يوسف : يعقوب بن ابراهيم القاضي (ت١٨٢هـ)
كتاب الخراج ، طبعة بيروت سنة ١٩٧٩م .

المحتوى

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ـ بغـداد
(١٤٩٣) لســـنة ١٩٨٥

دار الحرية للطباعة ــ بغــداد
١٤٠٦ هـ ــ ١٩٨٥ م